العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

دروس في عقائد الإمامية

الشيخ حسن الكاشاني

إصدارات معهد تراث الأنبياء للدراسات الحوزوية الالكترونية

العتبة العباسية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

دروس في عقائد الإمامية

تأليف

الشيخ حسن الكاشاني

إصدارات

معهد تراث الأنبياء عليهم السلام للدراسات الحوزوية الألكترونية

قسم الشؤون الفكرية والثقافية
www.alkafeel.net
info@alkafeel.net
nashra@alkafeel.net

كربلاء المقدسة

ص.ب (٢٣٣)

هاتف:٣٢٢٦٠٠، داخلي: ١٧٥-١٦٣

الكتاب: دروس في عقائد الإمامية.

تأليف: الشيخ حسن الكاشاني.

الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة، معهد تراث الأنبياء للدراسات الحوزوية الإلكترونية.

تحت اشراف وتدقيق: اللجنة العلمية لمعهد تراث الأنبياء للدراسات الحوزوية الإلكترونية

الاخراج الطباعي: علاء سعيد الاسدي.

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر.

الطبعة: الأولى.

عدد النسخ: ٥٠٠.

ربيع الثاني ١٤٤٣هـ-تشرين الثاني ٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعهد

معهد تراث الأنبياء، مؤسَّسة علمية حوزوية تُدرِّس المناهج الدِّينية المعَدَّة لطُلّاب الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

الدراسة فيه عن طريق الانترنيت وليست مباشرة.

يساهم المعهد في نشر وترويج المعارف الإسلاميَّة وعلوم آل البيت عليهم السلام ووصولها إلىٰ أوسع شريحة ممكنة من المجتمع، وذلك من خلال توفير المواقع والتطبيقات الإلكترونية التي يقوم بإنتاجها كادر متخصِّص من المبرمجين والمصمِّمين في مجال برمجة وتصميم المواقع الإلكترونية والتطبيقات علىٰ أجهزة الحاسوب والهواتف الذكيَّة.

وبالنظر للحاجة الفعلية في مجال التبليغ الإسلامي النسوي فقد أخذ المعهد علىٰ عاتقه تأسيس جامعة متخصِّصة في هذا المجال، فتمَّ إنشاء جامعة أُمِّ البنين عليها السلام الإلكترونية لتلبية حاجة المجتمع وملء الفراغ في الساحة الإسلاميَّة لإعداد مبلِّغات رساليّات قادرات علىٰ إيصال الخطاب الإسلامي بطريقة علمية بعيدة عن الارتجال في العمل التبليغي، بالإضافة إلى فتح التخصصات العقائدية والفقهية والقرآنية.

على أنَّ المعهد لم يُهمِل الجانب الإعلامي، فبادر إلىٰ إنشاء مركز القمر للإعلام الرقمي، الذي يعمل علىٰ تقوية المحتوىٰ الإيجابي علىٰ شبكة الانترنيت ووسائل الإعلام الاجتماعي، حيث يكون هذا المحتوى موجَّهاً لإيصال فكر أهل البيت عليهم السلام وتوجيهات

المرجعية الدِّينية العليا إلىٰ نطاق واسع من الشرائح المجتمعية المختلفة وبأحدث تقنيات الإنتاج الرقمي وبأساليب خطابية تناسب المتلقّي العصري.

والمعهد يقوم بطباعة ونشر الإنتاج الفكري والعلمي لطلبة العلم، ضمن سلسلة من الإصدارات في مختلف العناوين العقائدية والفقهية والأخلاقية، التي تهدف إلىٰ ترسيخ العقيدة والفكر والأخلاق، بأُسلوب بعيد عن التعقيد، يستقي معلوماته من مدرسة أهل البيت عليهم السلام الموروثة.

ومن ضمن ما يهدف المعهد إلى طباعته، هي الكتب التي يكتبها المحققون من الأساتذة وطلبة العلم الكرام في الحوزة العلمية المباركة، والكتاب الذي بين يديكم، لمؤلفه سماحة الشيخ حسن الكاشاني، وقد تعرض سماحته فيه إلى دروس منهجية علمية في عقائد الإمامية بأسلوب علمي رصين، وبيان رائع، فجزاه الله تعالى خير ما يجزي به عباده الصالحين، وجعله ذخراً له يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

نسأل الله~ أن يجعل عملنا في عينه، وأن يتقبَّله بقبوله الحسن، إنَّه سميع مجيب.

إدارة المعهد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله المعروف من غير رُؤيَة والخالق من غير رَويَّة، الذي كلّت عن إدراكه طروف العيون وقصُرت دون بلوغ صفته أوهام الخلائق، قد بَطن من خفيات الأُمور وظهر في العقول بما يُرى في خلقه من علامات التدبير، الذي سُئِلَت الأنبياءُ عنه فلم تَصفه بِحَدٍّ ولا بنقص، بل وَصَفَته بأفعاله ودلَّت عليه بآياته.

و شرائف صلوات الله ونوامي بركاته على محمّد عبده ورسوله، الخاتم لما سبق والفاتح لما استُقبل، الذي ابتعثه بالنور المُضيء والبرهان الجلي، والمنهاج البادي، والكتاب الهادي، إزاحةً للشبهات واحتجاجاً بالبينات، وعلى أهل بيته الذين جعلهم أساس الدين وعماد اليقين، مَوضع سرِه ولَجَأُ أمره وعَيبَةُ علمه وموئل حُكمِه وكُهوف كُتبه وجِبالُ دينه، بهم أقام انحناءَ ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه.

ولاسيما على بقية الله التي لاتخلو منه الأرض، القائم لله بحججه، لئلا تبطل حججه وبيناته، وستُخرج له الأرض أفاليذ كبدها، وتُلقي إليه سِلماً مقاليدها، فيُحيي مَيْتَ الكتاب والسنة، ويُري الناس كيف عدل السيرة.

و لعنة الله ولعنة اللاعنين على أعدائهم الذين زرعوا الفجور، وسقوه الغرور،

وحصدوا الثبور.(١)

وبعد..

لم يختلف اثنان في أهمية العقيدة ضمن منظومة الدين الذي دعى إليه الأنبياء صلوات الله عليهم، فإنّ دعوتهم قامت على عقيدة التوحيد وخلع الأنداد ومعرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله، وعدله ورحمته، ومن ثَمَّ معرفة أنبيائه وحُجَجِه وتمييزهم عن غيرهم من المدّعين، وأنّ عاقبةَ الأرض للمتقين وكذا المعاد والبعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك مما يَتقوَّم به الإيمان، ثم أتت بعد ذلك تعاليمهم الأخلاقية وما يرتبط بأفعال المكلّفين من الحلال والحرام.

ومن هنا كانت جهود الأنبياء - لاسيما النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وأوصيائه المعصومين عليهم السلام - مركّزة أولاً في دعوة الناس إلى العقيدة والإيمان بالحكمة والبرهان والبصيرة والنور والهدى والتبيان والفرقان، وثانياً في سائر مسائل الدين التي تتلوها في الأهمية.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُه**».(٢)

وقال أبو عبد الله عليه السلام لعبَّاد بن كثير البَصري الصّوفيّ: «**وَيْحَكَ يَا عَبَّادُ! غَرَّكَ أَنْ عَفَّ بَطْنُكَ وفَرْجُكَ؟! إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ﴾ اعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنْكَ شَيْئاً حَتَّى تَقُولَ قَوْلًا عَدْلًا**».(٣)

فلا دينَ دون العقيدة الصحيحة، ولا مناص للمتديّن أو من يحاول التفقّه في الدين،

---

(١) أقتبست هذه الخطبة من مواضع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة مع شيء من التغيير.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

(٣) الكافي: ٨ / ١٠٧.

أو التصدّي لتبليغ رسالات الله التي جاء بها الأنبياء، من أن يهتمّ بالشأن العقائدي تفقّهاً وتفهّماً، فإنّه الفقه الأكبر، وقد تصدّى الله تعالى والنبي والأئمة لذلك، فشغل مساحة كبيرة من آيات القرآن وكلمات النبي والعترة، فلايعذر التغافل أو التغاضي عنه.

هذا الكتاب

هنالك الكثير من التأليفات في مختلف المسائل العقدية، كلّ واحد منها امتاز في جهة بَرَزَ فيها، أو تميّز عن غيره في منهجية المؤلّف لطرح المسائل الاعتقادية، لكنّ الذي يُلاحَظ فراغُه - بالمستوى المطلوب - في مكتبتنا العقائدية، هو المنهج الدراسي في العقائد بما يلبّي تحديات العصر، وقبل ذلك لاتخرج المادة العلميّة عن منهج القرآن والعترة في فقه العقائد، بعيداً عن التكلّفات والتشرذمات والتمنهجات، والكلّ يعلم أنّه ليس من مواصفات الكتاب المنهجي أن يكون متقناً في مادته العلمية فقط، بل لابدّ من توفّر جهات أخرى تجعل المادة العلمية جاهزة للتعليم والتدريس، وقد جاء هذا الكتاب لملأ بعض الفراغ في هذه الساحة.

وقد أعدّ هذا الكتاب للمرحلة المتوسطة في دراسة العقائد، لتأتي بعده حلقة أخرى تكون أكثر بسطاً وعمقاً وتعرّضاً للمطالب العقدية المعمقّة والخلافية، وكذا لخلفيات المطالب المطروحة في هذا الكتاب.

وفيما يلي نشير إلى بعض مميزات هذا الكتاب:

الف: ليس لأحد أن ينكر أو يتناكر جهود علمائنا المتكلمين الذين حازوا قصب السبق في مجال تثبيت عقائد الإمامية، ولهم الفضل الكبير علينا نحن الشيعة الإمامية، حيث جدّوا واجتهدوا في إحكام جذور المذهب -وهي محكمة - وتشييد بنيانه والذبّ عنه والوقوف أمام تشكيكات المشكّكين وشبهات أهل الزيغ، فكانوا كما قال

أئمتهم عليهم السلام مرابطين في الثَغر الذي يَلي إبليس وعفاريته[١]، فأثْرَوا مكتبَتَنا العقائدية بآثارهم وكتبهم، وقد خلّفوها جواهر مكلّلة بالدرر واليواقيت، يجد فيها الباحثُ ضالتَه، ومنهلاً عذباً يروِى الضمآن، وشجرةً طيبةً تؤتِي أُكُلها كلّ حين بإذن ربّها.

على الرغم من كلّ ذلك - وهي قليلة بحقهم - وعلى الرغم من أنّنا استفدنا منهم الشيء الكثير، بل لسنا إلا عيالاً على أولئك الشرفاء، إلا أنّنا حاولنا قدر الإمكان أن نُحرّك عجلة البحث بعض الخطوات للأمام، ونتجنّب التكرار وتبيان ما بيّنوه من جديد، فيجد الأستاذ والطالب هنا بعض الاختلاف في منهجية البحث العقدي وكيفية طرح بعض المسائل والاستدلال عليها، عمّا وجده هناك.

والذي استدعى هذا التغيير أمران:

الأول: حاولنا - قدر المستطاع - أن يكون طرح المسألة العقدية والاستدلال عليها مستخرَجاً من القرآن والعترة والدلائل المقامة عليها من قبلهما، وذلك من خلال استنطاق النصوص الوحيانية والوقوف على ركائز الأدلة التي أكّد الثقلان عليها في مجال الدعوة إلى الإيمان والإسلام، أو الجدال والاحتجاج على الخصوم، أو تعليم العقائد الحقة، وبما أنّهم هم أصحاب الدعوة، وقد أرسلهم الله دعاة إليه وإلى دينه، وأمرهم بأن يدعوا الناس إلى الإيمان بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلوهم بالتي هي أحسن، وينهوهم من أن يقفوا ما ليس لهم به علم، فبطبيعة الحال تكون أدلّتهم وبراهينهم،

---

(١) قال الإمام جعفر بن محمد عليه السلام: «[علماء] شيعتنا مرابطون في الثَغر الذي يلي إبليس وعفاريته، يمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا، وعن أن يتسلط عليهم إبليس وشيعته النواصب. ألا فمن انتصب لذلك من شيعتنا كان أفضل ممن جاهد الروم والترك والخزر ألف ألف مرة، لأنه يدفع عن أديان محبينا، وذلك يدفع عن أبدانهم». تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ٣٤٣، الاحتجاج للطبرسي: ١ / ١٧، بحار الأنوار: ٢ / ٥.

أحكم الأدلة والبراهين إطلاقا، وأبعد عن كلّ إشكال وخلل وفتور.

فيبقى علينا أن نُعمل الجدّ ونمارس الاجتهاد لنتفقّه ذلك من خلال النصوص الواصلة إلينا، وهي صادرة لإثارة دفائن العقول، فإذا التفتنا إلى ركيزة الاستدلال في تلك النصوص، وصُغنا المسألة العقدية على ضوئها، فينتج من ذلك إحكام الطرح وإتقان الاستدلال أولاً، وقلع جذور الشبهات ثانياً، وفي نفس الوقت سهّلنا فهم تلك المسألة ووعيها وعقد القلب عليها، بعيداً عن تعقيدات المتكلّفين واصطلاحات المتكلّمين، وقد سار علماؤنا الإمامية على هذا المسار، لكنّ الوحي أعظم من ذلك، بل هو يجري مجرى الشمس والقمر بإطلالته الجديدة كلّ يوم، يُوقِف الباحثَ على جليّة الحق الواضح.

الثاني: لقد واكب علماؤنا الإمامية عصرَهم بالتصدّي للشبهات المثارة، وبتجدّد الأطروحات والشبهات وهي تتلوّن كلّ يوم بلون جديد، احتجنا لمؤلفات جديدة تغطّي تلك المساحات، فحاولنا أن يكون الطرح الاعتقادي في هذا الكتاب بالنظر لتحديات العصر والشبهات التي تثار بين حين وآخر.

باء: من المهمّ جداً التركيز على القوالب الوحيانية - من القرآن والعترة - في طرح المسائل الاعتقادية، فإنّها عين الحكمة وصادرة من معادن حكمة الله، فتكون أبعد عن كل إشكال وشبهة، ومن أجل ذلك حاولنا أن لايخلو البحث العقدي عن ذكر نصوص القرآن والعترة بما يتعلّق بذلك الموضوع، وحاولنا أن نقتصر على بعض تلك النصوص المحكمة الواردة في سبيل إثارة العقول والبرهنة على العقيدة، مع بيان البراهين الكامنة فيها، وهذا يجعل الطالب يستأنس بتلك القوالب الوحيانية الإعجازية، ليحفظها في ركيزته.

جيم: الشبهة يقال لها شبهة لاشتباه الحق فيها بالباطل، والمتشابه ما اشتبه عند جاهله، وقد أنبأنا الله تعالى عن طريقة أهل الزيغ في بثّ الشبهات، ألا وهي سلب المحورية عن المحكمات وإعطاؤها للمتشابهات.(١)

فالشبهات بصورة عامة ناشئة من عدم فهم المحكمات فهماً صحيحاً، والقصور في وعي تلك المحكمات وفهمها يفتح الباب أمام سيل الشبهات والإشكالات، وهي جذوَةُ فِتنة الزائغين، ولن ينسدّ هذا الباب إلا بإِحكام ذلك الأمر المحكم، وإلا لو حاولت دفع هذه الشبهة دون معالجة منشأ انطلاقها، فحتى لو دفعتَها ستأتيك أخرى مثلها أو أشد منها، وهكذا يكون الحبل على الجرّار.

والملاحَظ من طريقة أهل البيت عليهم السلام في دفع الشبهات، أنّهم كانوا يُعطون لتلامذتهم أصولاً وضوابطَ لو أتقنها الإنسان يستطيع أن يدفع كلّ شبهة أو إشكال أو نقد يرد عليه، كيف وهي بأجمعها ناتجة عن عدم الفهم الدقيق لتلك الضابطة والأساس المحكم.

وهذا نظير ما رواه الكليني وغيره عن هشام بن الحكم: «أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ أَسْمَاءِ الله وَاشْتِقَاقِهَا، اللهُ مِمَّا هُوَ مُشْتَقٌّ؟ قَالَ: فَقَالَ لِي: **يَا هِشَامُ! اللهُ مُشْتَقٌّ مِنْ إِلَهٍ والإِلَهُ يَقْتَضِي مَأْلُوهاً، والِاسْمُ غَيْرُ الْمُسَمَّى. فَمَنْ عَبَدَ الِاسْمَ دُونَ الْمَعْنَى فَقَدْ كَفَرَ ولَمْ يَعْبُدْ شَيْئاً، ومَنْ عَبَدَ الِاسْمَ والْمَعْنَى فَقَدْ كَفَرَ وعَبَدَ اثْنَيْنِ، ومَنْ عَبَدَ الْمَعْنَى دُونَ الِاسْمِ فَذَاكَ التَّوْحِيدُ، أَفَهِمْتَ يَا هِشَامُ؟** قَالَ: فَقُلْتُ: زِدْنِي، قَالَ: **إِنَّ للهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً، فَلَوْ كَانَ الِاسْمُ هُوَ الْمُسَمَّى لَكَانَ كُلُّ اسْمٍ مِنْهَا إِلَهاً، ولَكِنَّ اللهَ مَعْنًى يُدَلُّ عَلَيْهِ بِهَذِهِ الأَسْمَاءِ وكُلُّهَا**

---

(١) قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ**﴾ .آل عمران: ٧.

غَيْرُهُ، يَا هِشَامُ! الخُبْزُ اسْمٌ لِلْمَأْكُولِ، والمَاءُ اسْمٌ لِلْمَشْرُوبِ، والثَّوْبُ اسْمٌ لِلْمَلْبُوسِ، والنَّارُ اسْمٌ لِلْمُحْرِقِ، أَفَهِمْتَ يَا هِشَامُ فَهْماً تَدْفَعُ بِهِ وتُنَاضِلُ بِهِ أَعْدَاءَنَا والمُتَّخِذِينَ مَعَ اللهِ جَلَّ وعَزَّ غَيْرَهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ.قَالَ: فَقَالَ: **نَفَعَكَ اللهُ بِهِ وثَبَّتَكَ يَا هِشَامُ**.قَالَ هِشَامٌ: فَوَ اللهِ مَا قَهَرَنِي أَحَدٌ فِي التَّوْحِيدِ حَتَّى قُمْتُ مَقَامِي هَذَا».(١)

وسنشير إلى بعض الوجوه البرهانية في الحديث الشريف، وهي التي مكّنت هشام - وهو ابن بَجدَتها - من دفع أية شبهة ترد عليه من تلك النواحي، فلم يقهره أحد في التوحيد حينما أتقن فهم تلك الضابطة الوحيانية التي تعلّم من إمامه عليه السلام، وقد دعا له الإمام أن ينتفع به فيدافع به عن المذهب ويناضل الخصوم ويبطل سحرهم ويزهق باطل شبهاتهم، حيث إنّها جميعاً ناشئة من عدم فهم هذه القاعدة التوحيدية.

و من هذا المنطلق نَهَجنا في هذا الكتاب منهج معالجة المناشيء والمباديء، وبها تنقلع الشبهات من جذورها، وتعمّدنا في أغلب الموارد أن لانصرّح بذكر الشبهة، فإنّها تأتي وتذهب جُفاءً، ثم تَحُلّ غيرها محلّها، والمهمّ معالجة منشأ الشبهة ونقطة الخلل التي تولّد تلك الشبهات بين حين وآخر.

دال: ومن جهة أخرى، تعمّدنا أن لانُشغِل ذهن الطالب - وهو في المرحلة المتوسطة - بذكر المسائل الخلافية والتفصيل فيها وذكر الأدلة ومناقشتها، بقدر ما سعينا أن نوجّهه لاستيعاب المحكمات وضروريات المذهب ليتعلّم كيفية الاستدلال عليها بأسس موضوعية رصينة، فقد تتعدّد الآراء في المسألة، لكنّنا اقتصرنا على التنبيه للأصول المحكمة التي لاخلاف فيها، او - في الموارد القليلة - ذكر المختار مع دليله دون الإشارة للآراء الأخرى، وأوكلنا ذلك للمراحل المتقدّمة والحلقات اللاحقة.

---

(١) الكافي: ١ / ٨٧.

هاء: وليكون الكتاب أقرب للكتب المنهجية الدراسية، توخّينا الدقة في انتقاء العبارات بعيداً عن الإطناب المُمِل والإيجاز المُخِل، فقد تكون هنالك خلفيات لبعض العبارات لم نذكرها في المتن، ولو كان الأستاذ والمدرّس مطّلعاً على تلك الخلفيات، من التحديات والشبهات المعاصرة التي تصدّى الكتاب لمعالجتها دون الإشارة إليها، أو جذور الخلاف في بعض المسائل التي لايتوقّع من الطالب - وهو في المستوى المتوسّط - أن يخوض فيها، يكون أكثر نجاحاً في تدريس المادة.

واو: ليس الغرض من ذكر الأسئلة والتمارين في نهاية كل درس مجرد الاختبار الذاتي للطالب فحسب، بقدر ما يُقصَد منها التدبّر والتعمّق الأكثر في الدرس، ومن خلالها يقف الطالب على خلفيات بعض المطالب المطروحة فيه، كما أنّ قسماً منها يُوجّهه للبحث والتحقيق فيما يخصّ المواضيع المطروحة، ليتحمّل بنفسه عبأ البحث والتحقيق، فيبدأ بعض الخطوات البدائية في مسيرة التحقيق العملي، فيصبح محقّقاً بنفسه وليس حافظاً ومقرّراً فقط.

وفي الختام أقبّل أيدي جميع أساتذتي ومشايخي الذين تعلّمت منهم وتربّيت على أيديهم - رحم الله الماضين منهم وحفظ الباقين - وأشكر كلّ من أعانني وأتحفني بإرشاداته وإشاراته في مسيرة هذا التحقيق، وفّقهم الله جميعاً لما يحبّ ويرضى.

عيد الله الأكبر الغدير الأغرّ ١٤٤٢

حسن الكاشاني

النجف الأشرف

المدخل

العلم والمعرفة

الدرس الأول: ضرورة المعرفة وبطلان التعددية

مما لا يمكن إنكاره وجود آلة للإدراك والمعرفة لدى الإنسان يعرف به الحق من الباطل، ولا يستقيم أي مبحث معرفي إلا بالاعتراف مسبقاً بإمكان إدراك الحقيقة، ولشدة وضوحه، لامناص لإنكاره، بل لايتم الإنكار به إلا بالاعتراف به، أي إن من ينكر أن يكون الإنسان متمكنا من معرفة الحقيقة، أو يدّعي أنه لا حقيقة ثابتة في العالم؛ فهو أيضاً يقرّ بهذه الحقيقة من حيث لا يشعر.

وذلك أن حكمه بعدم وجود آلة للإدراك بنفسه يحتاج إلى إثبات، فحينما تراه ينفي وجود ما يدرك به الإنسان الحقائق، فنسأله: هل إن هذا الحكم، أي عدم وجود آلة للإدراك، مستند إلى علم أم إلى جهل؟

ومن الواضح أنه لا يدّعي أن حكمه هذا صادر عن جهل، بل يزعم أن هذا الحكم - وهو عدم وجود آلية للإدراك - حق ثابت لا يعتريه شك ولا ريب.

ومن هنا فإنه يقوم بتخطئة الآخرين، ويراهم أنهم مالوا عن طريق الحق؛ فهو يقرّ بوجود حق ثابت، ووجود آلة لإدراك ذلك الحق يشترك فيها الكل، أي يرى أنّ جميع العقلاء بإمكانهم أن يعرفوا هذه الحقيقة، فالكل فيه سواء، لانسبية فيها ولاخفاء.

وكذلك الكلام فيمن ينكر الواقعية والحقيقة، ويدّعي النسبيّة في المعرفة والتعددية في الحق، فإنه لا يقول بالنسبية في عقيدته هذه؛ أي إنه يحكم بأن التعددية هو الحق الذي لاريب فيه، وكل من ينكر التعددية يراه مجانبا للحق والإنصاف.

فنرى أن إنكار وجود الحق الثابت، أو إنكار إمكانية الوصول إليه، بنفسه إقرار بالحق الثابت، وبإمكانية الوصول إليه؛ لأن المنكر يدّعي العلم كالمقر.

وهكذا لو ادّعى أحد الشك في وجود الحق، أو في إمكانية الوصول إليه، فإنه حينما يسند الشك إلى نفسه، فقد عرف نفسه وعرف الفرق بين الشك واليقين، والثابت والمتغير؛ وحكم حكماً جزمياً على أنه شاك؛ وليس بمتيقن؛ أي أثبت الشك لنفسه ونفى عن نفسه اليقين، فيسأل عن هذا الإثبات وذاك النفي:

هل هو عن علم؟

أو عن جهل؟

ولا مناص له من أنه يدّعيه عن علم، وإلا فإنه لا يرى نفسه أنه شاك.

فتحصل: أن وجود الحق الثابت، ووجود طريق للوصول إليه، أمر ضروري فطري، ومن عجائب هذه المسألة أن إنكارها أو إظهار الشك فيها هو عين الإقرار بها.

ميزة آلة المعرفة

بعد ما ظهر وجود طريق وآلة للمعرفة وإدراك الحقائق، نسأل ما هو هذا الطريق، وما هي تلك الآلية؟

وفي الجواب يمكن أن يقال: أنه لابد من توفر شرط أساسي في ما يكون طريقاً لمعرفة الحقيقة، وهو:

أن يكون معصوماً بالذات

أي غير قابل للخطأ، والاشتباه، وذلك أنه إذا كان فيما يركن إليه لمعرفة الحقيقة نسبة من احتمال الخطأ والاشتباه؛ فإنه لا يمكن الوثوق والركون إليه إلا بعد دفع احتمال

وقوع الخطأ فيه.

ودفع هذا الاحتمال أيضاً لابد أن يكون بأداة معرفية، ومن الواضح أنه لا يمكن أن يعرف ذلك من خلال نفسه؛ أي لا يمكن أن تكون الآلة التي تخطيء، هي التي تميز خطأ ذاتها من صوابها، فإنه خلف كونها قابلة للخطأ والاشتباه، فلا يمكن الاستناد إليه، إلا بعد تقييمها بأداة معرفية أخرى، تكون تلك الأداة هي المسوّغة لنا في ذلك، فينقل الكلام إلى تلك، فإنْ كان يأتي فيها احتمال الخطأ، فالكلام نفس الكلام، إلى أن ينتهي بنا المطاف إلى آلة للإدراك لا تخطيء، وتكون ذاتها هي عين النور والظهور والكشف وهو ما سماه القرآن: بالعلم، والعقل.

فيكون العقل هو حجة الحجج؛ الذي حيث ذاته النور، ولا يجتمع النور مع الظلمة، أي لايمكن أن تكون المنطقة المنوّرة بنور العقل مظلماً في حين كونه نورانياً، نعم يمكن أن تكون منطقة منوّرة، وأخرى ظلمانية لقلّة النور ومحدودية العقل، أو كان النور لقلته قد نوّر خمسين بالمائة من هذه المنطقة ذاتها، وأما أن يجتمع النور والظلمة فلا، فمهما وجد العقل فهو نور وكشف وظهور، والمدّعى أنّه لايمكن فرض وجود الخطأ والظلمة مع فرض وجود نور العقل في تلك المنطقة.

قال رسول الله ﷺ: «**العَقْلُ نُورٌ فِي القَلْبِ يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ**».(١)

وقال ﷺ: «**أَلَا ومَثَلُ العَقْلِ فِي القَلْبِ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِي وَسَطِ البَيْت**».(٢)

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**دِعَامَةُ الإِنْسَانِ العَقْلُ، ومِنَ العَقْلِ الفِطْنَةُ والفَهْمُ والحِفْظُ والعِلْمُ، فَإِذَا كَانَ تَأْيِيدُ عَقْلِهِ مِنَ النُّورِ كَانَ عَالِماً حَافِظاً ذَكِيّاً فَطِناً فَهِماً، وبِالعَقْلِ**

---

(١) إرشاد القلوب: ص ١٩٨.

(٢) بحار الأنوار: ج ١ ص ٩٩ عن علل الشرايع.

يَكْمُلُ وهُوَ دَلِيلُهُ ومُبْصِرُهُ ومِفْتَاحُ أَمْرِه».(١)

الفرق بين العقل والعاقل

حينما ولد الإنسان، وُلد وهو لايعلم شيئاً ولايعقل، ثم يشعر بنفسه وببعض الاشياء شيئاً فشيئاً، إلى أن يبلغ لدرجة يعرف حسن بعض الأشياء وقبح بعضها الآخر، وهكذا يزداد علمه وعقله، لكن هذه المعرفة لاتصاحب الإنسان دائماً، بل تُقبض مرة وتُبسط له أخرى، فمثلاً إنّه ينام، فيفقد عقله وشعوره أحياناً، ثم يستيقظ فيرجع إلى شعوره السابق، وهكذا يعرض عليه السهو والنسيان والغفلة، ثمّ يتذكّر فيعلم، قال تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾.(٢)

فإنّ حقيقة الإنسان ثابتة في هذه الأطوار المختلفة، لكنّ العلم والشعور والعقل، غير ثابت فيه، فيعلم ويجهل، يتذكر وينسى، يعقل ثم يجهل، ومنه يعرف، أنّ النور الذي به كان يعرف الأشياء ويعرف حسنها وقبحها، لم يكن جزءاً من ذات الإنسان، وذلك لو كان ذاتياً له لما انفكّ عنه، ولما قُهِرَ على فقده وسلبه، فإنّ الذاتيات لايمكن سلبها عن الذات كما هو واضح.

فالذي به يعرف الإنسان الحقائق، نور مباين عن الإنسان، قد يستضيء به فيعلم، أو يُحتجَب عنه فلايعلم.

الفرق بين العقل والمعقول

كما أنّ المعقولات والمعلومات، هي الأخرى مغايرة لنور العقل، فإنّ وجود القضايا المعقولة لايكفي لوحده، لحصول العلم والمعرفة بها، فإنّ في الحالات المختلفة الطارئة

---

(١) بحار الأنوار: ج ١ ص ٩٠.

(٢) الحج: ٥.

على الإنسان من الصغر والكبر، والنوم واليقظة، والذكر والنسيان، توجد القضايا المعقولة والمعلومة، لكن لايعقلها الإنسان.

بل قد يغفل الإنسان عن نفسه وذاته وذاتياته، ويجهل ذاته، فلو كان وجود المعقول عند العاقل كافٍ في المعرفة، لما كان هنالك وجهٌ لغفلة الإنسان وجهله بحقيقة ذاته وذاتياته، أو ذهول المعرفة بوجوده، فإنّ ذات الإنسان حاضرة عند نفسه دائماً.

ومن هنا تعرف أنّ حصول صور الأشياء عند النفس، أو حضورها لديه، لايكفي لحصول العلم والمعرفة بها، بل أنّها جميعاً تندرج في سلسة المعلومات والمكشوفات بنور العلم والعقل، فعندما يحظى الإنسان بذلك النور، يعرف ذاته وذاتياته والصور الحاصلة لديه، كما يعرف حقائق تلك الصور مجردة عنها، وغير ذلك، كلّ ذلك بمقدار استضاءته بنور العلم والعقل.

ولولا هذا النور الكاشف للواقعيات وغير الواقعيات، لم ينفعنا حصول صور الأشياء وحضورها، لأنّها جميعاً من المكشوفات، وهي أعجز من أن تُظهِر نفسها للإنسان، فكيف تُظهِر غيرها؟

كما أنّ الاعتقاد - حتى الاعتقاد الجزمي - لايمكن أن يكون كاشفاً عن الحقائق، لتكون مصدرا للمعرفة، إنّ العقيدة والإيمان والقطع والتصديق، كلّها أحكام تُصدِرها النفس، وهي من ضمن ما أفعال الإنسان القلبية، وهذه الأفعال - شأن سائر أفعال البشر - قد تكون صواباً، وقد تكون خطأ، وليست فيها أية جهة نورية وكاشفة عن نفسها، فضلاً عن الحقائق الاخرى.

والإنسان في هذه الأفعال محتاج إلى العلم والمعرفة، وهي ليست بذاتها علماً ولامعرفة، فإن صدرت عن علم فيكون صواباً، وإلا فلا.

فالمعقولات والمعلومات -سواء التصورات أو التصديقات - حقائق مغايرة لنور العلم والعقل، ولولا ذلك النور، لم يكن للإنسان أية معرفة بها ولا كان يقدر عليها.

كما أنّها يأتي فيها الصواب والخطأ، ولولا ما مايميّز خطأها من صوابها، لم يمكن الاعتماد عليها، ومن البديهي أنّ ما يركن إليه لمعرفة الخطأ من الصواب لايمكن أن يأتي فيه الخطأ والصواب.

عصمة العقل وخطأ العاقل

لايظن إننا حينما أكّدنا على عصمة العقل وعدم إمكان بروز الخطأ والاشتباه فيه، نقصد بذلك أن كل ما يصدر من العاقل أو كل ما يتصوره لايكون قابلاً للخطأ والاشتباه، كلا!

فان الإنسان العاقل كثيرا ما يخطيء في احكامه التي يصدرها، وفيما يعتقد بها، كما يخطيء في تصوراته، على الرغم من أنه واجد للعقل وهو معصوم بذاته عن الخطأ، والشاهد على ذلك وقوع الاختلافات الكثيرة بين العقلاء.

و أول ما يجب علينا، معرفة محل وقوع الخطأ، فهل الخطأ واقع في العقل، أم في تصورات النفس وتصديقاتها؟

من الواضح أنّ ما يقبل الخطأ والصواب، إنما هي التصورات والتصديقات، وهي مغايرة لنور العقل والعلم.

و يمكن إرجاع الأخطاء التي تقع فيها إلى سببين:

الأول: محدودية الإنسان في الاستضاءة بنور العقل

لا يمكن أن توجد الظلمة في المقدار الذي نُوّر بالنور وسُلّط الضوء عليه، فإنّ النور

لن يجتمع مع الظلمة، إنهما متناقضان، فالظلمة إنما تكون في النقاط البعيدة النائية عن النور، وكلّما يبتعد عن مركز النور، يقل النور وتشتدّ الظلمة.

فبالنسبة لنور العلم والعقل نقول: من المهم أن نعرف أن استضاءتنا من هذا النور محدودة ومختلفة من شخص لآخر؛ فإذا حاول الإنسان أن يعرف ويحكم بما يكون في منطقة إضائة نور العقل، ولم يتأثر في حكمه بالأهواء والغرائز فسوف لن يخطيء، إنما الخطأ والاشتباه يبرزان في حكم الإنسان، وتصوراته بالنسبة للمناطق البعيدة عن إضاءة نور العقل، وكلما ابتعد أكثر كان أكثر توغّلاً في الظلمة.

وعليه فكون العقل معصوماً عن الخطأ، لا يعني أن الإنسان يعرف جميع الحقائق، بل بمقدار استضاءته من ذلك النور، ومن هنا فلا يمكن إعطاء الحصانة للإنسان العاقل عن الاشتباه لو رام أن يدرك ما هو خارج عن حدود كشف نور العقل، وكلما زاد علمه قل الخطأ، وكلما قل العلم كثر الخطأ.

كما أن هنالك مناطق محظورة لا يمكن للعقل أن يدنو منها، ولا يمكنه أن يسلط ضوءه عليها لكونها فوق مرتبة العقل، ومن نعم الله علينا الواصلة إلينا بتوسط خلفائه عليهم السلام أنهم بينوا لنا هذه المناطق المحظورة، كي لا نتفكر فيها فنتيه في الضلال، فمن تلك المناطق المحظورة، التفكر في ذات الله تعالى ومحاولة نيله بالاوهام والعقول والأفكار.

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: «**إِيَّاكُمْ والتَّفَكُّرَ فِي الله، فَإِنَّ التَّفَكُّرَ فِي اللهِ لَا يَزِيدُ إِلَّا تَيْهاً إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ ولَا يُوصَفُ بِمِقْدَارٍ**».(١)

---

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص ٢٥٩.

الثاني: غلبة الأهواء وعدم توازن الأخلاق

بما أن الإنسان العاقل ليس عقلاً محضاً، بل واجد للغرائز الأخرى والأهواء، فلا يكون كل حكم صادر منه مستند إلى العقل؛ بل للأهواء والرغبات والأخلاق تأثيرٌ بالغٌ في الأحكام الصادرة عن النفس وتصوراتها، بل قد يتعمّد الإنسان أن لاينظر في شيء ولايلتفت إليه لكراهته عنه، فيتغافل ويصدر الحكم أو يتصوّر مبنياً على عدم وجود ذلك الشيء فيخطىء، كل ذلك معلول لعدم توازن الغرائز وعدم تعادل الأخلاق، فمن هنا يقع الخطأ في أحكام العاقل.

ولكن المهم أنّ هذه الأخطاء ليست ناشئة من عقله بل هي راجعة للأمور الأخرى من الاستعجال في الحكم، وعدم تعادل وتوازن الرغبات، والشهوات والغرائز؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي ويُصِم**».(١) وقال أميرالمؤمنين عليه السلام: «**كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ [عِنْدَ] هَوَى أَمِير**».(٢).

إن إرجاع الخطأ، والاشتباه إلى العقل مساوق لإنكار العقل، إذ لو كان العقل هو منشأ الخطأ فلابد أن يُستند إلى غير العقل لمعالجة مشكلة العقل؛ فلا يكون العقل هو الأمير، وحجة الحجج، بل حجة الحجج هو ذلك الشيء الآخر الذي جعلناه حاكماً على العقل.

ولكن لا يوجد عندنا شيء آخر غير العقل يميز الخطأ عن الصواب.

وبكلمة واضحة: إن نور العلم والعقل رافعان وقالعان للأخطاء والاشتباهات، وليسا موجدين ومنشئين لهما.

---

(١) من لايحضره الفقيه: ج٤ ص ٣٨٠.

(٢) نهج البلاغة: حكمة ٢١١.

فمن هنا لا تجد من يحارب العلم والعقل بحجة أنهما يولّدان الخطأ، بل الكل يذعن بأن الخطأ والاشتباه ينشآن من قلة العلم والعقل وتأثر الإنسان بالعاطفة وسائر الغرائز.

فنستنتج: أن خطأ العاقل لا ينافي عموم حجية العقل وعصمته عن الخطأ.

ضرورة البرهان

لابد في إثبات كل أمر من حجة وبرهان، ولا يمكن الالتزام والاعتقاد بشيء من دون دليل وبرهان وحجة، أي: ما يوضح الأمر ويصح أن يحتج به.

ثم إن الحجج والبراهين لابد وأن تكون حجيتها ذاتية، أو منتهية إلى الحجية الذاتية.

وذلك أنه لا يخلو الحال من أمرين:

فإما أن تكون حجة يمكن وقوع الخطأ فيها، أو لا يمكن؛ فإن كان الثاني؛ فهي الحجة الذاتية؛ التي لابد أن ينتهي إليها جميع الحجج والبراهين، بل هي قوام كل حجة أخرى، وهي حقيقة العلم والعقل، وقد مرت الإشارة إليه.

أما إن كانت الحجة مما يمكن وقوع الخطأ فيها ثبوتا، فلا يصح الاعتماد عليها، إلا بعد استنادها وانتهائها إلى نور العلم والعقل.

وقد أكد القرآن الكريم على ضرورة البرهان، والحجة في كل أمر عقدي، وأكثر من اللوم والعتب على من يعتقد بشيء لا برهان له عليه؛

قال تعالى في محكم خطابه: ﴿قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾[١]

وقال تعالى: ﴿وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ﴾.[٢]

---

(١) النمل: ٦٤.

(٢) المؤمنون: ١١٧.

وقال تعالى: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُم﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿ قُلْ فَللهِ الحُجَّةُ البالِغَة﴾.(٢)

وقال تعالى: ﴿وَ لاتَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلا﴾.(٣)

وغيرها من الآيات الكثيرة.

ومن هنا كانت دعوة الأنبياء، وبالذات دعوة القرآن مؤسسة على أساس الحجة والبرهان والعقل والحكمة:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «حُجَّةُ اللهِ عَلَى العِبَادِ النَّبِيُّ، والحُجَّةُ فِيمَا بَيْنَ العِبَادِ وبَيْنَ اللهِ العَقْلُ.».(٤)

وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «إِنَّ للهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ، حُجَّةً ظَاهِرَةً وحُجَّةً بَاطِنَةً، فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ والأَنْبِيَاءُ والأَئِمَّةُ عليهم السلام، وأَمَّا البَاطِنَةُ فَالعُقُول».(٥).

---

(١) النساء: ١٧٤.

(٢) الأنعام: ١٤٩.

(٣) الإسراء: ٣٦.

(٤) الكافي: ج ١ ص ٢٥.

(٥) الكافي: ج ١ ص١٣.

الأسئلة:

١- قد يقال: إنّ وجود الاختلاف والآراء المختلفة المتكثرة من لوازم العلم، ويستنتج من ذلك عدم وجود واقعية ثابتة واحدة، أو عدم إمكان الوصول إليه، كيف يجاب عن هذا الإشكال؟

٢- ما هو المحذور لو بنى أحد على وقوع الخطأ في الكشف العقلي بمقدار ضئيل؟

٣- كيف نعرف مغايرة العقل مع العاقل والمعقول؟

٤- ما هي حقيقة التصورات والتصديقات التي تحصل للإنسان، وهل هي مصدر معرفة الإنسان وعلمه؟

٥- ما هومنشأ وقوع الخطأ في الأحكام أو التصورات الصادرة عن العاقل، رغم عصمة العقل؟

٦- ما هي حجة الحجج، وما هي مميزاتها؟

٧- اذكر خمساً من آيات القرآن التي تحث على التعقل وتنهى عن اتباع غير العلم.

الدرس الثاني: المنهج الصحيح في تعلم العقيدة

تعميم الايمان وتعميم البرهان

مر أن الناس مختلفون في مقدار استضاءتهم بنور العقل، كما مر أنه لابد من لزوم انتهاء العقائد إلى العقل الصريح والبرهان.

ومن هنا لا يمكن أن تكون دعوة الأنبياء والإيمان، مبتنية على ما لا يدركه إلا البعض من الخواص، فإنه لو كان كذلك؛ لزم أن تكون دعوة عامة الناس إلى الإيمان دعوة لاتباع غير العلم، واقتفاء ما لا يدركونه بعقولهم.

بينما كانت دعوة الأنبياء والرسل عامة، وشاملة لجميع الناس بمختلف المستويات؛ فكانوا يعاتبون الناس بسبب رفض دعوتهم، مما يدل على أن تلك الدعوة كانت مؤسسة على ما يدركه الجميع بعقولهم، ولم يكونوا ليكلفوا الناس ما لا يتحملون، قال تعالى: ﴿**لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِ**﴾.(١)

محل الشاهد من الآية هو من جهة موضوع التبين، وأن الدين بين وواضح.

وقال تعالى: ﴿**قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**﴾.(٢)

وقال تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إِمَّا شاكِراً وإِمَّا كَفُورا**﴾.(٣)

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) سورة ص: ٨٦.

(٣) الإنسان: ٣.

ثم إن سهولة إدراك تلك الأمور لا تعني عدم متانة أدلتها، وضعف براهينها، بل إن الدين القيم هو الدين الذي أُسِّس على أساس براهين قويمة، ومتينة، وواضحة يدركها الكل بعقولهم بل بفطرتهم.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّم﴾.(١)

حكم العقل بضرورة الرجوع إلى القرآن والعترة في تعلم العقيدة

هنالك مقدمات واضحة لامجال لإنكار واحدة منها:

١- الإنسان محتاج إلى المعلم والمرشد في سبيل تعلم العقيدة الصحيحة، وأنّ كونها مبنية على التعقل والبرهان لايستدعي الاستغناء عن المعلم والمنبه والمثير لدفائن العقول، كما هو الشأن في جميع العلوم العقلية البرهانية أو التجريبية الحسية، فمن يرد أن يتعلم شيئاً من تلك العلوم لاينفرد عن الآخرين في ناحية معزولاً ليتفكر، أو ليجرّب وحده، دون الاستفادة من علوم الآخرين وخبراتهم، بل يعكف على الدراسة والتعلم والمطالعة والرجوع إلى جهابذة ذلك العلم، فإنّ قصور عقل الإنسان ومحدودية علمه وعروض الغفلة عليه، يجعل ضرورة الاسترفاد والاستفادة من المعلم الخبير اللوذعي في سبيل نيل المعرفة الصحيحة، أمراً ضرورياً كما استقرت عليه سيرة العقلاء.

٢- أنّ المدارس المعرفية التي أخذت على عاتقها إعطاء رؤية شمولية عن حقيقة عالم الكون وتنبّه الإنسان وتعلّمه العقيدة، متعددة ومختلفة ومتباينة في آرائها ومعطياتها ومناهجها، من المدارس المادية والتجريبية والفلسفية والعرفانية والكلامية بتشعباتها وأقسامها المختلفة التي قد لاتجد جامعاً يجمع هذه التشعبات إلا الاسم العام، من

---

(١) الروم: ٣.

كثرة وجود الاختلاف والتباين فيما بين معطياتها، وأن قسماً منها مباينة مع المعطيات الاعتقادية الواصلة من القرآن والحديث، كما أشار إلى ذلك جمع كثير من الأعلام.(١)

٣- أنّ كلاً من هذه المدارس - رغم الاختلاف الشديد فيما بينها - تدعو الناس إلى نفسها وتدّعي أنها هي الأقوم لإعطاء الرؤية الشمولية للإنسان، ولإرشاد الناس وإيصالهم إلى العقيدة الصحيحة، ومن المعلوم أنّ الحق لايتعدد باختلاف الناس.

٤- أنّه لايمكن الاستماع لجميع هذه الدعاوى واتباع جميع تلك المناهج -وهي تزداد يوماً بعد يوم- ليقف الإنسان على الصحيح من الخطأ منها، فإنّ ذلك متعسر بل متعذر لعامة الناس، فلو كانت الدعوة مبتنية على تعلم تلك المباحث المعقدة لزم من ذلك؛ إما تعطيل الحياة، أو البقاء في الكفر، أو طلب الإيمان من دون برهان كالاتباع الأعمى، مع إنّه لايوجد ضمان الحصانة للإنسان - لاسيما للناشيء الصغير أو العامي الغير متمرّس - حينما بدأ بالاستماع لمدرسة معينة من تلك المدارس أن لايقع في بعض مغالطاتهم فيصده عن الحق، كما وقع فيه جميع اتباع تلك الآراء المختلفة أو غير الواحد منهم.

والنتيجة: أنّه لابد من وجود معايير موضوعية لاختيار المنهج الصحيح من بين كل تلك المناهج، والبدء به في تعلم العقيدة دون سائر المناهج والمدارس، ولو لم تكن هنالك معايير موضوعية لكان التكليف بالإيمان لغواً.

ونحن ندّعي أنّ المعايير الموضوعية العقلية تعيّن على أي عاقل يريد معرفة الله، ومعرفة الدليل عليه والعقيدة الصحيحة، مؤمناً كان أو كافراً، أن يرجع إلى كلام القرآن والعترة، كما نصّ عليه في الزيارة الجامعة الكبيرة المروية عن الإمام الهادي عليه السلام: «**مَنْ أَرَادَ**

---

(١) راجع كتاب: جدلية الدين والفلسفة للمؤلف.

اللهَ بَدَأَ بِكُمْ، ومَنْ وَحَّدَهُ قَبِلَ عَنْكُمْ، ومَنْ قَصَدَهُ تَوَجَّهَ بِكُمْ».(١)

دعوى الإتيان من عند الله

ويتضح ذلك بعد الالتفات إلى أن دعوى القرآن وأهل البيت عليهم السلام تمتاز بخصوصية لاتوجد في غيرها من المدارس والمناهج، وهي أنها آتية من قبل الله تعالى نفسه لدعوة الناس وهدايتهم إليه، وقد ظهرت آثار الصدق منهم - وسنشير إليها في مباحث النبوة - بخلاف الآخرين الذين لم يدّعوا ذلك أو ظهر كذبهم فيه، فإنّ القرآن نادى بأعلى صوته أنّه كلام الله تعالى وقد انزله الله تعالى هداية ونوراً وبصيرة، وأنّ الله تعالى أرسل رسولاً من أهم شؤونه هي الدعوة إلى الله تعالى بالبرهان والحكمة والموعظة الحسنة.

قال تعالى مخاطباً حبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله: **﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾**.(٢)

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونَذيراً وداعِياً إِلَى الله بِإِذْنِهِ وسِراجاً مُنيرا﴾.(٣)

و هذا النبي كان يّدعي السفارة الإلهية، والرسالة السماوية، وأوصياؤه من عترته كانوا يدّعون أن الله تعالى جعلهم أبواباً له، وسبلاً إليه، وأن الله تعالى قد هداهم، وأرشدهم، وعلّمهم وأوحى إليهم، وأيدهم بروح القدس، وعرّفهم نفسه القدوس، وأرسلهم إلى الناس كي يكونوا دعاة إليه تعالى، ووسائط للحضور بين يديه سبحانه وتعالى.

---

(١) من لايحضره الفقيه: ٢ / ٦١٥.
(٢) النحل: ١٢٥.
(٣) الأحزاب: ٤٥ و٤٦.

ومن الواضح أن من يدّعي هذه الدعوى لابد وأن يكون كلامه على سبيل التذكير والتعليم، وإثارة العقول كي يتنبه المتعلم، ويتذكر إلى ما هو ظاهر من العقل، وليس هنا مجالاً للتعبد والتسليم دون المطالبة بالدليل، لاسيما وأنّ القرآن نهى عن اتباع غير العلم، وأنّب المشركين لتركهم التعقّل واتباع ساداتهم وكبرائهم دون البرهان.

قال تعالى: **﴿وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُولا﴾**.(١)

وعلى ضوء ذلك: بعد ظهور دعوى النبي صلى الله عليه وآله والعترة عليهم السلام بأن الله تعالى أرسلهم لدعوة الناس إليه بالبرهان والحكمة، وظهور أن غيرهم لم يدعوا ذلك، فإنّ غاية مدعاهم أنّهم بعقولهم وتجربتهم وقفوا على طريق لنيل معرفة الله تعالى، فهنا يحكم العقل بلزوم الاستماع لكلام من يدّعي انّه أرسل من قبل الله تعالى لدعوة الناس إليه دون غيره ممن لم يدع ذلك، ليظهر أنهم صادقون في كلامهم، أم كاذبون والعياذ بالله.

فلو كنت بصدد معرفة وجود السلطان ومعرفة الطرق إليه لو كان موجوداً، وكنت بحاجة لمن يهديك إلى طريق معرفته وطريق الوصول إليه بالبرهان والدليل الواضح، وكان امامك شخصان كل منهما يدّعي أنه الأكفأ لهذا الشأن وللتنبيه على الدلائل الموضوعية التي توجب العلم وتولّد القناعة الكاملة بموضوعية تامة، وكانا مختلفين في الرأي وفي المنهج والنتيجة، وأحدهما يدّعي أنه مرسل من قبل السلطان نفسه وهو أمره بأن يدعوك إليه ويدلك عليه، والآخر لايدّعي ذلك بل يقول أنا بتجربتي الشخصية عرفت الطريق إلى قصر السلطان، فهنا يحكم العقل البديهي بلزوم البدء بالاعتناء بقول الأول، والنظر في كلامه ليعرف صدقه عن كذبه، فإنّ دعواه تتميز بخصوصية لاتوجد

---

(١) الإسراء: ٣٦.

في دعوى الآخر، فضلاً عما إذا كانت آثار الصدق ظاهرة عليه، وستأتي في مبحث النبوة.

و عليه، فإن من يدّعي أنّه جاء من عند الله ليهدي الناس إليه، وكانت آثار الصدق ظاهرة عليه، أولى بالاستماع لكلامه ممن لا يدّعي ذلك أو لم تظهر عليه آثار الصدق، وهذا حكم عقلي بديهي، لا سيما بعد ما يرى من وجود الاختلاف بين معطيات الاتجاهين.

وأمّا المدارس والمناهج الأخرى التي لاتدّعي أنها آتية من قبل الله تعالى للدعوة إليه، فليست في دعاويها ميزة تميّزها عن أخواتها بعد اشتراك الجميع في دعوى كونها جهداً بشرياً غير مستند للطاقة الوحيانية، فبعد وضوح تعدد المشارب والمباني، فكيف يمكن إقامة الحجة على من يريد الحق من عامة الناس؛ بأن عليه دراسة هذه المدرسة الفلسفية مثلاً دون أخرى، وكيف يقتنع بجدوائية مدرسة معينة دون غيرها، وهو بعدُ أمي لا يعرف شيئاً عن تلك المدارس.

إن ذلك لا يحصل إلا للخبير الأوحدي المطلع على جميع المدارس والمباني؛ لذا لايتوقع من عامة الناس أن ينهجوا ويسلكوا منهجاً من دون علم وبرهان، بعد وضوح الاختلاف الشديد في المعطيات والنتائج.

فهل يكون الدين قيماً لو كان الله تعالى قد أوكلنا في سبيل إثارة العقول إلى هذه المتخالفات المتباينات؟! وهل كان له أن يخاطب عباده بأن له الحجة البالغة عليهم؟!

اللجوء للأكفأ والأعلم

هذا بالنسبة لغير المؤمن المعتقد، وأما المؤمن المعتقد الذي يريد من دراسة العقائد أن تزداد معرفته ويكمل إيمانه، أو من أذعن بكفاءة وخبروية وعلم النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام حينما شاهد آثار علومهم ووجدها تفوق علم البشر بمراتب عالية، كما حصل ذلك مرارا لمجاميع من علماء الأديان حينما وقفوا على كلام النبي وأهل بيته عليهم السلام، فالأمر

أوضح من الشمس وأبين من امس؛ لأن ذلك لازم إيمانه بالقرآن وبإمامة الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام وخلافتهم، واعتقادهم بأنهم أعقل الناس وأول العارفين بالله تعالى، وأن الله تعالى قد خصّهم بمعرفته، وأنّ الكل يحتاجون إليهمْ وهم لا يحتاجون إلى أحد.

فلا يجوز لمن اعتقد مثل هذا الاعتقاد، أن يرجع في مقام معرفته سبحانه أو التنبه إلى الاستدلالات العقلية عليه سبحانه، إلى غيرهم صلوات الله تعالى عليهم، فأنت لا ترى من أراد زيادة المعرفة، يرجع إلى غير من يعتقد بأنه صاحب خبرة ودراية في ذلك العلم، أو يراه الأكفأ والأعلم.

وبالجملة، فإن من أهم ما وصف القرآن نفسه، أنه برهان ونور وهداية شفاء لما في الصدور، وبينات وتبيان وفرقان وبصائر، وأنه يهدي للتي هي أقوم، وأن دعوته بالذات تخصّ المتفكرين وأولي الألباب والعقلاء.

وكذلك النبي وأهل البيت عليهم السلام، فلا يعقل أن يكون ديناً كهذا يترك الناس في مجال العقيدة والتوحيد ومعرفة الله تعالى، من دون أن يروّيهم من صافي عيون المعرفة وينابيع الحكمة بالبراهين العقلية والتذكيرات الفطرية، ولا معنى لعدم تصديه لدفع الشبهات التي تهدم أساس دعوته، فليس شأن القرآن والحديث منحصراً في بيان التعبديات والأحكام وآداب الأكل والشرب والجلوس، مما يكون متأخراً عن الاعتقاد بحجيته وعصمته، بل الأهم من ذلك الدعوة إلى الرب بالحكمة والموعظة الحسنة.

قال أمير المؤمنين سلام الله تعالى عليه: **«فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ ووَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ ويُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ ويَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ ويُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ»**.(١)

---

(١) نهج البلاغة الخطبة الأولى.

ومن هنا تظهر الخدشة في كلام من يزعم أنّ من اقتصر على تعلّم علوم القرآن والعترة، فلايتمكّن من مخاطبة غير المؤمنين من الكفار والملحدين، وذلك لزعمه عدم تصدّي الكتاب والعترة لذلك، وهذا وهم باطل.

العلوم الآلية والاستقلالية

إنّ جملة من العلوم، يحتاج إليها الإنسان في سبيل فهم كلام القرآن والعترة، وذلك كعلم اللغة حيث إنّه نزل بلسان عربي مبين، وكذلك ما يتوقف عليه فهم الدلائل والأدلة من الكلام والقواعد التي يحتاج إليها الإنسان في الاستظهار والاستنباط، فإنّ هذه العلوم ليست في عرض التعلم من كلام القرآن والعترة، ولاتعطي معلومة موازية للمعطية الوحيانية، بل هي مقدمة لفهم الوحي، وكلما كان الإنسان أكثر اتقاناً فيها، كان أكثر فقهاً لكلامهم.

وهنالك علوم أخرى لاتقع في سبيل فهم كلام الوحي، بل تعطي معلومة موازية للمعطية الوحيانية، قد تتوافقان وقد تتخالفان، ومسائل هذه العلوم على قسمين:

فمنها: ما يكون من البديهيات والضروريات التي لا يختلف فيها اثنان، أو النظريات التي يسهل الوقف عليها لعامة الناس بالتفات يسير، ولا تتوقف معرفتها على إعمال جهد معين ودراسة علم تخصصي من تلك العلوم الاستقلالية، بل ليست هي مخصوصاً بتلك العلوم وحكراً عليها.

ومنها: ما تكون من المسائل التخصصية المخصوصة بذلك العلم الاستقلالي التي لاتتيسّر معرفتها إلا بعد صرف جهد وعناء في سبيل تعلم ذلك العلم، ومداومة التأمل والبحث والتحقيق وهي في طور التطور دائماً.

فأما القسم الأول، فلا ضير في أن تكون دعوة الأنبياء متوقفة عليه، وذلك لبداهتها

وعموميتها، وأنّ فهمها لايتوقف على جهد معين.

وأما القسم الثاني، فإن كانت الدعوة، والخروج عن الإلحاد تتوقف عليه، فلا محالة لابد وأن يكون أول من يتصدى لبيان تلك المقدمات هُم الأنبياء والرسل؛ إذ لا معنى لأن تكون دعوتهم مبتنية على أسس، ومن دونها لا تُفهَم الدعوة، ويكون اتباعهم اتباع الأعمى، ومع ذلك هم لا يتصدون لبيان تلك الأسس للناس بشكل واضح!

فكيف يتوقعون من الناس أن يتبعوهم في الدعوة، وهم لم يتيسر لهم فهم حججهم وبراهينهم، أو عندهم شبهات لم يتصد الأنبياء لرفعها ودفعها؟!

فهذه دعوة فاشلة والعياذ بالله تعالى وليست حكيمة!

بينما نجد أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وآله أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ﴾.(١)

فهل تتعقل أن ديناً رفع راية العقل والتعقل، وملأ نداؤه الخافقين بحرمة اتباع ما لا يُعلم، وأنّب الذين يعتقدون بما لا يعقلون، يطلب من الناس أن يؤمنوا به، ويعتقدوا بما يملي عليهم، وهم ما فهموا بعد حججه وبراهينه؟ كونها متوقفة على مقدمات وأسس لم يكن الأنبياء هم من تصدوا لبيانها!

ثم يصف غير المؤمنين بالكفار ويكثر تأنيبهم وتقريعهم، بل ويرفع راية الجهاد ضدهم!

كلا ثم كلا! فإن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.(٢)

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) يوسف: ١٠٨.

وقال: ﴿قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ومَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وهُدىً ورَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُون﴾.(٢)

وطالما وصف كلامه بالبينات وكلامه بالنور والهدى والفرقان وشفاء لما في الصدور.

---

(١) الأنعام: ١٠٤.

(٢) الجاثية: ٢٠.

الأسئلة:

١- هل كان الأنبياء يخصصون دعوتهم لشريحة خاصّة من الناس، وما هي اللغة التي كانوا يخاطبون بها الأمم، سيما غير المؤمنين والملحدين، اذكر خمساً من آيات القرآن تثبت المدّعى.

٢- اذكر البرهان العقلي على لزوم الاستماع لدعوى الأنبياء في معرفة الله تعالى لغير المؤمن.

٣- قد يقال: إنّ التكامل في العلم وتقوية العقيدة، متوقف على عدم الاكتراث بما تعلّمه الإنسان سابقاً، وفرض نفسه جاهلاً، ما هو الرد عليه؟

٤- اذكر بعض الآيات القرآنية المبيّنة لمناصب النبي صلى الله عليه وآله في مجال الدعوة إلى الإيمان.

٥- هل يجب على من يريد تعلم العقيدة الصحيحة من كلام القرآن والعترة أن يتعلم سائر العلوم؟ اذكر التفصيل.

الفصل الأول

التوحيد

الدرس الثالث: معرفة الله تعالى (١)

إثبات الصانع

لو رأيت بناءً كبيراً ذا دقّة عالية، فهل يقبل عقلك أن يكون البناء قد حدث من تلقاء نفسه من دون بانٍ؟!

وإذا قال أحد: بما أني لم أر بانيه فإنه ليس له بان، فما ذا يحكم العقلاء عليه؟!!

ولو رأى الإنسان مكان البناء الضخم عمارة صغيرة مبنية من الطين فهل يقبل أن يكون هذا البناء الصغير مصنوعاً من دون صانع؟!

بعبارة أخرى: أنّ حاجة المصنوع إلى الصانع ليس من أجل عظمته وأهميته ودقته، بل الفعل حتى ولو كان حقيراً وصغيراً، لا يمكن أن يكون من دون صانع وفاعل.

ولو تأمّلنا في المثال، نرى أنّ وجه الحاجة إلى الصانع إنّما هو في تركيب أجزاء البناء وتأليفها، وليس في أصل وجود الأجزاء، وذلك من أجل أنّ تركيب أجزاء البناء وتماسكها وصيرورتها بهيئة المبنى، ليس ذاتياً لتلك الأجزاء والمواد، فإنّها لو كانت كذلك لما انفكّ عنها، ولكانت تبنى من تلقاء نفسه، ولما قبل الهدم والفناء، لأنّ ذاتيات الشيء لاتقبل التفكيك عن الذات، فالمبنى في كونه بهذه الهيئة المخصوصة، محتاج وفقير لمن يؤلّفه.

وهكذا حروف الكتاب، وكتب المكتبة، فإنّ التأليف والتركيب الخاص ليس من تلقاء نفسها، بل محتاجة لمن يؤلّفها بهذه الهيئة المخصوصة.

فحينما نرى الضعيف والفقير، قد حصل على غناء وهو ليس له هذا الغناء في حدّ ذاته، فنعلم أنّ هناك من أغناه وأوجده ذلك.

قال أول العارفين بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه في مقام التذكير بهذه الحقيقة: «**وَ هَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَان؟**».(١)

فإن كان البناء محتاجاً لبانٍ فالجناية أيضاً تحتاج لجانٍ، وذلك أن احتياج المصنوع إلى الصانع ليس منحصراً في المصنوعات الدقيقة العظيمة المبنية على أساس الحكمة والدقة، والمبنية على النظم، بل كل فعل حتى لو كان غير منظم وغير حكيم، بل حتى لو كانت جناية فلا يمكن ان توجد من غير صانع وفاعل وجانٍ، نعم كلما كان المصنوع أكثر إتقاناً ونظماً وحكمة ودقة، كان احتياجه إلى الصانع أشد ظهوراً، وإنكار أن يكون له صانع أكثر قبحاً.

فمن لا يقبل عقله برسم بسيط على ورق مؤلف من بعض الخطوط أن يكون من دون راسم، فكيف يقبل عقله ان تكون هذه السماوات والأرض مع كل ما فيها من جمال وإتقان ونظم وتدبير وأصناف النبات والأشجار والأزهار، ومختلف الحيوانات، واختلاف الليل والنهار، والكواكب والأنهار والبحار وما فيها من العجائب، من دون صانع؟

ويكفيك أن تنظر إلى نفسك وما أودع الله تعالى فيها من جمال وإتقان ودقة وتدبير، فإنْ كانت صورة الإنسان المرسومة على الورق لاتكون من غير صانع فكيف بالإنسان نفسه؟

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**البَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى البَعِيرِ، والرَّوْثَةُ تَدُلُّ عَلَى الحَمِيرِ، وآثَارُ**

---

(١) نهج البلاغة خطبة رقم ١٨٥.

القَدَم تَدُلُّ عَلَى المَسِيرِ، فَهَيْكَلٌ عُلْوِيٌّ بِهَذِهِ اللَّطَافَةِ، ومَرْكَزٌ سُفْلِيٌّ بِهَذِهِ الكَثَافَةِ، كَيْفَ لَا يَدُلَّانِ عَلَى اللَّطِيفِ الخَبِيرِ.؟!».[١]

صفات المصنوع كلها صفات الفقر والاحتياج

إن طريق القرآن ومنهجه وطريق أهل البيت عليهم السلام في الدعوة والتذكير بآيات الصنع، ارتكز على الالفات والتنبيه الى التمايز بين صفات المصنوع وصفات الصانع، فحينما عرفنا صفات المصنوع، سوف نعرف أن له صانعاً ليس بصفته.

إن صفات المصنوع والمخلوق كلها صفات الفقر والحاجة، فإنّ المصنوع هو الشيء القائم بالغير، ومحتاج لمن يصنعه ويقيمه، حيث لايكون له غناء وكمال في حدّ ذاته.

والمراد بالقيام بالغير، أنّ وجوده وكمالاته ليست بذاته، فهو في أن يكون موجوداً، وأن يكون واجداً لأي كمال آخر، محتاج لمن يُوجِده ويُقِيمَه، فالمصنوع فقير بذاته.

وطريق معرفة ذلك، طرو الحالات المختلفة على الشيء: من الفقدان والوجدان، والازدياد والنقصان، والحد والقهر، وغيرها، فإنّ ما يقبل العدم، لايمكن أن يكون الوجود ذاتياً له، وما يقبل الضعف، لايمكن أن يكون الغنى ذاتياً له، وما يقبل النقصان لايمكن أن تكون الزيادة ذاتية له.

فكل محدود مصنوع، كما أنّ كلّ متغير وكل متكيّف، وكل حادث، وكل زائل، وكل صغير، وكل كبير، وكل مقهور وممنوع، مصنوع، وذلك أنّ الحد والقهر والضعف آية المصنوع.

فإذا وجدنا ما يكون بهذه الصفات، فلا نتريّث في الحكم بوجود القادر القاهر

---

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص ٥٥.

القائم بذاته المباين مع المصنوع في صفاته، ليس بمحدود ولاضعيف ولايطرأ عليه تلك الحالات التي تطرأ على المصنوع، فإنّه لايمكن أن يوجد المصنوع أو يقام، إلا بغنيّ لايوجد فيه شيء من صفات المصنوع.

ثم إنّه لايخلو من اثنين، لاثالث لهما:

فإما أنّه أوجده وصنعه بنفسه مباشرا، أو خلق مصنوعا آخر وأقامه وأعطاه العلم والقدرة، فصنعه ذلك المخلوق بالقدرة التي أعطاه الغني بالذات.

ثم من بعد الصنع، يكون الكلام في قيامه وبقائه، ووجدانه لسائر الكمالات، نفس الكلام في الصنع، وذلك أنّ الفقير والقائم بالغير، كما يحتاج إلى الصانع في ابتداء وجوده، كذلك يحتاج في بقائه وتحولاته وتغيراته، فبقاء الفقير كحدوثه محتاج للقيّم.

قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِين وفي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُون﴾.(١)

روى الكليني بسنده عن محمد بن عبدالله الخراساني خادم الرضا عليه السلام قال: دخل رجل من الزنادقة على أبي الحسن عليه السلام. قال الرجل: فما الدليل عليه؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: **«إِنِّي لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى جَسَدِي ولَمْ يُمْكِنِّي فِيهِ زِيَادَةٌ ولَا نُقْصَانٌ فِي العَرْضِ والطُّولِ، ودَفْعِ المَكَارِهِ عَنْهُ وجَرِّ المَنْفَعَةِ إِلَيْهِ، عَلِمْتُ أَنَّ لِهَذَا البُنْيَانِ بَانِياً فَأَقْرَرْتُ بِهِ مَعَ مَا أَرَى مِنْ دَوَرَانِ الفَلَكِ بِقُدْرَتِهِ، وإِنْشَاء السَّحَابِ، وتَصْرِيفِ الرِّيَاحَ، ومَجْرَى الشَّمْسِ والقَمَرِ والنُّجُومِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ العَجِيبَاتِ المُبَيِّنَاتِ، عَلِمْتُ أَنَّ لِهَذَا مُقَدِّراً ومُنْشِئاً»**.(٢)

مما يحكم به العقل البديهي أن الضعيف، أي الذي لايقدر على القيام، لا يقوم إلا بالاستناد إلى قوي يُقيمه، وكل ما نظر الإنسان في نفسه وسائر ما حوله من الموجودات،

---

(١) الذاريات: ٢٠ و٢١.

(٢) الكافي: ج١ ص٧٨

يرى آثار الضعف والعجز واضحة ظاهرة فيها، فإنّ جميع صفات المصنوع إنما هي صفات ضعف وحدّ واحتياج، وليس له غناء وكمال ذاتي بحيث لا يكون في ذلك الكمال محتاجاً إلى غيره، بل ليس كمال المصنوع إلا فقره إلى غيره.

ومما يشهد على فقر الإنسان واحتياجه التأمل في الحالات المختلفة الطارئة على الإنسان، فمرة يعلم وأخرى يجهل، ومرة يذكر وأخرى ينسى، ومرة يقدر وأخرى يضعف، ويستيقظ وينام، فلا يستطيع أن لا ينام كما لا يستطيع أن لا يستيقظ، وفي منامه يسلب منه كثير من قدراته وعلومه وكمالاته، كما أنه يولد وهو لا يستطيع أن يجرّ منفعة إلى نفسه، ولا يدفع عنها ضراً، ثم يكبر فيقدر على بعض الأمور، ثم يشيب فتسلب منه تلك القدرة، والإنسان في كل هذه الحالات والأطوار مقهور ومضطر، لا يستطيع أن يحفظ لنفسه حينما يقبض عنه، ولا يستطيع أن لا يقبل ما يعطى إليه.

فهذه الكمالات ليست ذاتية للإنسان، بل هي تقبض وتبسط له، ولو كانت ذاتية له أو كانت ملكه مستقلاً، لما سلبت عنه ولما قهر على سلبها عنه، فإن التفكيك بين الشيء وذاتياته محال!

فإذا لم تكن هذه المواصفات والكمالات من عند نفسه، فلابد وأن تكون بغيره، فالإنسان في كونه قادراً وعالماً وحياً وموجوداً يحتاج للمدد المتواصل، وهذا هو الذي قلنا إنّ كمال الإنسان ليس إلا فقره إلى الله تعالى.

وكذلك يجد الإنسان أنّه ليس هو المتصرف في أعضاء بدنه الداخلية، وتلك الأفعال التي تحدث في كل لحظة في جسد الإنسان وبدنه، من الجهاز الهضمي والعصبي والجهاز المناعي، وجريان الدم في الأوردة والشرايين التي لا يمكن أن تحدث من دون صانع أو مدبر حكيم، والمفروض أن الإنسان لا يعلم بتلك الفعاليات التي تحدث في بدنه، فضلاً

أن يكون هو صانعها، بل هو مقهور ومضطر لأن يكون محلا لهذه الفعاليات.

فكل صفة في الإنسان وكل شيء فيه ينادي ويصرخ بفقر الإنسان وضعفه واحتياجه، فصحيح أن الدم يجري في العروق، إلا أنّ هذا الجريان محتاج لمن يدبره وينظمه، فجريان الدم الذي هو كمال وموجب لحياة الإنسان، آية فقره واحتياجه للغير وكذلك سائر الأمور وكذا علمه وقدرته.

فإن قدرة الإنسان لّما لم تكن ذاتية له بدليل زوالها عنه في حالات كالمنام والمرض والهرم، وبدليل ازديادها ونقصانها قهراً، فيكون الإنسان مقهوراً للزيادة والنقيصة والوجدان والفقدان، فهذا برهان جلي وواضح على أن الإنسان وقدرته قائمان بالغير، فلا الإنسان قائم بذاته ولا قدرته قائمة به، بل هو في أن يكون قادراً، محتاج إلى من يفيض له هذا الكمال في كل آن ولحظة.

فقدرة الإنسان آية لاحتياجه إلى من يفيض عليه القدرة آناً بعد آن، لأنها إذا لم تكن ذاتية للإنسان ولم تُفَضْ من غيره إليه فإنه سوف لن يكون قادراً.

فوجود القدرة في الإنسان مع كونها غير ذاتية له، دليل على فقره إلى من يمنحه القدرة، وهكذا علمه وشعوره وعقله حيث يؤخذ عنه ويعطى إليه، ويزيد وينقص.

فظهر مما ذكرنا أن صفات المصنوع كلها صفات فقر وحاجة واضطرار، ولا توجد صفة في المخلوق لا تدل على فقره واحتياجه، بل كمالاته عين الفقر إلى الغير.

ضرورة الاعتراف بصانع ليس بصفة المصنوعات

فبعد أن عرف الإنسان حقيقة نفسه وحقيقة المصنوعات، يضطر لأن يعترف بصانع يكون منزهاً عن هذه الصفات، أي صانع يكون قائما بذاته، ولا يكون محدوداً ولا متغيراً

ولا حادثاً، ولا يقبل الزيادة والنقصان، ولا يكون معروضاً للعوارض المختلفة، ولا يحكم عليه بالزمان والمكان، لأن هذه صفات كلّها صفات الفقر والحد، ونحن حينما نرى المصنوعات المحدودة المتغيرة المقهورة، نعرف أن وجودها وبقاءها وكمالها وتغيّرها لما لم يكن بذواتها، فلابد وأن يكون بشيء آخر مغاير مع المصنوع في صفاته.

وبكلمة مختصرة: أنك حينما ترى الضعيف والعاجز عن شيء صار واجداً لذلك الشيء، ستعلم أن هناك قادراً منحه ذلك، لا ضعيف آخر مثله.

ومن هنا، كلما كان الإنسان أكثر معرفة بنفسه واحتياجات ذاته، وكلما وجد فقره واضطراره، سوف يكون أكثر معرفة بربه، ومن هنا ورد في الحديث الشريف: «**أَعْرَفُكُمْ بِنَفْسِهِ أَعْرَفُكُمْ بِرَبِّه**».(١)

وسئل الرضا عليه السلام: ما الدليل على حدوث العالم؟ فقال: «**أَنْتَ لَمْ تَكُنْ ثُمَّ كُنْتَ، وقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَمْ تُكَوِّنْ نَفْسَكَ، ولَا كَوَّنَكَ مَنْ هُوَ مِثْلُكَ**».(٢)

---

(١) روضة الواعظين: ج١ ص٢٠.

(٢) التوحيد للصدوق: ٢٩٣.

الأسئلة:

١- ما هو موقع إثبات النظم في براهين إثبات وجود الله تعالى سبحانه؟

٢- ما معنى الحديث الشريف «**أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه**».؟

٣- هل معرفة الله تعالى والإيمان متوقفة على إثبات النظم في العالم؟ أي لو فرضنا أنّ العالم لم يكن منظما لما احتاج لصانع غني بالذات؟

٤- ما هي صفات المصنوع، ولماذا صفات المصنوع كلّها صفات الفقر والفاقة بما فيها الصفات الكمالية للمصنوع؟

٥- ما هو البرهان على كون العلم والقدرة غير ذاتيتين للإنسان؟

٦- كيف يمكن إثبات الصانع العليم القدير، من خلال فعل صادر من البشر؟

٧- ما الضير في كون الصانع بصفة المصنوع؟

الدرس الرابع: معرفة الله تعالى (٢)

معرفة الله تعالى وسلسلة الأسباب والوسائط في حدوث الأفعال

إذا رأيت قلماً يتحرك على قرطاس ويرسم خطوطاً مبعثرة، أو رسماً بديعاً، فبطبيعة الحال تبحث وتسأل عن الصانع والمحرك للقلم، حتى لو لم تره، وهذا لأجل ما تعلم من أن القلم بنفسه غير قادر على الحركة، حتى ولو كانت حركات غير منظمة ومبعثرة، وهذا تطبيق للقاعدة العقلية التي مرت آنفاً؛ إنّ من لم يقدر بذاته على شيء إذا قام بذلك الشيء، نعلم أنه في هذا الشيء مستند إلى الغير.

فإذا سألت عن الراسم والمحرك للقلم، فهل يقنعك لو أجبت بأن الصانع والمحرك خشبة أخرى طويلة مربوطة بطرف القلم؟

كلا! لأنك لم تكن باحثاً عن خشبة أخرى ضعيفة وغير قادرة على الحركة مثل القلم، فتعلم أنّ هذه الخشبة بيد من هو قادر على مثل هذا الفعل، فتوسط هذه الخشبة لا يوجب إنكار الصانع، أو اسناد الصنع إلى الخشبة اليابسة.

فإذا رأيت أن هناك إنساناً هو من يحرك الخشبة، وبتبع ذلك يتحرّك القلم فيرسم هذه الخطوط، هنا يأتي السؤال بأن هذا الإنسان الذي يوجد هذه الحركة بقدرته وعلمه، هل يكون غنياً ومستقلاً وغير محتاج في هذا العلم والقدرة، بل وفي أن يكون موجوداً حياً؟

وواضح أن الإجابة ستكون بالنفي، فهنا يسأل عمن منح القدرة للإنسان حيث

لا تكون ذاتية له، ومن منح له الحياة ولابد أن لا يكون مثله محدوداً فقيراً محتاجاً، لأنه كما قلنا: المحتاج يدل على الغني الذي أغناه، ولا يدل على فقير مثله، لأن الفقير لا يُغني فقيرا، فرأيت أن حركة خفيفة من قلم بيد إنسان تدل على وجود إله منزه عن صفات المخلوق.

ومن هنا ينفتح علينا باب، وهو؛ أن ما يحدث في الكون من الحوادث الطبيعية، أو أحداث كونية فلكية، أو ما يحصل في ذات الإنسان وكذلك التطور الحاصل جراء اكتشافات واختراعات البشر وأفعاله أو غير ذلك، وإنْ كانت مسببة بأسباب طبيعية، وأخرى إرادية، إلا أن توسط هذه الأسباب لا يُبرّر أن ننسب الغنى إلى الأسباب والوسائط، ونحكم بأنها هي من تسد حاجة المصنوعات والمخلوقات، لأن تلك الأسباب لما كانت بنفسها فقيرة ومحتاجة، وتوجد فيها آيات الصنع، فلا تعدو أكثر من أن تكون وسائط وأسباباً وفواعل، وهي بدورها محتاجة إلى غنيّ يكون غناه ذاتياً له ولا يكون مستمد العون من غيره.

أي: إن رؤية المصنوع وفقره واحتياجه يُذكّر الإنسان بوجود غني لا يكون بصفة المصنوع، هو الذي أغناه وأقامه حتى ولو كان عبر وسائط وأسباب أخرى، إلا أنّ سلسة هذه الأسباب لابد وأن تنتهي إلى الله تعالى الذي لا يكون بصفة المخلوقين، ولا يكون محلا للحوادث والعوارض والضعف.

معرفة مسبب الأسباب مقدمة على معرفة الأسباب

بل إنّنا حينما نرى المصنوع، فأول ما نعرف من خلاله هو الصانع المنزه عن صفته، وبعد ذلك نعرف وسائط فعله إن كانت لها وسائط.

فمثلاً: حينما ترى القلم يتحرّك على القرطاس، فأولاً تعرف المحرّك العالم الشاعر،

وبعد ذلك تلتفت إلى أن الفاعل إنما فعل هذا الفعل عبر وسائط لفعله، وليست معرفة الوسائط متقدمة على معرفة الفاعل الحقيقي، لأنّك حينما ترى الضعيف قام، فستعلم أنّ غنيا أقامه أو أعطاه القدرة على القيام، سواء أقامه مباشرة أم عبر وسيلة طبيعية أم إرادية، لا ضعيفاً آخر مثله.

وهكذا كلّ ما يحدث في عالم الخلقة، ففي الدرجة الأولى يدلّ على صانع منزه عن صفات المخلوقين، ثم في المرحلة الثانية يدلّ على الوسيط والسبب المباشر، سواء أكان من الأسباب التكوينية الطبيعية، أم من الفواعل الإرادية، فمعرفة الله تعالى ليست بالارتقاء في الأسباب والعلل لكي نصل من خلالها لمسبب الأسباب، بل هي متقدمة على معرفة الأسباب والعلل.

ومن هذا المنطلق نعرف أنه كلما تعاظمت وتكاثرت أفعال البشر من الاختراعات والاكتشافات الحديثة، تظهر حاجة الإنسان إلى الله تعالى أكثر، لأنه لما لم تكن كمالاته قائمة بذاته، فكلما كان أكثر كمالاً، كان أكثر احتياجاً لمن يعطيه هذا الكمال ويقوّمه، فمثلاً إن كان المصباح فاقدا للطاقة الكهربائية بذاته، فكلما كانت إنارته أكثر كان أكثر حاجة إلى مصدر الطاقة ليزوّده بها آنا بعد آن، وهذه هي صفة الفقير القائم بالغير، كلما كبر وعظم وارتقى في كمالاته، كلما يظهر فقره وحاجته أكثر من ذي قبل، ومن هنا يكون أفقر الناس إلى الله تعالى أكثرهم كمالاً.

مناظرات الإمام الصادق عليه السلام مع بعض الملاحدة

في حوار دار بين الإمام الصادق وابن أبي العوجاء سأله الإمام فقال له: «**أَمَصْنُوعٌ أَنْتَ أَوْ غَيْرُ مَصْنُوعٍ؟**».فقال عبد الكريم بن أبي العوجاء: بل أنا غير مصنوع، فقال له العالم عليه السلام: «**فَصِفْ لِي لَوْ كُنْتَ مَصْنُوعاً كَيْفَ كُنْتَ تَكُونُ؟**».فبقي عبد الكريم ملياً

لا يحير جواباً، وولع بخشبة كانت بين يديه، وهو يقول: طويل عريض عميق قصير متحرك ساكن، كل ذلك صفة خلقه، فقال له العالم: «**فَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَعْلَمْ صِفَةَ الصَّنْعَةِ غَيْرَهَا، فَاجْعَلْ نَفْسَكَ مَصْنُوعاً لِمَا تَجِدُ فِي نَفْسِكَ مِمَّا يَحْدُثُ مِنْ هَذِهِ الأُمُور**».(١)

قد نبّه الإمام عليه السلام في هذا الحديث الشريف إلى أن جميع صفات الأشياء التي نشاهدها، ومنها الإنسان نفسه، كلها صفات المصنوع، أي إن جميعها تدل على الحد والضعف والمقهورية والعجز، فإن الطول والعرض والعمق والارتفاع كلها حدود في الأجسام، والمحدود يكون ضعيفاً ومنتهياً إلى حد ليس له أن يتجاوزه.

وفي مناظرة أخرى جرت بين الإمام الصادق وابن أبي العوجاء حينما ادعى الأخير بأن الله تعالى لما لم يظهر لخلقه، واحتجب نفسه عنهم، فلا سبيل لمعرفته، فقال له الإمام الصادق عليه السلام: «**وَيْلَكَ وكَيْفَ احْتَجَبَ عَنْكَ مَنْ أَرَاكَ قُدْرَتَهُ فِي نَفْسِكَ، نُشُوءَكَ ولَمْ تَكُنْ، وكِبَرَكَ بَعْدَ صِغَرِكَ، وقُوَّتَكَ بَعْدَ ضَعْفِكَ، وضَعْفَكَ بَعْدَ قُوَّتِكَ، وسُقْمَكَ بَعْدَ صِحَّتِكَ، وصِحَّتَكَ بَعْدَ سُقْمِكَ، ورِضَاكَ بَعْدَ غَضَبِكَ، وغَضَبَكَ بَعْدَ رِضَاكَ، وحُزْنَكَ بَعْدَ فَرَحِكَ، وفَرَحَكَ بَعْدَ حُزْنِكَ، وحُبَّكَ بَعْدَ بُغْضِكَ، وبُغْضَكَ بَعْدَ حُبِّكَ، وعَزْمَكَ بَعْدَ أَنَاتِكَ، وأَنَاتَكَ بَعْدَ عَزْمِكَ، وشَهْوَتَكَ بَعْدَ كَرَاهَتِكَ، وكَرَاهَتَكَ بَعْدَ شَهْوَتِكَ، ورَغْبَتَكَ بَعْدَ رَهْبَتِكَ، ورَهْبَتَكَ بَعْدَ رَغْبَتِكَ، ورَجَاءَكَ بَعْدَ يَأْسِكَ، ويَأْسَكَ بَعْدَ رَجَائِكَ، وخَاطِرَكَ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي وَهْمِكَ، وعُزُوبَ مَا أَنْتَ مُعْتَقِدُهُ عَنْ ذِهْنِكَ**».

قال ابن أبي العوجاء: وَمَا زَالَ يُعَدِّدُ عَلَيَّ قُدْرَتَهُ الَّتِي هِيَ فِي نَفْسِي الَّتِي لَا أَدْفَعُهَا حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَظْهَرُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَه.(٢)

---

(١) الكافي: ج ١ ص٧٦.

(٢) الكافي: ج١ ص٧٥.

قد نبّه الإمامعليه السلام ابن أبي العوجاء على فقر الإنسان وضعفه واحتياجه، وأن موجودا بهذه الصفة لا يمكن أن يكون غنياً بالذات، بل هو مقهور ومدبَّر وضعيف ومصنوع، وذلك أنه إنْ كان غنياً قائماً بذاته لم يكن مقهوراً للعوارض المختلفة، ولما يسلب عنه ما وجده من بعض الكمالات.

فإنْ لم يكن الإنسان - وهذه صفته - مصنوعاً ومدبَّراً، فما هي صفة المصنوع والمدبر؟

فإنه لا يخلو من أمرين:

إما أن يكون المصنوع والضعيف والمحتاج، هو ما يكون متغيراً ومقهوراً ومتقلباً في الحالات المختلفة، يُسلب عنه الوعي بعد أن كان واعياً، ويُعطى العلم بعد أن كان فاقداً، ثم يُؤخذ منه أخرى، وكذلك حزنه وفرحه وشهوته وغضبه وعزمه وذكره ونسيانه وقدرته وحياته.

أو يكون المصنوع من كان ثابتاً غير متغير وغير متقلب، لا يُسلب عنه الكمال، ولا يكون فيه حد ولا يقهر بشيء، وليس فيه مجال للقبض والبسط والزيادة والنقصان.

فان كان هنالك مصنوعٌ فهل سيكون هو الأول أم الثاني؟!!

المسألة واضحة ولا تحتاج إلى مزيد تأمل، وهذا مؤدى كلام الإمامعليه السلام «**لَوْ كُنْتَ مَصْنُوعاً كَيْفَ كُنْتَ تَكُون؟**».

وبعد ما ثبتت المصنوعية والضعف والفقر، فلا مناص من الإقرار بوجود صانع حكيم ليس بصفة المصنوع، وهذا الآخر بديهي وواضح لدى العقول ولا يحتاج إلى إعمال نظر وتأمل.

وفي مجلس ثالث سأل الملحد الإمام الصادق عليه السلام فقال: مَا الدَّلِيلُ عَلَى حَدَثِ الأَجْسَامِ؟

فَقَالَ الإمام عليه السلام: «**إِنِّي مَا وَجَدْتُ شَيْئاً صَغِيراً وَلَا كَبِيراً إِلَّا وإِذَا ضُمَّ إِلَيْهِ مِثْلُهُ صَارَ أَكْبَرَ، وفِي ذَلِكَ زَوَالٌ وانْتِقَالٌ عَنِ الحَالَةِ الأُولَى، ولَوْ كَانَ قَدِيماً مَا زَالَ ولَا حَالَ، لِأَنَّ الَّذِي يَزُولُ ويَحُولُ يَجُوزُ أَنْ يُوجَدَ ويُبْطَلَ، فَيَكُونُ بِوُجُودِهِ بَعْدَ عَدَمِهِ دُخُولٌ فِي الحَدَثِ، وفِي كَوْنِهِ فِي الأَزَلِ دُخُولُهُ فِي العَدَمِ، ولَنْ تَجْتَمِعَ صِفَةُ الأَزَلِ والعَدَمِ والحُدُوثِ والقِدَمِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ**».

فَقَالَ عَبْدُ الكَرِيمِ: هَبْكَ عَلِمْتَ فِي جَرْيِ الحَالَتَيْنِ وَالزَّمَانَيْنِ عَلَى مَا ذَكَرْتَ، وَاسْتَدْلَلْتَ بِذَلِكَ عَلَى حُدُوثِها، فَلَوْ بَقِيَتِ الأَشْيَاءُ عَلَى صِغَرِهَا مِنْ أَيْنَ كَانَ لَكَ أَنْ تَسْتَدِلَّ عَلَى حُدُوثِهِنَّ؟

فَقَالَ العَالِمُ عليه السلام: «**إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ عَلَى هَذَا العَالَمِ المَوْضُوعِ، فَلَوْ رَفَعْنَاهُ ووَضَعْنَا عَالَماً آخَرَ، كَانَ لَاشَيْءَ أَدَلَّ عَلَى الحَدَثِ مِنْ رَفْعِنَا إِيَّاهُ ووَضْعِنَا غَيْرَهُ! ولَكِنْ أُجِيبُكَ مِنْ حَيْثُ قَدَّرْتَ أَنْ تُلْزِمَنَا، فَنَقُولُ: إِنَّ الأَشْيَاءَ لَوْ دَامَتْ عَلَى صِغَرِهَا لَكَانَ فِي الوَهْمِ أَنَّهُ مَتَى ضُمَّ شَيْءٌ إِلَى مِثْلِهِ كَانَ أَكْبَرَ، وفِي جَوَازِ التَّغْيِيرِ عَلَيْهِ خُرُوجُهُ مِنَ القِدَمِ، كَمَا أَنَّ فِي تَغْيِيرِهِ دُخُولَهُ فِي الحَدَثِ. لَيْسَ لَكَ وَرَاءَهُ شَيْءٌ يَا عَبْدَ الكَرِيمِ**».

فَانْقَطَعَ وَخُزِيَ.(١)

و هنا استدلّ الإمام عليه السلام بوجود صفة الزيادة والنقص والزوال والانتقال وتغيير الحال وعدم الثبات على حال واحد، على أنّه مصنوع وضعيف ومقهور، وبالتالي قائمٌ بمن ليس بصفته، فلا يتغير ولايزول ولايحول ولاينقص ولايكبر، بل ما يمكن فيه

---

(١) الكافي: ج١ ص ٧٧.

حصول التغيير، أي ما يمكن أن يتحوّل من حال إلى حال، وما يمكن توهّم الزيادة والنقصان فيه، فهو مصنوع وضعيف، فإنّ الغني بالذات لايأتي فيه هذا الاحتمال ولايمكن توهم ذلك فيه، فمثلاً ما يمكن أن تتوهمه ظلمانيا فهو ليس بنور، فإنّ نورانيّة النور ذاتية للنور، ومن هنا لايأتي فيه هذا الاحتمال، وكل ما يأتي فيه هذا الاحتمال فهو بالضرورة ليس عين النور، وهذا برهان على عدم إمكان توهم الله تعالى وتوصيفه بصفات المخلوقين.

التنبيه على نقاط:

الأولى: سهولة البرهان في عين إحكامه

كما ظهر مما مر أن هذا البرهان لا يحتاج إلى أزيد من أن يتوجه الإنسان إلى حقيقة نفسه، وحقيقة سائر المصنوعات.

فالعائق عن فهم هذا البرهان هو زعم الغنى والاستقلال والاطلاق وعدم المحدودية، ومتى ما تذكر الإنسان حقيقة نفسه يضطر إلى الاعتراف بإله علي قدير، وهذا كما ترى في عين إحكامه يسهل فهمه لكل عاقل بأدنى تذكير.

الثانية: عدم التوقف على إبطال الدور والتسلسل

هذا البرهان غير متوقف على ابطال الدور والتسلسل، لأنه كما قلنا: إن المصنوع يدل على وجود صانع لايكون بصفته، أي صانع لا تكون فيه صفة من صفات الضعف والحد، وما كان كذلك لا يُسأل عن علة وجوده، كي يتسلسل أو يدور، لانه قائم بالذات أزلي وأبدي، فإنّ السؤال عن علّة وجود الشيء إنما يأتي في الشيء الضعيف القائم بالغير، وأما القائم بالذات فيكون السؤال عن علة وجوده تناقضاً بيناً.

الثالثة: عدم الحاجة لمناقشة نظريات التجريبيين في بدء الخلق

لانحتاج لإثبات وجود الصانع في هذا البرهان أن نسير سيراً عكسياً في عمود الزمان، لنبحث عن ابتداء الكون، وأنّه كيف بدأ الخلق، فهل بدء الخلق وانتشاره حدث جراء ما سمّوه بالانفجار العظيم[١]، أو شيء آخر، ثم ماذا كان قبل الانفجار المزعوم، بل لانحتاج لإثبات حدوث الجزء الأول من أجزاء العالم، ولا إلى غير ذلك كنظرية الانتخاب أو الانتقاء الطبيعي[٢]، مما طرحت من قبل بعض العلماء التجريبين، وقد استغلّتها الملاحدة فظنوا إنّها هي فرصتهم للفوز على الإيمان بالله تعالى، بل نحن في

(١) الانفجار العظيم (big bang) هي أحدى أهم نظريات علماء الفيزياء لتفسير نشأة الكون، ظهرت في العشرينيات من القرن الماضي، واستغرق بناؤها أكثر من أربعة عقود، وهي النظرية السائدة لتفسير نشأة الكون عندهم، وتعتمد النظرية على أن الكون كان بالماضي في حالة حارة شديدة الكثافة فتمدد، وأن الكون كان يومًا جزءًا واحداً عند نشأته، وقدّروا حدوث تلك اللحظة قبل ١٣,٨ مليار سنة، وبعد التمدد الأول، بَرَدَ الكون بما يكفي لتكوين جسيمات دون ذرية كالبروتونات والنيترونات والإلكترونات، ثم التئمت سحب عملاقة من تلك العناصر الأولية بالجاذبية لتُكوّن النجوم والمجرات، وتشكّلت عناصر أثقل من خلال تفاعلات الانصهار النجمي أو أثناء تخليق العناصر في المستعرات العظمى.

(٢) الانتخاب الطبيعي عند بعض علماء الطبيعة والأحياء هو عملية تحدث في الكون وبواسطتها تبقى الكائنات الأكثر تكيفًا مع بيئاتها على قيد الحياة، وقد أطلق على هذه العملية البقاء للأصلح، وقد شرح عالم الطبيعة البريطاني تشارلز داروين نظرية الانتخاب (الانتقاء) الطبيعي بمزيد من التفصيل خلال الخمسينيات من القرن التاسع عشر الميلادي، اعتقد داروين أن النباتات والحيوانات قد نشأت تدريجيا من أسلافها القليلة المشتركة بواسطة الانتخاب الطبيعي، وهذا الاعتقاد مبني على أساس أن بعض الصغار تموت مبكرًا قبل الأوان لأن هناك مصدرًا محدودًا من الغذاء والماء والضروريات الأخرى للحياة لجميع الكائنات، لذا تتنافس هذه الكائنات وتتصارع للحصول على ضروريات البقاء، كما تكافح أيضًا لدفع الأخطار التي تدمرها، ونتيجة لذلك تحيا الأفراد ذات الصفات الملائمة للبقاء ودفع الأخطار بينما تموت الأفراد ذات الصفات غير الملائمة وغير القادرة على الحصول على ضروريات البقاء أو دفع الأخطار، وقد اعتقد داروين أن جميع أنواع الكائنات قد استمرت بهذه الطريقة بعد حصول التناسل.

غنى عن مناقشة هذه الفرضيات والنظريات، إن كانت صحيحة أو باطلة، مع أنّها في أحسن التقادير فرضيات لم يقم عليها دليل إلا التمثيل والتشبيه والاستقراء الناقص، مع كثير من التخرّص والتظني بل التوهم، وجملة من مفرداتها منقوضة بالوجدانيات والمحسوسات وبعضها بضرورة الأديان والشرايع، كلّ ذلك لا يهمّنا في هذا المقام، فليس شيئٌ من هذه النظريات - حتى لو سلمت عن النقاشات الموضوعية في داخلها - ينفي وجود الإله العالم القادر الكبير المتعال عن صفات المخلوقين.

وذلك لما أكّد عليه في هذا البرهان، أنّ وجود صفات المصنوع في شيء- وهي كلّها صفات الفقر والحاجة - دليل على أنّه قائم بالغير في وقته هذه، وأنّ من أقامه منزّه عن صفاته ولامدخل للضعف ولا للنقص فيه، من دون حاجة للسير القهقرى إلى ابتداء الخلق.

فحينما ترى المخلوق المتصف بالحركة والسكون، وبالزمان والمكان، والطول والعرض، والقلب والانقلاب، والفقدان والوجدان، والحركة والانتقال و...تعلم أنّه كائن بالغير، وشيء بالغير، كما مر في مناظرة الإمام الصادق عليه السلام مع ابن أبي العوجاء، وما كانت شيئته بالغير يمتنع أن يكون أزلياً قائماً بذاته.

فمثلاً لو سلّمنا جدلاً بوقوع ذلك الانفجار المزعوم، فنفس وقوع الانفجار علامة الضعف والفقر، حيث إنّه تغيير وزوال للحالة السابقة وحصول الحالة الجديدة، وهو محدود بحد ومتناه، بل ومقهور ومضطر لذلك كله، أي عندما حان وقت الانفجار بتحقق العناصر المؤثّرة فيه، ليس له أن يمتنع، بل هو مقهور ولامناص له من قبول الانفجار، وتلك الحرارة المزعومة لم تكن من ذاتها، بدليل زوالها عنه، فيحتاج لمسبب الحرارة مع فرض وجود الطاقة والزمان والمكان، وما كان كذلك لايمكن أن يكون

قائماً بذاته.

إنّه حدث واقع في الزمان والمكان، فهو بحاجة إلى الزمان والمكان، والاحتياج خلف الغناء الذاتي.

بل إنّ حصول ذلك الانفجار المزعوم أو الانتقاء المتوهم، وتأثيره في تحقق الكائنات - لو سلّمنا به - إنّما حصل من أجل وجود قوانين طبيعية وفيزيائية هي التي تحكم هذه الأجزاء، وهذه القوانين والتأثيرات ليست ذاتية لها، بدليل أنّها تقهر لقانون أقوى منها وتُغلب لها، وهي محتاجة لتهيئة الشرائط التي من أبسطها مرور زمان طويل لتتأثر هذه القوانين في بعضها البعض وتنتج هذه النتيجة، فنسأل عمّن أودع فيها هذه الأسرار والقوانين، وعمن هيأ لها أسباب وشرائط التأثير، وعمن أبقاها في الزمان كي يؤثّرويتأثّر، وغير ذلك.

لب الكلام: أنّه لايخلو هذا الكائن الذي حاول علماء الفيزياء والأحياء وغيرهم أن يعطوا تفسيراً لتطوره ويكشفوا شيئاً من أسراره، أن يكون مصنوعاً أو غير مصنوع؟ وهل هو قائم بالذات أو قائم بالغير؟ فقير أو غني؟

فإن كان غير مصنوع وغنياً بالذات وقائماً بنفسه، فلابد أن لايكون فيه شيء من صفات المصنوع، من التغيير والتبديل والزمان والمكان والحد والقهر والانفجار والزوال والانتقال وغيرها، وأما إن كان مصنوعا، فجهود هؤلاء العلماء محاولات لكشف بعض الأسرار التي أودع خالق هذا العالم الكبير فيه، وهي دالة على وجود إله قدير منزه عن صفاتها، أي أنّها محاولات لكشف أسرار خلق الله تعالى، وكل هذه الاكتشافات تسبب قوة الإيمان بالله، وذلك لأنّ المصنوع كلما كان أكثر دقة ومشتملاً على قوانين وأسرار، كلما كان أشدّ دلالة على الصانع المتعال، فإنّا لم ندّع أنّ الله تعالى يفعل كل أفعاله مباشرة

دون توسّط الأسباب، بل من لطفه أنّه سبّب الأسباب، بعضها طبيعية وبعضها إرادية، فتوسّط هذه الأسباب - ما دامت مصنوعة وتوجد فيها صفات المصنوع - لاتوجب إنكار مسبّب الأسباب، بل تكون الدلالة معها أدل والبرهان أبهر، فهب أنّ منشأ الكون هو الانفجار العظيم، أو التطور أو الانتخاب الطبيعي أو التصميم الذكي، فإنّ كل ذلك لايخرج عن كونها وسائط وأسبابا فقيرة ومحتاجة لإله غني قائم بذاته الكبير المتعال، فترى أنّ من يحاول إنكار الإله بهذه النظريات إنما يغرّد خارج السرب.

الرابعة: إثبات بلاتشبيه

هذا البرهان في عين أنه يثبت الصانع، يدلّ على أن الصانع منزّه عن صفات المخلوقين، فهو يثبت إلها منزّهاً مقدسّاً ومبايناً مع المخلوقات في صفاته، أي أنه أجل وأعظم وأكبر من أن يكون بصفة مخلوقاته، إذ إنّ صفات مخلوقاته صفات الفقر والحد، ويستحيل وجود هذه الصفات فيمن أوجد المصنوعات بقدرته الذاتية.

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَظِيمٌ رَفِيعٌ لَا يَقْدِرُ العِبادُ عَلَى صِفَتِهِ ولَايَبْلُغُونَ كُنْهَ عَظَمَتِهِ، لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ وهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ.وَ لَا يُوصَفُ بِكَيْفٍ ولَا أَيْنٍ ولَا حَيْثٍ.فَكَيْفَ أَصِفُهُ بِكَيْفٍ؟ وهُوَ الَّذِي كَيَّفَ الكَيْفَ حَتَّى صَارَ كَيْفاً، فَعَرَفْتُ الكَيْفَ بِمَا كَيَّفَ لَنا مِنَ الكَيْفِ.أَمْ كَيْفَ أَصِفُهُ بِأَيْنٍ؟ وهُوَ الَّذِي أَيَّنَ الأَيْنَ حَتَّى صَارَ أَيْناً، فَعَرَفْتُ الأَيْنَ بِمَا أَيَّنَ لَنا مِنَ الأَيْنِ.أَمْ كَيْفَ أَصِفُهُ بِحَيْثٍ؟ وهُوَ الَّذِي حَيَّثَ الحَيْثَ حَتَّى صَارَ حَيْثاً، فَعَرَفْتُ الحَيْثَ بِمَا حَيَّثَ لَنا مِنَ الحَيْثِ**».الحديث.[١]

فهذا البرهان يثبت إلهاً خارجاً عن الحدين؛ حد التعطيل وحد التشبيه، أي كما لا مجال لإنكاره لوضوح آيات الصنع في المصنوعات، كذلك لا يمكن تشبيهه بالمخلوقات،

(١) توحيد الصدوق: ص ١١٥.

فهو إثبات بلا تشبيه، كما هو مفاد الكلمة المقدسة: «**الله أكبر**».

أي إله أكبر من أن يوصف.

عَنْ جُمَيْعِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «**أَيُّ شَيْءٍ اللهُ أَكْبَرُ ؟**». فَقُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ: «**وَ كَانَ ثَمَّ شَيْءٌ؛ فَيَكُونَ أَكْبَرَ مِنْهُ؟**». فَقُلْتُ: فَمَا هُوَ؟ قَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ**».(١)

سُئِلَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: أَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ اللهَ شَيْءٌ؟ قَالَ: «**نَعَمْ يُخْرِجُهُ مِنَ الْحَدَّيْنِ، حَدِّ التَّعْطِيلِ وحَدِّ التَّشْبِيهِ**».(٢)

وقال الصادق عليه السلام في الجواب عن أسئلة السائل: «**وَلَكِنْ لَابُدَّ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْ جِهَةِ التَّعْطِيلِ والتَّشْبِيهِ، لِأَنَّ مَنْ نَفَاهُ فَقَدْ أَنْكَرَهُ ودَفَعَ رُبُوبِيَّتَهُ وأَبْطَلَهُ، وَمَنْ شَبَّهَهُ بِغَيْرِهِ فَقَدْ أَثْبَتَهُ بِصِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ الْمَصْنُوعِينَ الَّذِينَ لَا يَسْتَحِقُّونَ الرُّبُوبِيَّةَ**».(٣)

الخامسة: العبادة ضرورة عقلية

بعدما اتضح لنا أننا لا نملك لأنفسنا شيئاً، ولا نملك لها نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وجميع صفاتنا وكمالاتنا إنما هي فقر إلى الغني بالذات، فيحكم العقل بالبداهة إلى لزوم الخضوع والانقياد والشكر والمحبة للخالق العلي المتعال، حيث إن كمال الفقير إنما هو بالاستناد والاعتماد على الغني، وزعم الغنى والاستقلال من الإنسان القائم بالغير من أعظم الموبقات للفقير، هذا أولاً.

وثانياً: أن الإنسان بطبعه يحب الكمال وقد تبدّه أن لاكمال حقيقياً للإنسان إلا

---

(١) الكافي: ج١ ص ١١٨، توحيد الصدوق: ص ٣١٣.

(٢) الكافي ج١ ص٨٥.

(٣) الكافي ج ١ ص٨٤.

بالاستمداد من الغني المتعال.

وثالثاً / أنّ فضله تعالى ابتداء، فإننا لم نفعل شيئاً لكي نستحق بذلك الإنعام والمدد والتكريم والإغناء والإعانة منه تعالى، فإن الذي تكون شيئيته بالغير، وكمالاته بالغير، لا يمكن أن يقدم شيئاً لمن أقامه وأمدّه وهو لايزال يقيمه ويمدّه ليكون بذلك مستحقاً لكل هذا الإفضال والإنعام، فهو حينما يفعل الخير إنما يفعل بالقدرة والحياة والعلم الذي منحه الله تعالى إياه، فكل نعمه تعالى ابتداء وتفضل، ولم يكن محتاجاً إلى هذا الإفضال والإنعام ولاينتفع منه، وهنا يحكم العقل الضروري البديهي بلزوم شكره، وحبه، وعبادته، والدخول في ولايته، وحرمة الكفر به والجرأة عليه والخروج عن ولايته والاستكبار عليه.

الأسئلة:

١- قد يقال: إنّ العلم البشري يكشف لنا كل يوم عن شيء من أسباب الطبيعة، فالذي كان البشر سابقاً ينسبه إلى الله تعالى، كشف له أنّ له أسباباً طبيعية موزونة، فيضعف وجود الإله بقدر توسع العلم البشري، ما هو الرد على هذا الكلام؟

٢- ما هو الدور والتسلسل، ولماذا لانحتاج لإبطالهما في إثبات الصانع؟

٣- كيف يُشخّص المصنوع من غير المصنوع؟

٤- ما معنى كون معرفة الله تعالى بين الحدين؟

٥- قد يقال: لو أعطيت للطبيعة ملايير السنين فسوف تخلق لك عالماً بديعاً، أثر الإنفعالات الطبيعية، بيّن وجه مصنوعية الطبيعة حتى لو فرضنا جدلاً بصحّة الفرض.

٦- ما هي ضرورة العبادة من منظور العقل؟

الدرس الخامس: المعرفة الفطرية

معنى الفطرة

الفطرة تأتي في اللغة بمعنى الظهور، وبمعنى الخلق، والمراد من الفطرة: إيداع المعرفة في قلب الإنسان من بدو خلقه، فيولد المولود على هذه المعرفة، فهي معه قبل كل معرفة أخرى، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**فِطْرَتَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّم**﴾.(١)

وقال ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَة**».

وقال الإمام الباقر عليه السلام في معنى هذا الحديث النبوي: «**يَعْنِي المَعْرِفَةَ بِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ خَالِقُهُ كَذَلِكَ قَوْلُهُ: ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله**».(٢)

منشأ الفطرة وطريق الانتباه إليها

يستفاد من الآيات والروايات الكثيرة أن هذه الفطرة كانت مصحوبة مع الإنسان من قبل أن يأتي إلى هذه الدنيا، فهو تعالى قد عرّف نفسه القدوس لعباده منذ أنْ كان الإنسان في العوالم السابقة على هذه الدنيا، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى**﴾.(٣)

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) توحيد الصدوق: ص٣٨١ والكافي: ج ٢ ص١٣.

(٣) الأعراف: ١٧٢.

وحينما سأل زرارة الإمام الصادق﵇ عن قَوْلِ الله عَزَّوَجَلَّ- ﴿**فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها**﴾ قَالَ﵇: «**فَطَرَهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ عِنْدَ الْمِيثَاقِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ**». فقال زرارة: وَخَاطَبُوهُ؟ قَالَ فَطَأْطَأَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: «**لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَعْلَمُوا مَنْ رَبُّهُمْ وَلَا مَنْ رَازِقُهُمْ**».(١)

ثم إن الإنسان بعدما يولد في هذه الدنيا يشتغل بأمور تحجبه عن هذه المعرفة الفطرية، كتقليد الآباء والأمهات، قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ حَتَّى يَكُونَ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ويُنَصِّرَانِه**».(٢)

وكذلك الاشتغال بالأسباب الدنيوية، حيث إنّ الدنيا دار أسباب فيزعم الغنى للأسباب، وكذلك ارتكاب المعاصي والذنوب يوجب الغفلة عنها.

ويمكن جمع أسباب الغفلة عن المعرفة الفطرية الوجدانية، في زعم الغنى وعدم الحاجة إلى الله تعالى كما قال تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى**﴾.(٣)

من هنا يكون طريق التذكر إلى هذه الفطرة والتنبّه إليها هو: التفات الإنسان إلى فقره وضعفه واضطراره، فحين تنقطع الأسباب، وينقطع الرجاء، وينتهي الأمل عن كل ما كان الإنسان يأمله ويرجوه من دون الله، ترتفع الحجب فتبدو تلك المعرفة الفطرية، فيرى ربه قادراً قاهراً غنياً متعالياً عن صفة المخلوقين.

كيف تتجلى المعرفة الفطرية

بعدما عرّف الله تعالى نفسه بنفسه من دون اكتساب وتحصيل من الخلق، بل

---

(١) توحيد الصدوق: ص٣٣٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ٣ ص٢٨١.

(٣) العلق: ٦ و٧.

خلقهم مفطورين على معرفته، قد أكمل لطفه ونظره للعباد بأن جعل طرقا وآليات لرفع حجب الغفلة عن هذه المعرفة الفطرية، لكي تبرز وتتجلى، نشير لجملة منها:

الأول: تذكير الأنبياء والأولياء

فإن من أهم شؤونهم عليهم السلام تذكير العباد بالله تعالى المعروف بالفطرة وإزالة حجب الغفلة عنها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، ووَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، ويُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، ويَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغ**».(١)

وقد مرّ بعض تذكيراتهم في الدروس السابقة.

الثاني: المصائب والرزايا

عند وقوع الإنسان في الشدة والضيق تنقطع علاقته عن كل ما كان يحجبه عن المعروف الفطري المتعال، وذلك أن الغفلة عن المعروف الفطري إنما حصلت بعد تعلّق القلب بغير الله تعالى، حيث زعم أن غير الله تعالى يسدّ فاقته، فحينما يقع في البأساء والضراء، ويجد أن كلّ ما سوى الله تعالى فقير مثله، لن يغني عنه شيئاً، آنذاك تنجلي المعرفة الفطرية.

وقد نبّه القرآن الكريم إلى وقوع هذه الحالة للكفار والمشركين في عدد من الآيات في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿**وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ**

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ١.

أَعْرَضْتُمْ وكانَ الإِنْسانُ كَفُورا﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا في قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالبَأْساءِ والضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُون﴾.(٢)

وقال تعالى: ﴿وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنيبينَ إِلَيْه﴾.(٣)

جاء أحد الموالين إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال: يا ابن رسول الله دُلّني على الله ما هو؟ فقد أكثر عليّ المجادلون وحيّروني.

فَقَالَ لَهُ: يَا عَبدَ اللهِ هَل رَكِبتَ سَفِينَةً قَطُّ؟ قَالَ: نَعَم.

قَالَ: فَهَل كُسِرَ بِكَ حَيثُ لَا سَفِينَةَ تُنجِيكَ وَلَا سِبَاحَةَ تُغنِيكَ؟ قَالَ: نَعَم.

قَالَ: فَهَل تَعَلَّقَ قَلبُكَ هُنَالِكَ أَنَّ شَيئاً مِنَ الأَشيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَن يُخَلِّصَكَ مِن وَرطَتِكَ؟ فَقَالَ: نَعَم.

قَالَ الصَّادِقُ: فَذَلِكَ الشَّيءُ هُوَ اللهُ القَادِرُ عَلَى الإِنجَاءِ حَيثُ لَا مُنجِيَ وَعَلَى الإِغَاثَةِ حَيثُ لَا مُغِيثَ.(٤)

الثالث: النظر في الآيات والتدبر في المصنوعات

حينما يتفكر الإنسان في المصنوعات ويرى آيات الصنع فيها ظاهرة، ويجد اضطرارها وفقرها، تتجلى له المعرفة الفطرية حيث يعرف فقر كل ما سوى الله تعالى

(١) الإسراء: ٦٧.

(٢) اعراف: ٩٤.

(٣) الروم: ٣٣.

(٤).التوحيد، ص٢٣١، ح٥؛ بحارالأنوار، ج٨٩، ص٢٣٢، ح١٤ (الباب ٢٩ من أبواب فضائل سور القرآن وآياته من كتاب القرآن).

وأنه لا غني إلا هو، وقد مرت الاشارة إليه.

الرابع: العبادة والخشوع والدعاء

قد يُظهر الله تعالى نفسه لعباده العارفين ويتجلى لهم عند قراءة القرآن وبعض عباداتهم وتوجههم إليه تعالى، ويترتب عليهم من لذة الأنس والمناجاة مع رب العالمين ما لا يقدر قدره، ويكون أنموذجا لمراتب عالية منها تحصل للأولياء في الدنيا والآخرة.

ولهذه المعرفة والتجلي مراتب كثيرة تارة من حيث شدة الوجدان وضعفه، وأخرى من جهة ما يجده العبد من كمالات الرب تعالى وأوصافه وأسمائه، فتارة يتجلى في قلب الداعي المتضرع بوصف الرأفة والرحمة، فيزيد في رجائه، وأخرى بوصف كبريائه وعظمته وجبروته وكمال عدله، فيزيد في خوفه، وتارة بكلا الوصفين.

وأخرى بأنه أقرب إليه من حبل الوريد، وأنه يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور، وأنه يعلم السر وأخفى، فيزيد في استحيائه وتضرعه إليه، ومن هنا جعلت الصلاة قربان كل تقي ومعراج المؤمن ونور المعرفة.

قال تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾.(١)

أثر المعرفة الفطرية في دعوة الملحدين إلى الله تعالى

حينما يعرف الطبيب نوع مزاج المريض وطبعه، سوف يكون أكثر نجاحاً في علاجه، وليس من شرط نجاح الطبيب علم المريض بذلك المزاج الخاص أو الطبيعة أو علمه بفصيلة الدم الذي يجري في عروقه، مما له الأثر البليغ في علاج الطبيب.

---

(١) الزمر ٢٣.

وهذا مثال لكي نعرف أهمية دليل الفطرة في مجال الدعوة إلى الله تعالى، فنحن بعدما أثيرت فطرتنا وعلمنا أن معرفته مفطورة في نفوس العباد، وبعدما أنبأنا القرآن والحديث، وقد تمت حجيتهما عندنا، فحينما نتصدى لدعوة الناس إلى الإيمان نعلم أنه مفطورون على المعرفة، وإن كانوا غافلين عنها.

ومن الواضح أن طريقة الدعوة لمن كان مفطورا على معرفة شيء إلا أنه احتجب عنها، يغاير تماماً طريقة دعوة من لم تكن له سابق معرفة، ولا فطر عليها، فإنه لابد في الأول من إثارة فطرته وتذكيره وتنبيهه، فقد يتذكر ويتنبه إلى المعروف الفطري بأدنى تذكير، كما نرى أن الذين آمنوا بالرسل وسبقوا إلى قبول دعوتهم إنما آمنوا بهم بمجرد سماع الدعوة التي قد لا تتجاوز عن استفهام إنكاري يوقظ النائم وينبّه الغافل.

﴿قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ والأَرْضِ﴾.(١)

والاستفهام الإنكاري إنما يؤتى به فيما لم يكن الإنكار متوقعاً، ليتنبه المنكر ويرجع إلى فطرته.

وكذلك رسول الله ﷺ طلب من الناس الإيمان بالله تعالى والإقرار بأنه لا إله إلا الله، فسمعه قوم فأطاعوه ولبوا دعوته وصاروا من السابقين والمقربين، ومن الواضح أنه لو لم يكونوا مفطورين على المعرفة، لما صح إيمانهم هذا.

ومن هنا وصف الله تعالى دينه بالدين القيم، حيث إنه مبني على الفطرة، فقال: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّم﴾.(٢)

---

(١) الزمر: ٢٣.

(٢) الروم: ٣٠.

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾.[١]

بينما لو لم يكن الناس مفطورين على المعرفة، وكانت دعوة الرسل هي نقطة بداية وانطلاق في معرفة أمر مجهول لديهم تماماً، لما صحت تلك الطريقة في الدعوة، ولم يكن ينفع التذكير ولا التنبيه ولا الاستفهام الإنكاري، ولكان طلب الإيمان منهم في بدأ الدعوة وقبل إقامة البرهان طلباً للوقوف على غير علم، وحاشا الدين المؤسّس على الحكمة والعقل والتدبر أن يدعو الناس إلى اقتفاء غير العلم!

ومن هنا فحينما نواجه الملحدين والكفار ونحاول أن ندعوهم إلى الله تعالى، لابد أن نعرف أنهم مفطورون على المعرفة، فينبغي علينا أن نتوخى طرقاً لإثارة فطرتهم، وإزالة حجب الغفلة عنهم، وتذكيرهم.

والناس في هذا على مراتب ودرجات؛ فبعضهم يتذكر بأدنى تذكير، وبعضهم يتذكر بعد إلفاته إلى أفعال الله تعالى الحكيمة وآياته العجيبة، وبعضهم يحتاج إلى مزيد تنبيه وإثارة حسب درجات الغفلة شدة وضعفاً، وقد لايتنبّه البعض إلا بعد وقوعه في البأساء والضراء ليجد فقر نفسه وكل من على صفته، وجداناً عيانياً.

---

(١) الغاشية: ٢١ و٢٢.

الأسئلة:

١- ما هو المراد من المعرفة الفطرية، وما هو سببها؟

٢- ما هي أسباب الغفلة عن المعرفة الفطرية؟

٣- لماذا تتجلى المعرفة الفطرية في البأساء والضراء؟

٤- كيف يمكن الاستعانة بالمعرفة الفطرية في دعوة الملحد للإيمان؟

٥- اذكر الأدلة من القرآن والحديث الدالّة على دور العبادة والدعاء في ظهور المعرفة الفطرية؟

٦- ما هي طريقة الأنبياء في الدعوة، وكيف واجهوا الكافرين في الخطوة الأولى؟ وكيف يكون - مع هذا - الدين قيماً؟

الدرس السادس: التوحيد (١)

لقد كانت دعوة الأنبياء قائمة على الإقرار بوحدانية الله تعالى وخلع الأنداد، والإيمان بأنه لا إله إلا الله.

وكان أول ما يدعو النبي أمته إليه هي دعوتهم إلى التوحيد وإنكار الأنداد، فصار التوحيد هو العنصر الأساسي في تبليغ الأنبياء وفي دعوتهم، بل لا يوجد في منظومة المعارف التي دعا لها الأنبياء أكثر اهتماماً وتشدداً منهم من اهتمامهم بمسألة التوحيد.

معنى التوحيد

كل شيء حينما يتشخّص ويوجد في الخارج لا يوجد إلا واحداً؛ فمثلاً عندما تنظر إلى شجرة بعينها وتشير إليها فهي شجرة واحدة وليست اثنتين، وحينما تنظر إلى ورقة من تلك الشجرة ستكون ورقة واحدة، وهكذا فإن كل فرد من أفراد الإنسان واحد، فزيد مثلاً شخص واحد وليس شخصين، كما أن مدينة النجف الأشرف مدينة واحدة وليست اثنتين.

ولكن على الرغم من ذلك، فإن تلك الشجرة وإنْ كانت واحدة، إلا أن صفاتها ليست منحصرة بها، بل توجد شجرة أخرى تشبهها في غالب صفاتها، فإذا نظرنا إلى تلك الأوصاف نرى أنها موجودة في أكثر من واحد، وكذلك الإنسان والحجر ومدينة النجف وغيرها من الأشياء، فإنها على الرغم من عدم التعدد في الوجود الجزئي الخارجي لها، إلا أنه يوجد ما يشبهها في الصفات، فليست هي واحدة في صفاتها، وإن

كانت واحدة في تحققها وكينونتها الخارجية.

هذا المعنى من الوحدة تسمى بالوحدة العددية، فكل واحدة من وحدات العدد وإنْ كانت واحدة، إلا أنها تشارك غيرها من الوحدات في صفة جامعة تجمعها جميعاً.

والتوحيد الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلين ليس بهذا المعنى، بل بمعنى التوحيد في الصفات وعدم مشاركة غيره تعالى معه في صفاته، ونفي الشبيه والمثل.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«تَوْحِيدُهُ تَمْيِيزُهُ مِنْ خَلْقِهِ، وحُكْمُ التَّمْيِيزِ بَيْنُونَةُ صِفَةٍ، لَا بَيْنُونَةُ عُزْلَة.إِنَّهُ رَبٌّ خَالِقٌ غَيْرُ مَرْبُوبٍ مَخْلُوقٍ، كُلُّ مَا تُصُوِّرَ فَهُوَ بِخِلَافِه»**.(١)

فقد صرّح الإمام (سلام الله عليه) في هذا الحديث الشريف، بأن التوحيد ليس إلا تمييز الخالق عن المخلوق، ثم بيّن أنّ المراد من التمييز ليس كونه تعالى معزولاً عن غيره ليكون هو واحداً منحازاً عن بقية الوحدات، بل كونه واحدا في الصفات، وأنّ غيره مهما يكن فهو مباين معه في صفاته، فهو خلاف كلّ ما يتصوّر أو يتوهّم.

روى الصدوق بسنده أن أعرابيا قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين أتقول إن الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **«دَعُوهُ فَإِنَّ الَّذِي يُرِيدُهُ الأَعْرَابِيُّ هُوَ الَّذِي نُرِيدُهُ مِنَ القَوْمِ!»**.ثم قال: **«يَا أَعْرَابِيُّ! إِنَّ القَوْلَ فِي أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ، فَوَجْهَانِ مِنْهَا لَا يَجُوزَانِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ووَجْهَانِ يَثْبُتَانِ فِيهِ.فَأَمَّا اللَّذَانِ لَا يَجُوزَانِ عَلَيْهِ: فَقَوْلُ القَائِلِ وَاحِدٌ، يَقْصِدُ بِهِ بَابَ الأَعْدَادِ، فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ، لِأَنَّ مَا لَا ثَانِيَ لَهُ لَا يَدْخُلُ فِي بَابِ الأَعْدَادِ.أَمَا تَرَى أَنَّهُ كَفَرَ مَنْ قَالَ: ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ؟ وقَوْلُ القَائِلِ: هُوَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ، يُرِيدُ بِهِ النَّوْعَ مِنَ الجِنْسِ، فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ تَشْبِيهٌ، وَجَلَّ رَبُّنَا عَنْ ذَلِكَ وتَعَالَى.وَ أَمَّا الوَجْهَانِ اللَّذَانِ يَثْبُتَانِ فِيهِ: فَقَوْلُ القَائِلِ: هُوَ**

---

(١) الاحتجاج: ج١ ص ٢٩٩.

وَاحِدٌ لَيْسَ لَهُ فِي الأَشْيَاء شِبْهٌ، كَذَلِكَ رَبُّنَا، وقَوْلُ القَائِلِ: إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَحَدِيُّ المَعْنَى، يَعْنِي بِهِ أَنَّهُ لَا يَنْقَسِمُ فِي وُجُودٍ ولَا عَقْلٍ ولَا وَهْمٍ، كَذَلِكَ رَبُّنَا عَزَّ وجَلَّ».(١)

فقد نفى أمير المؤمنينعليه السلام في هذا الحديث الشريف أن يكون الله عز وجل واحدا في باب الأعداد، فإن النصارى حينما قالوا: إن الله هو ثالث ثلاثة، اعترفوا بأن الله واحد فإن كلمة الثالث إنما يعنى به فرد واحد من بين ثلاثة أشياء، فلم يقبل منهم هذا التوحيد، لأنهم ما وحّدوه سبحانه في صفاته، بوجود اثنين آخرين يشتركان معه في الصفات.

وعموماً، التعداد والعدد والأعداد لا يتأتى إلا فيما يكون هنالك جامع مشترك بين الوحدات، فيقال هذا هو الأول، وهذا هو الثاني، وهذا هو الثالث، وهكذا، وأما ما لا ثاني له بصفته، ولا يوجد جامع يجمعه مع غيره، فلا يندرج في باب الأعداد.

وكذلك الوجه الثاني في كلام أمير المؤمنينعليه السلام وهي الوحدة النوعية، أي كونه تعالى واحداً من الأفراد المتجانسة المتماثلة كأفراد الإنسان، وكلا الوجهين مبنى على تشبيهه سبحانه وتعالى بغيره.

وأما الوجهان الثالث والرابع في كلام الإمامعليه السلام، فيرجعان إلى توحّده تعالى في صفاته وفي معناه، واستحالة توصيفه بصفات غيره، وامتناع توهّمه وتصوّره وتعقّله.

فتلخص: أن التوحيد الذي هو أساس الدين ودعامة رسالات الأنبياء، هو بمعنى توحده تعالى في صفاته وعدم الشبيه والمثل له جل وعلا .

تلازم معرفة الله تعالى مع التوحيد

إن معرفة الله تعالى لا تنفك عن توحيده، فمن عرف الله تعالى إنما يعرفه متوحداً،

(١) توحيد الصدوق الباب الثالث ح ٣ ص٨٣.

ومن لم يوحده فلم يعرفه.

قال الإمام الرضا عليه السلام: «**فَلَيْسَ اللهَ عَرَفَ مَنْ عَرَفَ بِالتَّشْبِيهِ ذَاتَهُ ولَا إِيَّاهُ وَحَّدَ مَنِ اكْتَنَهَه**».[1]

ولتوضيح الفكرة لا بأس بذكر مثال:

أنت حينما ترى المكان مظلماً ولا توجد فيه إضاءة، ثم تراه بعد فترة منوراً وغير مظلم، سوف تعرف أن هنالك شيئاً آخر غير هذا المكان هو الذي سبَّب إضاءة المكان وإنارته، ثم إذا سألت عن مبدأ الإنارة فقالوا لك: إن الإنارة إنما هي من حجر جامد مظلم، ستردّ عليه بأن العلة التي من أجلها كنت أبحث عن سبب إنارة هذا المكان وهو كونه فاقداً للنور بذاته، ومحتاجاً إلى غيره في إضاءته، هو بعينه موجود في هذا الحجر أيضاً، فهو شيء مظلم ذاتاً وبحاجة إلى ما ينوِّره، فكيف يكون منوراً للمكان الثاني؟

أي أننا بعدما نرى الحاجة والفقر والاضطرار في شيء مع وجدانه لبعض الكمالات، سوف نعلم بوجود شيء لا توجد فيه تلك الاحتياجات التي بسببها صار الشيء الأول محتاجاً للمبدأ، فعندما ننظر في آيات الصنع ونرى اضطرارها وفقرها واحتياجها إلى ما يقومها ويغنيها، نعلم أن ذلك الشيء لا يمكن أن يكون بصفات المصنوع، لأن صفات المصنوع كلها صفات الفقر والاحتياج والاضطرار، إذاً فالدليل على وجود الصانع هو الدليل على تنزهه عن صفات المخلوقين، وهذا هو التوحيد.

فمن لم يوحِّد الله تعالى فإنه لم يعرف الله تعالى، لأن الله تعالى هو المفزع لجميع المخلوقات والمغيث والمغني، وما كان بصفة المخلوق يكون ضعيفاً وفقيراً وعاجزاً بذاته، فكيف يكون غنياً بالذات، ومفزعاً ومغيثاً ومغنياً؟

---

(١) توحيد الصدوق: ص٣٥.

فظهر أنه لا يمكن التفكيك بين معرفة الله تعالى وتوحيده.

من هنا فجميع ما دل على وجوده تعالى يدل على توحيده، لأن تلك الدلائل تذكيرات تذكر الإنسان إلى إله لا يكون بصفة المخلوقين، أي أنه متوحد في صفاته، كما أنّ دليل الفطرة يهدي الإنسان إلى إله غني بذاته وليس فيه أية جهة نقص وضعف وحدّ.

التوحيد كمال المعرفة

بعدما أقيمت البراهين على إثبات وجوده تعالى، وتذكّر الإنسان إلى أنه شيء قائم بالغير، ومحتاج إلى مدده وعونه في كل آن، يمكن أن يكون غافلاً وغير متنبّه إلى أن تلك الحقيقة، لا نظير لها ولا شبيه، فلابد من تذكيره وتنبيهه إلى أن ما يغني ويقوم المصنوعات لا تكون بصفتها، فيتنبه إلى توحيده تعالى أيضاً.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُه[١]

وأما أن يُثبت إلها يقبل التعدد والتكثر، ويقبل الشبيه والنظير في ذاته، بحيث نكون محتاجين إلى دليل آخر لإثبات صفة التوحيد له، أي أنه في ذاته لا يأبى عن التعدد غير أنه لم يتعدد إثباتاً لدليل آخر، فهذا ما ينافي معرفة الله جل وعلا.

فإن الشبيه والنظير آية الضعف والعجز، والعاجز لا يكون إلهاً ومفزعاً لجميع المخلوقات.

ولمزيد من التوضيح نقول: إن العجز خلاف القدرة، والنقص خلاف الكمال، فإذا فرضنا وجود شيء يكون ذاته عين الغنى والكمال، فلا يمكن أن يُفرض فيه، نقص ولا

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

ضعف، لا أنه يُفرض فيه ذلك ثم نحتاج إلى إقامة البرهان على نفيهما فيه، فإذا قال أحد: إن مبدأ الموجودات شيء يمكن أن يكون عاجزاً بذاته ويمكن أن يكون غنياً بذاته، ثم يقيم البرهان على أنه غني، فهو لم يعرف الله تعالى، لأن الذي يأتي فيه هذان الاحتمالان ثبوتا، يستحيل أن يكون غنياً بذاته، وذلك لأن الضعف نقيض القدرة، واحتمال طرو الضعف على القدرة محال، وذلك لاستحالة اجتماع النقيضين احتمالاً وإمكاناً.

ومن هنا يظهر أنه لا يمكن أن يقال: إن مفهوم واجب الوجود مفهوم كلي لا يمتنع بذاته أن يصدق على كثيرين، إلا أننا نقيم البرهان على أن مصداقه منحصر في واحد، وذلك لأن ما لا يمتنع في ذاته من التكثر يعني أنه لا يمتنع عن وجود المثيل والنظير له، أي لا يمتنع عن وجود صفة النقص والعجز فيه بذاته، لأن التعدد والتكثر من صفات المصنوع، وكذا العجزكما مر.

ومن الواضح أن شيئاً لا يأبى ولا يتمنع بذاته من أن يكون ضعيفاً، فإنه لا يمكن أن يكون غنياً بالذات.

هل يمكن أن يقال: إن النور شيء يمكن أن يكون في ذاته ظلمانياً؟!! إلا أننا نقيم البرهان على أنه ليس ظلمانياً!

أو إن الوجود شيء يمكن أن يكون في ذاته منطبقاً على العدم، إلا أننا نقيم البرهان على انتفاء ذلك! وكذلك في كل متناقضين، فإنك تجد صريح عقلك يشهد على أن ما يمكن أن يكون ظلمانيا فإنه ليس بنور، وما يمكن أن يكون عدماً ليس بوجود.

فنقول: إن ما يمكن أن يصدق على كثيرين فإنه ليس بإله حتى لو أثبت أنه غير منطبق على كثيرين في الواقع، فإن مجرد مجيء هذا الاحتمال والإمكان الثبوتي فيه برهان على أنه نقيض القدرة والكمال الذاتي.

ومن هنا يظهر إعجاز كلام الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حيث قال:

«فَلَيْسَ اللهَ عَرَفَ مَنْ عَرَفَ بِالتَّشْبِيهِ ذَاتَهُ، وَلَا إِيَّاهُ وَحَّدَ مَنِ اكْتَنَهَهُ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلَا بِهِ صَدَّقَ مَنْ نَهَّاهُ، وَلَا صَمَدَ صَمْدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا لَهُ تَذَلَّلَ مَنْ بَعَّضَهُ، وَلَا إِيَّاهُ أَرَادَ مَنْ تَوَهَّمَه».(١)

قال العلامة المجلسي رحمه الله في توضيح الحديث:

قوله عليه السلام: **«فَلَيْسَ اللهَ عَرَفَ مَنْ عَرَفَ بِالتَّشْبِيهِ ذَاتَـهُ»**.أي: ليس من عرف ذاته بالتشبيه بالممكنات واجباً، لأنه يكون ممكناً مثلها...قوله: **«مَنِ اكْتَنَهَهُ»**.أي: بيّن كنه ذاته، أو طلب الوصول إلى كنهه، إذ لو كان يعرف كنهه لكان شريكاً مع الممكنات في التركب والصفات الإمكانية، فهو ينافي التوحيد ...قوله عليه السلام: **«مَنْ مَثَّلَهُ»**.أي: جعل له شخصاً ومثالاً، أو مثّله في ذهنه وجعل الصورة الذهنية مثالاً له ...قوله عليه السلام: **«مَنْ نَهَّاهُ»**.بالتشديد أي: جعل له حداً ونهاية من النهايات الجسمانية، ومن جعله كذلك فلم يصدق بوجوده بل بممكن غيره، ويحتمل أن يكون المعنى جعله نهاية لفكره وزعم أنه وصل إلى كنهه، قوله عليه السلام: **«وَ لَا صَمَدَ صَمْدَهُ»**.أي: لا قصد نحوه من أشار إليه إشارة حسية، أو الأعم منها ومن الوهمية والعقلية ...قوله عليه السلام: **«مَنْ بَعَّضَهُ»**.أي: حكم بأن له أجزاءًو أبعاضاً، فهو في عبادته لم يتذلّل لله، بل لمن عرفه وهو غيره تعالى، قوله عليه السلام: **«مَنْ تَوَهَّمَه»**.أي: من تخيل له في نفسه صورة أو هيئة وشكلاً، أو المعنى أن كل ما يصل إليه عقول العارفين فهو غير كنهه تعالى.(٢)

---

(١) توحيد الصدوق: ص٣٥.

(٢) بحار الأنوار: ٤ / ٢٣٢.

الأسئلة:

١- ماهو المراد بالوحدة العددية، ولماذا يتنزه الله عنها؟

٢- ماهي العلاقة بين التوحيد والتنزيه؟

٣- بين المراد من قوله عليه السلام **«وحكم التمييز بينونة صفة لابينونة عزلة»**.؟

٤- ما هي العلاقة بين معرفة الله تعالى وتوحيده، وهل يمكن معرفة الله تعالى دون توحيده؟

٥- ما هو المراد من تشبيه الله تعالى بخلقه وما البرهان على تنزيهه عن الشبيه؟

الدرس السابع: التوحيد (٢)

مر في الدرس السابق أنّ تنزيهه تعالى الذي هو حقيقة توحيده، ملازم لمعرفة الله تعالى، فلاحاجة لإثبات التوحيد بعد معرفته تعالى، لانّ معرفته تعالى انما تكون بالقدس والعلو، وهو عين توحيده، وهو مؤدى اسم المقدسة الجلالة: الله.

وهذا ما تكفّلته أدلّة إثبات وجوده تعالى كما مر، ولمزيد من البيان ننبّه لبعض وجوه أخرى:

الشريك علامة ضعف

لو فرض وجود إلهين اثنين أو أكثر، فلا يكون كل واحد من هذه الآلهة قادرا على إيجاد الخلق إلا بمؤزارة ومشاركة غيره، وذلك أن وجود الشريك لا ينفك عن وجود الضعف والعجز، فإنه لو كان غير محتاج إلى علم شريكه وقدرته لكان قد فعله بنفسه من دون مشاركة آخر.

بل لا يمكن فرض وجود القدرة المطلقة وغير المحدودة في أحد الشريكين، لأنه ليس لشريك أن يستبد بالملك ويتصرف من دون ترخيص وإذن وتنسيق مع شريكه الآخر، لأن المفروض أن العالم ملك لهما معاً بالتشريك، فكل واحد منهما ليس له تمام الملك، فحينما يريد أن يخلق شيئاً أو يعدم أو يتصرف أي تصرف، من إماتة وإحياء ورزق وخلق وتدبير وغيرها، فهو بالضرورة محتاج لمعاضدة شريكه، ولا أقل من ترخيصه، وهذا عين الضعف والعجز والمحدودية.

ولو قيل: إنهما ينسقان فيما بينهما بالتناصف، فتكون سلطنة نصف العالم لأحدهما والثاني للآخر.

يقال: إن هذا عين الضعف والعجز، حيث إن كلّ واحد منهما لا يمكن أن يتجاوز عن حدود ملكه، فملكه وسلطانه محدود وقدرته محدودة، مع أن الحاجة إلى هذا التشاطر والتناصف أيضاً آية الضعف والعجز وعدم الاستقلال، حيث إنه تنافسه قدرة أخرى ليس له أن يتصرف أي تصرف إلا بالتفاوض معها، ومن البديهي أن التفاوض دليل على وجود قدرة منافسة، ليس للأول أن يقضي أمراً دون إرادة الثاني.

تقريب آخر (برهان التمانع)

بل إن التعدد هو بنفسه علامة الحد والضعف، حيث إنه لايمكن فرض اثنين إلا مع وجود حد مائز لكل منهما عن الآخر، فكل واحد منهما محدود بحده ليس له أن يتخطاه ويدخل في حد الإله الثاني المفروض، فهو مقهور على أن يقف عند حده الخاص، والمقهورية والمحدودية آيتان للضعف والعجز، وهما من آيات الصنع وعلامة المصنوعات.

ليس الكلام في أن كل واحد منهما يَعدم الآخر ويَقهره بالفعل، إنما الكلام في قدرته على ذلك، فإن كان قادراً على أن يزيل الثاني ويستبد بالوجود كإله، فالثاني مقهور وضعيف، وإن لم يكن قادراً، فالأول ضعيف وعاجز.

فظهر أن التعدد لن يتحقّق إلا بفرض سابق بالمقهورية والمحدودية والضعف، ولا يمكن فرض القدرة المطلقة والذاتية فيما يمكن أن يكون له ثانٍ في صفاته.

قال الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ

ولَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُون﴾.[(١)]

قال الإمام الصادق عليه السلام في حجاجه مع زنديق: «**لاَيَخْلُو قَوْلُكَ إِنَّهُما اثْنَانِ مِنْ أَنْ يَكُونَا قَدِيمَيْنِ قَوِيَّيْنِ، أَوْ يَكُونَا ضَعِيفَيْنِ، أَوْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا قَوِيّاً وَالآخَرُ ضَعِيفاً، فَإِنْ كَانَا قَوِيَّيْنِ، فَلِمَ لَا يَدْفَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ وَيَتَفَرَّدُ بِالتَّدْبِيرِ، وَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّ أَحَدَهُمَا قَوِيٌّ وَالآخَرَ ضَعِيفٌ، ثَبَتَ أَنَّهُ وَاحِدٌ كَمَا نَقُولُ، لِلْعَجْزِ الظَّاهِرِ فِي الثَّانِي**».[(٢)]

تنزهه تعالى عن الضعف

قد مر في معرفة الله تعالى أن صفات المصنوع وآيات الصنع، التي كلها آيات الضعف والعجز والاحتياج، تدل على وجود إله منزه عن هذه الصفات، فإنّك إذا رأيت العاجز قائماً على رجليه، ستعلم أنه استفاد قدرته على القيام من غني غيره، ثمّ لايمكن فرض وجود الضعف والحد في ذلك الغير، لأن ذلك يساوق لعدم كونه مالكاً للقدرة بذاته، لأن الذاتي لا يتخلف عن الذات ولا يختلف عنه، فإذا رأيت شخصاً قادرا على أمور كثيرة وعظيمة ومهولة، لكنه عجز عن شيء واحد وتوقفت قدرته عند حد معين، فستعلم أن قدرته في تلك الموارد التي كان قادراً على إنفاذها أيضاً ليست بذاته، بل هو في أن يكون قادرا محتاج إلى إمداد غيره، لأنه لو كانت مالكيته للقدرة ذاتية له لما انفكت عنه، ولما تحددت بحد، ولما عرض عليها الضعف والعجز.

فتحصل مما سبق: أن مشاهدة المخلوقات والمصنوعات، دليل على أن صانعها ليس مثلها قائماً بالغير، بل إنه قائم بذاته، ولايعتمد على شيء في مالكيته للقدرة والعلم، وما يكون كذلك يستحيل أن يكون عاجزاً ومحدوداً وضعيفاً، ولا يمكن أن تكون قدرته

---

(١) المؤمنون: ٩١.

(٢) أصول الكافي ج ١ ص٨٠.

محدودة بحد، وملكه وسلطانه متوقفاً عند حد، بل لابد وأن يكون مطلقاً غير محدود، وقادراً غير ضعيف، وعالماً غير جاهل.

برهان النظم

النظم الواحد دليل على الناظم الواحد، وذلك أن النظم يقصد به وجود التناسق والتناغم والارتباط بين أجزاء وأفراد المجموعة يوجب بقاءها ويمنع من فسادها، فإن الفساد والهلاك ينتج من عدم التناغم بين أجزاء المركب، فمثلاً إن عدم وجود الارتباط والتناسق الهندسي الدقيق الذي يقدره المهندس الخبير بآليات في غاية الدقة، يوجب فساد البناء وخرابه، فلا يمكن أن يكون من يبني الجدران والسقف لا يلاحظ أساس البناء ومقدار مقاومته في حسابات دقيقة.

وكلما كان الصنع أكثر إتقاناً وأعظم قدراً، كانت الحاجة إلى رعاية النظم والارتباط فيما بين أجزائها أكثر وأدق.

فمثلاً إن بدن الإنسان مع ما يشتمل على عدة من الأجهزة التي تعمل بتناسق عجيب، وأن أي خلل في أي جهاز من تلك الأجهزة يوجب ظهور الخلل في الجميع، بل كل جهاز من أجهزة البدن مركبة من خلايا قد تبلغ المليارات في عضو صغير من أعضاء البدن، وكل خلية من تلك الخلايا لا يمكن أن تعمل إلا مع رعاية النظم والترتيب والعلاقة مع أخرياتها، ثم ارتباط الجهاز العصبي بالجهاز الهضمي، ثم هما مع الجهاز المناعي، وهي كلها مع الجهاز الدموي، من القلب والشرايين والعروق والأوردة وغير ذلك، مما لم يكشف العلم الحديث إلا نزراً يسيراً منه، ولا يقبل عاقل أن يكتب لهذا البناء دواماً وبقاءً، دون رعاية النظم الواحد فيما بين مفردات أجزائه.

ثم إن فرض تعدد الناظم لا يخلو من وجهين، فإما أنهما ينسقان فيما بينهما ليصلا

إلى نظم واحد، ويكون رأيهما واحداً، أو يتصرف كل منهما من دون التنسيق مع الآخر.

والفرض الأول في نفسه اعتراف بأن النظم الواحد لا يكون إلا عن رأي واحد، وأنه مع فرض تعدد الناظم لابد من إيجاد التوحد بينها بشكل من الأشكال، كي يكون الصنع متقناً، ولا يفسد من أجل عدم التناسق بين أجزائه، وإلا فما الحاجة إلى توحيد الآراء للخروج بنتيجة واحدة، والخروج بتصميم فارد؟

إلا أنه خروج عن فرض الإله، لأن الإله كما قلنا هو الغني بذاته وغير محتاج إلى غيره، بينما في هذا الفرض أن أي واحد من هذه الآلهة عاجز وغير قادر على أن يخلق خلقاً لا يفسد، إلا بعد التنسيق مع صاحبه للوصول إلى رأي واحد، فإما هو يتنازل عما رآه للثاني، أو الثاني يتنازل للأول.

وأما الفرض الثاني فهو عين فساد الصنع وإبادته من أجل هذا الفساد، فإن اللانظم يوجب الفساد، وكلما كانت دائرة الصنع أوسع وأدق، سينعدم ويفسد من إخلال في نظم شيء صغير بسيط، وكلما كان الصنع أكثر دقة ولطافة وإتقاناً كانت الحاجة إلى النظم الواحد في جميع أجزائها أكثر وأشد، وهو مما لا يتحقق إلا عن ناظم واحد.

قال الله تعالى: **﴿لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُون﴾**.(١)

عن هِشَامِ بْنِ الحَكَمِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ؟ قَالَ: **اتِّصَالُ التَّدْبِيرِ وتَمَامُ الصُّنْعِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وجَلَّ ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾**.(٢)

وقال الصادق عليه السلام في جواب الزنديق: **«فَلَمَّا رَأَيْنَا الخَلْقَ مُنْتَظِماً، والفَلَكَ جَارِياً،**

(١) سورة الأنبياء آية ٢٢.

(٢) التوحيد للصدوق: ٢٥٠، تفسير البرهان ج ٣ ص٥٥.

والتَّدْبِيرَ وَاحِداً، واللَّيْلَ والنَّهَارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ، دَلَّ صِحَّةُ الأَمْرِ والتَّدْبِيرِ وائْتِلَافُ الأَمْرِ عَلَى أَنَّ الْمُدَبِّرَ وَاحِد».(١)

تنبيه

المفروض في قوله تعالى ﴿**لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتا**﴾، تعدد الآلهة، أي تعدد ما لا يتطرق إليه ضعف ولا يقهره شيء.

فإن الكلام في تعدد الإله وليس تعدد المصنوع الضعيف، فمن هنا فأي فرض يوجب كون الإلهين المفروضين مقهورين وضعيفين، هو خروج عن مورد البحث.

ومن أجل ذلك قلنا فيما مر: إن حاجتهما إلى التنسيق والخروج بوحدة الرأي، خلاف المفروض، لأنّ فرض وجود أي حد وضعف في الإله، يكون خروجاً عن محل النزاع.

إنما الكلام في أن تعدد القدرة المطلقة التي لا يعجزها شيء، ولا تتحدد بحد، يوجب الفساد في العالم والإبادة.

ومن شأن القادر المطلق أنه هو من يصنع واقع المخلوق، لا أن واقع المخلوق يفرض نفسه عليه، فلا تحد قدرته ولا علمه بحد، وكل ما خلق من المخلوقات قادر على أن يخلق أحسن منه وأفضل بلا نهاية في غاية الكمال.

كما لابدّ من الالتفات إلى أنّ التقادير الحسنة التي يمكن أن يقع المخلوق على أحدها، غير منحصرة في تقدير واحد، بل الفاعل العالم والقادر بمقدار سعة علمه وقدرته يعلم ويقدر على إيجاد الأشياء بكيفيات وتقادير مختلفة، وحينما كان علمه

---

(١) الكافي ج ١ ص٨١.

وقدرته غير محدودين، فالكيفيات والصور والتقادير التي يعلمها ويقدر عليها تكون غير متناهية، لكنه لا يتحقق في الواقع الخارجي إلا واحد منها، فلابد من اختيار تقدير واحد في كل جزء من أجزاء هذا العالم، وفي كل جزء منه توجد تقادير ممكنة وحسنة غير متناهية.

فهنا يكون فرض التعدد في الخالق، ملازماً لفرض الضعف والحاجة إلى التنسيق، للخروج بنتيجة واحدة، واختيار واحدة من جميع تلك التقادير التي يمكن أن يكون الخلق موافقاً لها وكلها حسنة وجميلة، وفرض حصر النظام الحسن أو الأحسن في واحد عين نسبة النقص والحد إلى علم الصانع وقدرته، فإنّ الكيفيات الممكنة للفعل تتوسع وتتضيق حسب سعة علم الفاعل وقدرته وضيقهما، ولايمنع من ذلك محدودية عالم الخلقة، لانّ الحد قابل للتوسع بما لانهاية له، فهو لازال محدوداً، غير أنّ حده قابل للتوسع أبداً.

فتلخّص: أنّ فرض عدم الفساد في الكون مع التعدد في الصانع محال، إلا في الصانع الضعيف المحدود، وهو خروج عن فرض تعدد الإله، بل إنه تعدد المألوه.

قال الإمام الصادق عليه السلام في بيان بعض ما يشتمل عليه عالم الصنع من النظم الدقيق بين اجزائها: «**يَا مُفَضَّلُ! أَوَّلُ العِبَرِ والأَدِلَّةِ عَلَى البَارِئِ جَلَّ قُدْسُهُ تَهْيِئَةُ هَذَا العَالَمِ وَتَأْلِيفُ أَجْزَائِهِ ونَظْمُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، فَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ العَالَمَ بِفِكْرِكَ، وَمَيَّزْتَهُ بِعَقْلِكَ، وَجَدْتَهُ كَالبَيْتِ المَبْنِيِّ المُعَدِّ فِيهِ جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ عِبَادُهُ. فَالسَّمَاءُ مَرْفُوعَةٌ كَالسَّقْفِ، وَالأَرْضُ مَمْدُودَةٌ كَالبِسَاطِ، وَالنُّجُومُ مَنْضُودَةٌ كَالمَصَابِيحِ، وَالجَوَاهِرُ مَخْزُونَةٌ كَالذَّخَائِرِ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهَا لِشَأْنِهِ مُعَدٌّ، وَالإِنْسَانُ كَالمُمَلَّكِ ذَلِكَ البَيْتَ وَالمُخَوَّلِ جَمِيعَ مَا فِيهِ، وَضُرُوبُ النَّبَاتِ مُهَيَّأَةٌ لِمَآرِبِهِ، وَصُنُوفُ الحَيَوَانِ مَصْرُوفَةٌ فِي مَصَالِحِهِ ومَنَافِعِهِ. فَفِي هَذَا دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى**

أَنَّ العَالَمَ مَخْلُوقٌ بِتَقْدِيرٍ وحِكْمَةٍ ونِظَامٍ ومُلَائَمَةٍ، وأَنَّ الخَالِقَ لَهُ وَاحِدٌ، وهُوَ الَّذِي أَلَّفَهُ وَنَظَّمَهُ بَعْضاً إِلَى بَعْضٍ، جَلَّ قُدْسُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ وكَرُمَ وَجْهُهُ ولَا إِلَهَ غَيْرُهُ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الجَاحِدُونَ وَجَلَّ وَعَظُمَ عَمَّا يَنْتَحِلُهُ المُلْحِدُونَ ...

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ! لِمَ صَارَتِ المُخُّ الرَّقِيقُ مُحَصَّناً فِي أَنَابِيبِ العِظَامِ؟ هَلْ ذَلِكَ إِلَّا لِيَحْفَظَهُ وَيَصُونَهُ؟ لِمَ صَارَ الدَّمُ السَّائِلُ مَحْصُوراً فِي العُرُوقِ بِمَنْزِلَةِ المَاءِ فِي الظُّرُوفِ؟ إِلَّا لِتَضْبِطَهُ فَلَا يَفِيضَ؟ لِمَ صَارَتِ الأَظْفَارُ عَلَى أَطْرَافِ الأَصَابِعِ؟ إِلَّا وِقَايَةً لَهَا وَمَعُونَةً عَلَى العَمَلِ؟ لِمَ صَارَ دَاخِلُ الأُذُنِ مُلْتَوِياً كَهَيْئَةِ الكَوْكَبِ؟ إِلَّا لِيَطَّرِدَ فِيهِ الصَّوْتُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى السَّمْعِ وَلِيَتَكَسَّرَ حُمَّةُ الرِّيحِ فَلَا يَنْكَأَ فِي السَّمْعِ؟ لِمَ حَمَلَ الإِنْسَانُ عَلَى فَخِذَيْهِ وَأَلْيَتَيْهِ هَذَا اللَّحْمَ؟ إِلَّا لِيَقِيَهُ مِنَ الأَرْضِ فَلَا يَتَأَلَّمُ مِنَ الجُلُوسِ عَلَيْهِمَا؟ كَمَا يَأْلَمُ مَنْ نَحَلَ جِسْمُهُ وَقَلَّ لَحْمُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَرْضِ حَائِلٌ يَقِيهِ صَلَابَتُهَا، مَنْ جَعَلَ الإِنْسَانَ ذَكَراً وَأُنْثَى؟ إِلَّا مَنْ خَلَقَهُ مُتَنَاسِلًا؟ وَمَنْ خَلَقَهُ مُتَنَاسِلًا؟ إِلَّا مَنْ خَلَقَهُ مُؤَمِّلًا؟ وَمَنْ خَلَقَهُ مُؤَمِّلًا؟ وَمَنْ أَعْطَاهُ آلَاتِ العَمَلِ؟ إِلَّا مَنْ خَلَقَهُ عَامِلًا؟ وَمَنْ خَلَقَهُ عَامِلًا إِلَّا مَنْ جَعَلَهُ مُحْتَاجاً؟ وَمَنْ جَعَلَهُ مُحْتَاجاً إِلَّا مَنْ ضَرَبَهُ بِالحَاجَةِ؟ وَمَنْ ضَرَبَهُ بِالحَاجَةِ إِلَّا مَنْ تَوَكَّلَ بِتَقْوِيمِهِ؟ مَنْ خَصَّهُ بِالفَهْمِ إِلَّا مَنْ أَوْجَبَ لَهُ الجَزَاءَ؟ وَمَنْ وَهَبَ لَهُ الحِيلَةَ إِلَّا مَنْ مَلَّكَهُ الحَوْلَ؟ وَمَنْ مَلَّكَهُ الحَوْلَ إِلَّا مَنْ أَلْزَمَهُ الحُجَّةَ؟ مَنْ يَكْفِيهِ مَا لَا تَبْلُغُهُ حِيلَتُهُ إِلَّا مَنْ لَمْ يَبْلُغْ مَدَى شُكْرِهِ؟

فَكِّرْ وَتَدَبَّرْ مَا وَصَفْتُهُ! هَلْ تَجِدُ الإِهْمَالَ عَلَى هَذَا النِّظَامِ وَالتَّرْتِيبِ؟ تَبَارَكَ اللهُ عَمَّا يَصِفُونَ». (١)

فطرة التوحيد

مما تكرر في الآيات والروايات الدالة على المعرفة الفطرية وتبين أن الله جل وعلا

---

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص٧٤ وص ٦١.

فطر جميع الناس على معرفته متوحداً ومنزهاً عن كل شبيه، فكما أنهم مفطورون على معرفة الله تعالى كذلك مفطورون على توحيده جل جلاله.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذا رَكِبُوا فِي الفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ﴾.(٢)

وقال تعالى: ﴿وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُون ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.(٣)

وفي رواية زرارة قال: «سَأَلْتُ أَبا عَبْدِ اللهِ عليه السلام: عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ- ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ قَالَ: فَطَرَهُمْ جَمِيعاً عَلَى التَّوْحِيدِ».(٤)

والوجدان شاهد على صدق ما نطق به القرآن وأهل البيت عليهم السلام، حيث إن الإنسان حينما تنجلي عنه حجب الغفلة وتنقطع علاقته عن كل ما كان يزعم أنه يغنيه ويقيمه، فيرى أن ذاته فقيرة للغاية، وكما يجد بوضوح أن كل ما كان مثله ومشاركاً معه في صفاته فقير أيضاً، وما دام يتعلق قلبه بشيء دون الله تعالى، فلن تتجلى تلك المعرفة الفطرية الثابتة في قلبه، وإنما تنجلي تلك المعرفة عند قطع العلاقة عن كل ما يكون بصفة المصنوع، أي ما يكون ضعيفاً وفقيراً بحد ذاته، لأنه يجد في تلك الحالة وجداناً عيانياً وإدراكاً شهودياً أن المحدود والمصنوع والمتغير والمقهور وما يكون له أفول وزوال

---

(١) العنكبوت ٦٥.

(٢) الأنعام آية ٤٠ وآية ٤١.

(٣) النحل آية ٥٣ و٥٤.

(٤) الكافي: ج٢ ص١٢.

وانتقال، محض الفقر والحاجة إلى الغني المتعال عن تلك الصفات.

ثم يتعلق قلبه بذلك الغني ويشير إليه باسم «هو» المقدّس، فيقول: هو قادر على إنجائي وإغاثتي.

فعندما تسأله: من هو؟

فيقول لك: شيء بخلاف الأشياء، لا يعتريه حد ولا عجز ولا ضعف، كما يعتريني أنا ومن على شاكلتي ومن بصفتي.

وإذا سألته: هل هو سميع وبصير أم لا؟

فيقول لك: لولا وجداني أنه يسمعني ويراني، ما كنت أدعوه، لكن سمعه وبصره ليس كسمع المخلوق وبصره المدبَّر الحادث المتغير المحدود.

وإذا سألته: هل هو قادر أم لا ؟

يقول: لولا إيماني بقدرته لما دعوته، كما أني ما دعوت من هو بصفتي من المخلوقين وما ترجيتهم.

وإذا سألته: هل رحيم أم لا؟

سيجيبك: لولا رحمته لما مددت يدي نحوه، وما أملت غوثه.

وهكذا فالإنسان في حال البأساء والضراء ليس فقط يعرف إلهاً مجملاً مبهماً كلياً، بل يعرفه بقدرته وعلمه وتوحده وتنزهه عن صفات المخلوقين، وكبريائه وعظمته وعطفه وحنانه ورحمته، فمن هنا وصف الله تعالى دعاء المضطرين بأنهم يدعون الله تعالى مخلصين له الدين، ويدعونه منيبين إليه تضرعاً وخفية.

ثم إن الكلام في كيفية الاستفادة من دليل الفطرة أمام الجاحد والملحد، هو ما مر

في معرفة الله تعالى الفطرية، بل يمكن أن يقال: إن أساس جميع الأدلة والبراهين يرجع إلى الفطرة، فلولا أن العباد مفطورون على معرفة الله تعالى لما نفعهم أي برهان وتذكير وتنبيه، فجميع البراهين والأدلة إنما هي إثارات للفطرة ودعوة للعود إليها.

عَنْ زُرَارَةَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله ﴿وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى﴾.قَالَ: «ثَبَتَتِ المَعْرِفَةُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَنَسُوا المَوْقِفَ، سَيَذْكُرُونَهُ يَوْماً مَا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَدْرِ أَحَدٌ مَنْ خَالِقُهُ ولَا مَنْ رَازِقُهُ».(١)

---

(١) المحاسن ج ١ ص ٢٢٥ ح ٢٢٥.

الأسئلة:

١- ما هو تقريب برهان التمانع؟

٢- اذكر وجه الملازمة بين وجود الشريك وبين الضعف؟

٣- ما الملازمة بين عدم النظم والإبادة؟

٤- كيف يبرهن على التوحيد من خلال وجود العالم وعدم فساده وإبادته؟

٥- ما المحذور في فرض التنسيق بين الإلهين؟

٦- كيف تتجلّى فطرة التوحيد في حال البأساء والضراء؟

الدرس الثامن: الأسماء والصفات

الاسم في اللغة مأخوذ من مادة «وسم»، بمعنى العلامة والدلالة، وأبدلت الواو همزة فصار اسماً، وقيل إنّه مأخوذ من «سمو»، بمعنى العلو والرفعة، بحذف واو آخره وإضافة الهمزة في أوله بدلاً عن الواو.(١)

والصفة مأخوذ من «وصف»، حذفت واو أولها وأبدلت بتاء في آخرها، وعرّفت بأنها: «العلامة الملازمة للموصوف وبها يعرف الموصوف».(٢)

ويستفاد من كلام أهل اللغة أنّ الاسم والصفة متقاربان في المعنى، فكلاهما علامة للمسمى والموصوف، إلا أنّ الاسم علامة عامة، أما الصفة فهي علامة لتلازمها مع الموصوف، وقد استخدم الاسم والصفة في روايات أهل البيت عليهم السلام بنفس معناه اللغوي.

فعن الإمام الرضا عليه السلام حينما سئل عن معنى البسملة، فقال: «**مَعْنَى قَوْلِ القَائِلِ: بِسْمِ اللهِ، أَيْ أَسِمُ عَلَى نَفْسِي سِمَةً مِنْ سِمَاتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وهِيَ العِبَادَةُ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: مَا السِّمَةُ؟ فَقَالَ: العَلَامَةُ**».(٣)

و في حديث آخر أجاب الإمام عليه السلام عن معنى الاسم فقال: «**صِفَةٌ لِمَوْصُوف**».(٤)

---

(١) راجع: لسان العرب: ج١٤ ص ٤٠١.

(٢) التعريفات للسيد شريف الجرجاني: ص ٥٨، وراجع: معجم مقاييس اللغة: ج٦ ص٥.

(٣) توحيد الصدوق: ص ٢٢٩.

(٤) الكافي: ج١ ص ١١٣.

و قد عرّف الإمام الباقر عليه السلام جميع أسماء الله تعالى بأنّها صفات حيث قال: «**إِنَّ الأَسْمَاءَ صِفَاتٌ وَصَفَ بِهَا نَفْسَه**».(١)

حدوث الأسماء

إنّ الأسماء هي العلامات والدلالات على المسمى العزيز المتعال كما مرّ، فلامحالة تكون مغايرة للمسمى، ويدل عليه أيضاً أنّ أسماء الله تعالى متعددة، لكن المسمى واحد لايتعدد، فلو كان الاسم هو المسمى لتعدد المسمى بتعدد الأسماء.

وليس دور الأسماء إلا الدلالة على المسمى، وقد أحدثها الله تعالى لفاقة الخلق إليها ليدعونه ويعرفونه بها، وهي متعددة ومختلفة ولها شأن عظيم في نظام التكوين والتشريع عند الله تعالى عزوجل.

عن الإمام الرضا عليه السلام في حديث: «**لَكِنَّهُ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَسْمَاءً لِغَيْرِهِ يَدْعُوهُ بِهَا، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُدْعَ بِاسْمِهِ لَمْ يُعْرَفْ**».(٢)

فالمعبود ليس إلا المسمى المدلول عليه بهذه الأسماء، قال الإمام الصادق عليه السلام لهشام بن الحكم حينما سأله عن أسماء الله تعالى واشتقاقها:

«**يَا هِشَامُ، اللهُ مُشْتَقٌّ مِنْ إِلهٍ، والإِلهُ يَقْتَضِي مَأْلُوهاً، والِاسْمُ غَيْرُ المُسَمّى، فَمَنْ عَبَدَ الِاسْمَ دُونَ المَعْنى، فَقَدْ كَفَرَ ولَمْ يَعْبُدْ شَيْئاً؛ ومَنْ عَبَدَ الِاسْمَ والمَعْنى، فَقَدْ أَشْرَكَ وعَبَدَ اثْنَيْنِ؛ ومَنْ عَبَدَ المَعْنى دُونَ الِاسْمِ، فَذَاكَ التَّوْحِيدُ، أَفَهِمْتَ يَا هِشَامُ؟**».

قَالَ: قُلْتُ: زِدْنِي، قَالَ: «للهِ تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ اسْماً، فَلَوْ كَانَ الِاسْمُ هُوَ المُسَمّى، لَكَانَ كُلُ اسْمٍ مِنْهَا إِلهاً، ولكِنَّ اللهَ مَعْنىً يُدَلُّ عَلَيْهِ بِهذِهِ الأَسْمَاءِ وكُلُّهَا غَيْرُهُ.يَا هِشَامُ، الخُبْزُ

(١) الكافي: ج١ ص٨٨.
(٢) الكافي: ج١ ص١١٣.

اسْمٌ لِلْمَأْكُولِ، والمَاءُ اسْمٌ لِلْمَشْرُوبِ، والثَّوْبُ اسْمٌ لِلْمَلْبُوسِ، والنَّارُ اسْمٌ لِلْمُحْرِقِ؛ أَفَهِمْتَ يَا هِشَامُ فَهْماً تَدْفَعُ بِهِ وتُنَاضِلُ بِهِ أَعْدَاءَنَا المُتَّخِذِينَ مَعَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ غَيْرَهُ؟». قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: «نَفَعَكَ اللهُ بِهِ وثَبَّتَكَ يَا هِشَامُ».

قَالَ هِشَامٌ: فَوَ اللهِ، مَا قَهَرَنِي أَحَدٌ فِي التَّوْحِيدِ حَتَّى قُمْتُ مَقَامِي هذَا.(١)

والغفلة عن هذه القاعدة التوحيدية التي أسسها الإمام الصادق عليه السلام أوجب الكثير من الانحرافات، فمهما وجد التعدد والتكثّر فإنّما يكون في الأفعال والآثار والأسماء، أمّا الذات -وهو المسمّى- فهو واحد أحد، لايتعدد ولايتكثّر ولايتبعّض.

والتعدد في الأسماء والصفات يرجع إلى التعدد في الأفعال والآثار، فإنّ كل اسم من أسماء الله تعالى يشير إلى فعل من أفعاله تعالى، وهي متعددة ومختلفة في الآثار، وهذا التعدد إنما هو في الاسم والدال والمشير، وكذا في الأفعال والتجليات المختلفة لله تعالى، وليس في المدلول والمشار إليه والمسمى، فالاختلاف والتغاير بين العالم والقادر والخالق والرازق وغيرها من أسماء الله تعالى، راجع إلى اختلاف افعاله وآثاره وتجلياته تعالى، لا إلى الذات والمسمى حتى يلزم التركيب والتعدد.

كمالات الذات وصفات الفعل

إنّ لله تعالى كمالات ذاتية وصفات فعلية، والضابطة في ذلك: أنّ كمالات الذات هي ما لايمكن سلبها عن الذات، لا في وقت من الأوقات ولابلحاظ شيء من الأشياء، وصفات الفعل ما يمكن سلبها عنه بلحاظ الحالات والأوقات المختلفة.

فمثلاً يقال: إنّ الله تعالى خلق زيداً في هذه السنة ولم يخلقه في السنة الماضية، أو إنه خلق الطير ولم يخلق العنقاء، لكن لايصح أن يقال: إنّه علم شيئاً ولم يعلم شيئاً آخر،

(١) الكافي: ج١ ص ٨٧.

وكذلك لايصح سلب القدرة عنه تعالى.

والقسم الأول يسمى بصفات الفعل، وهي ليست إلا أفعاله تعالى، والقسم الثاني يسمى بكمالات الذات.

فمن صفات الفعل الإرادة، فتقول: إنّه تعالى أراد هذا ولم يرد غيره، ومن كمالات الذات: العلم والقدرة، فلايصح سلبهما عنه تعالى بوجه من الوجوه.

وهذا معنى قول المتكلمين إنّ صفاته تعالى أي كمالاته ليست زائدة على ذاته، أي ليس هناك تعدد بينه وبين علمه، ولابينه وبين قدرته، بل هو علم وقدرة وحياة وأزلية وأبدية بلا تعدد ولاتغاير، والقول بزيادة الصفات على الذات، يلزم منه كون الذات فاقداً لذلك الكمال، وأن يكون محتاجاً إليه في وجدانه للكمال.

معنى كمالات الذات

مرّ أنّ كمالات الذات ليست متغايرة ومتباينة مع الذات، وعلى ضوء ذلك فكما أنّ الوصول إلى كنه ذاته تعالى ومعرفته بحقيقته، وكذا تصوره تعالى وتوهمه محال، كذلك معرفة حقيقة كمالاته من العلم والقدرة والحياة وغيرها، فتكون هذه الأسماء إشارات إلى المعروف الفطري المقدس عن نيل الأوهام.

إنّ غاية ما ندركه من تلك الكمالات هي المعرفة بين الحدين: بين التعطيل والتشبيه، أي نعلم أنه تعالى ليس بجاهل وليس بعاجز وليس بميت وليس بحادث، كما نعلم أن علمه لا يشبه علم المخلوقين، وكذا قدرته وحياته وأوليته وأزليته.

ومن غير الصحيح إثبات مفاهيم متغايرة ومتباينه لله تعالى في مرتبة الذات القدوس، فإنّه كما مر في القاعدة المعرفية التي استفدناها من كلام الإمام الصادق عليه السلام

لهشام، ليس هناك في الذات مجالٌ للتعدد والتكثر، بل التكثر والتعدد يكون في مقام الفعل والصنع، وعليه فالعلم الذي هو عين الذات لايغاير القدرة التي هي عين الذات أيضاً، لامفهوماً ولامصداقاً، بل لايوجد هنالك تعدد فيها بين المفهوم والمصداق أيضاً، وليس حظنا من معرفته ومعرفة كمالاته إلا الإقرار بلاتشبيه ولاتصور ولاتوهم.

وقد ذهب بعض طوائف المسلمين إلى القول بأن هنالك صفات زائدة على الذات، فهو يعلم بعلم ويقدر بقدرة، فجاءهم الردّ من أهل البيت عليهم السلام، نظير ما رواه الصدوق عن محمد بن عرفة قال: قُلْتُ لِلرِّضَا عليه السلام: «خَلَقَ اللهُ الأَشْيَاءَ بِالقُدْرَةِ أَمْ بِغَيْرِ القُدْرَةِ؟ فَقَالَ: **لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَلَقَ الأَشْيَاءَ بِالقُدْرَةِ، لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ خَلَقَ الأَشْيَاءَ بِالقُدْرَةِ، فَكَأَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ القُدْرَةَ شَيْئاً غَيْرَهُ، وجَعَلْتَهَا آلَةً لَهُ بِهَا خَلَقَ الأَشْيَاءَ، وهَذَا شِرْكٌ. وَ إِذَا قُلْتَ خَلَقَ الأَشْيَاءَ بِقُدْرَةٍ، فَإِنَّمَا تَصِفُهُ أَنَّهُ جَعَلَهَا بِاقْتِدَارٍ عَلَيْهَا وقُدْرَةٍ، ولَكِنْ لَيْسَ هُوَ بِضَعِيفٍ ولَا عَاجِزٍ ولَا مُحْتَاجٍ إِلَى غَيْرِه**».(١)

أي: أنّ إثبات صفة لله تعالى باسم القدرة والتي تكون غير الموصوف المتعال، يلزم منه الشرك والتعدد وفقر الموصوف، ثم بيّن الإمام عليه السلام في الذيل، أنّ المعنى الصحيح لذلك حينما نَصِفُ الله تعالى بالقدرة، هو إثبات كمال الاقتدار والسلطنة وسلب العجز عنه تعالى، من دون تشبيه ولا توسّط شيء في إثبات هذا الاقتدار له تعالى، فالقدرة التي هي من كمالات الله تعالى ليست حقيقة غير ذاته تعالى ليكون اقتداره بتلك القدرة.

و من هنا فالصفة بمعنى المفهوم المغاير للموصوف منفي عن الله تعالى بصورة عامة، وقد مرّ أنّ الصفة في معناها اللغوي تستخدم بمعنى العلامة الملازمة للموصوف، فهي كالاسم تغاير للموصوف والمسمى، ويجب تنزّهه تعالى عنها.

---

(١) توحيد اصدوق: ١٣٠.

وهذا معنى ما ورد من نفي الصفات عن الله تعالى في روايات أهل البيت عليهم السلام، نظير ما عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«كَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلَاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ المَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ. فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ».[1]

وهذا سرّ عدولنا عما اصطلح عليه المتكلمون من تعبير صفات الذات، إلى التعبير بكمالات الذات، من أجل أنّ الصفة قد أخذ في معناها اللغوي المغايرة مع الموصوف، فاستعماله في المتحد مع الذات خروج عن المعنى اللغوي.

التوحيد والتوسّل بالأسماء

من السنن التي سنّها الله تعالى لعباده هو التوسّل بأسمائه تعالى، وهذا النظام من ضروريّات جميع الشرائع الإلهيّة، وقد يستنكر من قبل بعض الفئات لما يزعمون أنّه ينافي التوحيد، نظير الجماعة الوهابيّة التي ترى أنّ التوسّل بغير الله تعالى وطلب الحاجة منه والاستمداد منه يعدّ شركاً بالله العظيم، نظير شرك عبدة الأصنام الذين ما عبدوا أصنامهم إلا ليقرّبوهم إلى الله تعالى زلفى، وبذلك تراهم يصدرون فتاوى تكفيريّة ضدّ المسلمين سنّة وشيعة تبيح قتلهم.

وقد تصدّى العلماء للردّ عليهم وإبطال أطروحتهم في التوحيد، حيث يحكم العقل بأنّ توخّي الوسيلة والواسطة إذا كان بأمر الله تعالى فلا يعدّ التوسّل به شركاً، بل هو عين التوحيد والانقياد لأمره تعالى، ووجود الأمر وعدمه هو الفارق بين التوسّل بأولياء الله تعالى وعبادة الأصنام للتقرب إلى الله تعالى.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

إنّ التوسّل هو: توخّي الواسطة بين شخصين، والوسيلة هي: ما يتقرّب به إلى الغير، فقد أخذ في موضوع التوسّل وجود شخصين أحدهما يريد أن يتوصّل إلى الآخر فيتقرّب بثالث إلى أن يقترب منه، فالوسيلة هو الثالث الذي له دور الوساطة بين الشخصين.

قال الله تعالى: **﴿وَ لله الأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وذَرُوا الَّذينَ يُلْحِدُونَ في أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾**.[1]

فالدّعاء والإقبال إلى الله تعالى غير متيسّر إلاّ بتوسّط الأسماء الحسنى، كما يجب الإعراض والاجتناب عمّن يُلحد في هذه الأسماء، فمؤدّى الآية: أنّه لايمكن التوجّه إليه تعالى ولايمكن الإقبال نحوه والرغبة إليه، إلا بهذه الأسماء الحسنى، فهذه الأسماء هي الواسطة بين الداعي والمدعوّ، وإنّ الداعي حين يُقبِل بوجهه إلى الله تعالى إنّما يتوجّه إليه بهذه الأسماء، فإنّ هذه الأسماء لها دور إيصال الداعي إلى الذات الأحدية عزّ جلالها، كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام: «**أَسْمَاؤُهُ تَعْبِير**».[2] فدورها أنهّا تعبر الناس إلى الخالق المتعال، فهي أبواب وحجب ووسائط تتوسّط بين العباد وبين الله تعالى القدوس المتعال.

ومن يأبى عن الخضوع والتوسّل بأسماء الله تعالى وحججه وأوليائه الذين أمر العباد بأن يتوجهوا إليه -وهم أسماء الله الحسنى[3]- ويبتغي أن يتقرّب إلى الله تعالى

(١) الأعراف: ١٨٠.

(٢) توحيد الصدوق: ٣٦.

(٣) إنّ الأسماء الإلهية تنقسم إلى أسماء لفظية وأسماء تكوينية، وكلاهما سمات وعلامات للمسمى المتعال، ومن جملة أسماء الله تعالى التكوينية هم حججه وخلفاؤه وأنبياؤه ورسله، كما ورد في عيسى أنه كلمة الله، عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فِي قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: **﴿وَ لله الأَسْماء الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها﴾**.قَالَ: «**نَحْنُ واللهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى الَّتِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنَ الْعِبَادِ عَمَلًا إِلَّا بِمَعْرِفَتِنَا**».الكافي: ج١ ص١٤٣.

مباشرة يكون حاله كحال إبليس، حيث امتنع من السجود والخضوع لآدم واقترح أن تكون عبادته له من دون توسّط الخضوع لخليفة الله تعالى، فلعنه الله تعالى وطرده ﴿أَبى واسْتَكْبَرَ وكانَ مِنَ الكافِرِين﴾.[(١)].

فإنّ الله تعالى اشترط على الملائكة لقربهم من ساحة القدس الربوبية، الانقياد والخضوع والسجود لآدم عليه السلام، فكان هو الوسيط بين الملائكة وبين الله تعالى، وليس لهم نافذة وباب إلى ساحة قربه تعالى إلا عن طريق السجود والانقياد لآدم، وحينما رفض إبليس ذلك واقترح على الله تعالى أن يعبده من دون السجود لآدم مباشرة، طُرد ورُجم من ذلك المقام الذي كان يحظى به، ولعن إلى يوم الدين، فإبليس لرفضه التوسّل والواسطة بينه وبين الله تعالى، واستكباره عن الخضوع لخليفة الله تعالى والسجود له، هبط إلى أسفل السافلين بعد أن كان في أعلى علييّن.

إنّ حقيقة العبادة التي هي الطوعانيّة والخضوع، لاتنسجم مع دعوى الاستقلال في الوصول إلى ساحة القرب الربوبية ورفض الوسائط التي جعلها الله تعالى وسيلة بينه وبين خلقه، وإبليس إنما رُجم وطُرد من حضرة القدس الربوبية لرفضه التوسل بأولياء الله تعالى والاستكبار عن الانقياد لها.

وعليه فمزعمة منكري التوسّل بحجج الله تعالى وخلفائه في التوحيد، تضاهي مزعمة إبليس في التوحيد، وأما توحيد الملائكة المقربين فإنما هو بالتوسّل والخضوع والانقياد لخلفاء الله تعالى بعد ما اصطفاهم الله تعالى لذلك وأمر عباده بالتوجه إليهم.

ونقطة الإشكال الرئيسية على تشفع عبدة الأصنام ما ركّز عليه القرآن في آيات عديدة أنّها كانت من دون الله تعالى، وما أنزل الله تعالى بها من سلطان، فهم أرادوا أن

---

(١) البقرة: ٣٤.

يفرضوا رأيهم على الله تعالى ويجعلوا وسائط ما اصطفاهم الله تعالى وما أعطاهم سلطاناً لذلك، وهذا عين الكفر والإلحاد كما هو واضح.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.(١)

---

(١) يوسف: ٤٠.

الأسئلة

١- ما هو معنى الاسم والصفة؟ وما هي النسبة بينهما؟

٢- ما هو الدليل على حدوث أسماء الله تعالى وتغايرها مع المسمى؟

٣- ما هي الضابطة لمعرفة صفات الفعل عن كمالات الذات؟ وهل الإرادة وفق هذه الضابطة من صفات الفعل أو الذات؟

٤- كيف نفهم الروايات الواردة في نفي الصفات عن الله تعالى؟

٥- ما هو مراد المتكلمين من نفي الصفات الزائدة على الذات؟

٦- كيف يكون الإذن وعدمه فارقاً بين التوسّل المشروع وغير المشروع؟

٧- ما هي نوعية كفر إبليس، فهل كان يمنع من الإقرار بألوهية الرب والعبادة له؟

الفصل الثاني

العدل

الدرس التاسع: العدل (١)

تميزت المدرسة الإمامية الاثنا عشرية بالاعتقاد بأن الله تعالى عادل، فالعدل يعدّ من أصول دين الإمامية، وقد اعتنى أئمة أهل البيت عليهم السلام بهذا الأصل الاعتقادي في مقابل بقية المدارس، سيما المدرسة الأشعرية المنكرة لواقعية الحسن والقبح، والقائلة بالجبر في أفعال العباد.

وقد أطبق القرآن والعترة بضرورة هذا الأصل وأهمية الاعتقاد به ونفي الظلم عنه تعالى.

قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.(١)

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.(٢)

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.(٣)

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلا﴾.(٤)

والفتيل هي القشرة التي على النواة أو الخيط الذي في شق النواة.

---

(١) التوبة: ٧٠.

(٢) يونس: ٤٤.

(٣) النساء: ٤٠.

(٤) النساء: ٤٩.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **إن أساس الدين التوحيد والعدل.**(١)

وفي رسالة الامام الهادي عليه السلام إلى أهل الأهواز: **ومن ظلم ربه فقد كذب كتابه ومن كذب كتابه لزمه الكفر باجتماع الأمة.**(٢)

منشأ إنكار العدل من قبل بعض المدارس

الاختيار وارتباطه بأصل العدل

الفرق والمدارس التي أنكرت العدل كالأشاعرة، إنما أنكروه لأجل قولهم بالجبر في أفعال العباد، وذلك أن عقاب المجبور من أبرز أنواع الظلم، فكيف يجبر الله تعالى العصاة والكفار على العصيان والكفر ثم يعاقبهم عليها؟

فلما اعتَرض عليهم بهذا الاعتراض، أنه نسبة الظلم إلى الله تعالى، عمدوا إلى إنكار أصل العدالة في أفعال الله جل وعلا، وحتى يتمكنوا من إنكار ذلك، أنكروا أن يكون حسن العدل وقبح الظلم أمراً حقيقياً واقعياً، بل قالوا: بأن كل ما يفعله المولى حسن، ولو أنه عاقب من أجبره على المعصية بأشد العذاب، فهذا حسن وليس فيه قبح واقعي.

وفي الحقيقة هذه المحاولة الثانية منهم للفرار عن إشكالية نسبة ارتكاب القبيح إلى الله تعالى، حيث إن تكليف غير القادر وغير المختار فضلا عن عتابه وعقابه قبيح عقلاً، فلكي لا يرد عليهم هذا الاشكال أنكروا قبح الظلم من أساسه.

فظهر أن النزاع بيننا وبينهم في أمرين:

١) في واقعية الحسن والقبح.

---

(١) معاني الأخبار: ص١١.

(٢) بحار الأنوار: ج ٥ ص٢٢.

٢) وفي إثبات القدرة والاختيار للعباد، ونفي الجبر بالنسبة لأفعالهم التي يتعلّق بها التكليف والأمر والنهي.

فهنالك تلازم بين القول بالجبر، ونفي العدالة عن الله تعالى.

ففي كلام عن أمير المؤمنين عليه السلام حينما سئل عن التوحيد والعدل فقال عليه السلام: «**التَّوْحِيدُ أَلَّا تَتَوَهَّمَهُ والعَدْلُ أَلَّا تَتَّهِمَه**».[١]

وعن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**مَا عَرَفَ اللهَ مَنْ شَبَّهَهُ بِخَلْقِهِ ولَا وَصَفَهُ بِالعَدْلِ مَنْ نَسَبَ إِلَيْهِ ذُنُوبَ عِبَادِه**».[٢]

وذلك أن المجبرة ينسبون ذنوب العباد إلى الله تعالى ويتهمونه بأنه تعالى هو الذي يوقع العباد في المعصية، وهذه تهمة اتهموا المولى جل جلاله بها.

ثم إنه يظهر من هذه الروايات أن مبحث العدل يعادل أهمية مسألة التوحيد في منظومة معارف أهل البيت عليهم السلام، حيث قرن التوحيد بالعدل وجُعلاً معاً أساساً للدين.

معنى العدل والظلم اللغوي

قال ابن منظور في لسان العرب: «الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومن أمثال العرب في الشبه من أشبه أباه فما ظلم، قال الأصمعي: ما ظلم، أي ما وضع الشبه في غير موضعه، وفي المثل: من اصطرع الذئب فقد ظلم ...والظلم الميل عن القصد، والعرب تقول الزم هذا الصوب ولاتظلم عنه، أي لا تجر عنه».[٣]

وقال أيضاً: «العدل ما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو ضد الجور ...والعدل

---

(١) نهج البلاغة: حكمة ٤٧٠.

(٢) توحيد الصدوق: ص٤٧.

(٣) لسان العرب: ج١٢ ص٣٧٣ باب ظلم.

الحكم بالحق».

وقال الخليل الفراهيدي في كتاب العين: «العدل المرضي من الناس قوله وحكمه ...والعدل نقيض الجور، يقال: عدل على الرعية، ويقال لما يؤكل ولم يكن حاراً ولا بارداً يضر هو معتدل».

فظهر أن كلمتي العدل والظلم لهما نطاق واسع، فكل ما لا يكون مستقيماً وفق الموازين الصحيحة يكون ظلماً وجوراً عن قصد السبيل.

العدل والظلم في القرآن

وقد استعملت كلمة العدل والظلم في القرآن المجيد فيما لاينبغي فعله، فكل معصية وخطوة غير صحيحة تعتبر ظلماً.

قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾.(٢)

وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾.(٣)

في هذه الآيات جعلُ كلِّ تعدّ عن الحدود المقررة ظلماً، ومن أعظم الظلم الشرك بالله تعالى، حيث إنه إنكار لأعظم الحقائق وأظهرها وهو التوحيد.

---

(١) الطلاق: ١.

(٢) لقمان: ١٦.

(٣) النساء: ١١٠.

شمولية مفهوم العدل

إن عدله تعالى ونفي الجور عنه، مفهوم عام شامل لكل فعل يفعله الله جل وعلا، فهو لا يفعل إلا ما هو الصحيح والمتقن ومما ينبغي فعله، ولا يدخل الجور والظلم في أفعاله بقدر الفتيل والنقير، أي لا يوجد في أفعال الله تعالى وفي نظامه شيء يمكن أن يقال إنه غير مناسب ومما لا ينبغي، حتى بقدر قشر النواة والخيط الذي في وسطها:

١) فنظامه في التكوين نظام عادل، وليس في خلق الله تعالى فتور ولا نقص ولا لغو ولا عبث ولا ما يخالف الحكمة.

٢) كما أن نظامه في التشريع وجعل القوانين والحدود الشرعية، نظام عادل ليس فيها جور ولا نقص، وأن تشريعاته تعالى تشريعات حسنة وحكيمة ومتناسبة مع خلقة الإنسان وحياته في الدارين، ولا يوجد خلل ولا فتور في هذه القوانين الشرعية، كما أنه تعالى لا يكلف فوق طاقة الإنسان، فتشريعاته وأحكامه إنما تناط بوجود الحول والقوة والقدرة، بعد وصول البيان وإتمام الحجة.

قال تعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها**﴾.(١)

٣) وكذلك هو عادل في مقام الجزاء، فلا يظلم في مجازاة المحسنين والمسيئين، إنه ليس فقط لا يظلمهم بل يتفضل عليهم فوق ذلك، كما قال تعالى: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾.(٢)

ومقتضى عدله في مقام الجزاء، أنه لا يعاقب إلا من كان قادراً وارتكب المعصية باختياره بعد إتمام الحجة عليه، فمن لم تتم الحجة لديه، أو لم يكن قادراً على الامتثال،

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) الأنعام: ١٦٠.

فلا يعذبه الله جل جلاله، وهذا هو الذي أنكره المجبرة، فنسبوا الظلم إلى الله تعالى من خلال قولهم بالجبر في أفعال العباد.

العدل في نظام التكوين

و يقصد منه موافقة هذا النظام للحكمة التي خلق من أجلها، وأنّ كلّ ذرّة من ذرّات هذا الكون العظيم، مجعولة في محلها المناسب للغاية الحكيمة التي وجدت من أجلها، فلو رمت ببصرك نحو الشرق أو الغرب، وأحدقت النظر في الذرّة حتى المجرّة، فلن تجد فيه فتوراً ولاتقصيراً.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.(١)

إن جميع الاكتشافات والاختراعات الجديدة التي تحصل للبشر يوماً بعد يوم، وهذا التطور الملحوظ في التكنولوجيا والعلوم التجريبية، خير دليل على أن هذا العالم والنظام يحكم عليه نظم وترتيب دقيق، وأنه لا يوجد فتور وخلل أو نقص، حيث إنه لو كان فيه خلل أو فتور ولم يكن مشتملاً على أسرار دقيقة لما حصل كل هذا التطور العلمي، فإن هذه التطورات ليست إلا استكشاف سر من أسرار الخلقة كان مخفياً على البشر، وقد اكتشفه أخيراً، وليس البشر هو الذي أودع هذه الخاصية وذلك السر في الكون، بل كانت مودعة فيها ومخفية عن فهم البشر حتى بلغ علمهم إلى درجة كشفها وعرفها.

وهكذا كل يوم يكشف سراً من أسرار عالم الكون عظيمة ومهولة، تذهل العقول، فكلما يتقدم علم البشر يقف على أسرار وخصوصيات مبهرة للعقول، التي من خلالها

---

(١) الملك: ٤.

يستطيع أن يستغلها ويطور الحياة.

ثم إن مسيرة العلوم التجريبية لن تتوقف يوماً، فلا يمكن أن يقال: إن البشرية اليوم عرفت جميع أسرار الكون ولم يبق سر مخفي عليه، لأنه يلزم سد باب جميع العلوم التجريبية والاكتشافات والاختراعات والتقنيات الحديثة، وهذا ما لا يقبله أي عالم له أدنى حظ من العلم، بل كلهم ينادون بأن ما وقفنا عليه من أسرار الكون ليس إلا النزر اليسير من الواقع الموجود، وهذا إقرار واعتراف بعدم وجود خلل وفتور في نظام الكون، لأن التفكر والتجربة في النظام المختل وغير السوي، لا يساعد لاستكشاف أسرار وطاقات وتقنيات حديثة ومذهلة، فنفس بقاء سير العلوم التجريبية وعدم التوقف فيها، خير دليل على أن عالم الكون بما فيه من الذرة إلى المجرة، لا نقص فيه ولا خلل، وكل شيء متقن في محله.

فلولا ما تبدّه لدى البشرية وارتكز عليه من اتقان الكون ودقته، لما اشتغل في البحث على الوقوف على أسراره وطاقاته المخزونة المودعة فيه.

العدل في نظام التشريع ونظام الجزاء

١) بعدما أقر الإنسان على نفسه أنه عبد فقير إلى الله تعالى، والله تعالى هو الذي خلقه وأعطاه النعم التي لا تحصى، وعرف بأن ما سوى الله تعالى كلهم فقراء إليه ومحتاجون إلى نيله وعطائه وفضله؛ يرى من الواضح لزوم طاعة المولى جل وعلا، ووجوب عبادته والتضرع إليه، وحرمة عصيانه.

وذلك أن كمال الفقير الذاتي ليس إلا بالاستمداد والاستعانة من الغني الذاتي، ومن هنا يعلم الإنسان أن عبادته تعالى حسنة، بل واجبة وأن هذه العبودية والطاعة مما ينبغي للمخلوق أن يتحلى به.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِلَهِي كَفَى بِي عِزّاً أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْداً وَكَفَى بِي فَخْراً أَنْ تَكُونَ لِي رِبّاً**».(١)

٢) حينما علمنا بأنه تعالى غني عن العالمين، ولن يصل إليه نفع من المخلوق، لأنه الغني بذاته والمحتاج لا يكون إلهاً كما مر في مباحث التوحيد، فنعلم أن الله جل وعلا لا يأمر بشيء ولا ينهى إلا لغاية وحكمة حسنة، يكون العبد هو المستفيد منها وليس هو جل جلاله، فهو تعالى لا يكسب كمالاً من طاعة المخلوق، فأوامره ونواهيه كلها حسنة جميلة، وإن لم نعرف وجه الحكمة فيها تفصيلاً.

٣) بما أن الله تعالى هو خالق الإنسان وخالق نظام الكون، فهو يعلم بما خلقه وبطبيعة الحال تكون تشريعاته وتقنيناته موافقة للحكمة، ومتناغمة مع ما خلق، فإن صانع كل شيء هو أحسن من يقنن له.

٤) إن الله جل وعلا أعطى للإنسان الاختيار ومنحه القدرة على فعل الخير والشر، كما أنه أعطاه العقل فعرف به لزوم الطاعة وحرمة المعصية، وأتم عليه الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فلو عصى العبد بعد ذلك فعاقبه الله تعالى لم يظلمه أبداً.

إنما الظلم فيما لو لم يكن قادراً على الطاعة، أو كان مجبوراً على فعل المعصية، أو ما أتم عليه الحجة ولم يعرف الجيد من الرديء والحسن من القبيح، فعاقبه على فعل القبيح، وأما بعد إتمام الحجة وإعطاء القدرة فعقابه مقتضى العدل والحكمة ومما ينبغي.

---

(١) الخصال للصدوق: ص ٤٢٠ باب التسعة ح ١٤.

الأسئلة:

١ - أين منطقة النزاع في مسألة العدل فيما بين المذهب الإمامي والأشعري؟

٢- اذكر نماذج من الآيات القرآنية الواردة في بيان حقيقة العدل والظلم.

٣- ما الدليل على إتقان الصنع والعدل في نظام التكوين؟

٤- ما الدليل الإجمالي على كون أوامر الله تعالى ونواهيه حسنة جميلة وفي محلها؟

٥- متى يكون التكليف والعقاب ظلماً، ومتى لايكون ظلماً؟

٦- إذا لم نقف على وجه الحكمة في أحكام الشرع بالتفصيل فمن أين يمكن أن نعرف أنها حسنة حكيمة؟

الدرس العاشر: العدل (٢)

إرشاد إلى تنزهه تعالى عن الظلم

مضافاً إلى كلّ ما مرّ فإنّ القرآن الكريم يقول:

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحسانِ﴾[١]

﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُم يَظلِمُونَ﴾.[٢]

فهل ترى أنّ الله عزوجل الذي أمر في هاتين الآيتين وغيرهما من سائر آيات القرآن بالعدل والإحسان،[٣] ثم هو يظلم عباده ولو قليلًا؟!

وقد ورد في الدعاء عن الإمام الصادق والإمام السجاد عليهما السلام:

«وَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي حُكْمِكَ ظُلْمٌ، وَلَا فِي نَقِمَتِكَ عَجَلَةٌ، وَإِنَّمَا يَعْجَلُ مَنْ يَخَافُ الفَوْتَ، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى الظُّلْمِ الضَّعِيفُ، وَقَدْ تَعَالَيْتَ يَا إِلَهِي عَنْ ذَلِكَ عُلُوّاً كَبِيراً».[٤]

إن هذه الآيات الكريمة تنبه الإنسان إلى ما يدركه بعقله، وهو أن الظلم قبيح ينبغي التنزه عنه، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الظُّلْمُ أَلْأَمُ [أُمُ] الرَّذَائِل».[٥]

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) يونس: ٤٤.

(٣) البقرة: ٢٨٢؛ آل عمران: ١٨؛ النساء: ٣، ١٣٥، ١٢٩، ٥٨؛ المائدة: ٨ و٤٢؛ الانعام: ١٥٢؛ الاعراف: ٢٩؛ يونس: ٣ ؛ النحل: ٧٦؛ الشورى: ١٥؛ الحجرات: ٩؛ الحديد: ٢٥؛ الممتحنه: ٨ .

(٤) تهذيب الأحكام ج ٣ ص ٨٨.

(٥) غرر الحكم رقم ٨٠٤.

وإن الظالم يعتبر ناقصاً غير كامل.

كما يجد الإنسان حسن العدل وأنه مما ينبغي فعله، وأن الاتصاف به كمال، ومن هنا تجد العقلاء يذمون الظالم، بل حتى الظالم نفسه لا يعجبه أن يقال له ظالم.

فالله جل وعلا في هذه الآيات لا يأمر بشيء يكون بمنأى عن إدراك العقل، ولا ينهى عما لا يجده العقلاء بوجدانهم.

ثم إذا اتضح أن الله جل وعلا منزه عن كل نقص وكل عيب ورذيلة وقبيح، لا يبقى مجال للترديد في تنزهه عن الظلم وإثبات عدله، وأما تنزهه عن النقص فلأجل أن النقص من صفات المصنوع، ومن صفات الفقر والعجز، وما يكون بصفة المصنوع لا يكون إلهاً.

ثم إنه بعدما نهى الله تعالى عباده عن الظلم، يكون اتصافه بالظلم أشد قبحاً وأوضح دليلاً على تنزهه عن الظلم.

تتمة في الحسن والقبح العقليين

قد مر في تعريف العدل والظلم أن العدل هو وضع الشيء في موضعه، والمشي على الصراط المستقيم، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه والخروج عن الصراط المستقيم.

وهذان المعنيان أمران حقيقيان وواقعيان، لا يناطان بنظر العقلاء أو تسالمهم وتوافقهم.

توضيح ذلك:

قد مر أن الأشاعرة أنكروا واقعية حسن العدل وقبح الظلم، وزعموا أنهما قضيتان

اعتباريتان، أي ليس لهما واقعية وراء الاعتبار، فلو لم يعتبر الشارع أو العقلاء العدل حسناً، فإنه لا يُعد حسناً في ذاته، وكذلك في جانب الظلم.

وهم في الحقيقة إنما أنكروا الظلم أن يكون ظلماً، أي أنكروا واقعية الأشياء ومواضيعها، فبحسب زعمهم لا يوجد في عالم التكوين والواقع ضوابط ومعايير حقيقية وواقعية، تحكم في مواضيع الأشياء، حتى يكون وضعها في غير تلك المواضع وضع الشيء في غير موضعه، بل كلها اعتبارية بحتة لاحظّ لها من الواقع.

وهذا الكلام كما ترى مما لا يقبله العقل ويرفضه رفضاً باتاً، فإن الإنسان يدرك بعقله بالضرورة أن هناك طريقاً مستقيماً بحسب الواقع، ويكون العدول عنه زيغاً، اعتبره معتبر أم لا، وان لكل شيء موضعاً يناسبه، وليس هنالك انفلات وهرج في عالم التكوين.

بل أساس نظام العالم مبني على وجود مواضيع حقيقية لكل شيء، يكون تجاوزها جوراً عن قصد السبيل، وعلى أساس ذلك يُقَوِّم الإنسان إتقان الصنع والحكمة في الأفعال.

فمثلاً إن الميزان الصحيح في جزاء الإحسان هو الإحسان دون الإساءة والكفران، فوقوع الكفران والإساءة في موضع جزاء الإحسان إنما هو وضع للشيء في غير موضعه، كما أن الإحسان وضع للشيء في موضعه، وهذان أمران واقعيان لا يختلفان باختلاف الاعتبار واتفاق الآراء وعدم اتفاقها.

فاتضح أن انكار واقعية الحسن والقبح، يرجع إلى الفلتان وألا يكون في الواقع وفي عالم التكوين ضوابط وأسس يقيم بها الحسن من القبيح، والجيد من الرديء، والحق من الباطل، ولا يمكن فرض وجود وبقاء لمثل هذا العالم، لأنه حق والحق لا يمكن

أن يكون غير موزون ومنفلتاً، وقد مر في التوحيد أن عدم النظم والهرج يؤدي لامحالة لفساد العالم وإبادته.

إدراك العقل واقعية الحسن والقبح

ثم إن العقل يدرك بعض موارد العدل والظلم بشكل بديهي وواضح، فيحكم بحسن العدل وقبح الظلم، وهذا حكم ضروري وبديهي غني عن الإثبات، ومن هنا يكتفى فيمن ينكر هذه القضايا البديهية بتذكيره، كما هي سنة الله تعالى في كتابه، أنه ينبه ويثير عقول الناس لمثل هذه القضايا بذكر استفهام انكاري.

قال تعالى: ﴿هَلْ جَزاءُ الإِحْسانِ إِلاَّ الإِحْسانُ﴾.[1]

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذينَ يَعْلَمُونَ والَّذينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبابِ﴾.[2]

وإنكار إدراك العقل أو التشكيك في حجيته لا يصدر من عاقل، إذ إنّ نفس الإنكار والتشكيك حسب زعم المنكر أو المشكك حقيقة علمها بعقله، مع أن مبدأ الأمور في نظام المعرفة هو العقل، فلو أنكرنا إداراكه أو حجية إدراكه، لما تمكنّا من إثبات شيء، كما أنّه لو أنكرنا إداراكه لخصوص قضية الحسن والقبح دون سائر القضايا لما تمكنّا من إثبات حسن الإيمان بالله تعالى ولزوم الانقياد له والأخذ باعتباراته أبداً.

فالأشعري حينما يقول: الحسن ما حسّنه الشارع والقبيح ما قبّحه الشارع، يسأل عنه: أن نفس هذه القضية هل هي قضية صادقة وحقيقية أو لا؟

وأنه كيف أدرك واقعيتها وكيف علم حسن الانقياد والالتزام بتحسين الشارع وتقبيحه؟

---

(١) الرحمن: ٦٠.

(٢) الزمر: ٩.

كل هذه الأمور لا تُعلم إلا بالعقل وإدراكه وواقعية الحسن والقبح، وإن كان ذلك حصل له بإرشاد الشارع وإثارته، إلا أن المعتمد في إثبات حسن كلام الشارع لا يمكن أن يكون هو الشارع كما هو واضح، بل دور الوحي إرشاد وتنبيه وإثارة دفائن العقول، وقد ورد في الحديث عن أبي عبدالله عليه السلام: «**إِنَّ أَوَّلَ الأُمُورِ وَمَبْدَأَهَا وَقُوَّتَهَا وَعِمَارَتَهَا الَّتِي لَا يُنْتَفَعُ بِشَيْءٍ إِلَّا بِهِ، العَقْلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ زِينَةً لِخَلْقِهِ، وَنُوراً لَهُمْ. فَبِالعَقْلِ عَرَفَ العِبَادُ خَالِقَهُمْ، وَأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ، وَأَنَّهُ المُدَبِّرُ لَهُمْ، وَأَنَّهُمُ المُدَبَّرُونَ، وَأَنَّهُ البَاقِي وَهُمُ الفَانُون... وَ عَرَفُوا بِهِ الحَسَنَ مِنَ القَبِيحِ، وأَنَّ الظُّلْمَةَ فِي الجَهْلِ، وأَنَّ النُّورَ فِي العِلْمِ. فَهَذَا مَا دَلَّهُمْ عَلَيْهِ العَقْل**».(١)

وقد حث على التعقل ومدح أولي الألباب في آيات كثيرة من القرآن، وذم الذين لا يعقلون بأشد أنواع الذم والتقريع، وشبّههم بالأنعام بل هم أضل، كما أن في روايات النبي وأهل بيته عليهم السلام جعل العقل أساس الدين وحجة باطنة كما أن الأنبياء والرسل حجة ظاهرة، قال الإمام الكاظم عليه السلام: «**إِنَّ للهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ، حُجَّةً ظَاهِرَةً وَحُجَّةً بَاطِنَةً، فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالأَنْبِيَاءُ وَالأَئِمَّةُ عليهم السلام، وَأَمَّا البَاطِنَةُ فَالعُقُول**».(٢)

تنبيه في حدود إدراك العقل للحسن والقبح

ثم لا يخفى أننا عندما نبهنا إلى إداراك العقل وحجيته لا نعني بذلك أنه مطلق في الإدراك، أي يعرف جميع الحقائق وجميع موارد العدل والظلم، بل أن الثابت أنه يعرفها بمقدار يصحح التكليف، ثم الناس مختلفون في عقولهم، كما أنه قد ينبه الشارع على حسن أمر وقبح آخر، لم يصل إليهما العقل البشري الاعتيادي، وهذا ليس لعدم واقعية الحسن والقبح، بل لقصور العقل البشري عن إدراك مواطن تلك الأشياء ومواضعها،

(١) الكافي: ج ١ ص٢٩.
(٢) الكافي: ج ١ ص١٦.

فلم يتيسر له أن يعرف ما وضع في محله ويميزه عما لم يوضع في محله.

وعلى ضوء ذلك يستنتج أنه ليس من الصحيح أن يجعل الإنسان إدراكات عقله ميزاناً لما يمكن إدراكه بالعقل، فيدعى أنه ما دام أنا ما عرفته بعقلي وما عرفه من هو مثلي، فإذاً محال أن يعرف بالعقل، كلا ؛ فإنه قد يدركه الإنسان إذا كمل عقله وزادت استضاءته بالعقل.

وقد ورد في الحديث الشريف عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إِذَا قَامَ قَائِمُنَا وَضَعَ اللهُ يَدَهُ عَلَى رُؤُوسِ العِبَادِ، فَجَمَعَ بِهَا عُقُولَهُمْ وَكَمَلَتْ بِهِ أَحْلَامُهُم**».[١]

---

(١) الكافي: ج١ ص٢٥.

الأسئلة:

١- كيف يبرهن على تنزهه تعالى عن الظلم؟

٢- ما هي حقيقة قول الأشاعرة في إنكارهم لحسن العدل وقبح الظلم؟

٣- كيف يرد على مزعمة الأشاعرة من إنكار واقعية العدل والظلم؟

٤- هل يمكن إثبات اعتبارات الدين والشرع مع إنكار قضية الحسن والقبح؟ لماذا؟

٥- قد يقال: إنّنا حينما ندرك عجزنا عن معرفة مقتضيات الحسن والقبح في جملة من الأمور، فلايصح دعوى إدراك الحسن والقبح في شيء من القضايا، ما هو الرد على هذا الكلام؟

الدرس الحادي عشر: الجبر والتفويض

مر أن هناك علاقة وثيقة بين إثبات عدله تعالى ونفي الظلم عنه، وبين إثبات القدرة للعباد ومالكيتهم في أفعالهم الاختيارية، وقد ذهب بعض إلى القول بالجبر في أفعال العباد فقالوا إن الناس لا اختيار لهم ولا قدرة على فعل شيء أو ترك شيء آخر، بل كلهم مجبورون فيما يصدر عنهم من الأفعال الحسنة أو القبيحة، فلم يكن للعاصي والكافر والظالم قدرة على ترك العصيان والكفر والظلم، كما أن المطيع والمؤمن لم يطع ولم يؤمن باختياره، بل جميعها صنع الله تعالى وفعل الله تعالى وليس دور العباد إلا كالمنشار في يد النجار.

وهنالك تقريبات أخرى لنفس فكرة الجبر، يجمعها إنكار وجود القدرة للعباد في أفعالهم، فليسوا هم الذين إن شاءوا فعلوا وإن شاءوا تركوا.

وذهب جمع آخر إلى القول بالتفويض في أفعال العباد، وهؤلاء حينما رأوا أن النظرية الأولى يلزم منها نسبة الظلم إلى الله تعالى، أثبتوا القدرة للإنسان والمالكية للرأي والاختيار، لكنهم زعموا أن الإنسان بعدما أعطاه الله تعالى هذه القدرة والاختيار، يكون مستقلاً في تصرفاته، فلا يحتاج إلى الله تعالى في أفعاله بعد ذلك.

والتفويض أيضاً له عدة تقريبات بل مذاهب وآراء، تجمعها كلها في زعم الغنى عن الله تعالى في الأفعال الاختيارية، وإهمال الله تعالى أمر العباد حينما يقدمون على فعل الطاعة أو المعصية.

فعلى زعم هؤلاء بمختلف مدارسهم أن العاصي حينما يعصي الله تعالى، تكون إرادته غالبة على إرادة الله تعالى، أي بعدما خلق الله تعالى هذا الإنسان وأعطاه القدرة، فهو يُحدث الشر أو الخير في العالم من دون حاجته في أفعاله إلى المدد الدائم المستمر، وإلى العناية المستمرة من الله تعالى له حين صدور الفعل عنه.

ومن هنا وردت في الرواية الشريفة عن الإمام الرضا عليه السلام: **«مَسَاكِينُ القَدَرِيَّةِ أَرَادُوا أَنْ يَصِفُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ بِعَدْلِهِ، فَأَخْرَجُوهُ مِنْ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِه»**.(١)

والمقصود من القدرية في هذا الحديث هم المفوضة، حيث إن فكرتهم التي جاءت لسد ثغرة المجبرة كيما يوصف تعالى بالظلم، لكنهم نسبوه تعالى إلى العجز وأنه يقع في ملكه وسلطانه ما لا يريد مغلوباً.

وقد جاءت روايات أهل البيت عليهم السلام بنفي كلا المذهبين، وإثبات مذهب ثالث بينهما، وتعد هذه المسألة من المعاجز العلمية لأهل البيت عليهم السلام التي لولا تذكيرات معادن حكمة الله تعالى، لم تصل إليها عقول البشر أبداً، كما نرى أنّ من أعرض عن علومهم، فإما يقع في الجبر أو في التفويض، أو يجمع بينهما.

نفي التفويض

حينما يتأمل الإنسان في نفسه وفي الحالات المختلفة التي تعرض عليه، يجد واضحاً أنه شيء بالغير وكائن بالغير، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة، بل هو محتاج إلى الله تعالى في وجوده وفي بقائه، وبقاء كمالاته من العلم والقدرة والحياة التي بها يصبح قادراً على إيجاد الأفعال الاختيارية، وهذا الفقر والاحتياج لن ينفك عن الإنسان حتى لو بلغ لأعلى درجات الكمال.

---

(١) بحارالأنوار: ج ٥ ص٥٤.

ويكفي للتنبه إلى هذا المطلب أن ينظر الإنسان إلى الحالات المختلفة المتغيرة التي ترد عليه واحدة تلو الأخرى من دون إرادة منه، فيولد ضعيفاً جاهلاً لا يحسن فعل شيء ولا يستطيع ذلك، كما أنه قد يبلغ من العمر مبلغاً يصبح عاجزاً وجاهلاً بعدما كان عالماً وقادراً، كما أن الإنسان مقهور ومضطر للمنام ولا يقاوم سلطان النوم.

وحينما ينام (بل قبل ذلك) يفقد علمه وشعوره ووعيه وقدرته، فلا يستطيع فعل شيء، وبعد ساعات يمسي عاجزاً لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الضرر والخطر، ثم بعد أن أخذ قسطاً من الراحة يستيقظ، ولا يقاوم سلطان اليقظة كما لم يقاوم قبله سلطان النوم، أي لا يستطيع أن لا يستيقظ، فيجدَّد له العلم والقدرة اللذان كان يملكهما قبل المنام.

وكذلك الإنسان في حالات المرض والنسيان والغفلة.

كل ذلك شاهد على أن هذه الكمالات ليست ذاتية للإنسان، لأنها لو كانت ذاتية لما قُهر على سلبها وزوالها، فإن الذاتي لا ينفك عن الذات، وهذا برهان على أنه حينما يكون واجداً للقدرة والاستطاعة، إنما يجدها بإفاضة الله تعالى له، وإعطائه له آناً فآناً.

فالإنسان القادر حينما يقدم على صنع شيء بقدرته، إنما يفتقر إلى الله تعالى في أن يديم إمدادَه بالحياة والعلم والقدرة والشعور وصحة الجسد والآلات التي استطاع بها الفعل، ولولا مدد الله تعالى له وإعطاؤه الفرصة، وإمهاله له، وإفاضته له نور الحياة والعلم والقدرة، وإبقاؤه حياً، لما استطاع أن يفعل فعلاً حسناً أو قبيحاً، طاعةً أو معصيةً.

الخذلان والإمهال

وبما أنّ هذه الدنيا دار ابتلاء وافتتان، فالله جل وعلا يُمهِل العاصي حينما اختار العصيان، فإنه لولا إمهالُه تعالى للعاصي، لما تميز الخبيث عن الطيب، وهو خلاف

حكمة الامتحان.

فهو يُمهل العاصي، لكنه لا يُعينه على فعل المعصية، ولا يحب ذلك منه، بل يجعل المحفزات للحيولة دون وقوع القبيح منه، من إعطائه العقل الذي يزجره عن فعل القبيح، ومن إرساله الرسل ونهيهم عن ذلك، والوعد بالجنة لمن ترك القبيح، والوعيد بالنار لمن فعله، بل قد يُريه شيئاً من العقوبات على بعض أفعاله القبيحة في الدنيا كي يتنبه ويرجع، ولكنه إذا لم يعتن بهذه العنايات الربانية واختار القبيح، لا يصدّ الله تعالى بينه وبين الإتيان به، بل يستمر معه في إعطائه الحياة والقدرة والشعور وسلامة الجسم وغير ذلك، وهذا ما يسمى بالخذلان والاستدراج والإملاء في تعبير القرآن والحديث.

قال الله تعالى: ﴿وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً ولَهُمْ عَذابٌ مُهين﴾.(١)

﴿وَ الَّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُون وأُمْلي لَهُمْ إِنَّ كَيْدي مَتين﴾(٢)

فالعاصي حينما يعصي الرب ما غلبت إراداته إرادة الله تعالى، بل إنما عصاه بالقدرة التي وهبها إياه آناً فآناً، في حين صدور المعصية منه، وكذلك المطيع حينما يطيع الله تعالى لا يطيعه إلا بالمدد والتوفيق والتحريض والعون، ولولا هذا المدد وذلك التوفيق لما أطاع المطيع ولا أتى بالفعل الحسن، أي لولا شعور الإنسان بحسن الفعل الحسن، لما أقدم عليه، وهذا الشعور إنما جاءه من نور العقل الذي منحه الله تعالى إياه آناً فآناً، وتذكيرات الأنبياء والمرسلين وهداية الله تعالى وتوفيقه، وكذلك الآلات التي أتى بها

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) الأعراف: ١٨١ - ١٨٢.

بفعل الخير كلها من عطاء الله تعالى له.

فهو أطاع الله تعالى بنعمة الله تعالى، وقدر ورد في الحديث القدسي: «**يَا ابْنَ آدَمَ بِمَشِيَّتِي كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي تَشَاءُ لِنَفْسِكَ مَا تَشَاءُ، وَبِقُوَّتِي أَدَّيْتَ إِلَيَّ فَرَائِضِي، وَبِنِعْمَتِي قَوِيتَ عَلَى مَعْصِيَتِي..**».(١)

إبطال نظرية الثنوية والمجوس

ذهبت الثنوية إلى وجود مبدأين في العالم، أحدهما يريد الخير والصلاح، والآخر يريد الشر والفساد، وهما متنازعان فيما بينهما دائماً، ولا يستطيع أحدهما أن يقضي على الآخر، وسموا مبدأ الخير باليزدان، أي الله، ومبدأ الشر بالأهريمن، أي إبليس.

وهم بهذا المعتقد نسبوا العجز والضعف إلى الله تعالى، فهو إله لا يستطيع أن يدفع الشر عن مملكته وسلطانه، فهو لايريد الشر والقبيح، ولكن تغلب إرادة إبليس على إرادته، فيقع الشر والقبيح، ويصبح يزدان مقهوراً ومغلوباً لإرادة أهريمن.

وهذا من أشد أنواع القول بالتفويض، وهم إنما ذهبوا إليه لتنزيه الله تعالى عن الشرور على حد زعمهم، فنسبوه للعجز، وأثبتوا معه قوة منافسة تنازعه على طول الزمان.

وهم الذين قال فيهم الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ الْقَدَرِيَّةَ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَهُمُ الَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَصِفُوا اللهَ بِعَدْلِهِ، فَأَخْرَجُوهُ مِنْ سُلْطَانِهِ ..**».(٢)

لكن الحل ببركة معارف أهل البيت عليهم السلام هو أن من يفعل القبيح إنما يفعله بالقدرة التي منحها الله تعالى إياه، فلا يلزم من إتيانه بالقبيح أن يكون الله تعالى مغلوباً ومقهوراً،

(١) توحيد الصدوق: ص٣٣٨.
(٢) توحيد الصدوق: ٣٨٢.

بل الله تعالى هو الذي أمهله وأملاه، في حين أنه لا يرضى بالقبيح ولم يأمره به، بل نهاه عن ذلك، لكن بما أن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، ولا يتم الامتحان إلا بإعطاء الفرصة والمكنة، ليميز الله تعالى الخبيث من الطيب، خذله حينما أراد القبيح، أي لم يحل بينه وبين المعصية، ومكّنه من فعلها.

ومن الواضح جداً أن التمكين وإعطاء الفرصة والإمهال، لا يعني بالضرورة الرضا بذلك، فهو تعالى لا يرضى لعباده الظلم، ولكنه أمهل الظالمين بقدر مقدور، لأنه لا يخاف الفوت، ثم يجزيهم أسوأ الذي كانوا يعملون.

وبهذا البيان يُجمع بين مالكية الله تعالى وعدم عزله عن سلطانه، وبين عدم انتساب القبيح إليه جل وعلا، بل القبيح ينسب إلى العبد الذي أتى به، بعدما أمهله تعالى للاختبار والافتتان، بل إن إبليس لعنه الله تعالى إنما تمكّن من إغواء الناس وإضلال العباد، بعدما أنظره الله تعالى فقال له: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۞ إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.(١)

فإذا أراد الله تعالى إمهال عبد وشاء أن ينظره ويمكنه، ليس معناه أنه يحب فعله ويرضى عن كل ما يصنعه، بل إنه تعالى لا يحب الفاسدين والظالمين، ولا يرضى لعباده الكفر والظلم القبيح، ولا يعين أحداً على فعل هذه الأشياء، بل يخذلهم عن إرادتهم لها، أي يترك بينهم وبين ما يريدون، ويخلي بينهم وبين مايشتهون، فلا توجد ملازمة بين الإرادة والرضا.

فَعَنْ حُمْرَانَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «كُنْتُ أَنَا وَالطَّيَّارُ جَالِسَيْنِ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَأَفْرَجْنَا لَهُ فَجَلَسَ بَيْنِي وَبَيْنَ الطَّيَّارِ، فَقَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ أَنْتُمْ؟ فَقُلْنَا: كُنَّا فِي الإِرَادَةِ وَالمَشِيَّةِ وَالمَحَبَّةِ.فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ:

---

(١) الحجر: ٣٧ و٣٨.

قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: شَاءَ لَهُمُ الكُفْرَ وَأَرَادَهُ؟

فَقَالَ: نَعَمْ.

قُلْتُ:فَأَحَبَّ ذَلِكَ وَرَضِيَهُ؟

فَقَالَ: لا.

قُلْتُ: شَاءَ وَأَرَادَ مَا لَمْ يُحِبَّ وَلَمْ يَرْضَ؟!

قَالَ: هَكَذَا خَرَجَ إِلَيْنَا». (١)

والمراد من أنه أراد الكفر، أي أراد أن يُمَكِّنَهم ويُعطِيَهم القدرةَ والاختيارَ حينما يكفرون ويظلمون، وذلك كما لو رأى الأستاذ في قاعة الامتحان أن أحد الطلاب يجيب عن الأسئلة إجابة خاطئة وغير صحيحة، والأستاذ يرى ذلك، وفي هذه الأثناء ينفد قلمه أو ورقه، فيعطيه الأستاذ القلم والورق ليكتب ما يريد، ثم يقول: أنا أردته أن يكتب هذه الإجابات الخاطئة، وليس هذا معناه أنه رضي بذلك وأحب، أو أعانه عليه، بل كل ذلك لأجل سلامة الامتحان ورعاية العدل والانصاف.

(١) بحارالأنوار: ج ٥ ص١٢١.

الأسئلة:

١- ما معنى التفويض وما هو المعنى الجامع بين جميع أقسام التفويض؟

٢- ما الدليل على أنّ كمالات الإنسان ليست ذاتية له؟

٣- ما الوجه في أنّ العاصي بعصيانه لايغلب الرب المتعال؟

٤- لماذا يعطي الله تعالى القدرة للظالم والعاصي؟

٥- ما معنى الخذلان؟

٦- ما الفرق بين المشية والرضا، وما معنى أنّ الله تعالى شاء ولم يرض؟

٧- ما هي حقيقة الإمهال والاستدراج؟

٨- كيف نفهم وجود الشر والشيطان في عالم الكون بما لايرجع لنسبة الضعف والمقهورية إلى الله تعالى؟

٩- ما هو قول الثنوية، وكيف يرد عليهم؟

الدرس الثاني عشر: نقد نظرية الجبر

تحرير محل البحث

النظرية الثانية التي طرحت من قبل بعض المدارس في أفعال العباد، هي نظرية الجبر، ويدّعي صاحب هذه النظرية أن أفعال العباد لم تصدر عن اختيارهم وقدرتهم، بل الله جل وعلا هو الذي أجبرهم على هذه الأفعال، بحيث لا يمكنهم أن يفعلوا غير ما أوجب عليهم، وكما ذكرنا، هنالك تقريبات مختلفة لنظرية الجبر ويجمعها إنكار القدرة والاختيار والحرية في أفعال الإنسان، ومن هنا فلابد أن نعرف معنى القدرة والاختيار قبل الورود في ذكر الأدلة على إثباتها أو نفيها .

حقيقة القدرة والاختيار

إن المراد من وجود القدرة والاختيار، هي الحرية التامة وسلطنة الإنسان على الفعل والترك، وألا يكون هنالك ما يوجب ضرورة صدور الفعل عنه، أو ضرورة تركه، اضطراراً من خارج النفس، أو من داخلها، فمهما صار صدور الفعل عن النفس واجباً بحيث لا يستطيع ألا يفعل، أو صار تركه واجباً كذلك، فهو ليس بمختار، سواء كانت علة هذ الاضطرار والوجوب نابعة من ذاته أم من خارج الذات.

والاضطرار من خارج الذات هو نظير حركة المنشار في يد النجار، فبعد تحريك المنشار من قبل النجار، لا يمكن أن لا يتحرك المنشار، والاضطرار من داخل الذات نظير صدور الحرارة عن النار، فليس للنار ما دامت ناراً، أن لا تَصدر حرارة، بل هي

ضرورية ومن لوازم ذاتها.

فالقدرة والاختيار، نقيض الاضطرار بقسميه.

تنبيهات لبيان بداهة الاختيار

حينما يرجع الإنسان إلى نفسه يجد بوضوح أنه مختار في قسم من أفعاله الصادرة عنه، كما لا اختيار له في قسم آخر، فهو يُفرِّق بين حركة اليد الاختيارية، وحركة يد المرتعش.

كما يفرق بين مشيه وتكلمه وأكله وشربه، وبين حركات نبضه وجريان الدم في عروقه والفعاليات التي تحدث في أجهزته الداخلية كالجهاز الهضمي وغيره.

ولا يقبل العقل أن يكون صدور هذين النمطين من الأفعال على حد سواء.

إن الإنسان يجد بعقله أنه حينما أراد فعلاً كان بإمكانه أن لا يريد، وليست الإرادة إلا شيئاً أوجده في حين كونه متمكّناً من عدم إيجاده، ومما يشهد لذلك جملة من الأمور:

الأول: الأوامر الصادرة من العقلاء تجاه بعضهم، فلا يمكن أن يطلب الرئيس أو الطبيب أو الأستاذ أو المولى أو أي شخص آخر من غيره أن يفعل فعلاً، إلا إذا علم بقدرته على الإتيان بذلك الفعل، فأنت لا ترى عاقلاً يصُدر أوامرَ ويطلب من غيره أن يأتي ما لا يستطيع، فصدور الأوامر من العقلاء جميعهم حتى المجبرة، دليل على بداهة الاختيار وأنها مسألة وجدانية غير قابلة للانكار.

الثاني: جعل القوانين والتشريعات في جميع الدول والبلدان والمنظمات والمؤسسات والمعاهد والشركات والمصانع، ومن الواضح أن جعل القانون لا يصح لمن لا اختيار له في العمل به، ولا يستطيع تنفيذه، فهل رأيت أن عاقلاً يشرع دستوراً ويقنِّن قانوناً

للعاجز عن تطبيقه والعمل به؟!

الثالث: المؤاخذة والعقوبة لمن يتجاوز على القانون، وهي موجودة في جميع الملل والطوائف حتى المجبّرة، فإنهم يعاقبون المتجاوز والمتعدي، ويوجّهون العتاب إليه، وبديهي أيضاً أن عتاب العاجز وعقابه غير صحيح، بل ظلم وقبيح، فهل رأيت يوماً أنّ الأعرج يعاقَب أو يُسجَن لعرجه، أو الأعمى لعماه، أو الأسود لسواد بشرته؟

الرابع: قد يتردد الإنسان في اتخاذ قرار معين فيطلب المشورة من الآخرين ليشيروا له بما فيه الخير والصلاح، وهذا أيضاً لا يمكن إلا بعد فرض وجود الاختيار والقدرة في اتخاذ القرار، وإلا لو كان هناك قرارٌ ثابتٌ من الأزل ولم يكن له القدرة على تغييره، فلا يبقى وجه للترديد ولا للمشورة.

الخامس: إن الإنسان يُسنِد إلى نفسه أفعاله الاختيارية، فيقول: أنا الذي أتيت، أنا الذي ذهبت، وأنا الذي تكلّمت وسكتّ.ولا يسند إلى نفسه أفعاله التي لم تصدر باختياره، فلا يقول: أنا الذي حركت الدم في عروقي، ولا يقول: أنا الذي جعلت لون بشرتي باللون المعين.

السادس: السعي والجد من العقلاء للأحسن والأفضل، فلولا أنهم قادرون على ذلك لما سعوا إليه، فإن العاقل لا يسعى لشيء لا قدرة له على ذلك.

فيتنبه العاقل بعد الالتفات إلى هذه الأمور وغيرها، إلى أن وجود القدرة والاختيار في جملة من أفعاله أمر بديهي لا يقبل التشكيك والترديد، وأن من ينكره بلسانه فقد أقر به بجنانه، بل لا يمكن أن يعيش الإنسان عيشاً مدنياً وحياةً اجتماعيةً، إلا بعد الإقرار بمسألة الاختيار والقدرة في أفعال العباد.

فهل تتصور بناء مجتمع من دون قوانين، ولا أوامر، ولا طلب، ولا عقوبة، ولا

استرشاد، ولا السعي نحو الأحسن، ولا محاولة الابتعاد عن القبيح؟ كلا !

وهذه الأمور كلها لا تتيسر إلّا بعد القدرة على ذلك.

تنبيهات لبيان ضرورة الاختيار في جميع الأديان السماوية

لو لم يكن الإنسان قادراً ومتمكناً من الفعل والترك، فلا معنى لإرسال الرسل وإنزال الكتب، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، وتقسيم الناس إلى المطيع والعاصي، والمؤمن والكافر، بل كل ذلك يعد لغواً وعبثاً، ينزّه العاقل نفسه من أن ينسب ذلك إليه.

فكيف أرسل الله تعالى الرسل واحداً تلو الآخر، وأنزل معهم الكتاب لهداية الناس وإرشادهم، وأمرهم ونهاهم، ووعدهم الجنة على فعل الخير، وأوعدهم العذاب على فعل الشر، ثم رفع راية الجهاد مع المعاندين، ونهى المؤمنين عن تولّي الكافرين، ثم يأتي بعد ذلك أحد ويقول: إن العباد مجبورون على أفعالهم! ولا قدرة لهم على شيء منها! بل هم كالمنشار في يد النشار، أو كالحرارة بالنسبة إلى النار، لا إرادة لهم ولا اختيار!

فلو نسب إلى نفس هذا القائل مثل ما ينسبه إلى الله تعالى، لتبرأ من ذلك ونزّه نفسه عن ارتكاب مثل هذا السفه واللغو والجنون، بل يعاتب من ينسب إليه هذه النسبة، فما باله ينسب إلى الله تعالى ما ينزه نفسه عنها؟

وأنت إذا نظرت إلى القرآن الكريم تجد الآيات الصريحة في نفي الجبر، قد تربو على مئات الآيات، وقد قسّم العلامة الحلي تتئ تلك الآيات إلى عشر طوائف:

الأولى: الآيات الدالة على إضافة الفعل إلى العبد كقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾(١)

---

(١) البقرة: ٧٩.

الثانية: الآيات الدالة على مدح المؤمنين على الإيمان، وذم الكافرين على الكفر والوعد والوعيد.

الثالثة: الآيات الدالة على تنزيه أفعاله تعالى عن مماثلة أفعالنا في التفاوت والاختلاف والظلم كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.(١)

الرابعة: الآيات الدالة على ذم العباد على الكفر وذم المعاصي كقوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾(٢)

الخامسة: الآيات الدالة على التهديد والتخيير كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(٣)

السادسة: الآيات الدالة على المسارعة إلى الأفعال قبل فواتها كقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.(٤)

وقوله: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾(٥)

السابعة: الآيات التي حث الله تعالى فيها على الاستعانة وثبوت اللطف منه كقوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾.(٦)

الثامنة: الآيات الدالة على استغفار الأنبياء كقوله تعالى: ﴿رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا﴾.(٧)

---

(١) آل عمران: ١٨٢.

(٢) آل عمران: ٩٩.

(٣) الكهف: ٥٩.

(٤) آل عمران: ١٣٣.

(٥) الأحقاف: ٣١.

(٦) الأعراف: ١٢٨.

(٧) الأعراف: ٢٣.

التاسعة: الآيات الدالة على اعتراف الكفار والعصاة بنسبة الكفر إليهم كقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۞ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾.(١)

العاشرة: الآيات الدالة على التحسر والندامة على الكفروالمعصية وطلب الرجعة كقوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُون لَعَلِّي أَعْمَلُ صالحِاً فيما تَرَكْت﴾.(٢)

وكقوله: ﴿وَ لَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِم﴾.(٣)

ثم قال العلامة رحمه الله: إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ...لأن التكليف إنما يتم بإضافة الأفعال إلينا وكذا الوعد والوعيد والتخويف والانذار.(٤)

منشأ شيوع مسلك الجبر

ثم لا يخفى أنّ لأنظمة الجور والطغاة دوراً كبيراً في نشر مذهب الجبر، فإنهم أشاعوا القول بالجبر بين المسلمين ليبرروا بذلك أفعالهم القبيحة، حتى لا يُعترض عليهم فيما يصدر منهم من الظلم والفواحش والمعاصي، ثم أعطوا لنظريتهم صبغة شرعية وقدسية، فقالوا: إن التوحيد فرض علينا أن ننكر وجود قدرة توثّر في إيجاد الأفعال غير قدرة الله تعالى، فقالوا: «لا مؤثر في الوجود إلا الله»!

كل ذلك لاستغلال العامة، حتى لا يفكروا في حقيقة الأمر، خوفاً من الوقوع في الشرك.

روى الشيخ المفيد في الإرشاد: أنه لما أدخل عيال الإمام الحسين عليه السلام على ابن زياد،

---

(١) المدثر: ٤٢ و٤٣.

(٢) المؤمنون: ٩٩.

(٣) السجدة: ١٢.

(٤) كشف المراد: ٣٣٧.

فدخلت زينب أخت الحسينعليه السلام متنكرة وعليها أرذل ثيابها...فأقبل عليها ابن زياد وقال لها: «الحمدلله الذي فضحكم وقتلكم، وأكذب أحدوثتكم!

فقالت زينب: الحمدلله الذي أكرمنا بنبيه محمدصلى الله عليه وآله، وطهّرنا من الرجس تطهيرا، وإنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا والحمد لله.

فقال ابن زياد: كيف رأيت فعل الله تعالى بأهل بيتك؟

قالت: كتب الله تعالى عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله تعالى بينك وبينهم، فتحاجون إليه وتختصمون عنده ...

وعرض عليه علي ابن الحسينعليه السلام فقال: من أنت؟

فقال: **أنا علي بن الحسين.**

فقال: أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟

فقال له عليعليه السلام: **قد كان لي أخ يُسمى علياً، قتله الناس.**

فقال له ابن زياد: بل الله قد قتله.

فقال علي بن الحسنعليه السلام: **﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾**.

فغضب ابن زياد وقال: وبك جرأة لجوابي، وفيك بقية للرد علي اذهبوا به فاضربوا عنقه ..».(١)

الجواب عن شبهات الجبر بقاعدة لزوم إرجاع المتشبهات إلى المحكمات

من القواعد الأساسية في نظام المعرفة هو أنه لا يمكن رفع اليد عن الإدراك البديهي

(١) الإرشاد للشيخ المفيد: ج٢ ص ١١٥.

الضروري، من أجل وجود شبهة، حتى لو استعصى على الإنسان الإجابة عنها.

فإن بديهيات العقل وضرورياتها الدالة على وجود القدرة والاختيار هي من محكمات العقل، كما أن ضرورة الأديان السماوية والآيات الكثيرة والروايات المتواترة النافية لمسلك الجبر، تكون من محكمات الدين، بل أساس الدين قائم على الاختيار ونفي الجبر كما مر، فمع القول بنظرية الجبر ونفي الاختيار سوف تكون جميع الأديان لغواً، وبعث الأنبياء عبثاً.

ومن هنا فليس ما يقام في مقابل هذه المحكمات - سواء سمي بالدليل العقلي أم الدليل النقلي - إلا شبهة في مقابل البديهة .

وترك المحكمات والأخذ بالمتشابهات، إنما هو طريق أهل الزيغ والانحراف.

بل لايجوز تسمية هذه الشبهات بالدليل العقلي، فإن العقل لا يرشد إلى مخالفة المحكمات والضرورات العقلية، وقد رأينا أن مسألة الاختيار بلغت من بداهتها ووضوحها لدى العقلاء، أن القائلين بمسلك الجبر يقرّون بها في ارتكازهم، ولا يبنون حياتهم اليومية على تلك النظرية.

وهذا جواب إجمالي عن جميع ما يطرح من الشبهات لنفي الاختيار .

إن حال من يستدل بتلك الشبهات لنفي الجبر، ليس إلا كحال من تعلق بغصن من أغصان الشجرة ليقطع أساسها!

فمن يستدل بآية أو رواية لإثبات الجبر، يقال له: لو كان الحق كما تقول، لزم منه بطلان الدين ولغوية البعثة، ومع بطلان الدين لا تبقى آية ولا رواية ليستدل بها على الجبر! وكذا الحال فيمن تشبث بشبهة زعم أنها دليل عقلي لإثبات الجبر.

منشأ شبهات الجبر

الغفلة عن حقيقة القدرة

ومنشأ هذه الشبهات هو عدم الالتفات إلى حقيقة القدرة والسلطنة التي ملّكها الله تعالى للعباد، فإنّ حقيقة القدرة هي السلطنة، ولا يمكن سلب ذاتيات الشيء عن الشيء، أي لا يمكن أن تكون القدرة موجودة، ومعها لا يقدر الإنسان بها على ترجيح الفعل على الترك، أو العكس، فإن حاجة الإنسان إلى شيء آخر وراء القدرة، مناقض لوجود القدرة والسلطنة، وخلف كونها قدرة.

فالفاعل المختار في ترجيحه لجانب الفعل أو الترك، وفي إرادته ومشيئته لا يحتاج إلى أزيد من أن يكون قادراً، وفرض ورود علة تقهر النفس على الفعل أو الترك مناقض لفرض وجوده قادراً، ومن هنا يظهر أن مورد وموضوع ورود العلة الموجبة للفعل، هو في الفاعل غير الإرادي وغير القادر وغيرالمتمكن، وأما القادر المتمكن فلا.

وواجديتنا لنور القدرة والسلطنة والتمكن بتمليك الله تعالى، أظهر من الشمس في وسط السماء، عند كل عاقل بأدنى تأمل كما مر التنبيه عليه.

ومن هنا يظهر أن موضوع جميع تلك الشبهات إنما هو في الفاعل غير المختار وغير القادر، وبعد ما ثبت وجود القدرة والتمكن بالبداهة العقلية، فلا يبقى موضوع لتلك القواعد والشبهات.

الغفلة عن المحكمات وعن القرائن المحفوفة بالكلام

وهكذا تكون الإجابة عن بعض الآيات والروايات التي تمسكوا بها لإثبات الجبر، فإنها لابد وأن تفسر بشكل لا يلزم منه الجبر، بعد ما علمنا قيام ضرورة الدين بل الشرائع كلها على مسألة الاختيار.

فمثلاً ما دلّ من الآيات والروايات على أن الله تعالى هو الذي يُضِلّ الظالمين أو الكافرين، إنما تكون بمعنى الخذلان، أي إنه تعالى يترك العبد في ضلاله، ويرفع عنه الهدايات، وذلك عقوبة على فعله الاختياري، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ**﴾.(١)

مفادها أن الله تعالى بين لهم ما يلزم عليهم الاتقاء، وهداهم إليها ولكنهم تركوا التقوى فخذلهم الله.

وقوله تعالى: ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾(٢)

والقرينة الواضحة في تلك الآيات أنها بصدد الذم والتوبيخ والتقريع، فلو كانت دالة على الجبر لما صحّ ذلك، فإنّ ذم المجبور والعاجز قبيح ولا يصدر من الحكيم، بل هو عين الظلم والجور.

---

(١) التوبة: ١١٥.

(٢) آل عمران: ٨٦.

الأسئلة:

١ - ما هى حقيقة الاختيار وما هو الجبر؟

٢- ما هو الجبر الناشيء من عامل خارجي، وما هو الجبر الناشيء من داخل الذات؟ اذكر بعض النماذج لكل من القسمين.

٣- اذكر بعض المرتكزات البديهية عند القائلين بالجبر، المنافية لعقيدتهم.

٤- ما هي الشبهة في مقابل البديهة؟

٥- القائل بالجبر، ينسب الله تعالى إلى اللغو والعبث والظلم، ما الوجه في ذلك؟

٦- اذكر وجه دلالة الطوائف العشرة من الآيات القرآنية على نفي مسلك الجبر.

٧- هل القدرة في فاعليتها لترجيح أحد طرفي الفعل والترك، محتاجة لورود علّة أخرى عليها؟

٨- ما معنى الإضلال المنسوب إلى الله تعالى في بعض آيات القرآن؟

الدرس الثالث عشر: الأمر بين الأمرين

تفردت الشيعة الإمامية تبعاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام، بالقول بالأمر بين الأمرين في أفعال العباد، دون الجبر والتفويض، وتعد هذه المسألة من المعاجز العلمية لهم عليهم السلام. ويمكن توضيحه ببيان أمور:

الأول: واجدية الإنسان للقدرة

من أبده البديهيات لدى الإنسان وجود القدرة والاستطاعة حتى عند القائلين بالجبر، والشاهد عليه وضع القوانين من قبل الدول والحكومات والدوائر، وعقاب المتخلف، وإصدار الأوامر والنواهي وغير ذلك مما مر.

الثاني: الواجدية للكمالات بالغير

كما أنه من البديهيات أن واجدية الإنسان للقدرة والسلطنة ليست بذاته، فإنا نجد أن القدرة والسلطنة قد تسلب عنا أحياناً من دون اختيار منا، بل نريد بقاءها فلا تبقى، بل تؤخذ معنا قهراً، وفي حال كوننا مالكين، نجد أن قوامها لا يكون بأيدينا ولا طوع إرادتنا، فلو كانت القدرة والاستطاعة وكذا العلم والشعور والحياة التي نملكها ذاتية لنا، لما سلبت عنا، فإن انفكاك الذاتيات عن الذات محال.

فيظهر بنور العقل أن حيثَ ذواتنا حيثُ العجز والجهل، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ

مَا يَشَاءُ وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.(٢)

فالوجدان بعد الفقدان، والفقدان بعد الوجدان، أعظم دليل على عدم كون القدرة والعلم وكذا سائر الكمالات، عين ذواتنا وتحت إرادتنا وسلطاننا.

إذ لو كانت تحت إرادتنا لكنا قادرين على الامتناع من سلبها عنا أو وجدانها وحصولها كيفما نريد، فهذه الكمالات ملك لله تعالى حقيقة، وقد ملّكنا ما هو أملك به منا حدوثاً وبقاء.

فنحن قادرون بالقدرة التي أعطانا الله تعالى، وفاعلون بالسلطنة التي ملّكنا الله تعالى، ومريدون بالاستطاعة التي وهبها لنا، إلى آخر آنات صدور الفعل، كما نقول في صلواتنا بتعليم أئمتنا (عليهم أفضل الصلاة والسلام): بحول الله تعالى وقوته أقوم وأقعد.

وقد ذكر بعض الأعاظم (أعلى الله تعالى مقامه الشريف) لذلك مثالاً وهو:

أنه إذا افترضنا أن للمولى عبداً مشلولاً غير قادر على الحركة، فربط المولى بجسمه تياراً كهربائياً ليبعث في عضلاته قوةً ونشاطاً نحو العمل، وليصبح بذلك قادراً على تحريكها، وأخذ المولى رأس التيار الكهربائي بيده، وهو الساعي لإيصال القوة في كل آن إلى جسم عبده، بحيث لو رفع اليد في آن عن السلك الكهربائي انقطعت القوة عن

---

(١) الروم آية ٥٤.

(٢) النحل: ٧٠.

جسمه وأصبح عاجزاً.(١)

وهذا المثال يقرب المطلب من جهة، فإن الله تعالى هو الذي أوجدنا وأبقانا في كل الأحوال، وأعطانا الحياة والقوة القدرة والعلم وسائر الكمالات، وهو تعالى أملك بها منا، بل إيجاد القدرة الكهربائية في المثال المذكور، ليس بيد المولى، مضافاً إلى ما يأتي في الأمر الثالث.

الثالث: التوفيق والخذلان

كما نجد أنه لولا عونه تعالى، وهداياته، وترغيبه في الحسنات، وتحذيراته عن السيئات، وتذكيرات رسله، لم يكن الإنسان ليرغب في العمل الصالح، مع كونه قادراً عليه، فهو الذي حبّب الإيمان، وزيّنه في قلوب المؤمنين، وكرّه العصيان والفسوق والبغي، ووعد الجزيل من الثواب على العمل الصالح، وأوعد بالنار على العمل القبيح، بل لا زال العبد تحت نظره تعالى ورحمته الرحيمية، فيُوَفِّق له أسباب الخير، حتى يفعل العبد الفعل الحسن والخير.

وهكذا لولا خذلانه تعالى، وترك العبد ونفسه، عندما يعرض عن تلك الهدايات والتوفيقات، ولولا إمهاله للعاصي، لما عصاه أحد.

فالأفعال كلها - سواء الحسنة أم القبيحة - صادرة عن قدرة العباد، إلا أنه في الحسنات يكون بعد توفيقه تعالى، وفي السيئات بعد خذلانه، فالله جل وعلا لم يُهمل العبد في كلتا الحالتين: الطاعة والمعصية، بل هو دائماً تحت نظره وعنايته، إما أن يوفقه، أو يخذله ويملي له، زيادة على ما أعطاه من القدرة والمالكية.

---

(١) محاضرات في أصول الفقه تقرير أبحاث السيد الخوئي للشيخ الفياض ج ٢ ص ٨٦.

الخذلان عقوبة الفعل الاختياري ورحمته ابتداء

ثم إن الله تعالى لا يخذل أحداً إلا بعدما فعل بسوء اختياره ما يستحق الخذلان، فالخذلان عقوبة وجزاء على الفعل الاختياري الصادر من العبد.

وأما رحمته ولطفه وعونه، فهو متقدم على عمل الإنسان، فعونه ومدده وتوفيقه تعالى، ليس مسبوقاً بفعل اختياري، بل هو فضل ابتدأ الله تعالى به جميع خلقه، نعم ازدياد التوفيق واشتداده يكون بعد التسليم والشكر والطاعة، فرحمة الله تعالى قبل أعمال العباد كما ورد ذلك في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام.[١]

وقال تعالى: ﴿**كَلاَّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ**﴾.[٢]

أي أن الختم على القلوب الذي هو من خذلانه تعالى، إنما من أجل أعمالهم القبيحة، فإنّ ذلك سبب لرين القلب وصداه، وموجب لظلمته وعماه.

الضوابط العامة للأمر بين الأمرين في كلام أهل الذكر

ولنختم الكلام بذكر بعض ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من القواعد العامة في هذه المسألة.

روى الصدوق بسنده عن سليمان بن جعفر الجعفري عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: ذكر عنده الجبر والتفويض، فقال: ألا أعطيكم في هذا أصلاً لاتختلفون فيه ولا تخاصمون عليه أحدا إلا كسرتموه؟ قلنا: إن رأيت ذلك.

فَقَالَ: **إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَمْ يُطَعْ بِإِكْرَاهٍ، ولَمْ يُعْصَ بِغَلَبَةٍ، ولَمْ يُهْمِلِ العِبَادَ فِي مُلْكِهِ، هُوَ المَالِكُ لِمَا مَلَّكَهُمْ، والقَادِرُ عَلَى مَا أَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ، فَإِنِ ائْتَمَرَ العِبَادُ بِطَاعَتِهِ لَمْ يَكُنِ اللهُ عَنْهَا**

(١) توحيد الصدوق ص٣٦٥.

(٢) المطففين ١٤.

صَاداً ولَا مِنْهَا مَانِعاً، وإِنِ ائْتَمَرُوا بِمَعْصِيَتِهِ فَشَاءَ أَنْ يَحُولَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ذَلِكَ فَعَلَ، وإِنْ لَمْ يَحُلْ وفَعَلُوهُ فَلَيْسَ هُوَ الَّذِي أَدْخَلَهُمْ فِيهِ. ثُمَّ قَالَ عليه السلام: مَنْ يَضْبِطْ حُدُودَ هَذَا الكَلَامِ فَقَدْ خَصَمَ مَنْ خَالَفَهُ». (١)

وروري عن حريز بن عبدالله عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

«إِنَّ النَّاسَ فِي القَدَرِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ، رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَجْبَرَ النَّاسَ عَلَى المَعَاصِي، فَهَذَا قَدْ ظَلَمَ اللهَ فِي حُكْمِهِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَرَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّ الأَمْرَ مُفَوَّضٌ إِلَيْهِمْ، فَهَذَا قَدْ أَوْهَنَ اللهَ فِي سُلْطَانِهِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَرَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ كَلَّفَ العِبَادَ مَا يُطِيقُونَ، وَلَمْ يُكَلِّفْهُمْ مَا لَايُطِيقُونَ، وَإِذَا أَحْسَنَ حَمِدَ اللهَ وَإِذَا أَسَاءَ اسْتَغْفَرَ اللهَ فَهَذَا مُسْلِمٌ بَالِغٌ». (٢)

وفي توحيد الصدوق عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي نَصْرٍ البَزَنْطِيِّ عَنْ أَبِي الحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام قَالَ: قُلْتُ لَهُ إِنَّ أَصْحَابَنَا بَعْضُهُمْ يَقُولُونَ بِالجَبْرِ وَبَعْضُهُمْ بِالاسْتِطَاعَةِ فَقَالَ لِي اكْتُبْ:

قَالَ: «اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى يَا ابْنَ آدَمَ بِمَشِيَّتِي كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي تَشَاءُ لِنَفْسِكَ مَا تَشَاءُ وبِقُوَّتِي أَدَّيْتَ إِلَيَّ فَرَائِضِي وبِنِعْمَتِي قَوِيتَ عَلَى مَعْصِيَتِي جَعَلْتُكَ سَمِيعاً بَصِيراً قَوِيّاً- ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وذَلِكَ أَنَا أَوْلَى بِحَسَنَاتِكَ مِنْكَ وأَنْتَ أَوْلَى بِسَيِّئَاتِكَ مِنِّي وذَلِكَ أَنِّي لَا أُسْأَلُ عَمَّا أَفْعَلُ وهُمْ يُسْئَلُونَ قَدْ نَظَمْتُ لَكَ كُلَّ شَيْءٍ تُرِيدُ». (٣)

قال أمير المؤمنين عليه السلام وَقَد سُئِلَ عَن مَعَنَى قَولِهِم لَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله: «إِنَّا لَا

---

(١) التوحيد الشيخ الصدوق ٣٦١ باب ٥٩.

(٢) التوحيد الشيخ الصدوق باب نفي الجبر والتفويض ص ٣٦٠.

(٣) بحار الأنوار: ج ٥.

نَملِكُ مَعَ اللهِ شَيئاً وَلَا نَملِكُ إِلَّا مَا مَلَّكَنَا؛ فَمَتَى مَلَّكَنَا مَا هُوَ أَملَكُ بِهِ مِنَّا، كَلَّفَنَا وَمَتَى أَخَذَهُ مِنَّا، وَضَعَ تَكلِيفَهُ عَنَّا».[١]

و في الحديث الشريف: «لَا جَبرَ وَلَا تَفوِيضَ، بَل أَمرٌ بَينَ أَمرَينِ».[٢]

---

(١).نهج البلاغه، الحكمة ٤٠٤، ص٥٤٧؛ بحارالأنوار، ج٥، ص٢٠٩، ح٤٩ (الباب السابع من أبواب العدل من كتاب العدل والمعاد).

(٢).بحارالأنوار، ج٥، ص١١، ح١٨ (الباب الأوّل من أبواب العدل من كتاب العدل والمعاد).
لا يخفى على أهل الفضل أنّ هذا الحديث من معاجز أهل البيت عليهم السلام وهو يجيب على جميع الشبهات في مبحث الإرادة والاختيار والجبر والتفويض، راجع: سدّ المفرّ على القائل بالقدر.

الأسئلة:

١ - كيف يُجمَع بين إسناد الأفعال إلى العبد وبين عدم استقلاله في الفعل؟

٢- ما الدليل على أنّ كمالاتنا التي بها نقدر على الأفعال كالعلم والقدرة والعقل والاختيار، ليست من ذواتنا ونحتاج إلى الله تعالى ليفيض علينا كل آن بهذه الكمالات؟

٣- ما المراد من التوفيق والخذلان؟

٤- هل مجرد الاستطاعة والقدرة كاف لفعل الحسن أم لابد من التوفيق؟ واذكر بعض النماذج من التوفيقات الإلهية.

٥- ما المراد من أنّ الله تعالى يُمهل ولا يُهمل؟

٦- ما معنى الحديث القدسي: «**أنا أولى بحسناتك منك وأنت أولى بسيئاتك مني**»؟

٧- كيف يكون الله تعالى أملك منا بما ملّكنا؟

٨- ما الفرق بين التوفيق والخذلان؟

الدرس الرابع عشر: توضيح بعض المفردات في مبحث العدل

الأول: الخير والشر

ليس من الصحيح أن تكون نظرة الإنسان إلى الخير والشر، محدودة وضيقة، فكل ما يؤلمه ويُتعبه يسميه شراً، وكل ما يُريحه ويلتذ به يسمّيه خيراً، فإنه تفسير ساذج مرفوض عند العقل جملة وتفصيلاً.

فأنت ترى أن العقلاء حينما علموا بأنّ التعب وتحمل المشقة وعدم الراحة، ينتج لهم نتائج محمودة وحسنة، فلا يجعلونه من الشر بل يكون عندهم من الخير، كمن يُتعب نفسه ويحرمها من لذيذ العيش في سبيل الجد في الدراسة والوصول للمراتب العالية من العلم، فإنّ هذه المتاعب وإن كانت غير ملائمة للنفس، ولكنها من حيث العاقبة والنهاية تعد خيراً، وفي المقابل إذا سببت الراحة والتلذذ برغد العيش عاقبة سيئة، فلا يبالون أن يسمونها شراً، كمن يتكاسل عن طلب العلم، ولا يتحمل التعب والحرمان في سبيل ذلك، فإن سلوكه هذا يسمى شراً، وإن كان ملائماً للنفس.

ومن هذا المنطلق يكون المعيار في الخير والشر، إنما هو عاقبة العمل، وليس المعيار حب الإنسان أو كرهه.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.[1]

---

(١) البقرة ٢١٦.

فليست الكراهة والمحبة الوقتية معياراً لتمييز الخير عن الشر، وإنما لا بد من نظرة بعيدة المدى وملاحظة نتائج العمل وغاياته، فالقتال في سبيل الله تعالى لأنه يؤدي إلى نتائج محمودة يكون خيراً مع ما فيه من بذل النفس والمال والتعب والجهد.

ثمّ إذا لاحظنا العواقب من منظر إنسان موحّد، فكلها زائلة وفانية، إلا رحمة الله تعالى وثوابه وقربه ولقاؤه ورضاه، وعليه فيكون الخير ما يؤدي بالإنسان إلى قرب الله تعالى وثوابه، والشرّ ما يؤدّي به إلى سخطه وعذابه، وأما ما سوى ذلك من الغايات، فكلّها غايات وقتية وغير ثابتة.

و من هنا يظهر صدق كلام أمير المؤمنين عليه السلام في تعريف الخير والشر حيث قال: «**مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ، ومَا شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الجَنَّةُ، وكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الجَنَّةِ فَهُوَ مَحْقُورٌ، وكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ**».(١)

وقال الإمام الصادق عليه السلام في وصيته لعبد الله بن جندب: «**يَا ابْنَ جُنْدَبٍ الخَيْرُ كُلُّهُ أَمَامَكَ، وإِنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ أَمَامَكَ. ولَنْ تَرَى الخَيْرَ والشَّرَّ إِلَّا بَعْدَ الآخِرَةِ، لِأَنَّ اللهَ جَلَّ وعَزَّ جَعَلَ الخَيْرَ كُلَّهُ فِي الجَنَّةِ، والشَّرَّ كُلَّهُ فِي النَّارِ، لِأَنَّهُمَا البَاقِيَان**».(٢)

ومن هنا يظهر أن مصائب الحياة وصعوبتها، وما يحدث فيها من الآفات والعاهات والكوارث الطبيعية، كالزلزلة والسيل والحروب وغير ذلك، لا يمكن أن يقال إنها خير أو شر، وإنما الذي يعيّن ذلك كيفية تعامل الإنسان تجاهها، فإن صبر واستثمرها في سبيل الطاعة تكن خيراً له، لأنه يربح فيها أعلى درجات الجنة، والقرب والكمال الذي لا يخطر على قلب بشر، في حين أنه لو لم يستثمرها فجزع ولم يصبر، وتزعزع من شدتها،

---

(١) نهج البلاغة حكمة ٣٨٧.

(٢) تحف العقول، للحراني: ص٣٠٦.

ولم يحسن الاختيار في هذا الابتلاء الإلهي، ستكون عاقبته الخسران، فتكون شراً له.

كما أن الرغد في العيش والرفاهية والثروة والعلم والقدرة والمكنة ليس بخير دائماً، وإنما يكون خيراً إذا استثمره الإنسان في سبيل كماله الأبدي والفوز بأعلى درجات الجنان، في حين أنّه لو سخره في سبيل المعصية ولم يحسن الاختيار في هذا الابتلاء الإلهي سيكون شراً له.

قال تعالى: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾.(١)

فظهر أن الخير والشر إنما يكونان رهن حسن اختياره أو سوء اختياره.

الخير والشر الابتدائي

وقد يطلق الشر على المصائب والشدائد الدنيوية، كالفقر والمرض والموت، ويطلق الخير على مقابلاتها، كالصحة والمال.

قال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾.(٢)

وقال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**﴾.(٣)

و هذا الإطلاق إنما يكون بلحاظ ما يلائم الإنسان وما يتنفر منه، مع قصر النظر على ابتداء الأمور، وعدم النظر للعاقبة والنهاية، وهذا ما نسمّيه بالخير والشرّ الابتدائي، لكنما اختيار الإنسان هو الذي يعيّن كونها خيراً أو شراً بلحاظ الغاية والنهاية الأبدية،

---

(١) آل عمران ١٨٠

(٢) الأنبياء: ٣٥.

(٣) البقرة: ١٨٠.

فالإنسان قادر على أن يحوّل الشر الابتدائي إلى خير أبدي بحسن اختياره، كما يمكنه أن يحوّل الخير الابتدائي إلى شر أبدي بسوء اختياره.

ولاضير في نسبة الشر بهذا المعنى إلى الله تعالى، حيث يمتحن عبده بذلك.

عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: **قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: ...مَنْ زَعَمَ أَنَّ الخَيْرَ والشَّرَّ بِغَيْرِ مَشِيَّةِ الله فَقَدْ أَخْرَجَ اللهَ مِنْ سُلْطَانِهِ ...يَعْنِي بِالخَيْرِ والشَّرِّ الصِّحَّةَ والمَرَضَ وذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وجَلَ: ﴿وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً﴾**.(١)

الثاني: نظرة في البلايا والآفات الدنيوية

ثم إنه يمكن تقسيم البلايا والآفات والكوارث التي تحدث في العالم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الابتلاء

إن بعض ما يحدث في العالم من الكوارث وغير الملائمات، إنما هي من طبيعة الابتلاء والافتتان التي من أجلها أُتي بنا إلى هذه الدنيا، فلا يتم الامتحان إلا بوجود هذه الأمور، فكما أنه يتم الابتلاء والافتتان بإعطاء المكنة والسلطة والرفاهية والثراء، كذلك قد يبتلى الإنسان بالمصائب والشدائد، كما قال تعالى: **﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾**.(٢)

والحكمة تقتضي أن تكون الدنيا مشتملة على مثل هذه البلايا وغير الملائمات، فإنها دار الابتلاء والامتحان، ولايتميز الخبيث من الطيب إلا بذلك.

(١) بحار الأنوار: ج٥ ص ٥٢ عن توحيد الصدوق.
(٢) الفجر: ١٥ و١٦.

و قد يصل المؤمن المتقي من خلال هذه الشدائد إلى أعلى درجات القرب الإلهي، وذلك حينما تبَلي الله تعالى بعض أوليائه في الدنيا ببعض الآلام والمصائب من غير أن يرتكبوا معصية أو يسيؤوا التصرف، فيصبرون في ذات الله تعالى ويزداد حبهم وشوقهم إليه، فترتفع مقاماتهم ودرجاتهم عنده، فيكون خيراً لهم.

قال الصادق عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ يَخُصُّ أَوْلِيَاءَهُ بِالمَصَائِبِ لِيَأْجُرَهُمْ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ**».[1]

القسم الثاني: العقوبة

و هو ما يكون من نتائج الأعمال السيئة للإنسان، فإن قسماً كبيراً من الفساد في العالم، إنما هو نتيجة الظلم والمعاصي والذنوب والفساد الذي ظهر في الأرض بسوء اختيار الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾[2]

وإذا نظرنا إلى النتائج المأساوية لأفعال البشر ولمعاصيه وذنوبه، نرى أنها موافقة للحكمة والنظام المتقن، حيث الإنسان إذا لم ير نتيجة سوء تصرفه في العالم ولا يؤاخذه الله تعالى بما كسب من سيئة، سوف يستمر في غيه وهذا شر له، والله جل وعلا جعل هذه الآفات والبلايا سبيلاً للتذكر والرجوع إلى الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿**ظَهَرَ الفَسادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذيقَهُمْ بَعْضَ الَّذي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون**﴾.[3]

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْراً فَأَذْنَبَ ذَنْباً أَتْبَعَهُ بِنَقِمَةٍ وِيُذَكِّرُهُ**

(١) الكافي: ج ٢ ص٤٥٠.
(٢) الشورى ٣٠.
(٣) الروم: ٤١.

الِاسْتِغْفَار».[(١)]

ففي هذا القسم من البلايا يكون العقاب الإلهي العاجل في الدنيا موجباً لتنبّه العبد، كما أنها تكون كفارةً لذنبه، فهو خيرٌ له من جهتين.

القسم الثالث: أثر سوء التصرف

فإن سوء تصرف الإنسان في العالم يؤثر على البيئة أثراً سلبياً، وقد يبقى أثره السلبي على أجيال من الناس، كما هو المشاهد في حدوث بعض الأمراض القاتلة، أو تشويهات الخلقة، أو حدوث خلل في التوازن البيئي، وما ذاك إلا من أجل جهله بنظام الطبيعة أو لتعمده الخراب، فإنّ هذا البشر الطاغي أشعل في الدنيا نيران الحروب شنّها ضد البشريّة، واستخدم فيها شتى الأسلحة الفتاكة أو الكيميائية والبيلوجية التي تؤثر في أجيال من الناس على مدى القرون، فيحدث جيل مصاب بأمراض وعلل خطيرة، أو العقد النفسية التي رافقتهم منذ نعومة أظفارهم، حيث قضوها بين حرب ودمار وتشريد وظلم وقتل وفساد وإفساد.

ثم إنّ حدوث مثل هذه الكوارث إنما من هو من أجل وجود النظم والاتقان في صنع العالم، فإنّه إذا سعى إنسان لهدم بناء شاهق بسوء تصرفه، من دون أن يعلم مواضع الأشياء، لا يكون هذا دليلاً على وجود نقص أو خلل في البناء.

فإذا تصرف شخص فَغَيَّر شيئاً منها وبَدَّلَه، سيظهر أثر هذا الافساد بكلّ ما يرتبط به من هذا النظام، وهذا كاشف عن إتقانه ونظمه الدقيق، بينما لو لم يظهر الفساد في النظام بعد إفساد المفسد، يكون هذا كاشفاً عن عدم ضرورة لوجود ذلك الشيء في ذلك الموضع، حيث إنه بعد تبديله وتغييره بيد المفسد لم يتغير شيء، فظهر من هذا، أن إتقان

---

(١) الكافي ج٢ ص٤٥٢.

الصنع والنظم البديع في صنع العالم، يقتضي أن يظهر فساده حينما يأتي مفسدٌ فيُفسِدَه عمداً أو جهلاً.

ومن هنا تكون مسؤولية هذا القسم من النقص الحاصل في العالم، وظهور الكوارث، ملقاة على عاتق الظالمين والطغاة، والذين أساؤوا التصرف في خلق الله تعالى من الآباء والأمهات والأجداد، وكذلك بعض أهل التخصص كالأطباء حينما يخطؤون.

بل إن من فعاليات إبليس والذي يتصدى له بجدّ، هو إيجاد هذا الخلل في نظام العالم، كما قال الله تعالى عن لسانه: ﴿وَ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾.(١)

وأما من يبتلى بالعاهات ويتحمل المعاناة نتيجة سوء تصرف الآخرين، كمن يُولَد مشوَّه الخلقة بفعل الظالمين، أو الآباء والأمهات لتقصيرهم فيما يوجب سلامة الطفل، يكون بالنسبة إليه امتحاناً وابتلاء من الله تعالى، فإن صبر على ذلك جازاه الله تعالى بأضعاف مما تحمله من معاناة، فتكون خيراً له بلحاظ عاقبة الأمر، وإن لم يصبر فتكون شراً له.

وذلك كما لو أصيب ركاب الحافلة بإصابات بليغة نتيجة إهمال قائد المركبة، قد ترافقهم هذه الإصابات إلى آخر أعمارهم، كالشلل النصفي أو الخرس وغيرها.

ففي هذا المثال لابد من الالتفات إلى أمرين:

١ - الاعتراض لا يكون إلا على السائق الذي لم يراع ضوابط السلامة في القيادة، ولا يعترض على القواعد الفيزيائية المتقنة التي لولاها لم تحصل هذه الحوادث ولو بسبب غير مباشر، بل ولا على جاعلها.

---

(١) النساء: ١١٩.

فإنّ تلك القواعد الفيزيائية مؤثّرة في ايجاد هذه الحوادث، كجاذبية الأرض وغيرها، لكن لا اعتراض عليها، ولا على جاعلها، بل إنما يلام من لم يحسن الاستفادة منها.

٢- هذه الإصابات لا تعد عقوبة لركاب الحافْلة، وإبعاداً لهم عن نيل الكمال، والوصول للغاية التي خلقوا من أجلها، بل إنما تكون ابتلاء كسائر ابتلاءات الحياة، وتكون خيرته وشريته منوطة بحسن اختيار أو سوء اختيار الشخص المصاب.

وكلما كانت معاناتهم أكثر، يكون أجرهم أعظم لو صبروا وثوابهم أكثر.

الأسئلة:

١- ما هو المعيار في معرفة الخير والشر؟ اذكر بعض الأمثلة العرفية.

٢- حدث زلزال عظيم راح فيه ضحايا كثيرة وأصيب آخرون وهدمت الدور والأبنية، هل هذا خير أم شر ولماذا؟

٣- هل يصح لنا أن نقول للمال والثروة خير وللفقر والمرض شر؟

٤- من هو صانع الخير والشر؟ وهل يمكن إسناد الشر إلى الله تعالى؟

٥- إلى كم قسم تنقسم البلايا والافات، وفى أي قسم تندرج البلايا والكوارث الطبيعية التي تحدث بين حين وآخر؟

٦- كيف تكون العقوبة بإيجاد بعض البلايا والمصائب خيراً للإنسان؟

٧- حينما كانت المصيبة نتيجة سوء تصرف البشر، فما يكون حال المتضررين من هذه المصائب؟

الدرس الخامس عشر: توضيح بعض المفردات في مبحث العدل (٢)

الثالث: الحكمة الإلهية والتفاوت في العطاء

قد يسأل عن حكمة ما يشاهد من وجود التفاوت والاختلاف بين أفراد البشر في العطاء الإلهي، وأنه لِمَ لَمْ يساو الله تعالى بينهم في ذلك؟!

ويجاب عن هذا التساؤل بوجوه:

ألف: الإيمان بحكمة الله تعالى

بعد الاعتراف والإيمان بحكمة الله تعالى كما مر التنبيه عليه؛ وبعدما علمنا بالضرورة العقلية استحالة وجود نقص في قدرته وعلمه تعالى ولابخل في ساحته، فلا مناص من الإقرار بحكمته تعالى في كل ما يفعل؛ وإن كنا لا نفهم وجه الحكمة في ذلك.

فإن العقل لا يسوغ لغير العالم، أو لمن يكون علمه ناقصاً أن يعترض على العالم، أو من كان أعظم منه علماً.

مثلاً إذا اعترض شخص ليس له خبرة في علم الطب على قرار الطبيب؛ لزعمه أنه قرار غير متقن، ولم يكن زعمه مستنداً إلى علم وخبرة يوازي أو يفوق علم الطبيب، فهذا الاعتراض لا قيمة له عند العقلاء، بل يلام على ذلك.

وذلك للقاعدة العقلية الفطرية عند جميع العقلاء، من ضرورة تحكيم المحكم على المتشابه، فإن القرار الصادر من ذي العلم أو الاكثر خبرة، يكون محكماً بالنسبة إلى القرار

الصادر عن الجاهل أو الأقل خبرة، فلا يمكن رفع اليد عن المحكم لأجل المتشابه، وإذا كان هذا حال علم البشر المحدود؛ فما ظنك بعلم الله تعالى اللامحدود وقدرته اللامتناهية.

وذلك أن علمه وقدرته يشكّل ضرورة محكمة من عدم فتور ونقص في أفعاله، لأن وجود النقص والفتور ناتج عن قصور العلم أو قصور القدرة، وهذا محكم من محكمات العقل، بينما وجود التفاوت بين أفراد الإنسان واختلاف حالاتهم، ليس بالضرورة يكون لغواً وظلماً وعبثاً، ومن يدّعِ ذلك فقد برهن على جهله وعدم موضوعيته، بل غاية ما يمكن أن يقال في ذلك؛ عدم وصول العقل والعلم البشري إلى فهم الحكمة في ذلك، وأما عدم وجود الحكمة فلا.

ومما يدعم هذا البرهان ما يشاهد في مسيرة العلوم البشرية التجريبية، أنه كلما يتقدم الإنسان في العلم ينكشف له عن أسرار في الخلقة، ويظهر أن كل شيء إنما جعل في محله المناسب بإتقان وحكمة، فكيف يعترض على أفعال الله جل وعلا، وهذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.(١)

ب: العدالة لا تعني التساوي

إن العدالة هي وضع كل شيء في موضعه، وتفسيرها بالتساوي في العطاء - دون لحاظ الاستحقاقات والمناسبات - غير صحيح، فإنّ العقلاء لا يساوون في الوظيفة بعد وجود الاختلاف في القابليات، نعم إذا قام كل شخص بوظيفته بحسب قابليته، فإنهم لا يبخسون حقهم.

إن نظام المجتمع كأعضاء البدن الواحد قائم على أساس تبادل المصالح والخدمات

(١) الأنبياء: ٢٣.

المتقابلة، فلو كان الناس كلهم على شاكلة واحدة في الاستعداد والقابليات، وغير ذلك من الأمور؛ لتعطلت الحياة واختل النظام، بل كل واحد من أفراد المجتمع لابد وأن يسد الفراغ في الجهة التي تتناسب مع قابليته واستعداده.

وبذلك يستفيد كل واحد من خدمة الآخر، وهكذا تستمر الحياة.

فهل يا ترى من العدالة والحكمة أن تكون أعضاء البدن كلها على شاكلة واحدة؛ كلا، فكما أن الرجلين يخدمان البدن كذلك العينان، واليدان.

ولم يكن ليستقر كل واحدة منها لولا الأخريات.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.(١)

ج: التكليف بمقدار الطاقة

ثم إن الله تعالى لم يكلّف كل إنسان إلا بقدر ما أعطاه من إمكانيات وقابليات، فهو يطلب من كل واحد بقدر وسعه وطاقته، فمن قل عطاؤه يكون تكليفه أقل، ومن كثر عطاؤه اشتد تكليفه، ومن ثم عسر حسابه.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.(٢)

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾.(٣)

---

(١) الزخرف: ٣٢.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) الطلاق: ٧.

عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: «**إِنَّمَا يُدَاقُّ اللهُ العِبَادَ فِي الحِسَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ، عَلَى قَدْرِ مَا آتَاهُمْ مِنَ العُقُولِ فِي الدُّنْيَا**».[١]

د: الجزاء بمقدار السعي

وحينئذ لو أتى كل واحد بوظيفته المقررة له الملائمة والموافقة لخلقته، لا يبخسه الله تعالى جزاءه، ولكانت فرص الكمال والقرب متاحة للجميع، فمثلاً تجد أن الرجل عليه مسؤوليات ووظائف تلائم خلقته، كما تجد أن المرأة عليها مسؤوليات تلائم خلقتها.

فالتفاوت في الخلقة والاختلاف في الوظائف والمسؤوليات، ما دامت موافقة للقابليات المودعة في كل منهما، هو عين العدل والحكمة، ولو أتى كل منهما بما عليه من الوظيفة لا يبخسهما الله تعالى في الجزاء.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾.[٢]

فلم يبخس الله جل وعلا في إعطاء الأجر والجزاء بين الرجل المؤمن الصالح، والمرأة المؤمنة الصالحة، إذا أتى كل منهما بما عليه من الوظيفة.

قال تعالى: ﴿**أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى**﴾.[٣]

فظهر مما سبق ثلاثة أمور:

---

(١) الكافي: ج١ ص ١١.

(٢) الأحزاب: ٣٥.

(٣) النساء: ١٩٥.

الأول: أن الاختلاف ضرورة اجتماعية وبدونها لا تستقر الحياة.

الثاني: أنّ التساوي في الوظائف والمسؤوليات مع وجود الاختلاف في الخلقة والقابليات ظلم ومخالف للحكمة، كما هو بديهي عند جميع العقلاء.

الثالث: مع قيام كل واحد من أفراد المجتمع بوظيفته المقررة له، فإن الله تعالى لا يفرق بينهم في الجزاء.

الرابع: اختلاف الناس في حواضنهم الإيمانية

إنّ اختلاف الناس من ناحية البيئة التي يتربون فيها أمر موجود وواقع فعلاً، فبعض الناس يولدون في أحضان نزيهة وملتزمة وواعية، والبعض الآخر بخلاف ذلك.

وهذا الاختلاف ليس مختصاً باختلاف البيئات من حيث الإيمان والكفر والالتزام وعدمها، بل يعم اختلاف الناس في الثقافات والأعراف ومحاسن الأخلاق ومساويها والتحضر وعدمه، فالبعض يولد في أجواء مؤاتية لطلب العلم والوصول للكمال، وبعض آخر في أجواء مضادة لذلك، وكذا من حيث الغنى والفقر والصحّة والمرض وغيرها .

ولبيان حكمته تعالى وعدله في هذه الاختلافات ينبغي التنبيه إلى أمور:

ألف: التكليف يناط بالقدرة وإتمام الحجة

إن التكليف والثواب والعقاب إنما يدور مدار وجود القدرة وبلوغ الحجة، لا صعوبة الامتثال وسهولته، فإن الظلم إنما هو أن يكلف الله تعالى عبداً ويؤاخذه على ما لا يقدر عليه، أو قبل أن تبلغه الحجة، وأما مع وجود القدرة وبلوغ البيان، فلا يكون التكليف ظلماً، وإن كان صعباً بحسب البيئة التي تربى فيها ذلك الإنسان.

إن الترعرع في بيئة فاسدة إن أوجب عدم قدرتهم للوصول للحق، فإن الله تعالى لا يؤاخذهم بذلك، ويكونون من المستضعفين الذين سيتُم الله تعالى عليهم الحجة ويمتحنهم قبل أن يحاسبهم.

ب: الإيمان بحكمة الله تعالى

إنه بعد حكم العقل الضروري بأن الله تعالى حكيم في أفعاله ولا يفعل شيئاً إلا لأغراض حميدة، فلا ينبغي الاعتراض على وجود مثل هذا الاختلاف على حكمة الله تعالى، فإن المحكم لا يرفع اليد عنه لأجل المتشابه.

ج: أثر الأعمال الاختيارية

إن قسماً من هذه الاختلافات معللة بالأفعال الاختيارية للإنسان في عوالم سابقة قبل هذه الدنيا، كعالم الذر والأشباح والأظلة.

د: أثر فعل الطغاة

وإن قسماً آخر منها من أجل كفر وطغيان وعناد الآباء والأجداد وظلم الطغاة، حيث صدوا عن سبيل الله تعالى، ومنعوا الأنبياء والحجج والأئمة من التصدّي لهداية الناس، فقُتِلَ منهم من قُتِل وسُبِيَ من سُبي، وأُقصيَ من أُقصي، وجراء ذلك انتشرت الظلمة والفتنة في المجتمع، وهذا القسم يكون نظير ما مرّ في الآفات والعاهات التي تحدث في الكون، نتيجة سوء تصرف الناس، وأن المسؤولية تتوجه على الطغاة في حين أنها ابتلاء للناس، وإنّهم لو آمنوا واتقوا رغم صعوبة الظروف - كما هو الآن في عصر الغيبة - فيصلون إلى أعلى درجات الكمال، حيث يتحملون المعاناة والجهد الشديد نتيجة الإيمان بالحق والعمل بوظيفتهم تجاهه في ظل هذه الظروف الغاشمة، ثم لا يكون من الله تعالى إلا جميلٌ.

الأسئلة:

١ - كيف يبرهن على تنزّه أفعال الله تعالى عن النقص والبخل والخلل؟

٢ - ماذا يقال لمن يعترض على حكمة الله تعالى فيدّعي وجود الخلل في نظام الخلقة؟

٣- هل المساواة تعني العدالة دائماً، أو هنالك تفصيل؟

٤ - ماذا يعني التساوي في طي مراتب الكمال وفي الجزاء، رغم اختلاف القابليات؟

٥ - شخص ترعرع في بيئة كافرة، ومع بلوغ الحجة وقدرته على الإيمان، لكنه ترك الإيمان بحجة صعوبة ذلك عليه، هل يعذر لذلك، اذكر البرهان عليه؟

٦ - هل صعوبة الامتثال مع فرض القدرة وبلوغ الحجة ظلم؟

٧- اذكر سببين من أسباب اختلاف الناس في حواضنهم الإيمانية، وبيّن حال الناس بحسبهما.

الفصل الثالث

النبوّة

الدرس السادس عشر: النبوّة

النبوة في اللغة

مأخوذة من نبأ، وهو الخبر المهم ذو الفائدة العظيمة، أو من النباوة وهو كل ما ارتفع من الأرض، أو الشيء يقال نبا إذا ارتفع وظهر.(١)

والنبي هو الذي اختاره الله تعالى ليكون حاملاً للنبأ منه تعالى، وهذا المقام لا يكون إلا لمن ارتفع قدراً وعلا مكانةً عند الله سبحانه قبل النبوة وبعدها، بداهة أن النبوة مقام إلهي عظيم لا يناله إلا اللائق به، كما أنه يوجب علو مقامه، وسيادته على الخلق.

ومن هنا نشأت الملازمة بين المادتين في المعنى.

كما أن الرسول هو الذي يكون حاملاً للرسالة المرسلة إليه بتوسط ملك من الملائكة كجبرئيل عن الله تعالى.(٢)

وهنالك فوارق بين مقام النبوة والرسالة مذكورة في محلها.(٣)

ضرورة البحث عن النبي

إن هناك سؤالاً خطيراً ومهماً للغاية مطروحاً في المجتمع الإنساني، وهو: هل أن

(١) كتاب العين كلمة نبأ، لسان العرب مادة نبا، معجم مقاييس اللغة مادة نبو.

(٢) راجع: لسان العرب مادة رسل ج ١١ ص٢٨٣، ومجمع البحرين ج٥ ص٣٨٤، وتاج العروس مادة رسل ج١٤ ص٢٨١.

(٣) راجع أصول الكافي، كتاب الحجة، باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدث ج ١ ص ١٦٧.

خالق الكون والإنسان، أرسل رسالة إلى الإنسان، واعتنى بشأنه وسعى لهدايته ولإثارة عقله وتذكيره إلى خالقه، وأنبأه بمصالحه ومفاسده، وبيّن له أنه من أين وفي أين وإلى أين، أم لا ؟

وهذا سؤال خطير جداً، بل هو من جهة أخطر من السؤال عن أصل وجود الله تعالى؛ لأن إثبات وجود الله تعالى من غير أن يكون مَعنِيّاً بالإنسان ليس له ذلك التأثير في أحوال الإنسان ووظائفه الفطرية، ومحتوى وجوده في هذه الدنيا .

ثم إنه لا شك أننا أمام واقعية في تاريخ البشر، وهو قيام أناس على طول التاريخ، ادعوا أنهم جاءوا برسالة من الله تعالى إلى خلقه، وكلهم ادعوا أن الله جل وعلا أنبأهم بأخبار مهمة، وأخبرهم بأن يبلّغوها للناس، واعتقد بهم جمع غفير من الناس، فحينما يرى الإنسان هذه الحقيقة، لايمكن أن يغض طرفه عنها أو يتغاضى أو يتغافل من دون أن يبحث في النبوة، وفي صدق مقالهم من عدمه .

فإنه بعدما عرف أنه عبد مربوب، والله جل جلاله مالكه ومليك أمره، وهو رب العالمين، ليس له شبيه ولا نظير، وعرف فقر نفسه واحتياجه إلى الله تعالى في كل آن ولحظة، فإن عقله لا يُسَوِّغ له أن لا ينظر في دعوى مدّعي النبوة .

وذلك لأن إرسال الرسول من الله تعالى إلى خلقه ليس بقبيح على الله تعالى، فالعاقل يحتمل أنّ ربّه أرسل له نبياً لأمر ما، فترك النظر في كلام النبي واستعلام صدقه قبيح بل حرام عقلاً، وهتك للمولى جل جلاله.

فإنه بعدما احتمل أنه أرسل رسلاً أظهروا أنفسهم، وادعوا هذا المقام؛ فترك النظر في دعواهم يكون هتكاً للمولى وجرأة عليه.

ويكفي في الوجوب العقلي مجرد وجود احتمال إرسال النبي وعدم قبحه على الله

تعالى، أما لو أثبتنا رجحانه بل حاجة الناس الملحة إليه في مجالات مختلفة كما سيأتي؛ فيكون وجوب البحث عن النبي بملاحظة تلك الجهات أشد وآكد، وترك البحث والنظر أشد قبحاً.

وسنستعرض في المباحث الآتية إلى:

أولاً / النبوة العامة

ويبحث فيها عن وجوه احتياجنا للنبي، وضرورة وجوده، والصفات الاتي لابد أن يتحلى بها مدّعي النبوة، وكيفية إثبات الرسل وحقانيتهم، والأدوار التي يقوم بها النبي في المجتمع الإنساني.

ثانياً / النبوة الخاصة

ويبحث فيها عن الشخص الذي أرسل من قبل الله تعالى وفق المعايير التي ذكرت في مبحث النبوة العامة.

وبعد إثبات نبوة سيد الأنبياءﷺ، سنتطرق إلى إثبات خاتميته لمقام النبوة، وخلود دينه وشريعته إلى يوم القيامة.

وجوه حاجة الناس إلى النبي واضطرارهم إلى الدين

حينما يفكّر الإنسان في نفسه وفي ما يرتبط به، يجد بعقله أن له وللمجتمع البشري بصورة عامة، حاجة ملحة إلى وجود نبي مرسل من قبل الله تعالى، ولاتلبّى هذه الحاجة بطريق آخر غير بعث الرسل، ولولاه لاختل النظام البشري ولوقعوا في مهالك خطيرة للغاية، بل يكون خلقهم لغواً وعبثاً، يتنزه الحكيم عن فعله.

ونشير إلى بعض تلك الوجوه:

الأول: إثارة العقول

لا شك أن الإنسان العاقل لا يستغني عمن يُثِير عقله ويُذَكِّره بالمكشوفات العقلية، ولاتجد من يُنكر ذلك، سواء كان موحداً أم لم يكن، وهذا يرجع لسببين:

الأول: أن المسائل العقلية معرّضة للغفلة والنسيان، فكثيراً ما يغفل الإنسان عن أمر بديهي، أو عن لوازمه، وما إن يذكّره أحد وينبّهه، إلا سرعان ما يتنبّه ويتذكّر لذلك.

الثاني: العقل بحاجة للإثارة لتتسع دائرة مكشوفاته، وهذه الإثارة لن تحصل للإنسان بمفرده، بل هو محتاج للارشاد والتعلم.

ثم إن ضلال الإنسان في عقله إذا كان متعلقاً بالأمور المصيرية في حياته قد يؤدي به إلى مهالك لاينجو منها أبداً، فمن ذاك أن يعرف نفسه وما عليه أن يفعله في حياته، ويعرف خالقه وما عليه أن يفعل تجاه خالقه، وما سيؤول إليه أمره، وغير ذلك مما لابد من أن يتحاكم في معرفتها إلى الأسس الرصينة العقلية، لاسيما مع كثرة الاختلافات والدعاوى الباطلة المضللة المغرية.

ومما يشهد على هذه الحاجة: اختلاف البشر الشديد، وبالذات اختلاف علمائهم ومن ينسبون أنفسهم إلى العقل، في كثير من المسائل المصيرية في حياة الإنسان وهي كلها أمور عقلية، فكل واحد منهم يجرّ القرص إلى حجره ويرى أن ما توصل إليه هو المكشوف العقلي وما عداه ضلال.

آل الأمر إلى أن صارت آراؤهم وأطروحاتهم مثيرة للاختلاف، وقد نسبوا آراءهم كلها رغم اختلافها وتباينها إلى العقل، فصار العقل عندهم مثيراً ومثاراً للاختلاف، وكلّنا نعلم أنّ العقل كاشف عن الواقعيات ورافع للاختلافات.

والخطورة في أنّ هذه الاختلافات واقعة في أمور بعضها مصيرية لحياة الإنسان،

ويكون أمر الإنسان فيها دائراً بين الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي أو النجاة الأبدية، فتراهم اختلفوا في معرفة الخالق، وفي صفات الله تعالى وأسمائه وخصائص الإله، وخلق الإنسان، وما يؤول إليه حال الإنسان في المستقبل، وحقيقة الإنسان، والحسن والقبيح من سلوكياته وأفعاله، إلى غير ذلك مما لا يتسامح الخطأ فيه .

فلو لم يكن البشر محتاجاً في الاستفادة من عقله الذي هو الحجة الباطنة، إلى الأنبياء والأوصياء وهم الحجج الظاهرة، لم يحدث كل هذا الاختلاف، من قبل أناس لم يكن لهم همّ إلا معرفة الحقائق والوصول إليها عبر القرون المتمادية.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ ووَاتَـرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ ... ويُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ العُقُولفبعث فيهم رسلهم**».[1]

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله في بعض خطبه: «**وَ ابْتَعَثَ فِيهِمُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.وَ لِيَعْقِلَ العِبَادُ عَنْ رَبِّهِمْ مَا جَهِلُوه**».[2]

ثم إن قيام الأنبياء بهذا الدور، لا يتوقف على إثبات نبوتهم للشخص الذي يثار عقله عبر تذكير النبي وتعليمه، بل متوقف على نفس مجيئه وتذكيره، فلو فرضنا أن شخصاً بصيراً نائماً في حديقة جميلة، فيها من الأسرار العجيبة المدهشة، فإنه لا يرى ما حوله من الجمال الذي احتوته تلك الحديقة، ولم يطلع على أسرارها المودعة فيها، فيرسل صاحب الحديقة شخصاً ليوقظه؛ فيري عجائب في الحديقة وجمالها.

ففي هذا المثال، لا يتوقف استيقاظ ذلك الشخص ونظره لجمال الحديقة، إلى إثبات

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ١.

(٢) توحيد الصدوق: ص ٤٤.

شخص المدعي، وصدق دعواه قبل الاستيقاظ، بل متوقف على مجيئه وتنبيهه له.

ومن هنا نقول: إنّ مهمة إثارة دفائن العقول التي قام بها الأنبياء، غير متوقفة على إثبات نبوتهم في مرحلة سابقة قبل تلك الإثارة، بل بمجرد التنبيه والتذكير منهم عليهم السلام، تنفتح بصائر العقلاء فيعقلون ذلك.

ومن هنا نستنتج أنّ شأن إثارة دفائن العقول، ليس مخصوصاً بالمؤمنين بصدق دعوى الأنبياء، بل يعم جميع العقلاء وذوي الألباب، ومن أجل ذلك نشاهد خطابات الله جل وعلا في القرآن موجهة لأولي الألباب والعقلاء والمتفكرين، ومن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وقد مدح أهل العقل والفهم في كتابه وذكر أولي الألباب بأحسن الذكر، وحلّاهم بأحسن الحلية، وذمّ الذين لا يعقلون، مما يدل على أن المعنيّ بخطابه تعالى هم جميع العقلاء وليست طائفة خاصة منهم .

الثاني: الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة

وذلك من خلال إقامة البراهين وتذكير الناس وتوجيههم إلى الله تعالى، فإن معرفة الله جل وعلا وإن كانت فطرية عند الإنسان، إلا أنه كثيراً ما يغفل عن ذلك وينسى ما كان مفطوراً عليه.

ومما يزيد في الطين بلة وجود أناس؛ يستغلون هذه الغفلة ويدعون العباد إلى عبادة غير الله تعالى، فتكثر الحيرة والاختلاف والضلال، بين غافل عن ربه وبين من اتخذ غير الله رباً.

وهنا تظهر حاجة الناس إلى نبي مرسل من قبل الله تعالى، يدعو العباد إليه ويدلّهم عليه.

ومما يزيد الأمر وضوحاً وجود الاختلاف الكبير بين علماء البشر في معرفة الله تعالى والتوحيد، فمع أنهم يعرفون الله تعالى الواحد الأحد بفطرتهم، إلا أنّ تعدد الآراء والمذاهب أوجد اختلافاً واضطراباً في معرفة الإله الواحد.

فنفس وجود الاختلاف والاضطراب والانحراف والضلال المشاهد لدى البشر في معرفة الله تعالى، أدل دليل على احتياجهم إلى المذكر والمعلم المبعوث من قبل الله تعالى، بل إنّ هذه الاختلافات إنما حصلت لدى البشر بعد تذكير الأنبياء وإيقاظ البشر من نوم الغفلة، فحينما ذكّرهم النبي بأنّ لهم خالقاً، جعلوا يبحثون ويختلفون فيه، فلو لم يكن تذكير الأنبياء لم يلتفتوا إلى الله تعالى لكي يختلفوا فيه.

وقد نبّه إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾.(١)

رَوَى أَصْحَابُنَا عَنِ البَاقِرِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ فِي الآيَة: «**إِنَّهُ كَانُوا قَبْلَ نُوحٍ أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى فِطْرَةِ اللهِ، لَا مُهْتَدِينَ وَلَا ضُلَّالًا، فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ**».(٢)

عَنْ زُرَارَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَا مُؤْمِنِينَ وَلَا مُشْرِكِينَ فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ قَالَ: «**كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَا مُؤْمِنِينَ وَلَا مُشْرِكِينَ، فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ، فَثَمَّ وَقَعَ التَّصْدِيقُ والتَّكْذِيبُ**».(٣)

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) بحار الأنوار: ج١١ ص١٠.

(٣) الأصول الستة عشر: ٢٨٦.

فالحاجة إلى النبي تكون في أصل الإثارة والتذكير بوجود الصانع، وبعد ذلك في معرفته معرفة منزهة عما لايليق بجنابه.

فلو كان لله تعالى حاجة بالبشر، فلابد أن يُرسِل رسولاً من عنده ليستأديهم ميثاق فطرته، ويذكّرهم منسي نعمته، ويحتج عليهم بالتبليغ.

وقد عرّف الله تعالى نبيه في آي كثير من القرآن وبيّن شأنه؛ أنه جاء لدعوة الناس إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة السنة، أو المجادلة بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا۞ وَدَاعِيًا إِلَى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا**﴾.(١)

وقال أمير المؤمنين سلام الله تعالى عليه: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ العُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ المَقْدِرَةِ مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وَأَحْدَاثٍ [تَتَتَابَعُ] تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ... إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً ﷺ رَسُولَ الله لِإِنْجَازِ عِدَتِهِ، وَإِتْمَامِ نُبُوَّتِهِ ...وَ أَهْلُ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ لله بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ. فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الجَهَالَةِ**».(٢)

الثالث: إحراز موارد رضا الله تعالى وسخطه

بعدما أقرّ الإنسان على نفسه بأنه عبد مملوك لله سبحانه وتعالى، وعرف أن وظيفة العبد أن يتبع رضا المولى ويتجنب عما يسخطه، ومن دون ذلك لا يتسير له القيام بوظائف العبودية الواجبة بضرورة العقل، فهو بحاجة إلى من ينبأه عما يرضي الله تعالى

---

(١) سورة الأحزاب: ٤٥ و٤٦.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

فيأتيه، وعما يسخطه فيجتنبه .

وذلك بعد ما علم الإنسان بعقله قبح الإهمال واللامبالاة والحياة البهيمية للإنسان العاقل، فإن البهيمة تهمّها بطنها ورعيها وعلفها، ولا تهمّها معرفة صاحبها ومالكها، ومعرفة رضاه وسخطه، إلا بمقدار يرجع لعلفها، ولكن الإنسان العاقل الذي يعرف أنه مملوك لإله عالم قادر رحيم ودود لطيف خبير، فلا يسمح له عقله أن لا يتعرض لمعرفة ما عند المولى، مما يحبه أو يكرهه، ويسخطه أو يرضيه.

لا سيما أنه علم أن رضاه وسخطه لا يشذان عن ميزان الحق والحقيقة، والإنسان بفطرته يريد الحق وينفر من الباطل، ولا سبيل لمعرفة الحق والباطل مما يرضي الله تعالى أو يسخطه إلا عن طريق إنبائه تعالى وإعلامه بذلك.

الرابع: الدلالة على المصالح والمفاسد والمنافع والمضار

الإنسان كائن حي شاعر في عالم كبير، وهنالك علاقات وطيدة بين هذا الكائن الحي وبين العالم الذي يعيش فيه، ولا يمكن له أن يعرف ما يصلحه عما يفسده، إلا إذا أحاط علمه بالعالم الذي يعيش فيه، ويعرف العلاقات الموجودة بين أجزائها وما يتأثر منها وما يؤثر فيها، فإن من كان علمه قاصراً عن معرفة الظروف والبيئة التي ترتبط به، لا يمكن أن يكون تشخيصه لمصالحه ومنافعه تشخيصاً دقيقاً، فقد يزعم أن الشيء نافع له حينما لا يدري أنه يلازم مفسدة أخرى عاجلة أو آجلة، قد تكون أقوى بدرجات كثيرة من تلك المصلحة الجزئية.

فأنت ترى البشرية تتوصل بعلمه إلى صنع شيء يزعم إنه يريحه وينتفع منه، ثم بعد فترة يعرف أن الذي كان ينفعه قد أضر به من جهات أخرى تكون أشد وأعظم من تلك المنفعة، كما نرى في تلوث البيئة جراء هذه الاكتشافات، وهذا يدل على عدم إحاطة علم

البشر بمنافعه المادية الجزئية الدنيوية، فكيف يستغني عن إنباء خالقه في معرفة مصالحه ومنافعه الكلية الابدية؟

فالعقل يحكم بأنه لا يمكن الوصول إلى المصالح والمفاسد الواقعية، إلا لمن أحاط بجميع خصوصيات الإنسان من روحه وجسده، وتأثيره وتأثره بالعالم الذي يعيش فيه.

ومن جانب آخر حينما يرى الإنسان هذا العالم، يرى أنه لا يمكن أن تكون الدنيا هي الغاية القصوى من الخلقة، فإنها ليست سوى آلام ومصائب، بل اللذة فيها مشوبة بالألم، بل ليست اللذة سوى تخفيف الآلام، ويجد أن هذه الدنيا قد تساوي بين المحسن والمسيء والظالم والمظلوم، بل قد تفضل الظالم على المظلوم في نيل المناصب الدنيوية، فيعرف بعقله وجود عالم آخر سيرحل إليه الإنسان، وإلا كان خلق الدنيا لغواً وعبثاً والله تعالى منزه عن اللغو والعبث.

وإذا ثبت عالم آخر وغاية أخرى أعظم من هذه الدنيا، وهي غائبة عنا، ولا نعرف ما يصلحنا وينفعنا في ذلك العالم، وما يضرنا ويفسدنا، فنحتاج إلى نصب الدلالة من الله تعالى العلي الحكيم.

الخامس: تربية الناس وتزكيتهم

إن الحياة الطيبة لا تقوم إلا على أساس تربية الناس وتزكيتهم، ليتجنبوا عن الرذائل والأمراض الروحية، ويتحلوا بالفضائل ومكارم الأخلاق.

وهذا أيضاً مما يعجز البشر عن تحقيقه بنفسه لولا هداية السماء.

فإن من يتصدى لتربية كائن حي آخر سواء كان ذلك الكائن نباتا أم حيوانا أم إنساناً، يحتاج إلى أمرين:

الأول: أن يعلم بدقائق وتفاصيل وجزئيات ذلك الكائن الحي، وما يصلحه ويفسده والحالات التي تطرأ عليه وغير ذلك مما يرتبط به .

الثاني: أن يكون هو بنفسه مزكّىٰ حتى يتصدى لتزكية شخص آخر؛ فلا يتأثر بالأهواء، والشهوات للخروج عن الطريق القويم .

فمثلاً لإصلاح الأشجار في بستان إذا لم يكن الشخص عالماً بخصوصياتها وما ينفعها ويضرها ولا يكون أميناً، فإنه لا يستطيع تحقيق غاية الإصلاح.

وهكذا الحال فيمن يتصدى لتربية الأطفال والطلاب في المدراس، إذا كان لا يعرف عن نفسيات وحالات الأطفال شيئاً، ولا توجد عنده معرفة بمعالجة الأمراض الروحية والخلقية فيهم وأنّه كيف يربيهم على الفضائل، أو لا يكون أميناً وزكياً في نفسه، سيكون فاشلاً في تربيته.

وحينئذ نقول: إنّه لولا هداية خالق الإنسان لكان عاجزاً عن تزكية نفسه وتنمية الأخلاق الصالحة والفضائل، وذلك لجهل الإنسان بحقيقة نفسه بشكل كامل وما يصلحها وما يفسدها، مع أنه يتأثر كثيراً بالأهواء والشهوات والغرائز الباطلة .

ومن المهام التي نفذها الأنبياء العظام في المجتمع البشري هو بناء نظام الأخلاق الصالحة وصناعة الحضارات، ولولاها لم يكن للأخلاق عين ولا أثر، ومن هنا قال الله تعالى: **يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ ومَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ولَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً ولكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ واللهُ سَميعٌ عَليم**(١)

ويشهد على هذا، أن البشرية حينما أرادت أن تصنع بزعمها المدينة الفاضلة والمفعمة

---

(١) سورة النور آية ٢١.

بالأخلاق والفضائل، فنظّرت لها بنظريات، ظهر فشلها وضديتها للأخلاق الحسنة بعد حين من الزمان، ثم أتت بنظريات جديدة وهي بدورها أثبت الزمان أنها كانت رذائل حيث زعموها فضائل.[١]

ونحن نرى أن كثيراً مما كان يعد من الفضائل يوماً، إنما هي مهاوي ومهالك تبيد الإنسان ومن قبل ذلك تقتل فيه الفضائل والأخلاق الحسنة، وحينما نشاهد مسيرة الحياة البشرية إلى يومنا الحاضر نجدهم وقعوا في مثل هذه المهالك والمهاوي حينما استبدوا بآرائهم واستغنوا عن تربية وتزكية رجالات السماء.

ومن أجل ذلك بعث الله تعالى الأنبياء ليزكوا العباد ويتمّموا فيهم مكارم الأخلاق، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.[٢]

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.[٣]

السادس: حاجة الناس إلى القانون

القانون ضرورة في الحياة الاجتماعية، ولايمكن أن يعيش مجتمع دون قوانين تأخذ على عاتقها إيجاد النظم ودفع الهرج، وإيصال المنافع ودفع المضار، وكما نعلم أن كل قانون لابد وأن يكون متناسباً ومتناغماً مع حاجيات الشيء الذي يقنن له ومصالحه ومضاره، فأفضل القوانين هو القانون الصادر ممن يكون مطلعاً على أسرار وخفايا الشيء الذي يريد أن يقنن له، وعالماً بما يصلحه وما يضره، وعارفاً بما يرتبط به ويتأثر

(١) راجع نظرية المدينة الفاضلة التي كانت الفلاسفة في اليونان ينظرون لها، كتاب: «جدلية الدين والفلسفة». للمؤلف: الجزء الأول، الفصل الأول.

(٢) آل عمران: ١٦٤، البقرة: ١٥١.

(٣) الأحزاب: ١.

منه أو يوثر فيه، وكل ما له مدخلية وارتباط وعلاقة بهذا الكائن.

فإنّ أفضل من ينبّه لقوانين استخدام آلة معينة أو جهاز معين، هي الشركة الصانعة لها، وذلك للحكم البديهي العقلي الذي نبّه عليه القرآن بقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فالصانع والخالق، هو الذي يعرف ماذا صنع، وما الذي يُصلحه وما يُفسده.

و بعد ما ثبت في مباحث التوحيد سعة علمه وإحاطته بالأشياء، يظهر وجه حاجة الإنسان إلى قانون من عند الله جل جلاله، وأن أي قانون لايرجع إليه لايمكن أن يُلبّي حاجيات الإنسان وينفعه سواء في معاشه أم معاده.

تلخيص وتعقيب

مرّ أنّ مجرد احتمال إرسال الرسول من قبل الله تعالى يكفي للزوم البحث عن النبي المرسل من عنده، أو أما إذا ثبتت الحاجة الملحّة للإنسان إلى النبي، وبعد ما بلغنا كلام جماعة ادّعوا النبوة والرسالة، يكون حكم العقل بلزوم البحث عن النبي أشد وآكد، بل بلحاظ بعض الوجوه، يظهر أنّ عدم إرسال الرسول يكون نقضاً للغرض ومنافياً للحكمة الإلهية، فلايمكن أن يترك الله تعالى عباده دون أن يرسل لهم رسولاً ونبياً يلبّي هذه الحاجيات وغيرها، وهذا ما يسمّى عند المتكلّمين بقاعدة اللطف بمعنى أنّ عدم إرسال الرسول يكون نقضاً للغرض يتنزّه الحكيم عنه، لابمعنى وجوب صدور الفعل عنه تعالى المنافي للقدرة والاختيار، وقد سمّوه بالوجوب في الحكمة، أي من أجل أنّه تعالى حكيم يتنزّه عن فعل اللغو مع كمال قدرته عليه.

الأسئلة:

١- من أين تثبت الضرورة العقلية لضرورة البحث عن النبي؟

٢- إن كان الإنسان عاقلاً، فلماذا يحتاج إلى النبي في معرفة العقليات؟

٣- ما هى اللغة التي تفهمها جميع العقلاء، وكان الأنبياء يتكلّمون معهم بتلك اللغة؟

٤- اذكر بعض الآيات القرآنية التي تنصّ على شأن النبي في الدعوة إلى الله تعالى.

٥- ماذا يحصل لو أهمل الأنبياء الدعوة إلى الله تعالى بالبرهان وتركوا تعليم الحكمة للناس، وأوكلوا هذا الشأن لغيرهم؟

٦- ما الذي يحتّم علينا أن نتصدّى لمعرفة موارد رضى الله تعالى وسخطه؟

٧- هل يمكن للبشر أن يستغني عن الأنبياء في بناء نظام أخلاقي متكامل؟ اذكر بعض النماذج العينية من محاولات البشر في هذا الصدد.

٨- ما هو وجه الحاجة إلى النبي في مجال التقنين؟

الدرس السابع عشر: صفات النبي

تنزيه الخالق أساس براهين إثبات النبوة

الوجوه التي مرّت لبيان حاجة الناس إلى النبي، مبنية على مسألة أخرى أثبتناها في باب التوحيد، ولولاها لايتم الاستدلال بها على ضرورة وجود النبي، ألا وهي مسألة تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوقين ومن أن يحيطوا به، فحينما نقول: «الله اكبر»، ننزّه الله تعالى من إمكانية توصيفه بالصفات البشرية، ومن إمكان الإحاطة به، وأنّه لايشبهه شيء، وحينئذ لايكون أمام البشر طريقٌ لنيله والوصول إليه ومعرفة ما لديه، إلا بتعريفه وإنبائه وتحديثه وتكليمه.

و ذلك أنه لو كان شبيهاً بالمخلوق، أو أمكن أن يناله البشر بقواه الإدراكية، لم تكن ثمة حاجة لأن يُرْسِل رسولاً فيُعرّفنا نفسه، ويُخبِرنا بما عنده، وما يريده منا، ومواطن رضاه وسخطه، وغير ذلك مما مر، بل كان بإمكان البشر أن يعرف كل هذه الأمور بعقله، فإن العقل إذا استطاع أن ينال الرب ويحيط به فيصفه تبارك وتعالى، فسوف لايصعب عليه أن يحيط بعلمه فيعرف ما يُسخِطه وما يُرضيه.

لكن إذا فرضنا - كما هو الواقع - أنه تعالى أكبر من صفات المخلوق، وليس للمخلوق نيله ولا الإحاطة به ولابعلمه، ولايطرح تحت البلاغ، ولايناله غوص الفِطَن، فلا يمكن أن يعرفه أحد، أو يعرف ما لديه، إلا بدلالة نفسه، فلابدّ أن يكون هو المعرّف لنفسه والمذكّر إلى آلائه والمعلّم للمصالح والمفاسد التي يحيط بعلمها، فنعرف من خلال

ذلك الحاجة للوحي من قبل الله العلي القدير، ليكون هو المعرّف والمنبّه والمذكّر والمعلّم.

ثمّ إنّه لايخلو من وجهين:

إما أن يرتبط كلّ واحد من أفراد البشر بالله تعالى فينزل عليهم الوحي، أو يختار رسولاً فيوحي إليه ثم يكون هو المبلّغ عن الله تعالى إلى سائر خلقه، وترجماناً لوحيه.

والفرض الأول - مع أنّ غير واقع عملاً - يؤدّي للخلف ونقض الغرض كما سيتبيّن بعد قليل، فلاتبقى إلا الصورة الثانية وهو اختيار أناس يكونون وسائط بينه تعالى وبين خلقه.

وتبقى هذه الحاجة مستمرة ما دام هو تعالى أكبر من قوى المحدودين، وهذا يعني أن البشرية لن تصل يوماً إلى حالة الاستغناء عن المدد والترفيد الإلهي عبر الرسول والنبي.

و قد ثبت في مبحث التوحيد أنّ الله تعالى أكبر وأعظم من شبه المخلوق وصفاته، ولايمكن أن يكون العقل البشري، أو العقل الجمعي، أو نظام العقلاء، في وقت من الأوقات، أن ينال ماعنده، من دون أن يعمد هو لتعريفه وإعطائه للبشر عبر الرسول والنبي.

من هنا فتكون الحاجة إلى الرسول - وهو الوسيط لإرسال هذه المعلومات الوحيانية - مستمرة وأبدية، لايمكن أن يستغني البشر يوماً عن الرسول، لأنّ عقولهم وأفهامهم عاجزة عن نيل الله تعالى، ونيل ما عنده، فإنه لا طريق للعباد يوصلهم إلى الله تعالى، إلا بدلالة الله تعالى نفسه، فإنه لايحيط بعلمه شيء، ولا يخطر ببال أولي الرويات، ولا يناله غوص الفطن، وتاهت في أدنى أدانيها طامحات العقول في لطيفات الأمور.

فالتعامل مع ما يكون محيطاً على القوى الإداركية للإنسان، وكذا الوصول إلى رضاه وسخطه، ومعرفة ما عنده من المصالح والمفاسد، وقربه، وزيارته، ولقائه، وغير ذلك، ممتنع على البشر امتناعاً ذاتياً، فلا مناص من نصب دليل منه تعالى المتمثل في الأنبياء والأوصياء.

عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال للزنديق الذي سأله من أين أثبت الأنبياء والرسل؟ قال: **«إِنَّا لَمَّا أَثْبَتْنَا أَنَّ لَنَا خَالِقاً صَانِعاً مُتَعَالِياً عَنَّا وَعَنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ، وَكَانَ ذَلِكَ الصَّانِعُ حَكِيماً مُتَعَالِياً لَمْ يَجُزْ أَنْ يُشَاهِدَهُ خَلْقُهُ وَلَا يُلَامِسُوهُ، فَيُبَاشِرَهُمْ وَيُبَاشِرُوهُ وَيُحَاجَّهُمْ وَيُحَاجُّوهُ، ثَبَتَ أَنَّ لَهُ سُفَرَاءَ فِي خَلْقِهِ يُعَبِّرُونَ عَنْهُ إِلَى خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ، وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ وَمَا بِهِ بَقَاؤُهُمْ وَفِي تَرْكِهِ فَنَاؤُهُمْ. فَثَبَتَ الآمِرُونَ وَالنَّاهُونَ عَنِ الحَكِيمِ العَلِيمِ فِي خَلْقِهِ، وَالمُعَبِّرُونَ عَنْهُ جَلَّ وَعَزَّ وَهُمُ الأَنْبِيَاءُ عليهم السلام وَصَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِه...»**.[1]

النبي بشر وحياني (ترجمان وحي الله تعالى)

لابد من توفر جهتين في شخصية النبي: جهة بشرية وجهة وحيانية.

ألف) الجهة الوحيانية

مر أنّ البشرية إنما تحتاج إلى النبي، من أجل حاجته إلى هداية الله تعالى وعلمه الذي هو فوق عقول البشر، وهذا العلم والهداية لايمكن أن يحفظها ويستوعبها ويتوسّط في إيصالها أي إنسان، إن لم يكن واجداً لجهة أخرى غيبية.

توضيح ذلك:

أن الوسيط في نقل أية معلومة إن لم يكن بمستوى تلك المعلومة، سوف لايمكن

(١) الكافي: ج١ ص ١٦٨.

الاعتماد عليه، ولايمكن الحكم بأنه نقل لنا المعلومة بصورة دقيقة وكاملة، فإنّه وإن لم يتعمد الكذب والخيانة في النقل، إلا أنّه لقصور علمه عن مستوى تلك المعلومة، لايمكن أن يكون دقيقاً وأميناً وصادقاً في نقله.

فلو احتاج المجتمع لعلم معهد علمي رفيع المستوى، أو جامعة علمية متقدمّة في مجال تخصص معين، فأرسل لذلك المعهد بعض الوجهاء الثقات الذين لايتعمدون الكذب، لكنهم ليسوا بمستوى ذلك العلم، فإنّ ما ينقلون من ذلك المعهد لايمكن إسناده إليه، بل يعد ذلك افتراءً عليه، فإنّهم وإن كانوا صادقين في نقل بعض المعلومات الأخرى التي يستوعبونها، لكنهم لايُصَدَّقون في نقل معلومات لايحيطون بعلمها ولايعونها.

فنقول: بعد ما اعترف البشر بعجزه العلمي في المجالات التي مر ذكرها، وعرف بأنّه محتاج إلى العلم الإلهي الذي يكون فوق طاقة البشر، فحينئذ لو كان الوسيط في نقل ذلك العلم بشراً عادياً لايتمتع بقدرات علمية متميزة، فسوف لايمكن أن يعوّل عليه، بل لايجوز إسناد نقولاته إلى الله تعالى، بل يعد ذلك افتراءً عليه جل جلاله، لأنّ الناقل لكل علم إنما ينقل بمقدار وعيه من ذلك العلم.

ولو كان تلقي الوحي عبر طاقات بشرية متاحة عند الكل، لتنزّل الوحي إلى أفق بشري، وإذا تنزل إلى حد طاقة الإنسان، تنتفي الحاجة إلى مثل هذا النبي، إذ إنما إحتجنا إلى النبي بعد الاعتراف بأنّ الله أكبر، وأنّه لاينال بالعقول، ولايحيطون بعلمه، فهناك آفاق علمية أوسع وأرفع بكثير من أفق فهم البشر ونيله ووعيه، فلو كان الوسيط في نقل هذه الباقة العلمية بشراً بحدود الفهم البشري، ليتضيّق الوحي بضيق أفق فهم البشر، لأنّ الناقل والحافظ إنما ينقل ويحفظ ما وعاه وعقله، وعليه سوف لايصل إلينا

إلا أمرٌ بشريٌ لايمكن نسبته إلى االله تعالى، ويعدّ ذلك افتراء عليه، وهذا كما ترى خلف ونقض للغرض.

فلابد وأن يتمتّع الوسيط في نزول هذه المعلومات الوحيانية، بقدرات علمية وحيانية تؤهّله لنقل كلام الله تعالى، كي يصحّ إسناد نقولاته إلى الله تعالى، ولايكون افتراء عليه جلّ جلاله.

وهذا برهان على عدم تكلّم الله تعالى مع كل فرد من أفراد البشر، وأنه يؤدي للخلف وسلب الحجية عنه، فلابد وأن يكون النبي بشراً وحيانياً، أي لابد وأن يمتلك طاقات فوق الطاقة البشرية، حتى يكون أميناً على وحي الله تعالى، وصادقاً عن الله تعالى، وحتى يمكن لنا إسناد نقولاته إلى الله تعالى.

و قد عبّر في القرآن وروايات أهل البيت عليهم السلام بأنّ هنالك اختلافاً جذرياً بين النبي وبين سائر أفراد البشر، ألا وهو امتلاكه لروح القدس، وقد فتحت له بسبب هذا الروح آفاق الغيب، ومن أجل ذلك يعتمد عليه ويصدّق فيما ينسبه إلى الله تعالى.

عَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ عِلْمِ العَالِمِ.فَقَالَ لِي: «**يَا جَابِرُ إِنَّ فِي الأَنْبِيَاءِ والأَوْصِيَاءِ خَمْسَةَ أَرْوَاحٍ، رُوحَ القُدُسِ ورُوحَ الإِيمَانِ ورُوحَ الحَيَاةِ ورُوحَ القُوَّةِ ورُوحَ الشَّهْوَةِ.فَبِرُوحِ القُدُسِ يَا جَابِرُ عَرَفُوا مَا تَحْتَ العَرْشِ إِلَى مَا تَحْتَ الثَّرَى.ثُمَّ قَالَ: يَا جَابِرُ! إِنَّ هَذِهِ الأَرْبَعَةَ أَرْوَاحٌ يُصِيبُهَا الحَدَثَانُ، إِلَّا رُوحَ القُدُسِ فَإِنَّهَا لَا تَلْهُو ولَا تَلْعَب**».(١)

عَنِ المُفَضَّلِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ عِلْمِ الإِمَامِ بِمَا فِي أَقْطَارِ الأَرْضِ، وَهُوَ فِي بَيْتِهِ مُرْخًى عَلَيْهِ سِتْرُهُ؟ فَقَالَ: «**يَا مُفَضَّلُ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى جَعَلَ**

(١) الكافي: ج١ ص ٢٧٢.

فِي النَّبِيِّ ﷺ خَمْسَةَ أَرْوَاحٍ، رُوحَ الحَيَاةِ فَبِهِ دَبَّ ودَرَجَ، ورُوحَ القُوَّةِ فَبِهِ نَهَضَ وجَاهَدَ، ورُوحَ الشَّهْوَةِ فَبِهِ أَكَلَ وشَرِبَ وأَتَى النِّسَاءَ مِنَ الحَلَالِ، ورُوحَ الإِيمَانِ فَبِهِ آمَنَ وعَدَلَ، ورُوحَ القُدُسِ فَبِهِ حَمَلَ النُّبُوَّةَ.فَإِذَا قُبِضَ النَّبِيُّ انْتَقَلَ رُوحُ القُدُسِ فَصَارَ إِلَى الإِمَامِ، ورُوحُ القُدُسِ لَا يَنَامُ ولَا يَغْفُلُ ولَا يَلْهُو ولَا يَزْهُو، والأَرْبَعَةُ الأَرْوَاحِ تَنَامُ وتَغْفُلُ وتَزْهُو وتَلْهُو، ورُوحُ القُدُسِ كَانَ يَرَى بِه».(١)

فتلخّص: أنّه لو لم يكن النبي حاملاً لروح القدس، ولم تفتح له آفاق الغيب للزم الخلف ولايمكن الاعتماد عليه، ولكان مفترياً على الله تعالى لو نسب شيئاً إليه.

و ذلك يرجع لأسباب:

منها: أنّ الناقل لأية معلومة إن لم يستوعبها ولم يعِها لايكون أميناً وصادقاً في نقلها.

منها: أنّ مقدار معرفة الوسيط والناقل ومقدار علمه وإحاطته لشيء يؤثّر في مقدار حجية الكلام المنقول، فلو ضاق أفق وعي الناقل لتضيّقت حجيّة الكلام المنقول، فلايكون له حجيّة كلام الله تعالى.

منها: أنّ من لم تنفتح لديه آفاق الغيب ولم يحط بملابساتها، سوف لايؤمّن من اللبس والاشتباه والخلط في التلقي من عالم الغيب، فإنّ الملابسات وأسباب اللبس والاشتباه في عوالم الغيب تكون أضعاف ما في عالم الشهادة، فلو لم يكن النبي مؤيَّداً من الله تعالى بروح القدس ولم تكن آفاق الغيب مفتوحة لديه، ولم يكن محيطاً بما يدور في تلك العوالم، لم يكن مضموناً من عدم اللبس والاشتباه.

ومن هنا تعرف وجه الخدشة في دعاوى الارتباط بالغيب والمذاهب التي تؤسّس وفق التطلعات الغيبية، سواء عبر المنام أم الاستخارة أم القرعة أم التجربة الشهودية أم

(١) الكافي: ج١ ص ١٧٢.

أي نمط آخر من تلقي المعلومة الغيبية عبر أدوات غيبية دون المرور بترجمان وحي الله تعالى الذي هو النبي والإمام.

الاصطفاء

مما ذكرنا يظهر أن النبوة مقام اصطفائي إلهي، فليس لأحد من أفراد البشر أن يصل إلى مقام النبوة، إن لم يكن الله تعالى قد اختاره واصطفاه لهذا المقام، فالنبوة مقام مغاير تماماً للمناصب والمقامات التي يمكن للبشر أن ينالوها بإمكانياتهم البشرية، إنّها السفارة بين الله تعالى وبين خلقه، بعد أن زوّده الله تعالى بروح القدس فكلّمه وأوحى إليه، ومن الواضح أن اختيار السفير والممثل والناطق الرسمي لأية جهة، إنما يكون من صلاحيات تلك الجهة حصراً، إنّه منصب لاينال إلا بالإصطفاء والاختيار من الجهة التي يمثّلها هذا السفير وينطق عنها.

ب) الجهة البشرية

في حين لابد أن يكون النبي واجداً لروح القدس وهي جهة غيبية في النبي، كذلك لابد وأن يكون بشراً، وواجداً للصفات البشرية أيضاً، لأنّ البشر العادي لايمكن أن يوجد علاقة مع جهة غيبية ليستفيد من علمه، ولو حصل مثل تلك العلاقة فلا تكون حجة ولايعول عليه، كما مرّ.

فالنبي يعمل دور الوسيط، فهو بما يملك من الجهة الغيبية وبامتلاكه لروح القدس يرتبط بعالم الغيب، ثم يترجمها ويبيّنها بلغة عالم الشهادة واللغة المحسوسة لسائر أفراد البشر، ولو كانت لغة النبي أيضاً لغة غيبية لم يكن بوسع البشر الاستفادة من علمه.

وذلك أنّ اسباب اللبس في الغيبيات كثيرة جداً، وليس بوسع من لم يطو تلك العوالم أن يسيطر عليها، بينما مناشيء الخطأ في عالم الشهادة محدودة ومعينة، ويمكن

القضاء عليها، أو الركون لحجة تعذرنا عند الوقوع فيها، من أجل ذلك يوجد بناء عقلائي على الاعتماد على حجية الظهور العرفي لكلام المتكلم، حينما يلقّى الكلام في عالم الشهادة وبأدوات محسوسة عرفية وعقلائية، دون ما لو ألقي من عالم الغيب وبأدوات غير محسوسة وغير عقلائية.

من جملة ضمانات الحفظ عن الخطأ في المحسوسات في عالم الشهادة هو العقل الجمعي، وهو بمثابة الجهة الرقابية والمراقبة المستمرة، فحينما نجد أنّ مجموعة من العقلاء أقروا فهم الإنسان من الكلام الموجه عليه، فسوف يحصل اطمئنان بعدم وقوع اللبس والاشتباه.

و من هنا قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[١]

أي بعد استجابة العقل الجمعي تكون حجتهم داحضة، فالعقل الجمعي له دور في العصمه عن الخطأ.

ونظيره في آية اخرى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.[٢]

فهناك ترابط بين العيش بينهم فترة وبين التعقل، حيث لولا فترة اللبث فيهم لم يكن مجالٌ للتعقل.

و من هنا استقر بناء العقلاء على حجية الظواهر في التلقي الحسي من كلام المتكلم، بينما لايعترفون بحجية ظهور كلام المتكلم إن كان تلقّاه عنه من عالم الغيب كالرؤيا مثلاً، وذلك لأجل بناء العقلاء على حجية ظهورات كلام المتكلم الذي يتكلم وفق

---

(١) الشورى: ١٦.

(٢) يونس: ١٦.

الميثاق العقلائي في التخاطب، وعبر أدوات محسوسة ومشاهدة، يمكن أن تراقب من جهات عقلائية، دون ما إذا كانت قناة الارتباط بالمتكلم قناة غيبية وغائبة عن الأجهزة الرقابية العقلائية.

فلو كان الرسول ملكاً وغائباً، ولم يكن هناك ما يضمن عدم الخطأ في فهم الناس عنه وفهم مراداته الجدية، لكان مثاراً للبس والاشتباه، ومن هنا عاش النبي فيهم عمراً وهم شاهدوه في سفره وحضره وحلّه وترحاله، بل أرسلوا بعض أعدائه جواسيسه إلى بيته، ليطلع على كل سر من أسرار الرسول صلى الله عليه وآله، فما وجدوا محلاً للطعن عليه.

هذه كلها عبارة عن الجهات الرقابية، التي تراقب وتحفظ حدوث أية زلة، أو خطأ، أو لبس، أو تلبيس، وهذا سرّ إصرار القرآن على أنّ الأنبياء يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ**﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ**﴾.(٢)

وأما لو كانت القناة غيبية محضة وبمنأى عن هذه المراقبات مع أن أسباب اللبس هنالك أضعاف ما هنا، لما أمكن الاعتماد عليها.

---

(١) الفرقان: ٢٠.

(٢) الأنعام: ٩.

الأسئلة:

١ - قد يقال: إنّ الحاجة إلى النبي والوحي إنما تكون في عصر التخلّف وأما بعد تقدّم عقل البشر فلاحاجة إليه، ما هو الرد على هذا الكلام؟

٢- كيف يكون التنزيه أساس براهين الحاجة إلى النبي؟

٣- بعد الاعتراف بالحاجة إلى العلم الإلهي، لِمَ لايتمكّن كلّ إنسان بنفسه أن يتصل بالله تعالى فيعرف ما عنده ويحيط بعلمه؟

٤- ما المقصود من كون النبي ترجمان وحي الله تعالى ؟

٥- من أين يلزم نقض الغرض من الرسالة لو كان النبي مجرد بشر بحدوده البشرية، غير مزوّد بروح القدس؟

٦- من أين يلزم نقض الغرض لو لم يكن النبي بشراً ولم يكن كلامه وفق الميثاق العقلائي؟

٧- ما هي ضمانات عدم الخطأ في فهم البشر لكلام النبي؟

٨- لو ارتبط أحد البشر العاديين بالغيب، فتلقّى معلومة، هل يمكن الاعتماد عليها وتكون حجة ولماذا؟

٩- ما هو دورالعقل الجمعي، وتعايش النبي مع الناس في حجية كلامه؟

الدرس الثامن عشر: سبل معرفة الأنبياء

كيف نعرف صدق مدّعي النبوة؟

ليس من الصحيح أن نصدّق كل من يدّعي النبوة ونتبّعه من دون دليل وبرهان يثبت صدق دعواه، سيما وأنّ خطورة الارتباط بالله تعالى تحتّم علينا أن لانتساهل ونتسامح في معرفة شخص النبي، حيث ترتبط بالسعادة والشقاوة الأبدية، وقد قام أناس ادّعوا النبوة كذباً وزوراً، الأمر الذي يقتضي توخي الحذر وعدم الاسترسال مع كلّ دعوة.

ثمّ إنّ أهميّة مقام النبي ودوره المحوري في معاش الإنسان ومعاده، سيما خطورة هذه الدعوى وهي السفارة من الله تعالى، كل ذلك يقتضي أن يكون إثبات نبوة النبي مستنداً على أدلة بيّنة وأشياء واضحة، وأمور لايمكن التشكيك فيها.

و قد هتف القرآن بأعلى صوته أن الأنبياء قد أعطاهم الله تعالى البينات، فلم يقتصر على اعطائهم الآيات إلا بعد أن جعلها بينات، أي ما يكون بيّناً واضحاً كالشمس في رابعة النهار، فلايمكن الاعتماد على حجج مشتبهة أو غير واضحة الدلالة في تصديق مدّعي النبوة، قال تعالى:﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ**﴾.(١)

---

(١) الحديد: ٢٥.=

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ﴾.(١)

وقال في نبي الله صالح: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾.(٢)

وقال في نبي الله موسى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالبَيِّنَاتِ﴾.(٣)

وقال في عيسى: ﴿وَ آتَيْنا عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنات﴾.(٤)

هذا التأكيد والإصرار على كون آية إثبات النبوة، بيّنة واضحة، مما يستدعي اليقظة والانتباه، كي لاينخدع الإنسان بالأعمال الخادعة التي قد يأتي بها بعض المتنبّئين الكاذبين، مما يسبب في انخداع السذج من الناس، ليعتقدوا فيهم ويتبعوهم.

فلنذكر كيفية تشكّل هذه البينات الواضحة والمحكمات التي لاتُبقي مجالاً للشك والارتياب في صدق مدّعي النبوة.

ويمكن الوصول إليها عبر مجموعة من المفردات:

١- النظر في مضمون الدعوة وشخصية مدّعي النبوة وتحكيم المحكمات

أول ما ينبغي الالتفات إليه، هو النظر في مضمون دعوة مدّعي النبوة، فإذا رأينا أن دعوته لا توافق محكمات العقل والضروريات الفطرية والسنن الحسنة العقلية، التي قد تعلّمناها ووجدناها بضرورة عقولنا، فلايبقى ثمة مجال في أن ننظر في أدلته على مدّعاه، وكذلك لابد من النظر في شخصية مدّعي النبوة، فهناك أناس معروفون بالكذب والدجل والخيانة، وهنالك آخرون معروفون بالصدق والوفاء والأمانة، ومما يحكم به

---

(١) الاعراف: ١٠١.

(٢) الاعراف: ٧٣.

(٣) البقرة: ٩٢.

(٤) البقرة: ٨٧.

العقل البديهي، أنّ الرسول فيما بين الله تعالى وخلقه لايمكن أن يكون من القسم الأول، بل مرّ أنّ من صفات النبي أن يكون مؤيداً بروح القدس، وسيأتي أنّ من صفاته أن يكون معصوماً، فالمتهتك الخائن، أو الجاهل الأحمق كيف يمكن أن يكون نبياً؟

و ذاك أننا نبحث عن النبي بعد أن عرفنا الله تعالى، وعلمنا أنه واحد أحد لاشبيه له ولا نظير، ووجدنا أننا محتاجون إلى أن يرسل إلينا رسولاً؛ يثير لنا دفائن عقولنا، ويدعونا إليه بالحكمة، ويزكّينا ويُعلِّمنا محاسن الأخلاق، ويوقفنا على موارد رضا الله تعالى وسخطه، فلو جاء أحد وكان كلامه مناقضاً لتلك الثوابت الأولية، التي منها كانت نقطة انطلاقنا للبحث عن النبي، فنعلم علماً يقيناً أنه ليس هو الذي كنا نبحث عنه.

و ذلك كالعطشان الذي يبحث عن الماء، فوصل إلى شخص يدّعى أنّه يملك الماء، فسأله عن صفة الماء الذي يدّعي أنه بحوزته، فقال: إنّه السائل القابل للاحتراق، والذي يتوقد الناس به في البرد، فهل تجد عاقلاً بعد ذاك يسأله عن دليله على صدق دعواه؟ أو ينتظر ليبيّن أدلته على مدعاه؟

إنه حتى لو كان صادقاً، إلا أنه ليس الذي كنت تبحث عنه.

وحينئذ نقول: إذا رأيت مدّعي النبوة يدعو لغير الله تعالى الاحد الصمد، أو يخالف بديهيات العقل ومحكمات السنن الحسنة الأخلاقية، فلايُمكِن أن يكون صادقاً في دعواه أبداً.

وفي المقابل إذا شاهدنا كلام الرسول أنه إثارة لدفائن العقول، وتذكير وتنبيه وإرشاد للبديهيات العقل ومحاسن الأخلاق الفطرية، وكانت شخصيته معروفة بالأمانة والصدق ومتحلياً بفضائل الآداب ومكارم الأخلاق، فتكون رسالته أقرب للواقع،

فيكون البحث عن صدق دعوته واجباً عقلياً بالضرورة.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قَالَ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ** عليه السلام: **اعْرِفُوا اللهَ بِاللهِ، والرَّسُولَ بِالرِّسَالَةِ، وأُولِي الأَمْرِ بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ والعَدْلِ والإِحْسَانِ**».(١)

فالرسول يُعرَف برسالته، أي بمضمون دعوته، وهذه هي الخطوة الأولى في معرفة كل من يدّعي النبوة.

٢- بشارة الأنبياء السابقين

مما يعتمد عليه في إثبات النبي، بشارة الأنبياء السابقين، وهذا الأمر متوقف على:

أولاً: إثبات نبوة النبي السابق المبشِّر بهذا النبي.

ثانياً: إثبات صدور البشارة عنه بشكل لايقبل الشك.

ثالثاً: تطبيق البشارة على الشخص المدعي بما لايدع مجالاً للشك.

٣- المعجزة

الإعجاز من مادة «عجز»، ويقصد به ما يعجز غير النبي عن الإتيان بمثله، والمراد بغير النبي جميع الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وبطبيعة الحال ما يمكن للبشر أن يصل إليه عبر أدوات متاحة له، سواء كان بالتعلّم أم التمرين، أم تحمّل الرياضات والمشقات، الارتباط بالجن والاستفادة من قدراته، أم أيّ سبب آخر يكون في متناول يد البشر، فلايمكن أن تكون معجزة تثبت نبوة النبي، فتكون المعجزة عبارة عن العلم الإلهي والقدرة الإلهية، المقابل للعلم البشري والقدرة البشرية.

---

(١) الكافي: ١ / ٨٥.

و يكون الكاشف عن هذا العلم والقدرة الإلهيين:

تارة: فعل مادي خارق للعادة كإحياء الموتى وقلب العصا ثعباناً، وشق القمر وغيرها مما صدر من الأنبياء العظام عليهم السلام، ويسمّىٰ بالإعجاز المادي.

وأخرىٰ: كلام النبي والعلم الذي أتى به من عند الله تعالى، ويسمّىٰ بالإعجاز العلمي.

و من المهم أن نلتفت إلى أن ما يثبت نبوة النبي ليس هو الفعل الخارق للعادة، بل ما يثبت نبوة النبي هو امتلاكه للعلم والقدرة الإلهية، ويكون الفعل الخارق للعادة كاشفاً عن ذلك، كما قد يُكشف ذلك العلم والقدرة الإلهية من دون فعل مادي خارق للعادة، وهو أيضاً داخل في مفهوم الإعجاز بمعناه العام.

تمييز العلم الإلهي عن العلم البشري

حيث إن النبوة مقام السفارة بين الله تعالى وبين خلقه، فلابد أن يكون النبي مزوداً بإمكانيات تفوق طاقة البشر العادي، كما مر في ذكر أوصاف النبي، فإنّ الحاجة إلى النبي إنما من أجل الحاجة للهداية والعلم الإلهي الذي ليس بوسع البشر أن يصل إليه لولا هداية السماء.

و من هنا إذا شوهد أنّ ما جاء به النبي لايشبه كلام البشر، بل لايمكن صدوره عن البشر، حيث يفوق القدرات العلمية المتاحة لديهم، فيعلم الإنسان أنّ العلم البشري لايمكن أن يكون مصدراً لهذه الكلمات، وهو بدوره يثبت لنا أنّها من عند الله تعالى.

مثلاً إنّ من اللوازم الذاتية الحتمية للعلم البشري، أنّه يتكامل جيلاً بعد جيل، وأنه لايحصل إلا بالتعلّم والتحصيل والاكتساب، فإذا رأينا أنّ من لم يدرس ولم يتعلّم عند

أحد، قد جاء بعلوم ومعارف لم يسبق إليها أحد من البشر ولم يلحقه، وكلما يتقادم البشر في علمه يكتشف أسراراً ودقائق علمية كانت موجودة في كلام النبي، لكنهم وقفوا عليها متأخراً، نعلم علماً يقيناً أنه لم يحصل على هذا العلم بأدوات بشرية متاحة لدى علماء البشر.

فأنت ترى أنّ العلم الذي جاء به النبي على طرف النقيض مما هو من قبيل الذاتيات للعلم البشري؛ حيث إنّ علم البشر يتكامل بمرور الزمان، ويقف المتأخر على نقاط الخلل والضعف الذي كان موجوداً في ذلك العلم، فيحاول ان يقدّم للعلم شيئاً ليطوّره، فإذا رأينا أنّ العلم الذي جاء به النبي عكس ذلك، كلما يتقادم الزمان يقف العلماء على أن المتقدّم كان أكثر نضجاً وكمالاً، وكل يوم يكشف عن أسراره شيئاً جديداً، فمثل هذا العلم محال أن يكون صادراً عن البشر العادي غير المرتبط بالوحي الإلهي.

قيمة المعجزة في سبل إثبات نبوة النبي

و لمعرفة قيمة الإعجاز والمرتبة التي تحتلها في سبيل إثبات نبوة النبي نلفت أنظاركم إلى أمرين:

الأول: مرتبة الإعجاز العام

إنّ اقامة المعجزة والنظر فيها - حتى الإعجاز بمعناه العام - لابد وأن تكون بعد الفراغ من النظر في مضمون دعوة النبي وعدم مخالفته لمحكمات العقل وضروريات الفطرة والوجدان، أو للمحكمات الشرعية التي ثبتت بالعقل في مرحلة سابقة.

فمثلاً إذا ثبت عندنا بالدليل العقلي اليقيني نبوة سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله، وثبت عندنا أنه خاتم الأنبياء فلا نبي بعده، كل ذلك بأدلّة يقينية وضرورية، فعندئذ كل من ادعى النبوة بعده يجب تكذيبه بمجرد سماع الدعوة، فلايجوز النظر في كلامه، بل حتى لو فعل ما

يكون خارقاً للعادة، لايمكن تصديقه على أنه نبي، إذ ذلك يقتضي تكذيب من ثبتت نبوته باليقين الضروري، وهكذا من يدّعي النبوة وكان كلامه مناقضاً لما ثبت عندنا في باب التوحيد والعدل وما مر في وجوه الحاجة إلى النبي.

الثاني: مرتبة الإعجاز المادي

في كثير من الأحيان لايحتاج الناس في إيمانهم بالرسول إلى مشاهدة المعجزة المادية من النبي، بل يؤمنون بالنبي عبر الطرق الأخرى التي مرت، ومن هنا نرى أن معاجز كثير من الأنبياء لم تصدر منهم في بدء الدعوة كشرط أساسي لكل من يدعونه إلى الإيمان بهم، بل أغلب السابقين إلى الإيمان بالرسل، والذين مدح الله تعالى إيمانهم كانوا قد آمنوا بالأنبياء من قبل أن يروا منهم أي إعجاز مادي، بل إنّ الكثير من المعجزات كانت باقتراح الكفار والمعاندين، وكثير منهم لم يؤمنوا بعد ذلك أيضاً.

نعم الإعجاز بمعناه العام الوسيع لايقتصر على المعجزات المادية، بل كما مر أن كلمات النبي المشتملة على العلم الإلهي هي إعجاز، حيث إن البشر عاجز عن الإتيان بمثله، بل هو على خلاف سير العلوم البشرية تماماً.

فإثبات نبوة النبي لايتوقف على صدور الإعجاز المادي منه، بل لعل مرتبة الإعجاز المادي تكون متأخرة عن سائر ما يثبت نبوة النبي، من البينات والمحكمات التي لاتُبقي مجالاً للشك في أنّ النبي واجد للعلم والقدرة الإلهية التي يعجز البشر عنهما.

فوارق المعجزة عن نظائرها

بالتأمل فيما مر يظهر جلياً الفرق بين المعجزة، وبين ما قد يصدر عن بعض المرتاضين، أو السحرة والمشعوذين، أو الكهنة وغيرهم من أصحاب العلوم الغريبة، أو بالاستعانة ببعض الأجنة والأبالسة، من أفعال غريبة ماورائية أو إخبارات غيبية،

ويمكن تلخيص الفوارق في نقاط:

الأولى: المعجزة تكون بعد النظر في دعوة المدعي وبعد إثبات امكانية صدقه في دعواه، ومن هنا فجميع الضروريات العقلية والفطرية وما ثبت بالأدلة اليقينية الضرورية، تكون حاكمة على المعجزة ومتقدّمة عليها، وبذلك تخرج أغلب تلك الأفعال التي تصدر من المرتاضين والسحرة والكهنة عن قابلية النظر فيها وتصديقها، حيث إنّ دعواهم وكلامهم، بل وشخصياتهم، على طرف النقيض مما كنا نبحث عنه في شخص النبي.

الثانية: إنّ أفعال هؤلاء لاتخرج عن كونها أفعالاً بشرية، يمكن لأي شخص أن يتعلّمها ويفعلها، ولو بعد تحمّل الرياضات والمشقات الشديدة، بينما المعجزة ما يكون فوق طاقة البشر، فليس لهم طريق لفعلها مطلقاً، إنه مالكية للعلم والقدرة الإلهية فوق البشرية، ولاتكون إلا بالاصطفاء الإلهي.

الثالثة: إنّ ما يأتي به هؤلاء من أفعال غريبة، إنما حصلوا عليها بعد التكسب والتعلم والتمرين وغير ذلك، مما سبيله متاح لأي واحد من البشر، بينما المعجزة لم يحصل عليها النبي من خلال التعلم والتكسّب والتحصيل، بل أعطاه الله تعالى من طرق فوق الطاقة البشرية.

ومن هنا ترى أنّ اصحاب العلوم الغريبة والأفعال العجيبة وغيرهم من المشعوذين والمرتاضين، إنما يقدرون على فعل شيء تعلّموه وليس على فعل آخر، بينما الأنبياء كانوا يأتون بمعاجز مختلفة دون سابقة ومن دون تعلّم من أحد، بل في كثير من الأحيان كانت الأمم هي التي تقترح على النبي بشيء يراه مستحيلاً من البشر، فكان يفعله النبي إتماماً للحجة عليهم.

فحينما اقترح قوم صالح عليه أن يخرج لهم من الجبل ناقة بمواصفات معيّنة، فأجابهم إلى ذلك بقدرة الله تعالى، فإن هذا ليس مما قد جرّبه صالح فيما قبل أو تعلمه من أحد، وهكذا في شق القمر، وتسبيح الحصى في كف النبي صلى الله عليه وآله، وغير ذلك.

الأسئلة:

١- ما هو المراد من الآيات البينات التي أعطاها الله تعالى للأنبياء عليهم السلام؟

٢- ما هي الخطوة الأولى في معرفة صدق مدّعي النبوة؟

٣- ما هو دور محكمات العقل وضروريات الفطرة في معرفة صدق النبي؟

٤- قام السامري في بني إسرائيل ونصب لهم عجلاً من ذهب، يطلع منه صوت العجل ونبت عليه الشعر والوبر، وقال هذا إلهكم وإله موسى، كيف كان يمكن أن يرد عليه؟

٥- ما هي حقيقة الإعجاز وكيف يثبت نبوة النبي؟

٦- ما هي مميزات العلم الإلهي عن العلم البشري؟

٧- هل إثبات نبوّة النبي متوقف على الإعجاز المادي؟

٨- ما هي فوارق المعجزة عن نظائرها؟

الدرس التاسع عشر: النبوة الخاصة

نبوة سيد الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله

يظهر جلياً صدق دعوى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله في دعوته ونبوّته، بالنظر لمجموعة من الأمور، فانّ الناظر فيها بمجموعها، لايبقى لديه أي شك ولاريب في ذلك.

وكما مر فإنّ أول ما يجب أن ننظر فيه، إنما هو النظر في شخصيته وفي مضمون دعوته.

شخصية النبي صلى الله عليه وآله

أما شخصيته، فيظهر من إخبار الثقات والتواريخ المعتبرة، وكلام المنصفين وكذلك النظر في كلامه والقرآن، وتعليماته التي بقيت من بعده.

فكل من ينظر فيها بعين الإنصاف، يجد بوضوح أنّ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، كان رجلاً موحداً وطالباً للحق، عاقلاً حكيماً، صادقاً أميناً، براً ذكياً، وكان من أهل الخير والإحسان، ولم يكن للعيب فيه مجالٌ، وهذا مما اتفق عليه الكل، من الموافق والمخالف، بل إنّ أعداءَه رغم شدّة عداوتهم ومحاولاتهم الجادة للإطاحة به وبدينه، حتى دخلوا معه في حروب ضارية، وإلى يومنا هذا جنّدوا جنودهم للنيل منه، لو كانوا قد استطاعوا أن يأخذوا أية مؤاخذة على خُلقه وكماله وعلمه وفهمه وحسن سيرته، لشهّروا بذلك في العباد والبلاد، لكن خابت آمالهم.

وكان يُعرَف بمحمد الأمين قبل بعثته، وكانوا يرجعون إليه في حل النزاعات والخلافات.

وهنالك قصص متعددة مذكورة في كتب التواريخ، ولم ينكرها أحد.

فمنها رجوعهم إليه في وضع الحجر الأسود في موضعه من الكعبة الشريفة، ذكرت التواريخ أنّه لما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختصموا، وكل قبيلة تريد أن تنال شرف رفعه ووضعه في موضعه، وكاد أن يؤدي الأمر بهم إلى السيف، حتى جاء بنو عبد الدار، وبنو عدي بإناء فيه دم؛ فوضعوا أيديهم فيه، ومعهم بنو سهم، وبنو مخزوم[١]، وتحالفوا على الموت،، فسموا: «لعقة الدم»،[٢] فاتفقوا أن يحكّموا أول داخل عليهم من باب السلام، وهو باب بني شيبة، أو من باب الصفا على الاختلاف، فكان الرسول صلى الله عليه وآله أول داخل، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد.

ويقول البعض: إنهم كانوا يتحاكمون إلى النبي صلى الله عليه وآله في الجاهلية؛ لأنه كان لا يداري، ولا يماري[٣].

فلما أخبروه بالأمر طلب ثوباً، أو بسط إزاره- على الاختلاف- ثم أخذ الحجر؛ فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا، فلما حاذوا موضعه أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله بيده الشريفة، فوضعه مكانه.[٤]

وكلنا نعلم أن الكعبة والحجر الأسود من الشؤون الدينية والإلهية، وهذا يعني أنّ أهل مكة – مع كل التعصّبات القبلية والعرقية والقوميّة التي نعرفها منهم، والتي كادت

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ج ١٤ ص ١٢٩.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص ٢٠٩، والبداية والنهاية: ج ٢ ص ٣٠٣.
(٣) السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٤٥.
(٤) الصحيح من سيرة النبي الأعظم: ج٢ ص٢٦١.

أن تجعل التنازل عما يراه فخراً وشرفاً له أشبه بالمحال - قد رضوا برسول الله ﷺ حكماً في أمر دينهم ودنياهم.

مضمون دعوته

وأما مضمون دعوته، فيكفيك أن تلقي نظرة عابرة إلى القرآن وكلماته وكلمات أوصيائه، وما اشتمل عليه من دلائل التوحيد، وتنزيهه تعالى عما كان ينسب إليه من قبل المشركين، أو اتباع الديانات السابقة، وهكذا مسألة العدل وأنه تعالى لايظلم الناس فتيلاً، والأمر بالإحسان والمعروف والعدل والبر، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، وتنزيه أنبياء الله تعالى عن افتراءات اليهود والنصارى.

فإنّ العاقل المنصف يجد أنّ هذه الكلمات موافقة لما وجده بعقله وفطرته، والتي من أجلها كان محتاجاً للنبي، ولايجد أية مخالفة بينها وبين محكمات العقل والفطرة.

وهنا باب واسع، لامناص للباحث عن معرفة النبي من أن ينظر فيه بتأمل، فإنّ كثيراً ممن آمنوا بالنبي واتبعوا دعوته، إنّما أبهرتهم مضامين دعوته التي وصلت إليهم، فوجدوها كنبع من الماء الصافي، يروّيهم ويلبّي نداء الفطرة والعقل لديهم، وسنشير لبعض تلك الجهات في وجه تحدي القرآن وإعجازه.

تأثير دينه في أتباعه

ومن جهة أخرى حينما ينظر العاقل في من اتّبعه وآمن به من رجالات التاريخ، والتغيير الذي حصل لدى أتباعه بعد ما آمنوا به واتبعوه، يرى أنّ ما كان يبحث عنه في وجوه الحاجة إلى النبي كلها موجودة في هذا النبي وفي تعاليمه.

إن العالم الإنساني قبل بعثة هذا النبي كان يعيش أوضاعاً ثقافية واجتماعية واخلاقية

مأساوية، حتى أطلق على ذلك العصر العصر: الجاهلي، وأما بعد ظهور فجر الإسلام وبعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فقد انتقلوا من تلك الأوضاع المأساوية، إلى حضارة عظيمة غطّت أجزاء واسعة من العالم آنذاك.

أناسٌ بلغوا في التوحّش إلى حد كانوا يرون بناتهم عاراً عليهم، فكانوا يدفنون المولودة تحت التراب، وصلوا ببركات تعاليم هذا النبي إلى نماذج يضرب بهم الأمثال في الإيثار والفضائل، حتى إن أحدهم يفضّل أن يستشهد عطشاناً لكي يكون الماء من سهم أخيه المسلم، وهذا الثاني أيضاً بدوره يؤثر أخاه الآخر، فيموتون ثلاثتهم عطاشى، في قضية معروفة في التاريخ.(١)

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.(٢)

وكانوا غارقين في عبادة الأصنام، واتباع الشياطين، واقتراف الفحشاء والمنكر والبغي، على شر دين وفي شر دار، فأنقذها الله تعالى بنبيه من شفا حفرة من النار.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ اللهَ [تَعَالَى] بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ العَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَّاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ الجَشِبَ وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ. الأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَالآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ».(٣)

وقال أيضاً: «إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله رَسُولَ اللهِ لِإِنْجَازِ عِدَتِهِ وإِتْمَامِ

---

(١) المستطرف: ج١ ص١٥٦.

(٢) النحل: ٥٨ و٥٩.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ٢٦.

نُبُوَّتِهِ، مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ كَرِيماً مِيلَادُهُ، وأَهْلُ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ وأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ وطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ لله بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الجَهَالَةِ».(١)

صانع الحضارة الجديدة في البشرية

و الناظر في تاريخ الحضارات البشرية، يجد أن مبعث هذا النبي قد أحدث حضارة جديدة في تاريخ البشر، وتأثّر منها العالم بأكمله، فصاروا عيالاً على هذه الحضارة الجديدة الإلهية، وقد اعترف بذلك أكابر علماء الغرب من غير المسلمين.

قال جوستاف لوبون (١٨٤١ - ١٩٣١) الدكتور والفيلسوف الفرنسي:

إن المسيحيين على ضوء علاقتهم بالمسلمين استطاعوا أن ينجوا بأنفسهم من ذاك الوحشيّة التي كانوا موردين عليها، وبالذات الأخلاق الكريمة من الشفقة، والحب للزوجة والأولاد، والالتزام بالعهد، والقسم، وأمثال ذلك من الأخلاق التي تعلموها من المسلمين، واقتبسوها من الأعراب.

ثم ينتقد بعض المستشرقين من علماء الغرب كيف لايعترفون بهذه الحقيقة، ويعزي ذلك للحروب الصليبية والحقد الكامن في قلوبهم من المسلمين جراء ذلك، قال:

من الخزي والعار للاروبي المسيحي، أن يرى تحضرهم وخروجهم من التوحش، رهن تحضّر قوم كافرين كالمسلمين، لكن عليهم أن يقبلوا بهذا العار وإن كان صعباً عليهم.

وقال:

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ١.

ينظر الشرقيون إلى الأوروبيين الذين يُكرهون نساءهم على العمل، كما ننظر إلى حصان أصيل يستخدمه صاحبه في جرّ عربة! فعمل المرأة عند الشرقيين هو تربية الأسرة، وأنا أشاطرهم رأيهم مشاطرة تامة، فالإسْلام، لا النصرانية، هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، خلافاً للاعتقاد الشائع.(١)

فعند التأمل نجد أن جميع ما كنا نبحث عنه في شخص النبي والذي مر في مباحث النبوة العامة، موجود ومجتمع في شخص محمد بن عبد الله ﷺ.كل هذا يقرّب للباحث المنصف صدق دعوته، ويشدّد على العاقل البحث عن بينات دعوته، ولايعذره العقل لو ترك النظر في براهينه.(٢)

نماذج ممن آمن به وصدّقه

يكفيك أن تنظر إلى من تربى على يد هذا الرسول، لترى فيهم لمحاتٍ مشرقة من الأخلاق الإلهية العظيمة، ومعالم شاهرة من محاسن النبوة وجمال الفكر والعقل الرشيد، وهذه الأمور كلها تشدّد لزوم الاعتناء بدعوة هذا النبي والنظر في بيّناته، ويسهّل الطريق أمام التصديق برسالته.

وحينئذ يحكم العقل البديهي بضرورة البحث عن أدلة إثبات نبوة هذا الرجل ولزوم النظر في دعوته، حيث إنّ مثل هذه الشخصية بهذه الدعاوى والكلمات، ومع هذا التأثير الإيجابي في اتباعه، ومع أنّه صنع حضارة عريقة في المجتمع البشري، هو بعينه ما كنّا نتوقّع من النبي، فحينما ادّعى النبوة وانقاد له عظماء التاريخ ومفاخر البشرية، فلايُعذر من لم ينظر في أدلة نبوته.

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب: ٧١٨ - ٧٢١.

(٢) ذكر العلامة الأميني في الغدير: ج٣ ص١٦، ثلاثين كتاباً من مؤلفات علماء ومفكري اليهود والنصارى، قاموا بالثناء المتواصل على النبي الأعظم أو وصيه فيها.

شهادة من عنده علم الكتاب

بل إنّ من اتباع النبي من يكون بنفسه معجزاً وبرهاناً نيراً لنبوته، وشاهداً على رسالته، قال الله تعالى: ﴿وَ يَقُولُ الَّذينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللهِ شَهيداً بَيْني وبَيْنَكُمْ ومَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتاب﴾.(١)

وقد دلّت الروايات الكثيرة على أن المراد ممن عنده علم الكتاب، هو ابن عم النبي علي بن ابي طالب وأولاده الأئمة المعصومون عليهم السلام.

روى الكليني بسند صحيح عن بريد بن معاوية قال: «قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ شَهيداً بَيْني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ﴾ قَالَ إِيَّانَا عَنَى، وعَلِيٌّ أَوَّلُنَا وأَفْضَلُنَا وخَيْرُنَا بَعْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله».(٢)

فإن العاقل المنصف حينما يواجه هذه الدعوى، لامناص له إلا أن يطالع سيرة الإمام أمير المؤمنين، وتراثه وآثاره، وعلمه وحكمته وبلاغته، وعدله وتقواه، وتوحيده ووفور عقله وسياسته، وكذلك عليه النظر في علوم أهل بيته الأئمة وما وصل منهم، في حين أنهم عليهم السلام قالوا: بأنّ ما عندهم إنما يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله، فحينما رأى العاقل آثار العلم والاصطفاء الإلهي في هؤلاء الذين ادّعوا أنّهم أوصياء النبي، تثبت نبوّة النبي في رتبة متقدمة، ويكون هؤلاء شهود صدق على صدق هذا النبي.

فجميع هذه بينات على صدق هذا النبي في رسالته، حيث يعرف الشيء من خلال آثاره.

---

(١) الرعد: ٤٣.

(٢) الكافي: ج١ ص ٢٢٩.

بشارة الأنبياء الماضين بنبوّته

حينما قام هذا النبي بدعوته، وجّه العتاب لأهل الكتاب من اليهود والنصارى بكلّ شدّة وصرامة، الأمر الذي ولّع في صدورهم نائرة العداوة والحقد، على هذا النبي الجديد وعلى دعوته.

فكان من جملة قرآنه الذي يتلوه المسلمون آناء الليل والنهار:

﴿يَاأَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ۞ يَاأَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.[1]

﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾.[2]

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ۞ قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾.[3]

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله﴾.[4]

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ۞

---

(١) آل عمران: ٧٠ و٧١.

(٢) المائدة: ٦٤.

(٣) آل عمران: ٩٨ – ١٠٠.

(٤) التوبة: ٣٤.

وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۞ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.(١)

و مع كل هذا هتف بالصوت الجلي وتحدّاهم بقوله:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾(٢)

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٣)

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ﴾(٤)

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.(٥)

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ ۞ .... أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٦)

من الواضح أنّ العاقل في مثل هكذا معركة، ومع هؤلاء الأعداء الذين يترصدون

(١) التوبة: ٢٩ – ٣١.
(٢) الاعراف: ١٥٧.
(٣) البقرة: ١٤٦.
(٤) انعام: ١١٤.
(٥) الصف: ٦.
(٦) الشعراء: ١٩٢ – ١٩٧

أن ينالوه أو دينه بأي طريق يمكنهم، لايعطيهم الحجة القاطعة للقضاء عليه، فإنّه لو كان كاذباً لكان القضاء على مشروع النبي وشرعه أسهل من كل شيء، وذلك أنه لم يكن ليكلّفهم إلا أن يُظهروا للناس كذبه، بأن يعرضوا كُتبهم للناس ويجعلوها في متناول أيديهم، ثم كان إدبار الناس عن هذا النبي، أسرع من إزالة الغيوم عن أفق السماء.

ومما لم يختلف فيه اثنان، أنّ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، كان عاقلاً فهيماً ذكياً رشيداً، بل وصفه أعداؤه بشدة نبوغه وذكائه ووفور علمه، فهل رأيت عاقلاً يمكّن عدوّه من نفسه ويعطيه سيفاً صارماً ليقضي عليه؟

فوفور عقل سيد الأنبياء وفطنته من جهة، وشدة لهجته أمام اليهود والنصارى من جهة أخرى، وتحدّيهم بأنّهم يعرفون هذا النبي معرفتهم لأبنائهم من جهة ثالثة، لايُبقي شكّا في أنّه كان صادقاً في دعواه: أنّ الأنبياء السابقين بشّروا به من دون ريب، فتكون بيّنة من بينات نبوّته صلى الله عليه وآله.

ومما يزيد في الأمر وضوحاً، أنّه لو كان كاذباً في دعواه، لم يكن ليبقى شرعه ودينه، ولم يكن الناس يدخلون في دينه أفواجاً، ولم يكن له امتداد، لكننا نرى أن علماء اليهود والنصارى انكفؤوا عن مجابهته، وأبوا أن يعرضوا كتبهم للملأ مِن الناس ليعرف الناس كذب الدعوى، لا في زمانه ولا من بعده، بل ازداد دينه علواً وارتفاعاً، ودخل فيه كثير من النصارى واليهود فضلاً عن غيرهم.

فهل يبقى للعاقل بعد كل هذا شك في صدق دعوى سيد الرسل صلى الله عليه وآله؟

ويضاف إلى ذلك كثير من البشارات التي لازالت موجودة في العهد العتيق والجديد، يمكن الاطلاع عليها من خلال الكتب المفصّلة.[١]

---

(١) راجع: الهدى إلى دين المصطفى، والرحلة المدرسية للعلامة البلاغي.

الأسئلة:

١- اذكر نماذج مما ذكره المورخون من شخصيّة سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله قبل البعثة.

٢- لماذا يجب على العاقل النظر في مضمون دعوة النبي، ولماذا يجب النظر في كلام أوصيائه من عترته؟

٣- كيف تتم شهادة أميرالمؤمنين والأئمة المعصومين عليهم السلام على صدق رسالة النبي صلى الله عليه وآله؟

٤- كيف يمكن إثبات بشارة الأنبياء الماضين من خلال القرآن؟

الدرس العشرون: تحدي القرآن وإعجازه

قد دعا القرآن الكريم الجن والإنس إلى البراز، فتحدّاهم جميعاً أن يأتوا بكتاب أو سورة من مثله، وأعطاهم حق التعاون ومعاضدة بعضهم لبعض، فللبشر أن يستعينوا بكامل قدراتهم العلمية في هذا المجال، ويضيفون إلى ذلك قدرات الجن، على مر الدهور وإلى يوم القيامة، وقد جعل ذلك - إن استطاعوا - برهاناً لنقض نبوة سيد الرسل صلى الله عليه وآله. قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.(١)

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢)

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣)

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٤)

---

(١) البقرة: ٢٣.

(٢) يونس: ٣٨.

(٣) هود: ١٣.

(٤) الإسراء: ٨٨.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[1]

فكانت الطريقة السهلة اليسيرة لأعداء النبي صلى الله عليه وآله ومناوئيه أن يتصدوا لذلك لإبطال نبوته، لكنّهم لم يأتوا بذلك ولم يستطيعوا عبر القرون المتمادية، على الرغم من أنّهم صرفوا كل الغالي والنفيس لمجابهة الرسول من أموال بذلوها وحروب أوقدوا نائرتها، واستعانوا بالجن والإنس في سبيل الحدّ من دعوة النبي صلى الله عليه وآله، فلم يزد إلا علواً وازدهاراً، وهذا برهان واضح على عدم تمكّنهم من إبطال تحدي القرآن، حيث إنّه لو وضعوا كتاباً مثله واستطاعوا أن يقنعوا جمهور الناس والوسط النخبوي من ذلك، لما احتاجوا لصرف كل هذه الجهود لإطفاء نور الإسلام.

هذا برهان إجمالي على إعجاز القرآن يفهمه كلّ عاقل بأدنى تأمل.

وجه تحدي القرآن وإعجازه

لفهم وجه تحدي القرآن وإعجازه بصورة تفصيلية ينبغي الالتفات إلى شيئين:

الأول: أوصاف القرآن

إنّ القرآن المجيد وصف نفسه بأوصاف كمالية من أنّه: هدى، ونور، وبصيرة، وفرقان، وشفاء لما في الصدور، وذكر وموعظة، وبينات، ويزيد المؤمنين نوراً، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً، وأنه ليس فيه اختلاف، وأنّ له ظهراً وبطناً وتنزيلاً وتأويلاً، وأنّه يبين كثيراً مما كان يخفيه أهل الكتاب، وأنّه تقشعر منه جلود الذين يخشون رَبَّهُم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله.

فبعد أن عرّف نفسه بهذه التعريفات ووصف نفسه بهذه الصفات، طلب ممن يشكّ

(١) طور: ٣٤.

في كونه من عند الله تعالى أن يأتي بسورة أو كتاب مثله، ومن الواضح أنّ المثليّة هنا منصرفة إلى المماثلة في الصفات التي وصف نفسه بها.

قال تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.(١)

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.(٢)

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.(٣)

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.(٤)

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى وَالفُرْقَانِ﴾.(٥)

﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.(٦)

ثم بعد هذا كلّه طلب مِمَّن يشك في انتساب هذا الكتاب إلى الله تعالى، أن يأتي بكتاب يكون مثله مشتملاً على هذه الكمالات، فلامحالة يكون تحدّيه منصرفاً إلى هذه

---

(١) المائدة: ١٥ و١٦.

(٢) يونس: ٥٧.

(٣) اسراء: ٨٢.

(٤) الجاثية: ٢٠.

(٥) البقرة: ١٨٥.

(٦) الزمر: ٢٣.

الجهات الكمالية التي وصف نفسه بها.

الثاني: إتباع آلية فهم القرآن بالرجوع للثقلين

ثم إنه صرّح في غير واحد من آياته، أنّ فهم هذا الكتاب وبيّناته وبصائره متوقف على الرجوع لمن عنده علم الكتاب، قال تعالى: **﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾**.(١)

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.(٢)

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۞ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۞ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ۞ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.(٣)

والمتحدّي بهذا الكتاب وهو النبي الأعظم ﷺ نادى بالصوت الجلي، أنّ التمسك بهذا الكتاب والاستفادة منه لايتيسّر إلّا بالرجوع لثقله الآخر الذين هم أهل بيته عليهم السلام، فقال فيما روي عنه متواتراً:

«إني تارك فيكم الثقلين، ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما».

النتيجة: بعد كلّ هذا، فمن أراد أن يُبارِز ويُبْطِل تحدّي القرآن، فلا مناص له من أن يقف على صفات القرآن وكمالاته التي ادعاها لنفسه بالرجوع إلى علوم أهل بيته عليهم السلام، ثمّ يحاول أن يأتي بكتاب مثل هذا.

وأما من لم يتدبّر في القرآن ولم يقف على حقيقة دعاويه بعد، فكيف يمكنه أن يدخل

(١) عنكبوت: ٤٩.

(٢) آل عمران: ٧.

(٣) الواقعة: ٧٧ - ٨٢.

في مثل هذا البراز والتحدي؟

والرجوع لأهل البيت عليهم السلام في هذا المقام ليس إلا كالرجوع للقرآن، لايتوقّف على إثبات حجيتهم وعصمتهم ووصايتهم، فكما ينظر في القرآن ليقف على صدق تحدّي القرآن فيؤمن به، لابد أن يشفع ذلك بالنظر في كلام من جعل مفسّراً للكتاب، ومن دون ذلك ليس له أن يدّعي أنّه أبطل تحدي القرآن الكريم.

إشارة لبعض كمالات القرآن

إنّ تحدّي القرآن بعلمه ونوره وهدايته أبهر العقول، حيث وجدوا فيه الشفاء والنور والهداية والبصيرة، ما لم يجدوه في أية مدرسة أخرى، سواء أهل الملل الثلاث، أم حكماء البشر الذين راموا أن يدركوا حقائق عالم الكون بعقولهم، فهو كلام حديث وجديد على البشر، يجد العاقل أنّه موافق لفطرته ويصدّقه عقله بعد تذكيره.

فمن نماذج ذلك ما مرّ في باب التوحيد والعدل من تذكيرات القرآن والعترة، فلو قورن ذلك بما في المدارس الأخرى البشرية، ليجد العاقل البون الشاسع، ويتيقّن بأنه ليس من كلام البشر.

ومن كمالات هذا الكتاب: أنّه جامع لعلوم العوالم، فكأنّه نسخة تدوينية والخارجيات نسخة تكوينية، بل هما نسختان لشيء واحد.

«فهو بظاهره وتنزيله متعرّض للنشأتين بجميع خصوصياتها، وكيفية إبداع الدنيا وما فيها، وما عليها، والمدبّرين لها والخلفاء فيها، وأوّل ما خلق فيها، وأوّل من عصى، وحالاته وحالات ذريته، والموكّلين عليهم من الملائكة والشياطين وبدو خلقهم، وبيان حالات الأنبياء والأمم، وأعمالهم أخلاقهم، وما آل إليه عاقبة أمرهم، وسلاطينهم وفراعنتهم ومردتهم، ومتعرض لكيفية العقبى بجميع عوالمها، من البرزخ والملكوت

وملاقاة الملائكة وأقوالهم معهم، وسؤالاتهم عنهم، وحالات قبورهم وما يؤول إليه عواقب أمورهم، من مجازاتهم باعمألهم وشهودها إياها، وجامعية القيامة وكيفية الجمع وما يرون ويشاهدون.

و بباطنه وتأويله وتخومه وبطون بطونه، يتعرّض لجميع العوالم على غاية التفصيل، بحيث يتحيّر فيه العقول، ولاسيما العلوم الراجعة إلى العوالم الربوبية، والشؤونات الإلهية، وعوالم الحُجُب والمثل والأشباح والأرواح والمقدّسين والمسبّحين والكرّوبيين، وهو كتاب علمي فيه مفصّلات العلوم بجوامع العلم عن جوامع الكلم، وفيه أطوار الظهورات العلمية والتجليات الربوبيّة.

و من كمالاته: أنّ كل أحد من الناس في جميع حالاته يرى أنّ المتكلم بهذا القرآن كأنما يشهد جميع أحواله، من السرّ والعلن والظاهر والباطن، ويتكلّم بما في ضميره، ويجد من نفسه أنّه لايتمكّن من دفعه، مؤمناً كان أم كافراً، فالكافر حينما ينظر إلى القرآن، يجد بديهة أنّ المتكلّم بالقرآن يخبره عمّا في نفسه وسرَّه وما لايلتفت هو بنفسه إليه، وهكذا كلّ أحد من أفراد الناس لو نظر إلى القرآن، يرى المتكلّم شاهداً حاضراً ناظراً إلى سرَّه وعلنه، ومخبراً عن أحواله بما ليس له إنكاره، فلو قرأ القرآن في تَقَلُّب حالاته ومختلف أوقاته، يرى المتكلّم أنه مشاهد لجميع هذه الحالات، ومشاهد على جميع هذه الانقلابات، ويراه أنّه يؤدي الكلام على ما ينطبق عليه في جميع هذه التبدّلات، فهو ينصحه مرّة ويعاتب عليه أخرى، ويعظه مرّة ويخوّفه اخرى، ويقرّبه مرّة ويبعّده اخرى، ويهديه ويبشّره مرة، وينذره وبوعيده اخرى».[1]

كلّ هذا يجعل العاقل المنصف على بيّنة، فيقطع بأنّه ليس من كلام البشر، ولايشبهه

(١) مقتبس من: القرآن والفرقان: ١١٥ - ١١٧.

ولا يدانيه، بل هو كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل العزيز الحميد، وقد تجلّى لخلقه في كلامه من غير أن يروه.

في الكافي: خطب أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ عِبَادِهِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ عُهُودِ عِبَادِهِ إِلَى عُهُودِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ عِبَادِهِ إِلَى طَاعَتِهِ، وَمِنْ وَلَايَةِ عِبَادِهِ إِلَى وَلَايَتِهِ، بَشِيراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً، عَوْداً وَبَدْءاً، وَعُذْراً وَنُذْراً، بِحُكْمٍ قَدْ فَصَّلَهُ وَتَفْصِيلٍ قَدْ أَحْكَمَهُ، وَفُرْقَانٍ قَدْ فَرَقَهُ، وَقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ. فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ، فَأَرَاهُمْ حِلْمَهُ كَيْفَ حَلُمَ، وَأَرَاهُمْ عَفْوَهُ كَيْفَ عَفَا، وَأَرَاهُمْ قُدْرَتَهُ كَيْفَ قَدَرَ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَكَيْفَ خَلَقَ مَا خَلَقَ مِنَ الْآيَاتِ، وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ مِنَ الْعُصَاةِ بِالْمَثُلَاتِ، وَاحْتَصَدَ مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ، وَكَيْفَ رَزَقَ وَهَدَى وَأَعْطَى، وَأَرَاهُمْ حُكْمَهُ كَيْفَ حَكَمَ، وَصَبَرَ حَتَّى يَسْمَعَ مَا يَسْمَعُ وَيَرَى فَبَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله بِذَلِكَ. (١)

سير علوم القرآن باتجاه معاكس لعلوم البشر

الأول: التطور

من ذاتيات العلم البشري أنّه دائماً في حال التطوّر والازدياد، وهذا يسبّب أنّ علم المتأخر يكون أكثر نضجاً من المتقدّم، ويظهر للجيل اللاحق مواقع الخلل في ما توصلت إليه الأجيال السابقة، فالعلوم البشرية تسير من النقص إلى الكمال دائماً.

فحيث إنّ علم البشر في حال التطور والازدياد والتكامل، بطبيعة الحال يقف

(١) الكافي: ج٨ ص ٣٨٦.

الإنسان على موارد الخلل والقصور الذي كان موجوداً في معلوماته السابقة، فيصحّحها ويكمّلها، وهذا السير غير قابل للتوقف، فإنّ الإنس والجن إذا اجتمعوا في زمان، وتعاملوا وتعاقدوا في إتيان مجموعة كاملة في علم معين، فلامحالة بعد مضي قرون وازدياد مكشوفات الإنسان ووعيه، سوف يظهر الخلل في تلك المجموعة ويحتاج لإعادة النظر فيها لتتكامل.

لكنّ علوم القرآن والعترة ومعارفهما، أخذ يسير على عكس سير علوم البشر ومعارفه، فالقرآن المجيد وعلومه ومعارفه، مع أنّه غطّى مساحات كبيرة من العلوم الإلهية، والمعارف المبدأية والمعادية، ومنظومة الأخلاق والقوانين ومعرفة العوالم وخلق السماوات والأرض وما بثّ فيهما من كائنات وغير ذلك، إلا أنّه كلّما يتقدم علم البشر، سوف يقف على قصور فهمه عن الكتاب سابقاً، فيظهر له من أسراره ومعارفه ما لم يكن يقف عليه الجيل المتقدّم، فيتمكّن من فهم ذلك الكتاب أكثر مما فهمه سابقاً.

فتقدّم علوم البشر إنما يوجب كشف القناع عما كان موجوداً في الكتاب، ولم يكن الإنسان ليلتفت إليها.

يجد الإنسان أنّ هذا الكتاب، كأنما نسخة في مقابل عالم التكوين، فكما أنّ تقدّم علم البشر يكشف له أسراراً عن هذا الخلق البديع، لم يكن يعرفها سابقاً، كذلك كل يوم يرفع سراً من أسرار القرآن المجيد، فيعرف البشر صدق ما جاء في هذا الكتاب من قبل عشرات القرون، فكما أنّه لايمكن أن يكون عالم التكوين من صنع البشر - بل إنّه لم يقف على أسراره بعد - كذلك لايمكن أن يكون هذا الكتاب من كلام البشر، فإنّه لم يقف على أسراره بعد.

فظهر أنّ كتاباً كهذا يستحيل أن يكون من صنع البشر، إذ هو بخلاف العلوم

البشرية ذاتاً.

الثاني: الاختلاف

كما أنّ من ذاتيات العلم البشري، وجود الاختلاف، فبما أنّ علم البشر محدود وفي حال التطور، فينشأ من ذلك الاختلاف بأنماط وأطوار مختلفة، من اختلاف أهل التخصص، واختلاف الأجيال المتعاقبة من العلم مع بعضهم البعض، واختلاف كلام العالم الواحد في مراحل مختلفة من عمره وأطواره المختلفة، لكنما القرآن إذا تدبّرت فيه بعد الرجوع لبيان من عنده علم الكتاب، فلن تجد فيه اختلافاً.

فمن كمالات القرآن: أنّه ليس فيه اختلاف، بل كلّه على درجة واحدة من الإتقان والإحكام، فلو راجع مراجع للقرآن بظهره وبطنه، يرى أنّ العلوم الظاهرة من ظهره من أول نزوله إلى آخره، ومن بطنه بلسان المتحدّي من بدو بعثته ﷺ إلى غيبة القائم عليه السلام، بجميع أطوار ظهوراته، تكون في مرتبة واحدة من الإتقان والإحكام، مع تشتّت شؤونه وتطوّر فنونه في الأزمنة المتمادية.

عدم تعلّم النبي عند أحد

و يضاف إلى ذلك كلّه أنّ محمد بن عبد الله ﷺ الذي جاء بهذا الكتاب لم يدرس عند أحد، ولم يأخذ العلم من بشر أبداً.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾.(١)

و هذا مما يزيد الأمر وضوحاً، فان الإتيان بمثل هذا الكتاب لن يتيسّر للبشر، حتى

---

(١) عنكبوت: ٤٨.

لو درس وتعلّم عند أكابر المعلمين، فكيف بمن لم يحضر عند أستاذ قط، ولم يتعلّم من بشر أبداً.

و هذه البينة الواضحة جعلت الحق كالصبح لذي عينين، ومن أجل ذلك لما لم يجدوا مناصاً من الاعتراف بكونه من عند الله تعالى، عمد بعضهم فقال: إنّه التقى في سفره إلى الشام بالراهب النصراني، فهذه العلوم مأخوذة من عنده!

«فمن نظر إلى هذا العلم المتجلّي بأطوار الظهورات البارز من مشرق البطحاء، مبتدأ من عصر النبي صلى الله عليه وآله ومنتهياً إلى الغيبة الكبرى، عن مثل النبي الأمي وعترته الأميين صلوات الله عليهم أجمعين، على هذا النظام الوثيق الأنيق، مع كون الجهل غالباً على جزيرة العرب بل على جميع من كان على الأرض، يقطع ويشاهد بالبداهة بأنّه ليس علماً بشرياً اكتسابياً تعلّمها، لبداهة عدم تعلّمه وعدم تعلّم خلفائه عند أحد، فهو بالضرورة علم الهي».[١]

«ومن نظر إلى القرآن بقلب سليم يقطع بأنه ليس مذكوراً من السابقين ولا مصنوعاً في عصر واحد، كيف وهو يتعرّض للأمور الحاضرة الراجعة إلى نفسه المقدّسة من رسالته ودعوته وتحمله أعباء النبوة وأفعاله وأقواله، وأفعال الحاضرين وأقوالهم، وكشف ظواهرهم وبواطنهم في تمام مدّة بعثته صلى الله عليه وآله، إذ من المعلوم أنّه من بدو بعثته إلى زمان ارتحاله لم يكن معه أحد يعينه على ذلك، إذ الراهب لم يلقه إلا في السفر هنيئة أو ساعة، وسلمان ما كان معه إلا في المدينة وآمن به فيها».[٢]

---

(١) القرآن والفرقان: ١٢٩

(٢) القرآن والفرقان: ١١٣.

مباينة معارف القرآن لما عليه أهل الملل المحرفة

إنّ الناظر في القرآن يجد البون الشائع فيما بين علوم هذا الكتاب، وبين ما في كتب الأنبياء السابقين، وما كان عليه علماء أهل الكتاب في زمان بعثة سيد الرسل صلى الله عليه وآله.

يكيفيك أن تقارن بين عقيدة التثليث الذي عليه أتباع الديانة المسيحية، والتي لم يتمكّنوا من فهمها وبيانها بصورة معقولة، لأنّهم يعتبرون أنفسهم موحدين من جهة، وهم قائلون بالتثليث من جهة أخرى، زاعمين عدم التنافي بين التوحيد والتثليث، ثم قارن بين هذا المعتقد وبين توحيد القرآن المجيد.

أين عقيدة الأقانيم الثلاثة التي هي الأب والإبن وروح القدس، من توحيد القرآن؟

كيف زعموا أنّه اقتطع جزءاً من الله ووضع في رحم السيدة مريم، فيكون حقيقة الابن مركبة من جزء من الأب وجزء من الابن؟

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ۝ اللهُ الصَّمَدُ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.[1]

﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[2].

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا للهِ﴾[3]

قصص الأنبياء وتنزيههم في القرآن

وكما يشاهد الإنسان ما اشتمل عليه القرآن من قصص الأنبياء الماضين، وهي جهة

(١) الاخلاص: ١-٤.

(٢) الجن: ٣.

(٣) نساء: ١٧٢.

أخرى إعجازية في القرآن، فإنّ ما يوجد من تاريخ أولئك الأنبياء مليئة بالتحريفات ونسبة كل رذيلة وخسيسة إليهم، جلت ساحة قدسهم عن ذلك، وأما القرآن فأتى بتنزيه الأنبياء وتعظيمهم بما يناسب شأن النبوة فيهم عليهم السلام، بل لولا القرآن المجيد وما ذكره لنا من قصص تلك الأنبياء لما أمكن الإذعان بنبوّتهم، حيث إنّ مع الصورة التي رسمتها تلك الكتب من الأنبياء، لايمكن التصديق بنبوّتهم، لأنهم ليسوا واجدين لأهم شروط تسلّم مقام النبوة، كما مر في مباحث النبوة العامة.

و الذي يذكر هؤلاء الأنبياء بكل جميل ويدفع عنهم كل تلك التهم ويبرّئهم منها، لامحالة يكون نبياً، وإلا يكون قد أعان على نفسه، حيث يشيد بأولئك الأنبياء الذين أتباعهم موجودون في زمانه وهم قد عارضوه ونادوه.

و بكلمة مختصرة: إن كان موسى وعيسى وإبراهيم ونوح أنبياء، فلابد أن يكونوا كما رسمه لنا القرآن، وإلا فبتلك الصورة الموجودة في العهد العتيق والجديد لايستحقون مقام النبوة.

فالذي حفظ للتاريخ بطولات تلك الأنبياء إنما هو القرآن المجيد.

جهة الفصاحة والبلاغة

ويضاف إلى ذلك: أنّ كلّ هذه العلوم والمعارف قد تكلّم بها المتكلّم بهذا الكتاب بأعلى درجات الفصاحة والبلاغة، حيث إنّ فصحاء العرب وبلغاءهم أقروا بالعجز عن مواجهة هذا الكتاب، ولنتأمّل أن البشر عجز عن الإتيان بكتاب يكون في قالبه الصوري (أعني الفصاحة والبلاغة) شبيهاً بهذا القرآن، حتى ولو كانت مواده من الهزل أو الباطل، فكيف لهم أن يجمعوا بين المادة الغنية العلمية، والصورة الجميلة الحسنة؟

فمن البديهي أن بيان المطالب العلمية العالية في الدقة بألفاظ أدبية فصيحة وبليغة

في غاية الإشكال، أما القرآن فكما بيّن قصصه بألفاظ فصيحة وبليغة، كذلك معارفه المبدئية والمعادية، وخلقة العوالم، والأحكام والقوانين والتشريعات، والمواعظ والحكم، والوعد والوعيد وغير ذلك، فإعجاز القرآن مع هذه الجهة يكون أظهر وبرهانه أبهر.

الأسئلة:

١- بماذا تحدّى القرآن الثقلين حينما طلب منهم أن يأتوا بكتاب أو بسورة مثل القرآن؟ فالمماثلة في أي شيء تكون؟

٢- اذكر بعض أوصاف القرآن التي وصف نفسه بها.

٣- ما هو وجه لزوم الرجوع لأهل البيت عليهم السلام في فهم تحدّي القرآن؟

٤- ما هي ميزة العلوم البشرية عن العلم الإلهي؟

٥- ما هو وجه الشبه بين القرآن وعالم التكوين، وما الدليل على أن كليهما مصنوع لله تعالى؟

٦- ما هو دور الفصاحة والبلاغة في إعجاز القرآن؟

٧- اذكر بعض الجهات الكمالية الموجودة في القرآن.

الدرس الواحد والعشرون: خاتميّة سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله

إنّ الدليل على خاتمية نبوّة سيد الرسل هو الدليل على نبوّته، فانّ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله بالنقل المسلّم التاريخي واتفاق جميع الملل والأقوام، قد ادعى لنفسه النبوّة الختمية، وأنّه لانبي بعده، وأنّ شرعه ودينه خالد إلى يوم القيامة.

فإذا ثبتت نبوّته وصدق دعوته، سوف لايبقى مجالٌ للترديد في كونه خاتم الأنبياء، ومن ثمّ لايبقى الترديد ولا التشكيك في تكذيب من يدّعي النبوة من بعده، فقد مرّ أنّ من شرائط النبي أن لايخالف دعواه للضرورة العقلية أو النقلية الثابتة بالبديهة، فبعد إثبات أنّه صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء والمرسلين، فأي دعوى تناقض أو تضادّ هذه الضرورة لايمكن الاستماع إليها، ومن هنا فنحكم ببطلان كلّ دين وشرع جديد يقام من بعد سيد الرسل صلى الله عليه وآله، ولا حاجة للنظر فيه ابداً.

عالمية دعوة النبي

إنّ رسالة النبي الخاتم كانت عالمية ولم تختص بقوم أو منطقة خاصة، وهذا أيضاً ممّا ثبت بإثبات نبوّته صلى الله عليه وآله، فإنّه ثابت بالضرورة من دينه، فحتى أولئك الذين لايؤمنون بهذا الدين يعلمون جيداً أنّ الدعوة الاسلامية عامّة وشاملة للبشرية قاطبة، ولذا نرى القرآن عمّم نداءاته لعموم الناس بقوله ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ**﴾، و﴿**يَابَنِي آدَمَ**﴾، وقال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾.[1]

---

(١) انبياء: ١٠٧.

و قد أرسل رسائل وكتب إلى ملوك الأرض كقيصر الروم وكسرى إيران وملوك مصر والحبشة والشام ورؤساء القبائل العربية المختلفة، وبعث لهم الرسل ودعاهم لهذا الدين المقدَّس.

معنى الخاتمية

مرّ أنّ حاجة البشر إلى هداية السماء لايمكن أن يتصور لها أمد ونهاية، فالحاجة إلى الدين والنبي لانهاية لها، ومن هنا فليست خاتمية سيد الرسل بمعنى زوال فترة الدين وانتهاء أمد الأنبياء، وعدم حاجة أهل الأرض لهداية السماء، كلا! فإنّ هذا التعريف يناقض كل الوجوه التي مرت في وجه الحاجة للأنبياء.

بل المراد أنّه بعد ما بعث سيد الرسل صلى الله عليه وآله، فلن تنتظر البشرية وسيطاً آخر يكون له دور الوساطة والسفارة بين الله تعالى وبين خلقه، بل يبقى هو صلى الله عليه وآله رسول الله إلى الأبد، ولازالت الهدايات الإلهية تتنزل للبشر عبر هذا الرسول وخلفائه، كما ورد في وصف النبي صلى الله عليه وآله أنّه الخاتم لما سبق والفاتح لما استُقبِل.

و من أجل ذلك اشتمل القرآن على التنزيل والتأويل، وله ظهر وبطن بل بطون وفي بطونه وبطون، وأنّ خلفاء الرسول هم المعنيّون بإفادة الناس من تلك البطون والتأويلات عبر القرون المتمادية، سواء عن طريق بيانها للناس، أم عبر ممارسات يفعلونها في المجتمع البشري لإيصال الناس لما فيه صلاح دنياهم وعقباهم، وإن لم يشعر الناس بتلك الفعاليات.

فالقرآن لاينتهي غوره وبطونه وتأويلاته، ولكن لايعلم ذلك إلا من أورثه الله تعالى علم الكتاب.

ثبات الدين وتجدد البشر

قد يقال: كيف يمكن ثبات وبقاء دين أو شريعة، مع أنّ البشرية في حالة التجدد والتقدّم دائماً، فالقانون والشريعة الذي كان ناجحاً في برهة من التاريخ، كيف يضمن نجاحه في سائر الأزمنة، مع التطور الملاحظ والمشهود في الأعراف والتقاليد والثقافات عند البشرية؟

و يجاب عنه بعدّة وجوه:

الأول: ثبات فطرة الإنسان

مرّ أنّ الحاجة للنبي، إنما لإثارة الفطرة والعقول، وتهذيب الأخلاق والتشريع الموافق لفطرة الإنسان، والفطرة وأصول الأخلاق ثابتة في الإنسان، كما أنّ الغرائز وحاجات الإنسان أيضاً ثابتة لاتتغيّر، إنما حصل التطور للإنسان في مجالات تلبية الحاجات والغرائز والرغبات، وليس في فطرته والاحتياجات والعلاقات والرغبات التي كانت لديه، فإنّها ثابتة لم يحصل فيها تغيير ولا تبديل، وقد مرّ أنّ القانون الصحيح هو ما يوافق حاجات الإنسان وغرائزه وفطرته وخَلْقه وخُلقه، لا ما يوافق آليات تلبية تلك الحوائج والرغبات.

الثاني: أصول القانون

من المُقَرَّر في علم الفقه والقانون والتشريعات، أنّ منظومة القوانين تبدأ بسلسلة من القواعد الأساسية التي تشكّل البنية الأساسية لتلك المنظومة، ويكون كالدم جارياً في جميع عروقها، ومن تلك الأسس تبدأ التقنينات النازلة، تتنزل، وذلك كالقوانين الدستورية في كل بلد، فيتنزل منها قوانين نيابية في البرلمان، ثم القوانين الوزارية فالبلدية إلى أن تنتهي لقوانين تخص الدائرة المعيّنة الجزئية، فالقانون الأساسي كالدم ثابت وجار

في كل هذه السلسلة، وهذه القوانين المختلفة كلها من أجل الحفاظ على تلك الثوابت.

و منظومة التشريع الإسلامي تشتمل على مثل هذه القواعد الأم التي يمكن استخراج قوانين متاخمة للظروف والبيئات المختلفة، ويكون الإمام القائم مقام النبي هو المعنيّ بذلك، وفي الرتبة النازلة للفقهاء أن يستنبطوا أحكام جزئية من صلب القوانين العامة الفوقانية.

الثالث: بين الثابت والمتغير

هل يدّعى أنّ جميع ما يكون مؤثراً في جعل القانون للإنسان متغير وغير ثابت؟

من الواضح أنّ هذه الدعوى مرفوضة، فإنّ الإنسان قد اجتمعت فيه مساحتان: مساحة ثابتة وغير متغيرة، ومساحة متغيرة وسيّالة.

إنّ أصول الأخلاق والفطرة الإنسانية والغرائز وكثير من أمور أخرى، من الثابتات في النوع الإنساني، وهذه هي البنى الأساسية التي تبتني عليها أحكام الشارع الثابتة غير المتغيرة، وأنّ المصالح والمفاسد التي تكون مناطاً للأحكام والقوانين الخالدة، تكون من تلك الأمور الثابتة، ومن هنا تبقى ثابتة لاتتغير بحصول المتغيرات.

و أما المساحة المتغيرة، فهي أيضاً ترجع لأمور ثابتة، وذلك أنّ المتغيرات دائماً تدور في فلك أمور ثابتة وغير متغيرة، ولولاها لم تحصل المتغيرات، فإن التطور والتغيير إنما يحصل بعد وجود أمر ثابت وغاية ثابتة، يسعى الإنسان للاقتراب إليها أكثر فأكثر، ومن هنا لايكتفى بما عنده ويحاول أن يطوّر علمه ونفسه، ومن دون تلك الثوابت لايكون للمتغيرات وجود أبداً، و عليه فيمكن أن يشمل التشريع الثابت مساحة المتغيرات، بملاحظة المحور الثابت الذي يدور في فلكه الأمر المتغير.

المساحة المتغيّرة في الشريعة

و أما نفس الأمر المتغيّر، فهناك أيضاً مساحة متغيرة في الشريعة على غراره، تتغيّر بتغيّر البيئات والأعراف المختلفة، وهذا نظير ما يسمّى بالأحكام الثانوية في جانب الموضوع، بمعنى حصول تغيير في موضوعات الأحكام الشرعية، حسب البيئات أو الأزمنة المختلفة، وبتغير الموضوع لامحالة يتغيّر الحكم.

فمثلاً: الحكم الثابت بلزوم الإحسان إلى الوالدين، ينطبق على بعض المصاديق المستجدّة التي تعدّ في عرفنا الحاضر من الإحسان، بينما لم يكن يعد من الإحسان سابقاً، و كذلك لزوم تكريم ما عدّ من شعائر الله تعالى بمقتضى عرف أو زمان معيّن، وإن لم يكن له هذا الحكم قبل أن يصير من جملة شعارات الدين، أو لزوم كسب القوّة بتحصيل التقنيات والتكنولوجيا الحديثة، سواء في المجال العسكري أم الأمني والتقني والاقتصادي والعلمي والإعلامي وغيرها من مجالات القوّة، وإن لم تكن تعدّ منها من قبل، كلّ ذلك بمقتضى قوله تعالى: ﴿**وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة**﴾.(١)

بل قد سمح الشارع للإنسان أن يتصرّف في منطقة محدودة في إيجاد موضوعات جديدة ومتغيّرة حسب رغبته، وذلك نظير الشروط المعاملية، ونظير العقود المستجدّة التي تكون وفق المعايير العامّة الشرعية.(٢)

الرابع: بين العرف والمعروف

ليس من الصحيح جعل ما تعارف عليه الناس معروفاً وما أنكروه منكراً، فإنّ من دواعي بعثة الأنبياء إنما هو إزالة الأعراف الفاسدة وتبديلها بأعراف صالحة، ومن

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) راجع: كتاب المكاسب للشيخ الأنصاري، مبحث الشروط، شروط صحّة الشرط، الشرط الرابع: عدم مخالفة الشرط للكتاب والسنة، وتعليقات الأعلام عليه.

هنا فعدم تقبّل العرف العام لقانون من قوانين السماء، نتيجة تفشي الأعراف الفاسدة والثقافات غير صحيحة، لايبرّر الاعتراض على القانون الإلهي بحجة عدم مواكبته لتلك الأعراف الفاسدة.

يظن البعض أن الدين لابد وأن يتغيّر كلما حصل تغيير في الثقافة العامة والرغبات لدى الإنسان، وهو على طرف النقيض من دعوى اتباع الأنبياء، من أنّ الإنسان لابد وأن يكون تابعاً للدين، وليس الدين تابعاً له، كما أنّ الطبيب الحاذق لا يعطي الوصفة وفق رغبات المريض، بل المريض الفاهم هو الذي يطبّق نفسه على وصفة الطبيب.

وكم رأينا من مهاوي ومهالك وقعت فيها البشرية، حينما استبدّت برأيها وأعرضت عن هداية السماء، فظنت أنّ الدين لم يوفّر مصلحته، وكانت المفاجئة أنّ هلاكه كان فيما ظنّه نافعاً، يكفيك ما تلاحظ من انهيار نظام الأسرة والإنفلات الأخلاقي وما يتعقّب ذلك من هلاك الحرث والنسل في المجتمعات البعيدة عن هذه التعاليم حينما تنكّرت أعرافهم لقواعد الحياء والعفة ورعاية الأسرة وصلة الأرحام.

الخامس: التنزيل والتأويل

إنّ القرآن المجيد صرّح في أكثر من آية بأنّه يحتوي على علم جميع الأشياء، وما من رطب ولايابس إلا فيه، وأنّه تبيان لكلّ شيء، وليس شيء يحتاج إليه ابن آدم إلا وهو مذكور في الكتاب المبين.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(١)

و هذه العلوم إنما تكون في تأويل القرآن وباطنه، وليس في تنزيله وظاهره.

---

(١) النحل: ٨٩.

إنّ نسبة تنزيل القرآن إلى حقائق القرآن والكتاب المبين التي تعد من تأويل القرآن، كنسبة القطرة إلى محيطات البحار، كيف لايكون كذلك، وإنّ من جملة ما يكون الكتاب تبياناً له، هي كلمات الله تعالى التي قال عنها:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.(١)

وقد أودع علم تأويل القرآن عند أوصياء الرسول ﷺ، فهم يبرزون من ذلك في كل زمان ما يحتاج إليه الناس.

و قد قرّر القرآن المجيد نزول الملائكة والروح في كل سنة في ليلة القدر من كل أمر، إلى وصي النبي والإمام من بعده، لكونه هو القائم بتدبير النظام الإلهي في الأرض، والمتصدي لإيصال الناس إلى ما فيه رشدهم وصلاحهم.

(١) الكهف: ١٠٩.

الأسئلة

١ - ما الدليل على خاتمية النبي صلى الله عليه وآله؟

٢- كيف يمكن فهم معنى الخاتميّة بحيث لا يلزم منها استغناء البشر عن الوحي والمدد السماوي؟

٣- ما هي آلية استفادة الناس عبر القرون المتمادية من باطن القرآن وتأويله المستمر إلى يوم القيامة؟

٤- ما هي علاقة القانون بفطرة الإنسان وأخلاقه؟

٥- ما هو المراد من التنزيل والتأويل؟

٦- ما هي علاقة ليلة القدر بدوام واستمرار هذا الدين؟

٧- هل هنالك مساحة قابلة لتغيير في الشريعة، اذكر نموذجاً منها.

٨- كيف يمكن للفقيه أن يعرف حكم الشارع في المسائل المستحدثة؟

الفصل الرابع

الإمامة

الدرس الثاني والعشرون: الإمامة

تعريف الإمامة

ما هي الإمامة، وما مدى أهمية البحث في هذه المفردة ضمن منظومة عقائد الإنسان؟

ذهبت العامة إلى أنّ الإمامة منصب رئاسي في أمور الدين والدنيا خلافة عن النبي صلى الله عليه وآله ليس لها شأن عقدي، بل هي مجرد مسألة فرعية لإصلاح أمور الناس ودفع الهرج وايجاد النظم وإجراء الحدود، وما إلى ذلك مما يرتبط بشؤون الرئيس والحاكم في المجتمع.[١]

وفي المقابل ذهبت الشيعة الإمامية إلى أنّ الإمامة كالنبوة منصب إلهي واصطفاء من الله تعالى بعد ما يزوّد الله تعالى الإمام بالعلم اللدني والقدرة الإلهية، وأنّ للاعتقاد بالإمام - بغضّ النظر عن اتباعه العملي - مدخليّة في أصل الإيمان، وموجباً لقبول الأعمال والنجاة الأبدية، كالاعتقاد بالنبي، سواء كان له منصب ظاهري أم لم يكن، وسواء كان ظاهراً أم غائباً، و لكي تتضح الصورة ننوّه إلى نقاط:

الأولى: الفرق بين مقام النبوة ومقام الإمامة

الإمام والأمّة والمأموم كلّها يرجع لجذر لغوي واحد.

---

(١) راجع شرح المقاصد للتفتازاني: ج٥، ص: ٢٣٣، وشرح المواقف للقاضي الايجي: ج٨، ص: ٣٤٥.

أَمَّ يَؤمُ: إذا قصده، والأَمّ هو القصد المستقيم والتوجه نحو المقصود.

و الأُمَّة: هي الجماعة الذين لهم مقصد واحد، والإمام هو كل من ائتم به قوم لهم مقصد واحد، فالإمام هو المقتدىٰ (اسم المفعول)، والمأموم (اسم الفاعل) هو الذي يقتدي به.

فإذا فرضنا أئمة في مسألة الهداية كما في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**﴾[1]. فهذا يعني أنّ هنالك ثلاثة أشياء:

طريقاً يجب سلوكه.

و الإمام، وهو الهادي والذي يُقتدىٰ به في هذا الطريق.

و المأموم، وهو المهتدي والذي يَقتدي بالإمام في سلوكه هذا الطريق.

و الطريق ليس إلا الدين والذي جاء به النبيﷺ وبيّنه الله تعالى في القرآن، وقد بيّنه النبي حيث جعله الله تعالى هادياً بالهداية الإرائية، أي أنّ النبي هو الذي يبيّن للإنسان الطريق الصحيح ومعالمه وهو الصراط المستقيم.

لكنّ السالك في الصراط المستقيم يحتاج لعنصر آخر في سلوكه، ولا يمكنه أن يكتفي بالهداية الإرائية، إنّه يحتاج للصاحب ومن يرافقه في الطريق ليضمن له صحّة الخطوات، ويؤمّن له الطريق، وهذا العنصر هو الإمام، ويسمّى دوره بالهداية الإيصالية.

الإمامة في اللغة تساوي هداية السالكين على الطريق، وهذه الهداية تكون من نمط الهداية الإيصالية دون الهداية الإرائية فحسب، فإنّ مقتضى السير والسلوك والاقتداء والاتباع هو أن يرافق الإمام المأموم في سيره ليوصله إلى الغاية، لا أن يكتفي بإرائة

---

(١) السجدة: ٢٤.

الطريق فقط.

فحينما تريد أن تسلك طريقاً، تحتاج لمن يعطيك تفاصيل خريطة المسير، وهذه هي الهداية الإرائية، وتحتاج إلى من يصاحبك في الطريق ليرفع العوائق عن المسير، ويعرفك كيفية انطباق الخريطة على أرض الواقع، وهذه هي الهداية الإيصالية.

فلو فرضنا أن عندك خريطة دقيقة، لكن لم يكن هنالك شمس ولاقمر ولا نجوم ولا مصباح، لتستعين به على فهم تطبيق الخريطة على أرض الواقع، فسوف لن تصل للمقصد، أو إذا لم تكن هنالك علامات المرور وإشارات وخطوات تطبيقية على الأرض، والمراقبة الدائمة من الجهة المسؤولة عن الطرق وإشارات المرور كي لاتزوّر من قبل اللصوص والمخربين، أو عن إصلاح عوائق الطريق والمخاطر التي تواجه السائق وهو لايعلم بها، فسوف لن تنتفع من الخريطة، حتى لو كانت من أدقّ الخرائط وأمتنها، لاسيما إذا كان الطريق مليئاً باللصوص والأعداء والمحاربين، فيكون تأمين الطريق مسؤولية ملقاة على عاتق الدولة، ولولاه فلاتنفع الخريطة بمفردها للوصول إلى المطلوب.

إذا اتضح هذا المثال، يتضح الفارق بين مقام النبوة والإمامة، فالنبي هو المتصدي للهداية الإرائية، بمنزلة من يعطيك الخريطة ويعرّفك الصراط المستقيم والطريق إلى رضوان الله تعالى، والإمام بمنزلة الشمس المضيئة التي ترافقك في الطريق ولن تستغني عنها ساعة واحدة، كما أنّك تحتاج في سيرك على الأرض إلى ضباط الأمن وشرطة المرور لكي يومّنوا لك الطريق، كذلك في سيرك إلى السماء تحتاج للإمام الذي يصاحبك في طريقك إلى الله تعالى، لتتمكن من العمل بما جاء به النبي.

ومن هنا عُبّر عن الإمام في روايات أهل البيت عليهم السلام بالصاحب والمصاحب

وصاحب الزمان، أي من ينزل في الشارع ويصاحب الإنسان ويرافقه في سلوكه الرباني.

عن أبي حمزة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: يَا أَبَا حَمْزَةَ يَخْرُجُ أَحَدُكُمْ فَرَاسِخَ فَيَطْلُبُ لِنَفْسِهِ دَلِيلًا وَأَنْتَ بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَجْهَلُ مِنْكَ بِطُرُقِ الأَرْضِ فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ دَلِيلًا.(١)

فمفهوم الإمامة يرتبط بسلطنة تطبيق الدين على أرض الواقع.

ثمّ إنّ هذا الإيصال ليس جبرياً، بل إيصال اختياري، فهي سلطة الولاية والشوق والجذب، فهناك علاقة الانجذاب بين الإمام والمأموم حيث لايكون جبرياً، فالإمامة ليست علة تامة للهداية، بل إذا اختار المأموم ذلك.

تلخّص: إن مفهوم الإمامة يتضمن عدة نقاط:

الاقتداء، الهداية الإيصالية، السير والحركة، المصاحبة والمرافقة، الولاية والسلطة والجذب.

الثانية: ضرورة معرفة الامام

قد يقال: إنّ البحث عن الإمامة لا فائدة فيه إلا من جهة تاريخية ويهم الباحث في التاريخ، وهذا مبني على تعريف الإمامة بالحكم الظاهري الذي يناله البر والفاجر.

و قد أورد البعض عليه بأن ثمرة البحث تظهر في الفهم الصحيح لما جاء به النبي، فهل نفهم الدين من خلال تفسير ابي حنيفه مثلاً، أو من خلال بيان الإمام الصادق عليه السلام؟!

وهنا تطرق بعض فقال: لاثمرة مهمة في ذلك، فإنّها بأجمعها من عرضيات الدين وليست من ذاتياتها.

لكن الصحيح أن البحث في الإمامة من أهم مباحث العقيدة من جهة طريقية

---

(١) الكافي: ج ١ ص ١٨٤.

وموضوعية، وأنّ البحث التاريخي في معرفة الإمام، يكون كالبحث التاريخي لمعرفة النبي، وذلك لأنّ الاعتقاد بالإمام الحي شرط في تحقق الإيمان عند الشيعة الإمامية، كما كان الاعتقاد بالنبي شرطاً في تحقق الإسلام، بغض النظر عن أنّه طريق لمعرفة الدين، بل نفس العقيده بالنبي والإمام هو أصل الدين، وهذا لايتيسّر إلا بمعرفته المتوقف على نبش التاريخ.

الطريقية: الإمام هو الطريق لفهم الدين الصحيح

وليس ذلك للفهم الصحيح من الأحكام الشرعية فقط، بل إنّ الفهم الصحيح لجملة الدين من أوله إلى آخره، وكذا فهم القرآن، متوقف على معرفة الإمام والوصي من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومن هنا ترى البون الشاسع فيما بين المذاهب من التوحيد إلى آخر الفروع، وقد تصدى علماؤنا لذلك في مباحث الإمامة، نظير؛ العلامة الحلي في نهج الحق وكشف الصدق، والمظفر في دلائل الصدق، والقاضي نور الله التستري في إحقاق الحق، فذكروا فوارق المذهب الشيعي الإمامي عن سائر المذاهب من التوحيد إلى المعاد، وفي الجانب الفقهي كتب فقه المقارَن؛ كالخلاف للشيخ الطوسي، وتذكرة الفقهاء للعلامة الحلي والانتصار للسيد المرتضى، فمعرفة الإمام ضرورة دينية لمن يهمه أن يعرف الدين الإسلامي كما أُنزل، بعيداً عن تحريفات المحرفين وابتداع المبتدعين.

الموضوعية:

إنّ أهمية معرفة الإمام أولاً وبالذات ليست لكونها مقدمة لفهم الدين والأحكام الشرعية، ولا للوصول إلى السلطة الظاهرية فحسب، بل نفس معرفته دخيلة في تحقّق الإيمان، كما كان في معرفة النبي، فبغض النظر عن الأخذ بتعاليم النبي، إنّ مجرد الاعتقاد

به محقّق للإيمان والإسلام.

عَدُّ الإمامة من أصول الدين في مذهب الإمامية دليل على موضوعيتها في الإيمان، وإلا لو كان فقط طريقاً لمعرفة الدين، لما عُدَّت في الأصول التي يجب الاعتقاد بها، فالقائل بحصر فائدة الإمام في الطريقية شاذ عن المذهب، وسنتكلّم عن كون الإمامة من أصول الدين في الدرس الآتي.

عن ابن أذينة قال: حدثنا غير واحد، عن أحدهما عليهما السلام أنه قال:

«لَا يَكُونُ العَبْدُ مُؤْمِناً حَتَّى يَعْرِفَ اللهَ ورَسُولَهُ والأَئِمَّةَ كُلَّهُمْ وإِمَامَ زَمَانِهِ ويَرُدَّ إِلَيْهِ ويُسَلِّمَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ يَعْرِفُ الآخِرَ وهُوَ يَجْهَلُ الأَوَّلَ؟!».(١)

عن أبي حمزة قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام:

إِنَّمَا يَعْرِفُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيَعْبُدُهُ مَنْ عَرَفَ اللهَ وَعَرَفَ إِمَامَهُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ، وَمَنْ لَا يَعْرِفِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا يَعْرِفِ الإِمَامَ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ فَإِنَّمَا يَعْرِفُ وَيَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ هَكَذَا وَاللهِ ضَلَالًا.(٢)

---

(١) الكافي: ج ١ ص ١٨٠.

(٢) الكافي: ج ١ ص ١٨١.

الأسئلة

١- بيّن الفرق بين تعريف الإمامة من منظر الشيعة وأهل سنة الجماعة.

٢- ما هو الفرق بين مقام النبوّة ومقام الإمامة؟

٣- هل يمكن الاستغناء عن الإمام بوجود النبي؟

٤- ما هي نوع العلاقة بين الإمام والمأموم؟

٥- ما هي الجهة الموضوعية في ضرورة البحث في الإمامة؟

٦- ما هي ضرورة البحث في الإمامة؟

الدرس الثالث والعشرون: الإمامة من أصول الدين

ذهب معظم علماء السنة إلى أنّ الإمامة ليست من أصول الدين، وزعموا أنها من فروعه، ومرتبطة بأفعال المكلفين.(١)

بينما الشيعة الإمامية ذهبوا إلى أنّها من أصول الدين، ومرتبطة بعقيدة المكلفين.

قال العلامة الحلي:

«إنّ الإمامة عندنا من جملة ما هو أعظم أركان الدين، وأنّ الإيمان لايثبت بدونها، وعندهم أنّها ليست من أركان الدين، بل هي من فروع الدين».(٢)

في حديث الإمامة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام:

«إِنَّ الإِمَامَةَ هِيَ مَنْزِلَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِرْثُ الأَوْصِيَاءِ، إِنَّ الإِمَامَةَ خِلَافَةُ الله عَزَّوَجَلَّ وَخِلَافَةُ الرَّسُولِ وَمَقَامُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَمِيرَاثُ الحَسَنِ وَالحُسَيْنِ عليهما السلام، إِنَّ الإِمَامَةَ زِمَامُ الدِّينِ وَنِظَامُ المُسْلِمِينَ وَصَلَاحُ الدُّنْيَا وَعِزُّ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ الإِمَامَةَ أُسُّ الإِسْلَامِ النَّامِي وَفَرْعُهُ السَّامِي».(٣)

---

(١) راجع شرح المقاصد للتفتازاني: ج٥، ص: ٢٣٣، وشرح المواقف للقاضي الايجي: ج٨، ص: ٣٤٥.

(٢) العلامة الحلي؛ الألفين ٤٦.

(٣) عيون أخبار الرضا: ج١ ص ٣٢٦.

الفرق بين أصول الدين وفروعه

إن أصول الدين تتميز عن فروعه في:

- لزوم العقيدة بأصول الدين، والعقيدة هو الإذعان والقبول القلبي.
- قوام تحقق الإيمان يكون بأصول الدين.
- يكون الاعتقاد بها شرطاً لقبول سائر الأعمال.
- لايعذر الإنسان بجهله بما يكون من أصول الدين.

الاستدلال على أنّ الإمامة من أصول الدين

مضافاً إلى ما سيأتي في الدرس ٢٧، من مدخلية العقيدة بالإمامة في التوحيد، يمكن الاستدلال على ذلك، بوجوه:

الأول: آية التبليغ

قال تعالى:﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.[١]

وردت الروايات والأخبار الكثيرة من الفريقين أنها نزلت في واقعة غدير خم، حينما نصب النبي صلى الله عليه وآله علياً للخلافة والإمامة من بعده.[٢]

وهي تدلّ على أنّ الإمامة ركن ركين من الدين وليست قضية ثانوية في الشريعة؛ لأنّ الله تعالى جعل عدم تبليغ هذه المسألة مساوقاً لعدم تبليغ الرسالة الإلهية برمّتها، فما يعادل به الرسالة كيف يكون من فروع الدين؟

---

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) سنشير إلى تلك الروايات من مصادر الفريقين في مبحث إمامة أمير المؤمنين عليه السلام.

الثاني: آية الإكمال

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.(١)

وقد ورد في متواتر الأخبار أنّ الآية نزلت في غدير خم بعد ما نصب رسول الله صلى الله عليه وآله علياً للإمامة والخلافة.(٢)

وتدل الآية على إناطة رضى الله تعالى عن الإسلام بهذه المسألة، فالإسلام من دون قبول ولاية الوصي مما لايرضي الله تعالى، فمقتضى ارتباط الإسلام بأكمله بقبول ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، أن تكون إمامته من أصول الدين، فلايقبل من أحد إسلامه ولا توحيده ولا أعماله إلا بعد قبول ما بلّغ الرسول صلى الله عليه وآله في الغدير.

الثالث: آية المودّة

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾(٣).

مودّة أهل البيت عليهم السلام جعُلت أجراً للرسالة، والأجرُ هو العدل أو العوض بين المتعادلين، فهناك عوض ومعوّض، وينبغي أن تتوفّر المساواة بينهما، فلاتقابل الجوهرة الثمينة بثمن بخس لايعادلها.

فإذا كانت مودّة أهل البيت عليهم السلام في كفّة بمقتضى كلمة الأجر، والكفّة الأُخرى فيها الإسلام أو معاناة الرسالة التي قيمتها بلحاظ نفس الدين، إذاً نستنتج من الآية بأنّ المودّة لأهل البيت عليهم السلام ليست من فروع الشريعة، بل هي ركن ركين من أصول

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) سنشير لجملة من المصادر فيما يأتي في مبحث إمامة أمير المؤمنين عليه السلام.

(٣) الشورى: ٢٣.

الدين؛ لأنّ أجر الرسالة ليس من المناسب إدراجه في الشريعة، بل هو في أهميته يعادل الرسالة بأكملها.

الرابع: حديث الفرقة الناجية

و هو من الأحاديث التي اتفق عليها الفريقان.

عن يحيى البكا، عن علي عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وسَبْعِينَ فِرْقَةً مِنْهَا فِرْقَةٌ نَاجِيَةٌ والبَاقُونَ هَالِكَة...**».(١)

هذا الحديث أيضاً يدلّ على مدخلية معرفة الإمام في النجاة الأبدية، وأنّ النزاع في هذه المسألة محاولة لمعرفة الفرقة الناجية من عذاب جهنم، ولايمكن أن يكون النزاع في الفرقة الناجية نزاعاً في مسألة فرعية في حال من الأحوال، فإنّ الله تعالى لايرضى عن دين غيرهم ولا يقبل إلا أعمالهم.

الخامس: حديث من مات ولم يعرف إمامه

عن الحارث بن المغيرة قال: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله «**مَنْ مَاتَ لَا يَعْرِفُ إِمَامَهُ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**». قَالَ: **نَعَمْ**. قُلْتُ: جَاهِلِيَّةً جَهْلَاءَ أَوْ جَاهِلِيَّةً لَا يَعْرِفُ إِمَامَهُ؟ قَالَ **جَاهِلِيَّةَ كُفْرٍ وَنِفَاقٍ وَضَلَالٍ**.(٢)

وفي لفظ آخر: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّة**».(٣)

والحديث متواتر روته العامة والخاصة بألفاظ مختلفة، فمما روته العامة بألفاظ أخرى، من قبيل «**من مات وليس في عنقه بيعة**»، وهما بمعنى واحد، فإن المعرفة التي

(١) كفاية الاثر: ١٥٥.

(٢) الكافي: ج ١ ص ٣٧٧.

(٣) كفاية الاثر: ٢٩٦ وكمال الدين: ج٢ ص ٤٠٩.

أنيط بها الإيمان هي معرفته بالإمامة والطاعة، أي الانقياد القلبي وهو معنى البيعة.[١]

هذا الحديث لاينطبق على أمير فاسق ولا كافر ولا ظالم بل ولا عادل، لأنه:

أولاً: إنّ عدم المعرفة وعدم الإقرار بالحاكم العادل لايوجب الكفر الأخروي، بينما عُلّق الموت الجاهلي هنا على مجرد عدم المعرفة وعدم البيعة، والبيعة هو الإقرار بحق الطاعة.

و ثانياً: ليس غير المعصوم من يكون العصيان عليه موجباً للكفر، لأنّ عدم الطاعة لغير المعصوم لازمة في بعض الأحيان.

و ثالثاً: غاية ما في طاعة الأمير أنّه من فروع الدين، فكيف يكون الجهل به وعدم البيعة له مُخرجاً عن الإيمان؟

---

(١) راجع الملحقات: ملحق رقم (١)

الأسئلة

١ - ما الفرق بين أصول الدين وفروع الدين؟

٢ - اذكر دلالة آية التبليغ على كون الإمامة من أصول الدين.

٣- لماذا لايمكن تفسير آية الإكمال بالأحكام الفرعية في الدين؟

٤ - ما هو تقريب دلالة آية المودّة على أنّ الإمامة من أصول الدين؟

٥- ما هي الملازمة بين الفرقة الناجية وكون الإمامة من أصول الدين؟

٦- هل بإمكانك أن تجد أقوالاً من سائر علماء الإمامية على أنّ الإمامة من أصول الدين؟

٧- لماذا لايمكن تطبيق حديث «**من مات ولم يعرف إمام زمانه**» على الحاكم العادل؟

الدرس الرابع والعشرون: ضرورة وجود الإمام بعد النبي (١)

زوال الدين بزوال الإمام

إنّ بقاء الدين وحفظ القرآن والسنة بل جميع البينات الإلهية، متوقف على وجود الإمام القائم مقام النبي، فإنّ وجود الإمام يجعل الدين إلهياً وبخلافه يكون بشرياً.

و هذا لأجل دور الإمام في حفظ الدين وبقاء الحجج، فمن دون الإمام ستتعطل حجج الله تعالى وبيناته برمتها، فلن يبقى شيء اسمه الدين، بل لا يبقى القرآن ولا سنة النبي صلى الله عليه وآله ليعمل به، إنه هو الحافظ الوحيد والحارس للوحي وللذكر الإلهي في الأرض، وغيره لايتمكّن من ذلك ولا يستأهل له.

بيان البرهان بعدة لغات:

برهان الحفظ

وهو مبني على مقدمات:

الأولى: إنّ الرسالة الختمية والقرآن والوحي النازل من السماء على النبي صلى الله عليه وآله، لابدّ من بقائها إلى يوم القيامة، وذلك لأنّه الدين الخاتم، ولايكون بعد نبينا نبي ولاكتاب.

الثانية: بقاء الوحي والكتاب - شأن بقاء أيّ شيء آخر - متوقف على وجود الحافظ والحارس له، ليحفظه كما أُنزل دون تحريف أو زيادة أو نقصان، كما أنّ علم الكتاب يحتاج إلى حامل، فإن العلم يموت بموت حامليه.

الثالثة: لايكفي في الحافظ والحارس أن لا يتعمّد الخيانة، بل لابدّ أن يكون وعيه وخبرويته بقدر يؤهّله لحراسة ذلك الشيء وحفظه، وهذا يختلف باختلاف ما يراد حفظه، فقد يكون شخص أهلاً لحفظ شيء ولكنّه لايكون أهلاً لحفظ شيء آخر، ليس لتعمده الخيانة، بل لعدم خبرويته بذلك الشيء، فليس من شأن حارس المسجد أو أمين المدرسة أن يحرس قاعدة عسكرية عملاقة وكبيرة، مع أنه أمين وصالح، أو قاعدة نووية لمن لاخبرة له بالطاقة الذرية، فإنّ حفظ الشيء متوقّف على العلم بذلك الشيء وبكيفية حفظه وحراسته، فمن لاخبرة له بذلك الشيء كيف يكون حافظاً له؟

الرابعة: إنّ القرآن والكتاب المبين والوحي النازل على سيد الأنبياء، مشتمل على آفاق وسيعة من العلم الإلهي، وتغطي مساحات عظيمة، بل لا رطب ولايابس إلا فيه، وقد أنزله الله تعالى تبياناً لكلّ شيء، كما هو صريح عدّة آيات من القرآن الكريم.

والنتيجة: لابدّ من وجود حافظ للقرآن وللوحي المحمّدي بعرضه العريض من بعد رسول الله ﷺ، ولابد أن يكون هذا الحافظ واعياً ومحيطاً بكلّ بينات الوحي وتنزيل القرآن وتأويله ورطبه ويابسه، ليتمكّن من حفظها، ولابدّ من وجوده وفعاليّة دوره إلى يوم القيام، وعدم خلوّ الساحة منه ساعة.

وبخلاف ذلك لن يبقى الوحي والدين والرسالة الختمية وينتهي أمد القرآن والإسلام، وهو عين إنكار الدين.

إنّ وجود الحافظ غير المستوعب لبينات الوحي المبيّن لكلّ شيء، لايضمن للوحي بقاء واستمراراً.

تعقيب وتوضيح

من البديهي أنّ بصيرة الجن والإنس ليست بدرجة بصيرة النبي ﷺ، وعلمهم لن

يصل إلى آفاق الوحي النازل من السماء على هذا النبي الأمي صلى الله عليه وآله، حتى ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فهنا نتساءل: هل كتب الله تعالى لهذا الدين والقرآن والوحي النبوي بقاءً واستمراراً بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله، أم أنّه يزول بوفاة النبي صلى الله عليه وآله؟

فإن كان يراد بقاءه فلابدّ أن يكون هنالك من يحفظه ويحرسه ليبقى للأجيال، فيا ترى من تكون له أهلية حفظ بينات الوحي وعلوم النبي وبصائر القرآن الذي يكون تبياناً لكلّ شيء؟

لو اجتمع الجن والانس على أن يحلّوا محل الوحي، ليكونوا حفاظاً ورعاةً وحملةً للوحي، لن يستطيعوا، لقصور علمهم وخبراتهم وقدراتهم عن وعي الوحي الإلهي، فهم بأجمعهم غير مؤتمنين لحراسة الوحي، لأنّهم ليسوا بمستوى النبي في علمه ومعرفته حتى يحفظوا علومه ومعارفه، وكيف يتوقّع ممّن لم يستوعب علم شيء ولم يعه أن يكون له حافظاً؟

فأنّى للصحابه أو التابعين والرواة أن يحفظوا الوحي؟!

إنهم لايؤمنون لحفظ ألفاظ الوحي، فما ظنك بالمعاني والحقائق؟ وذلك أنّ من لم يحط بالمعاني فلايؤتمن لحفظ الألفاظ.

مثلاً إذا كان هنالك معهد علمي رفيع المستوى، وقد وصل إلينا نتاجه العلمي عبر أناس ليسوا بذلك المستوى من العلم، فهل يمكن إسناد نقولاتهم إلى ذلك المعهد؟ وهل يؤمنون عليه حتى لو كان دورهم مجرد نقل الألفاظ؟ فإن الخطأ والاشتباه ليس بمنأى عن الحس فيمن لم يكن عنده الإحاطة بالمعاني، كما تشاهد أن المنضّد لكتاب علمي إن لم يكن من أهل الاختصاص ولايعرف المعنى ويستوعب ما يكتب، يقع منه أغلاط كثيرة في التنضيد، أو إذا حضر عامي في مجلس درس أحد العلماء من أهل الاختصاص، فنقلَ

شيئاً منه فلايصحّ إسناده إلى ذلك العالم، ولايكون كلامه حجة في ذلك.

فلو كانت حفظة الدين بعد الرسول ﷺ هم الصحابه مع فرض أنّهم عدول، بل لو فرضنا أنّ كلهم بمثابة سلمان المحمدي، لما أمكن إسناد الدين إلى الله تعالى كحجة وحيانية إلهية، ولكان قد انقضى عصر الدين وصارت حجية الوحي بقدر حجية الناقلين، أمراً بشرياً تاريخياً جغرافياً ترابياً، لأنّ آفاق علومهم تقصر عن أفق الوحي ؟ .

فكيف بما إذا كان فيهم منافقون وخونة؟ وكيف بما لو كان جمع القرآن بعد مقتل جمع كبير من حفاظ القرآن، وكتابة الوحي بالبينة الشرعية التي من المستحيل أن تكون بدرجة بينات الوحي؟

و ذلك - بامتياز كبير - كما لو مات أستاذ خبير رفيع المستوى، ولم يخلف من تلامذته إلا من يعي واحداً بالمائة من علومه، فالعلم يموت بموت الأستاذ، بداهة أن التلاميذ لم يعوا من علم الأستاذ إلا واحداً بالمائة، فكيف يحفظون ما لم يستوعبوه؟

و من هنا تجد أنّ قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[1]، قضية برهانية لاتقبل الترديد، حين يؤكد على أنّ مهمة حفظ الذكر النازل من السماء ليس لها إلا من أنزله، فنفس المعادلات المفروضة في إنزال الذكر لابد وأن تتوفر في بقائه وحفظه، فكما ليس لكل أحد أن ينزل عليه الوحي، كذلك ليس لكل أحد أن يحفظ الذكر النازل، وليس هذا الحفظ إلا من خلال وجود أمين الله تعالى وحجته في أرضه.

لايقال: إنّ الله تعالى هو يحفظ الذكر والقرآن وبطونه وتأويلاته وعلومه بطريقة إعجازية.

لأنّه يقال: إن الله تعالى جعل الدنيا دار الأسباب، وقد جرت سنة الله تعالى على

---

(١) الحجر: ٩.

إجراء الأمور بأسبابها، وجعل لكلّ شيء سبباً، و من هنا أرسل الرسول وجعله بشراً يأكل ويمشي في الأسواق، فلم يكل مهمة تبليغ الرسالة والذكر الإلهي لملك من الملائكة، كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.(١)

وهكذا مهمة حفظ القرآن وبقاء الذكر أيضاً لابد وأن تكون من خلال سبب وحافظ للذكر الإلهي، يكون مؤهلاً لحفظه وحراسته، وهو الإمام والخليفة من بعد النبي صلى الله عليه وآله.

فاتضح أنّه إنما يعتمد على القرآن والوحي بعد النبي لرعاية حجة الله القائم بحجج الله له، كذلك الأخبار الواصلة عن أئمة الدين، إنما يكون الحافظ والراعي لها هو الإمام الناطق الحي في كل زمان، لأنها هي باطن القرآن والوحي النازل من السماء.

برهان الصدق

ويظهر هذا البرهان بالإلتفات إلى أمور:

الأول: إنّ الصدق بلحاظ مطابقة الكلام المنقول للواقع، مقولة قابلة للاشتداد والضعف، فكلما كان الناقل أكثر إحاطة بالذي يرويه، كان إخباره أكثر مطابقة للواقع، وهذا يظهر أثره في المعلومات الدقيقة العلمية التي تحتوي على أسرار وبطون ومعلومات خفية، قد تخفى عن السامع ما لم يكن من أهل الاختصاص.

ومن هذا الباب نرى التلميذ المقرر لدرس الأستاذ، بعد ما قرّر الدرس بتفهم وتعمق، ومع أنّه ليس عامياً ولا أمياً، لكنه مع ذلك يصرّ لكي يحصل على تأييد الأستاذ وتقريضه، ليكتسب بذلك اعتباراً بدرجة اعتبار الأستاذ، حتى ولو كان التلميذ متقارباً مع أستاذه في القوة العلمية، لكنه لاحتمال قصور علمه عن علم الأستاذ، يوجد مجال

(١) الأنعام: ٩.

للترديد في صحة إسناد نقولاته للأستاذ.

الثاني: لايوجد من هو أصدق من الله تعالى، كما قال: ﴿**وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قيلا**﴾.[١]

و ذلك لأنه أحاط بكلّ شيء علماً، فكلامه أصدق من كلّ كلام آخر، والصدق الإلهي لايوازيه أي صدق.

الثالث: إنّ واقع حقائق القرآن وبحور معارفه وعلومه غير متناهية، فإنّه تبيان لكلّ شيء، ومن تلك الأشياء هي كلمات الله تعالى التي لا نفاد لها، كما قال: ﴿**قُلْ لَوْ كانَ البَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي ولَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَدا**﴾[٢]

الرابع: الناقل لهذا الكلام إن لم يكن علمه يحيط بكلّ هذه الحقائق كما أنزلها الله تعالى، فبطبيعة الحال لايمكن أن يكون صادقاً عن الله تعالى الذي أحاط بكلّ شيء علماً، بل غاية ما يمكن أن يوصف به الصدق البشري، وليس الصدق الإلهي.

والنتيجة: أنّ عدم الإمام بعد النبي الواعي والحامل لعلم الكتاب ولعلوم النبي، ليكون هو الناطق عن النبي وعن الله تعالى، يسبّب في كون القرآن والدين بشرياً وليس إلهياً.

فلو فرضنا أنّ كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه، قد حفظه ونقله لنا أناس ليست لهم أية إحاطة ببحور معانيه اللامتناهية، فلايمكن أن يكون صدقهم بدرجة صدق كلام الله تعالى، بل يكون صدق البشر عن الله تعالى، ويكون كلام البشر عن الله وليس كلام الله.

---

(١) النساء: ١٢٢.

(٢) الكهف: ١٠٩.

كيف يمكن أن يكون صدقهم بدرجة الصدق الإلهي، وهم غير واعين لحقائق القرآن والوحي؟

إنّهم لو كانوا مؤتمنين وصادقين، فغاية ما يمكن أن توصف منقولاتهم به هو الصدق البشري، دون الصدق الإلهي، وهذا ما يوجب انعدام وصف الحجية الإلهية عن القرآن.

فلو كان بقاء الوحي والذكر والقرآن بحفظ البشر العادي، من دون إشراف وهيمنة ورقابة إمام معصوم من الخطأ والوارث لعلم الكتاب، لبطلت حجية القرآن والوحي، ولما صح إسناد هذه الألفاظ إلى الله تعالى، وكان ذلك افتراء عليه تعالى.

كما ترى في المثال السابق أنّ إسناد كتاب علمي لمؤسّسة أو معهد رفيع المستوى في العلم، إن لم يكن بإشراف الممثل الواعي لعلوم المؤسسة، يكون افتراء عليها حتى ولو كان الناقلون من تلامذة نفس المعهد، نعم كلامهم حجة لكن بقدر حدود علمهم لابقدر وطراز ذلك المعهد، فيأتي الافتراء في نسبة كلامهم للطراز العلمي لذاك المعهد وإنما لايكون افتراء إذا كان نقله لكلام تلك الجهة العلمية، تحت إشراف ونظر الممثل لتلك الجهة الواعي لعلومها.

وهذا مؤدى قول الله تعالى: ﴿قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾.(١)

فجعل الإسناد إلى الله تعالى دون الترخيص افتراء، حتى لو سمعه السامع عن النبي أو الإمام، والترخيص إنما يكون بعد إشراف وتدبير حجة الله تعالى والممثل للدولة الإلهية الذي يمتاز عن الآخرين بتزويده بالعلم اللدني وتأييده بروح القدس.

وإنكار حجة الله يُفقد الآخرين حجيتهم، كما لو أنكر الفرع الذي ينسب نفسه

(١) يونس: ٥٩.

لشركة أو جامعة معينة، أن يكون يعمل تحت تدبير واشراف الممثل الرسمي لتلك الجامعة، فبمجرّد أنّ ينكر ذلك، تسقط شرعيته واعتباره.

من هنا فإسناد الدين والقرآن إلى الله، لولا وجود ورعاية الإمام الحي المتصدي والمتصرف بالفعل في الأمور، يكون افتراء عليه تعالى.

كلام السيد المرتضى علم الهدى

السيد المرتضى (المتوفى: ٤٣٦ الهجرية) وهو من أعاظم متكلمي الشيعة في القرن الرابع والخامس وتلميذ الشيخ المفيد، ادّعى إجماع الطائفة والمذهب على أن حجية التراث الحديثي الواصل إلينا إنما لأجل وجود الإمام الحي الحافظ لها، فالحجة هو الإمام الحي وبحجيته تتم حجية الأحاديث، قال رحمه الله:

«إنّ الفرقة المحقّة القائلة بوجود إمام حافظ للشريعة هي عارفة بما نقل من الشريعة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وما لم ينقل عنه، فبما نقل عن الأئمة القائمين بالأمر بعده عليهم السلام، وواثقة بأنّ شيئاً من الشريعة يجب معرفته لمن لم يخل به من أجل كون الإمام من ورائها».

بل ادّعى أنّه لايعول على النقل المتواتر لبقاء القرآن ولبقاء الدين بوصف كونه وحيانياً، إلا إذا كان تحت رعاية مباشرة من الإمام، قال رحمه الله في الرد على القاضي عبد الجبار المعتزلي حيث زعم أنّ وجود التواتر يغني عن الإمام في حفظ الدين:

«فأمّا إلزامك تجويز حفظها بالتواتر على حدّ ما كانت تصل الأخبار في حياة الرسول صلى الله عليه وآله إلى من غاب عنه فقد رضينا بذلك، وقنعنا بأن نوجب في وصول الشريعة إلينا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله ما نوجبه في وصوله إلى من غاب عنه حال حياته، لأنا نعلم أنّها كانت تصل إلى من بَعُدَ عنه صلوات الله عليه وآله

بنقل وهو عليه السلام من ورائه، وقائم بمراعاته، وتلافي ما ثلم فيه من غلط وزلل، وترك الواجب، فيجب أن يكون من وراء ما ينقل إلينا بعد وفاته من شريعته معصوم يتلافى ما يجري في الشريعة من زلل وترك الواجب كما كان ذلك في حياته وإلّا فقد اختلف الحال، وبطل حملك أحدهما على الأخرى.

فأمّا قولك: «لزمهم إثبات حجّة وهو عليه السلام حيّ».فعجيب، وأي حجّة هو أكبر من النبي المعصوم المؤيّد بالملائكة والوحي صلوات الله عليه [و آله]؟!.

و كيف تظنّ أنّا إذا أوجبنا أن يكون وراء المتواترين حجّة أن لا نكتفي بالنبي صلى الله عليه وآله وهو سيّد الحجج في ذلك».

و كرر رحمه الله أن بقاء القرآن والدين ليس بالتواتر ولا نقل الرواة إلا بعد كون الإمام من ورائه، إلى أن قال في نهاية المطاف:

«فقد بيّنا أنّا قد عرفنا أكثر الشريعة ببيان من تقدّم من آبائه عليهم السلام، غير أنّه لا نقضي الغنى في الشريعة من الوجه الذي تردد في كلامنا مراراً».(١)

(١) الشافي في الإمامة: ج١، ص: ١٧٩ - ١٨١.وقال أيضاً:
«فأمّا هذه الطريقة التي حكيتها آنفاً فترتيب الاستدلال بها على خلاف ما رتبته وهو أن يقال: قد علمنا أن شريعة نبيّنا عليه السلام مؤبدة غير منسوخة، ومستمرة غير منقطعة، فإنّ التعبّد لازم للمكلّفين إلى أوان قيام الساعة، ولا بدّ لها من حافظ، لأنّ تركها بغير حافظ إهمال لأمرها، وتكليف لمن تعبّد بها ما لا يطاق، وليس يخلو أن يكون الحافظ معصوماً أو غير معصوم، فإن لم يكن معصوماً لم يؤمن من تغييره وتبديله، وفي جواز ذلك عليه- وهو الحافظ لها- رجوع إلى أنّها غير محفوظة في الحقيقة، لأنّه لا فرق بين أن تحفظ بمن جائز عليه التغيير والتبديل والزلل والخطأ وبين أن لا تحفظ جملة إذا كان ما يؤدي إليه القول بتجويز ترك حفظها يؤدي إليه حفظها بمن ليس بمعصوم، وإذا ثبت أنّ الحافظ لا بدّ أن يكون معصوماً استحال أن تكون محفوظة بالأمّة وهي غير معصومة، والخطأ جائز على آحادها وجماعتها، وإذا بطل أن يكون الحافظ هو الأمّة فلا بدّ من إمام معصوم حافظ لها.
و هذا على خلاف ما ظنّه صاحب الكتاب لأنّ من أحسن الظنّ بأصحابنا لا يجوز أن يتوهم عليهم

برهان الأمن

المسؤول عن حفظ الأمن لابد وأن يكون عالماً بجميع خفايا وأسرار ذلك الشيء، فلا يؤتمن لرعاية أمن البلد من لايعرف شيئاً عنه، وعليه فلا يؤتمن لحفظ القرآن والوحي الا من يلمّ بعلم القرآن والوحي وكلمات الله تعالى التي لانفاد لها.

برهان التأويل

إن القرآن مشتمل على التأويل وهو غير التنزيل، كما أنّ للقرآن ظهراً وبطناً، وبطونه كثيرة تصل إلى السبعين وأزيد من ذلك، والوحي الإلهي مشتمل على التنزيل والتأويل والظاهر والباطن، والقسم الأعظم من الوحي إنما هو في التأويل والبطون، بل التأويل لانفاد له كما بيّن في آيات عديدة من أنّ القرآن تبيان لكلّ شيء، وأنّه لارطب ولا يابس إلا فيه.

و الصحابة والرواة لو كانوا في أعلى درجات الصدق والوثاقة والتقوى إنما يحفظون التنزيل، فلو لم يكن إمام حامل لعلم التأويل لبطل القسم الأوفر من الوحي وهو بطلان للرسالة.

الأسئلة

١ .هل الحافظ لشيء يمكن أن يكون حافظاً لكل شيء؟ وماهي المتغيرات التي تؤثر في أن يختلف الأشخاص في قابلياتهم لحفظ وحراسة الأشياء؟

الاستدلال بهذه الطريقة مع تصريحهم في إثباتها بما يوجب الاختصاص بشريعتنا هذه على وجوب الإمامة في كلّ عصر وأوان، وقبل ورود الشرع».

٢.لِمَ لايستأهل الجن والإنس برمتهم أن يكونوا حفاظاً للوحي الإلهي، وما الضير في ذلك لو أوكلت إليهم هذه المهمّة؟

٣.ما معنى قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.؟

٤.ما الفرق بين الصدق الإلهي والصدق البشري؟

٥.ما المقصود بتأويل القرآن، ولماذا ليس من شأن الأمة حفظ التأويل؟

٦.بيّن الملازمة بين فقدان الإمام وبين تعطيل الوحي وعدم إمكان نسبة القرآن إلى الله تعالى.

٧.ما هي الجهات اللازمة توفرها في الأمين والحافظ؟

الدرس الخامس والعشرون: ضرورة وجود الإمام بعد النبي (٢)

زوال الدين بزوال الإمام

تلخيص وتعقيب

إنّ من يعرف عظمة القرآن وسعة معلوماته التي تكون: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.(١)

وأنه: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾.(٢)

ومن يقف على عظمة خلق النبي صلى الله عليه وآله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.(٣)

ويعرف معنى انشراح صدره: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.(٤)

ويعلم مدى علمه وحكمته التي آتاه الله تعالى إياه: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.(٥)

وأنّه وحي يوحى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۝ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾.(٦)

---

(١) النحل: ٩٨.

(٢) الأنعام: ٥٩.

(٣) القلم: ٤.

(٤) الإنشراح: ١.

(٥) النساء: ١١٣.

(٦) النجم: ٢ - ٤.

لايتردد، أنّ البشر العادي ليس بوسعه أن يكون وارثاً لهذا النبي ويحفظ كل هذا العلم والحكمة والوحي، حتى لو كان في أعلى درجات الأمانة والتقوى.

فكيف بمن فيهم البر والفاجر، ومن لايعرف ألفاظ القرآن ومعانيه، بل لايعلم أن هنالك آية في القرآن لبيان أبسط المسائل الشرعية كحكم التيمم![1]

فلولا الإمام القائم مقام النبي والحامل للروح القدسية التي بها يستوعب علم النبي، لمات الدين والقرآن بموت النبي، ولكان الله جل جلاله قد ضيَّع من في أصلاب الرجال إلى يوم القيامة.

بيان احتجاج هشام بن الحكم

هذا هو مودّىٰ احتجاج هشام بن الحكم على الرجل الشامي الذي احتج عليه بمحضر من الإمام الصادق عليه السلام.

الكافي: ... قَالَ لِلشَّامِيِّ: يَا هَذَا أَرَبُّكَ أَنْظَرُ لِخَلْقِهِ أَمْ خَلْقُهُ لِأَنْفُسِهِمْ؟

فَقَالَ الشَّامِيُّ: بَلْ رَبِّي أَنْظَرُ لِخَلْقِهِ.

---

(١) في سورة النساء: ٤٣ والمائدة: ٦.
روى مسلم في صحيحه في باب التيمّم بأربعة طرق عن عبد الرحمن ابن أبزي: إنّ رجلًا أتى عمر فقال: إنّي أجنبت فلم أجد ماءً فقال عمر: لا تصلِّ. فقال عمّار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سريّة فأجنبنا فلم نجد ماءً، فأمّا أنت فلم تصلِّ، وأمّا أنا فتمعّكت في التراب وصلّيت، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله «**إنّما كان يكفيك أن تضرب بيديك الأرض ثمّ تنفخ ثمّ تمسح بهما وجهك وكفّيك**».، فقال عمر: اتّق الله يا عمّار، قال: إن شئت لم أُحدّث به، وفي لفظ: قال عمّار: يا أمير المؤمنين إن شئت لِما جعل الله عليّ من حقّك أن لا أُحدّث به أحداً، ولم يذكر. (صحيح مسلم: ١/ ٣٥٥ ح ١١٢ كتاب الحيض، سنن أبي داود: ١/ ٨٨ ح ٣٢٢، سنن ابن ماجة: ١/ ١٨٨ ح ٥٦٩، مسند أحمد: ٥/ ٣٢٩ ح ١٧٨٦، السنن الكبرى: ١/ ١٣٤ ح ٣٠٣- ٣٠٥.)
وللاطلاع على تفاصيل الحدث، راجع: الغدير للعلامة الاميني: ج ٦ ص ١٣٠.

قَالَ: فَفَعَلَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ مَا ذَا؟

قَالَ: أَقَامَ لَهُمْ حُجَّةً وَدَلِيلًا، كَيْلَا يَتَشَتَّتُوا أَوْ يَخْتَلِفُوا، يَتَأَلَّفُهُمْ وَيُقِيمُ أَوَدَهُمْ وَيُخْبِرُهُمْ بِفَرْضِ رَبِّهِمْ.

قَالَ: فَمَنْ هُوَ؟

قَالَ: رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله.

قَالَ هِشَامٌ: فَبَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله؟

قَالَ: الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

قَالَ هِشَامٌ: فَهَلْ نَفَعَنَا اليَوْمَ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فِي رَفْعِ الِاخْتِلَافِ عَنَّا؟

قَالَ الشَّامِيُّ: نَعَمْ.

قَالَ: فَلِمَ اخْتَلَفْنَا أَنَا وَأَنْتَ وَصِرْتَ إِلَيْنَا مِنَ الشَّامِ فِي مُخَالَفَتِنَا إِيَّاكَ؟

قَالَ: فَسَكَتَ الشَّامِيُّ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام لِلشَّامِيِّ: **مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ؟**

قَالَ الشَّامِيُّ: إِنْ قُلْتُ لَمْ نَخْتَلِفْ كَذَبْتُ، وَإِنْ قُلْتُ إِنَّ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ يَرْفَعَانِ عَنَّا الِاخْتِلَافَ أَبْطَلْتُ، لِأَنَّهُمَا يَحْتَمِلَانِ الوُجُوهَ، وَإِنْ قُلْتُ قَدِ اخْتَلَفْنَا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا يَدَّعِي الحَقَّ فَلَمْ يَنْفَعْنَا إِذَنِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ. إِلَّا أَنَّ لِي عَلَيْهِ هَذِهِ الحُجَّةَ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: **سَلْهُ تَجِدْهُ مَلِيّاً.**

فَقَالَ الشَّامِيُّ: يَا هَذَا مَنْ أَنْظَرُ لِلْخَلْقِ أَرَبُّهُمْ أَوْ أَنْفُسُهُمْ؟

فَقَالَ هِشَامٌ: رَبُّهُمْ أَنْظَرُ لَهُمْ مِنْهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ.

فَقَالَ الشَّامِيُّ: فَهَلْ أَقَامَ لَهُمْ مَنْ يَجْمَعُ لَهُمْ كَلِمَتَهُمْ وَيُقِيمُ أَوَدَهُمْ وَيُخْبِرُهُمْ بِحَقِّهِمْ مِنْ بَاطِلِهِمْ؟

قَالَ هِشَامٌ: فِي وَقْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَوِ السَّاعَةَ؟

قَالَ الشَّامِيُّ: فِي وَقْتِ رَسُولِ اللهِ، رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَالسَّاعَةِ مَنْ؟

فَقَالَ هِشَامٌ: هَذَا القَاعِدُ الَّذِي تُشَدُّ إِلَيْهِ الرِّحَالُ، وَيُخْبِرُنَا بِأَخْبَارِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وِرَاثَةً عَنْ أَبٍ عَنْ جَدٍّ ...[1]

فإنّ مركز الخلاف فيما بين هشام والرجل الشامي، إنما في وجود وبقاء الحجة بعد رسول الله ﷺ ليحتج بها عند بروز الاختلاف.

والسؤال: هل يمكن للقرآن والسنة الصامتين دون وجود الإمام أن يرفعا الاختلاف؟

الجواب: تارة يوجد شيء فيه قابلية رافعية الاختلاف، لكن يبقى الاختلاف لإدبار الناس عنه، كما لو أرسل الله تعالى نبياً فأعرض الناس عنه، وأخرى من أجل عدم وجود ما يصلح لرفع الاختلاف، ويدّعي هشام انّ الكتاب والسنة الصامتين من دون وجود الإمام الحي من القسم الثاني.

و ذلك لإنّ الوحي أُفقه فوق أفق فهم وعقل البشر، ومن ثم احتاج البشر إلى النبي، إذ لو كان بمستوى عقولهم وإدراكهم لم يحتاجوا إلى النبي، ومن البديهي أن الحافظ لكل علم لابد وأن يكون بمستوى ذلك العلم، وإلا فيتنزل العلم بقدر سعة علم الحافظ، كما أنّ علم الأستاذ يتنزّل بقدر فهم التلميذ، ولن يحفظ التلميذ من علم الأستاذ إلا بمقدار

---

(١) الكافي: ج ١ ص ١٧٢.

وعاه من علمه، وهكذا.

فلو كان الحافظ للوحي هم الصحابة لتنزّل الوحي إلى أفق الطاقة البشرية، فيتضيّق لضيق المسار والحافظ.

كيف يكون البشر العادي حاملاً للمعاني والحقائق الوحيانية التي تكون فوق الطاقة البشرية، لاسيما بعد سعيهم في منع تدوين الحديث ورواج سوق الكذابين وغيره من المؤثرات التي تسلب عن الوحي صفة الحجية الوحيانية.

ففي حالة عدم الإمـام المعصوم لاتكون حجية الكتاب والسنة حجية إلهية ووحيانية، بل يكون مستواه مستوى حجية العقل البشري، وهو رجوع عن الحاجة إلى لوحي الذي يفوق عقل البشر، فبقاء الوحي بالبشر لايفرق عن حالة عدم إرسال الرسول، وذلك للإشكال في المتلقي والحافظ دون المُلقي.

الحجة الظاهرة والحجة المغمورة

و من هنا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**هَا إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً - وأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ - لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَة ... كَذَلِكَ يَمُوتُ العِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ، اللهُمَّ بَلَى لَا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ للهِ بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً وإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وبَيِّنَاتُه ..**».[١]

أكّد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على أن بقاء حجج الله تعالى وبيناته التي من أعظمها هو كتاب الله تعالى العزيز، لن تكون إلا بوجود حجج إلهية أقامهم الله تعالى ليكونوا قائمين لله تعالى بحججه، وهم الحاملون لعلم الرسول ولعلم القرآن بتنزيله وتأويله، فإن قلبهم يعي لذلك.

---

(١) نهج البلاغة: حكمة ١٤٧.

و هم يمارسون دورهم في حفظ هذه البينات الوحيانية، عبر طريقين: إما التصرفات الظاهرية العلنية، أو تصرفات غيبية مغمورة، إلا أنّـه لاتتعطل تلك الفعاليات والتصرفات، فإنّ تعطيلها يساوي تعطيل الحجج والبينات الإلهية، لأنّ غيرهم لايعي تلك العلوم الوحيانية فكيف يحفظها ويحرسها؟

و إنما يكون الإبطال بفقد الراعي المعصوم.

و حفظه ورعايته لها لايناط بحضوره وظهوره، بل هو يبقى فاعلاً ونشطاً حتى مع كونه حجة مغمورة وغائبة، نعم هو لايراعيها بطرق غيبيه بحتة، بل بأسباب ظاهرية وعقلائية، وإن خفيت الأسباب عن العقلاء.

و من السذاجة بمكان، توهم أنّ حفظ الوحي والقرآن متوقف على التصرف الظاهري المعلن، وإنكار التصرفات الغيبية السرية الخفية عن عامة الناس.

و في المثال السابق جعل غياب الممثل من قبل الشركة عن أعين العمال الذين يشتغلون في فرع من تلك الفروع، ذريعة لإنكار وجوده، من أكبر الجهالات، فإنّ نفس بقاء هذا الفرع أقوى دليل على وجود الممثل وفاعليته، وإلا لكانت تلك الشركة تتخذ موقفاً أمام هذا التزوير ولم يرضَ ببقائه، وهو أحد تفاسير الروايات الواردة في أنّه لو خلت الأرض ساعة بغير حجة لساخت بأهلها.(١)

و هو يرجع إلى نفي التفويض وأنّه تعالى ليس بمنعزل عن سلطانه، لينتج البشر إنتاجاً دون تقرير وتأييد حجة الله تعالى ثم لايحرك ساكناً، فإن الإسناد إلى جهة علمية عالية المستوى دون الإذن منه افتراء، وبقاءَه ساكتاً دليل عجزه وضعفه، والله تعالى منزّه عن ذلك.

---

(١) الكافي: ج١ ص١٧٩.

نعم رعاية الإمام للدين وحفظه ذات مراتب، ففي عصر الغيبة انما يحفظ السقف الأدنى وهو المسار العام للدين، دون السقف الأعلى من كمال البرنامج الإلهي الذي حُرمنا عنه من أجل غصب الخلافة والغيبة، فإن ذلك يكون في عصر الظهور.

ومن الغفلة أن نقصر دور الإمام في التصرف العلني الظاهر، والمثال الواضح لذلك العبد الصالح الخضر، حيث منع الظالم من أخذ سفينة المساكين، والملك المسكين زعم أنه هو الذي اختار أن لا يأخذ السفينة، ولايدري أنه عجز أمام قدرة الخضر وهو الذي منعه عن ذلك، فالذي يتحكم هو الخضر وليس ذلك الملك.

وكذلك في قتل الغلام بأمر الله تعالى، حال دون نمو طاغية يطغى على أبويه فيلجئهما للكفر، فينتج منه بيئة فاسدة وظلمانية في المجتمع البشري، فعوض الله تعالى الأبوين بجارية ولد منها سبعون نبياً، فضخّ هذا الكم من الأنبياء والحيلولة دون وجود هذا الطاغي أمر لا يأتي في حسبان من يدّعي أنّ بيده مركز القدرة.

واليتيمان لم يدريا يوماً أنّ الخضر هو الذي هداهما لكنز أبيهما، وزعما أن ذلك بقدرة نفسيهما بينما مركز التحكم بيد الخضر.

نعم إنما يحفظ الإمام ويراعي السقف الأدنى من الرعاية للحجج الوحيانية والعقلية في عصر الغيبة، وأما الرعاية بمقدار السقف الأعلى فسيكون بعد ظهور الأمر على يدهم صلوات الله عليهم.

وقد جاء الاستدلال بهذا البرهان في مناظرة هشام مع عمرو بن عبيد، حيث قال إن الجوارح مع أنّها صحيحة وسليمة إلا أنها تحتاج للجهة الرقابية المهيمنة عليها، فبالاعتماد عليها أولاً تكتسب الجوارح الحجية ثانياً، ولولا القلب لم يمكن الاعتماد على الجوارح مع أنها تبصر وتسمع وتذوق وتلمس وتتحرك، إلا أن العاصم لها عن الخطأ

والحافظ لها هو القلب والعقل.(١)

---

(١) ... (قال هشام بن الحكم) فقلت له: «ألك عين؟ فقال يا بني أي شي هذا من السؤال؟ وشئ تراه كيف تسأل عنه؟ فقلت هكذا مسألتي فقال يا بني سل وإن كانت مسألتك حمقاء قلت: أجبني فيه قال: لي سل، قلت: ألك عين؟ قال: نعم قلت: فما تصنع بها؟ قال: أرى بها الألوان والاشخاص، قلت: فلك انف؟ قال: نعم قلت: فما تصنع به؟ قال: أشم به الرائحة قلت: ألك فم؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أذوق به الطعم، قلت: فلك أذن؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع بها؟ قال: أسمع بها الصوت، قلت: ألك قلب؟

قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أميز به كلما ورد على هذه الجوارح والحواس، قلت: أوليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟ فقال: لا، قلت: وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة، قال: يا بني إن الجوارح إذا شكّت في شيء شمته أو رأته أو ذاقته أو سمعته، ردته إلى القلب فيستيقن اليقين ويبطل الشك، قال هشام:

فقلت له: فإنما أقام الله القلب لشك الجوارح؟ قال: نعم، قلت: لابد من القلب وإلا لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم، فقلت له: يا أبا مروان فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح ويتيقن به ما شك فيه ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم، لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكك؟!» (الكافي: ج١ ص ١٧٠).

فلولا أنّ الحواس تحت إشراف ورقابة العقل، لتنزلت حجيتها إلى مقدار حجية حواس الحيوان غير العاقل، وإنما ارتقت حجية الإدراك المحسوس عن الرتبة الحيوانية إلى الرتبة الإنسانية لأجل وجود العقل ورقابته وهيمنته على الحواس، فلولاه، وفرضنا أنّ الحواس صحيحة سليمة إلا أنّها لاتزيد أن تكون إدراكاً حيوانياً وليس انسانياً، فإنّ هناك فارقاً كبيراً بين الإدراك المحسوس للإنسان والإدراك المحسوس للحيوان، فإنّ العقل هو الذي يصحح كثيراً من أخطاء الحس وهذا ما لايملكه الحس الحيواني.

وهكذا لو كان أمر حفظ الوحي على عاتق الأمة وهم بشر وإدراكهم وحجيتهم دون الحجية والإدراك الوحياني، لتنزلت حجية الوحي من كونه إلهياً فيكون بشرياً.

نعم بعد فعلية دور العقل الرقابي تصعد حجية أعضاء البدن والحواس ويستعين العقل بها، كما يستعين الإمام المعصوم بالأمة لحفظ الدين والوحي، فتتفعّل أدوارهم بإدارة ورقابة الإمام الحي الناطق بأمر الله تعالى.

الأسئلة

١. ما الملازمة بين سعة آفاق القرآن وعظمة روح النبي صلى الله عليه وآله وخلقه وعلمه وحكمته، وبين لزوم وجود الإمام من بعده؟

٢. ما هو منشأ وجود الاختلاف بين الناس، وأي من تلك االمناشيء يستحيل أن يكون من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأنه يلزم منه أن يكون الله تعالى قد ضيّع من في أصلاب الرجال؟

٣. ما هي نقطة تأكيد احتجاج هشام بن الحكم مع الرجل الشامي؟

٤. لماذا لايمكن النقض على هشام بوجود الاختلاف عند الشيعة؟

٥. هل حفظ الإمام للقرآن وللوحي متوقف على ظهوره وتصرفه المعلن؟ ولماذا؟

٦. هل الغيبة تمنع الإمام من ممارسة دوره في حفظ الدين؟ اذكر نموذجاً قرآنياً لذلك.

٧. ما الفرق بين عدم الإمام وبين الإمام الغائب؟

الدرس السادس والعشرون: صفات الإمام (١)

مقومات مقام الإمامة عند الشيعة الإمامية

توطئة: في تحرير محل النزاع

إنّ النزاع التاريخي الواقع بين الفريقين - الشيعة والسنة - لم يكن مقتصراً على مجرد الزعامة الدنيوية، فأهل بيت النبي عليهم السلام لم يكونوا يقتصرون في دعواهم على أنّهم مجرد زعماء ورؤساء في الأمور الدنيوية، ولم يكن نزاعهم مع مناوئيهم في تقلّد السلطة الظاهرية فحسب، بل كانوا يركّزون على مقامات غيبية واصطفائية عظيمة لأنفسهم، ويدعون أنّ عندهم قناة للاتصال بالغيب، وأنّهم خلفاء الله تعالى في الأرض ووارثون لعلم الكتاب، وهكذا شيعتهم كانوا يدعون فيهم هذه المقامات.

ومن جانب آخر لازال الطرف الآخر يتّهم الشيعة الإمامية بأنّهم غلاة، وأنّهم اتخذوا أئمتهم أنبياء أو أرباباً من دون الله تعالى، كما ملئت بذلك كتب الرجال وتراجم العامة.

فالنزاع من الطرفين واقع على الإمامة بمعناها الاصطفائي الغيبي والملكوتي، فحرف النزاع، إلى النزاع في الزعامة الدنيوية، أو مقامات بشرية يمكن لكل إنسان أن يصل إليها كمقام علماء أبرار، تحريف لواقع الأمر وخروج عن محل النزاع.

و المُراجع لأبسط كتاب روائي إمامي، ككتاب الحجة من أصول الكافي[1]، أو

(١) لثقة الإسلام محمد بن يعقوب بن إسحاق؛ الكليني، الرازي، المتوفى سنة ٣٢٩ في بغداد، وكان

كتاب بصائر الدرجات للصفار القمي[1] - الذي بغض النظر عن اعتبار رواياته-، يعكس صورة تاريخية مسندة عما كان يدار في القرن الأول إلى القرن الرابع فيما بين الأصحاب واتجاهاتهم الفكرية - يجد بوضوح أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يدعون لأنفسهم مقامات غيبية وملكوتية مهولة وعظيمة.

و عليه فلو أردنا أن نتّخذ موقفاً في مبحث الإمامة، فلابد من جعل محل النزاع إثباتاً ونفياً في هذا الواقع التاريخي الموجود، لا أن نتخيّل ونفرض شيئاً وهمياً لم يُتنازع فيه، فنجعله محل النزاع ونبحث حوله.[2]

شيخ الشيعة في وقته بالري ووجههم ثم سكن بغداد، وقد انتهت إليه رئاسة فقهاء الإمامية في أيام المقتدر، وقد أدرك زمان سفراء المهدي عليه السلام، و قد انفرد بتأليف كتاب الكافي في أيامهم.

(١) محمد بن الحسن الصفار ابن فروخ الصفار أبو جعفر الأعرج، المتوفى سنة ٢٩٠.كان الرجل من أصحاب الإمام الحسن العسكري عليه السلام، قال النجاشي فيه: «كان وجهاً في أصحابنا القميين ثقة عظيم القدر راجحاً قليل السقط في الرواية».

(٢) اليك بعض النماذج من هذه الابواب في أصول الكافي:

باب (الفرق بين الأنبياء والرسل والأئمة)

جعل الكليني الإمامة رديف النبوة والرسالة اشارة إلى تعريف الإمامة بالاصطفاء والاجتباء الإلهي، وليس مقاماً يمكن لأي واحد من البشر أن يصل إليه لا بالانتخاب ولا بكسب العلم ولا بالاقتراب بالنوافل.

باب (الفرق بين الرسول والنبي والمحدث).

باب (فرض طاعة الأئمة) مقام فرض الطاعة بمفهومه الوسيع.

باب (أن الأئمة عليهم السلام خلفاء الله عز وجل في أرضه وأبوابه التي منها يؤتى).

باب (في شأن إنا أنزلناه في ليلة القدر وتفسيرها).

باب (فيه ذكر الأرواح التي في الأئمة عليهم السلام).

باب (نادر جامع في فضل الإمام وصفاته).

باب (فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية).

باب (أن الإمامة عهد من الله عز وجل معهود من واحد إلى واحد عليهم السلام).

الأول: حامل العلم الإلهي ومحور الاتصال بين الأرض والسماء بعد النبي صلى الله عليه وآله

مرّ في مباحث النبوّة أنّ:

- حاجة الناس إلى الترفيد من العلم الإلهي والعناية الربانية لن تنتهي بختم الرسالة.
- بل إنّ الرسالة الختمية والقرآن المجيد لكونه تبياناً لكل شيء، فلازال البشر بحاجة إلى من يُرفده من بطون تأويلاته.

و ما ذكر من البرهان على ضرورة النبي ليس مختصاً بالنبوة، بل هو برهان على الحاجة المستمرّة من البشر للوحي والواسطة بين الأرض والسماء إلى الأبد.

و ذاك أنّ وجه الحاجة للواسطة، هو تنزه الله تعالى عن أن يكون في قوى البشر، وأنّ المحدود لايحيط باللامحدود، فيحتاج إلى الترفيد والتعليم والتنبيه، ولن يأتي يوم يستغني البشر عن العلم اللامحدود الإلهي، وكل من ادعى ذلك فقد نفى التنزيه، فإن الله تعالى هو الأكبر وليس العقل الفردي ولا العقل الجمعي ولا الإنسان أكبر.

فمادام:

١. هو أكبر من أن يناله المخلوق.

٢. وأنّ كلماته لانفاد لها.

٣. وأنّ كتابه تبيان لكل شيء.

٤. وأنّ البشر المحدود لايستوعب هذه العلم اللامحدود.

باب (الأمور التي توجب حجة الإمام عليه السلام).

باب (ما يفصل به بين دعوى المحق والمبطل في أمر الإمامة).

فيكون الإنسان بحاجة إلى التزويد والترفيد المستمر من مشكاة العلوم الوحيانية، والعناية الربانية.

و هذا لايتم إلا عبر وجود بشر وحياني على طول الزمان.

فمن أنكر الحاجة لبشر وحياني بعد موت النبي ﷺ يكون هو السبب المتصل بين الأرض والسماء، فهو لايخلو من أمرين:

١. إما يدّعي وصوله وإحاطته للعلم الإلهي، فلا يكون الله تعالى عنده أكبر، ولايحتاج للمزيد من الهداية الربانية.

٢. أو زعم نفاد كلمات الله تعالى، وانتهاء حقائق القرآن والوحي.

و قد عبّر عن هذا المقام في روايات أهل البيت عليهم السلام بمقام المحدَّث، وهو عبارة عن ارتباط الإمام بالغيب وتحديث الملائكة معه وتكليم الله تعالى معه، نظير ما حصل لمريم بنت عمران(١)، ولأم موسى(٢)، وطالوت(٣)، وذي القرنين(٤)، وخضر(٥)، وآصف بن برخيا(٦)، مع أنهّم لم يكونوا أنبياء.(٧)

في الكافي: عن الحارث بن المغيرة قال: «قال أبو جعفر عليه السلام: **إِنَّ عَلِيّاً عليه السلام كَانَ مُحَدَّثاً،**

---

(١) تحديث الملائكة لمريم، راجع سورة مريم: ١٧ – ٢١، وسورة آل عمران: ٤٢ – ٤٦، بل في سورة آل عمران من آية ٤٧ – ٥١ تكليم الله تعالى مباشرة مع مريم دون توسط الملائكة.

(٢) القصص: ٧.

(٣) البقرة: ٢٤٧ – ٢٤٩.

(٤) الكهف: ٨٦.

(٥) الكهف: ٦٥ – ٨٢.

(٦) النمل: ٤٠.

(٧) راجع: أصول الكافي: باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدّث، وباب في أن الأئمة بمن يشبهون ممن مضى وكراهية القول فيهم بالنبوة، وباب أن الأئمة عليهم السلام محدَّثون مُفَهَّمون.

فَقُلْتُ: فَتَقُولُ نَبِيٌّ؟ قَالَ: فَحَرَّكَ بِيَدِهِ هَكَذَا، ثُمَّ قَالَ: **أَوْ كَصَاحِبِ سُلَيْمَانَ، أَوْ كَصَاحِبِ مُوسَى، أَوْ كَذِي القَرْنَيْنِ، أَوَ مَا بَلَغَكُمْ أَنَّهُ قَالَ وفِيكُمْ مِثْلُه؟**». (١)

و في كلّ سنة في ليلة القدر تتنزل الملائكة والروح على الإمام ويخبرونه بكلّ شيء، وهو من جملة بطون القرآن وتأويلاته.

الثاني: وارث علم الكتاب

إن الله تعالى قد نصّ في غير واحد من آيات الذكر الحكيم على أنّ القرآن كتاب أنزله الله تعالى على نبيّه تبياناً لكل شيء، وأنّه لا رطب ولا يابس إلا في الكتاب المبين.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. (٢)

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. (٣)

و في طائفة أخرى من الآيات صرّح بأنّ للقرآن منازل ومراتب عالية، وأنّ تلك المقامات ليست بمتناول أيدي البشر، إنه مكنون ومحفوظ.

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۞ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا المُطَهَّرُونَ﴾. (٤)

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۞ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾. (٥)

كما قال: إنّ الوقوف على تأويل المتشابهات ليس إلا من نصيب الراسخين في العلم:

---

(١) الكافي: ج ١ ص ٢٦٩.

(٢) النحل: ٨٩.

(٣) الانعام: ٥٩.

(٤) الواقعة: ٧٧ – ٧٩.

(٥) الطارق: ٢١ و٢٢

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ﴾.(١)

وأفصح عنهم في آية أخرى بأنّ القرآن بالنسبة اليهم كلّها آيات بينات، ولايوجد عندهم متشابه: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾.(٢)

وذلك لأن المتشابه ما اشتبه عند جاهله، بينما أولئك الذين أورثهم الله تعالى علم الكتاب ولايجهلون شيئاً منه.

وأنّهم هم الوارثون للكتاب: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.(٣)

و هذه الآيات كلّها تبيّن أنّ المساحة المعلومة والمتاحة من القرآن لدى البشر بالنسبة للمساحات الكثيرة المغيّبة عنهم والمكنونة، كقطرة في محيطات البحار، وصرّح بأن الله تعالى أودع هذا العلم عند جماعة من المصطفين سمّاهم بالمطهَّرين والذين أوتوا العلم، والراسخين في العلم والذين اصطفاهم الله تعالى لذلك، وهذه الوراثة لعلم الكتاب ضرورة دينية، لبقاء الكتاب وخلود الدين، وبخلافه سوف يُرفَع القرآن بعدم بقاء الجزء الأكبر منه، وهي تأويلاته وبطونه وحقائقه.

فمن أهمّ شؤون الإمام أن يكون وارثاً لعلم الكتاب، كي لايموت الكتاب بموت النبي.

و يترتب عليه أن الإمام لايجهل شيئاً من تأويل القرآن، ولايمكن أن يكون عنده آية متشابهة، بل يكون الكتاب المجيد عنده تبياناً لكل شيء.

الكافي: عن بريد بن معاوية، عن أحدهما عليهما السلام فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَ ما يَعْلَمُ

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) عنكبوت: ٤٩.

(٣) فاطر: ٣٩.

تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ﴾.

فَرَسُولُ الله أَفْضَلُ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ «قَدْ عَلَّمَهُ اللهُ جَمِيعَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ التَّنْزِيلِ وَالتَّأْوِيلِ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُنْزِلَ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يُعَلِّمْهُ تَأْوِيلَهُ، وَأَوْصِيَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ يَعْلَمُونَهُ كُلَّه..».(١)

بصائر الدرجات والكافي: إبراهيم عن أبيه عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: ... إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتى بَلْ لله الأَمْرُ جَمِيعاً﴾.وَقَدْ وَرِثْنَا هَذَا القُرْآنَ، فَفِيهِ مَا يُقَطَّعُ بِهِ الجِبَالُ ويُقَطَّعُ المَدَائِنُ بِهِ وَيُحْيَا بِهِ المَوْتَى، وَنَحْنُ نَعْرِفُ المَاءَ تَحْتَ الهَوَاءِ.وَ إِنَّ فِي كِتَابِ الله لَآيَاتٍ مَا يُرَادُ بِهَا أَمْرٌ إِلَى أَنْ يَأْذَنَ الله بِهِ مَعَ مَا فِيهِ إِذْنُ الله، فَمَا كَتَبَهُ لِلْمَاضِينَ جَعَلَهُ اللهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ.إِنَّ اللهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾.ثُمَّ قَالَ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾.فَنَحْنُ الَّذِينَ اصْطَفَانَا اللهُ، فَوَرَّثَنَا هَذَا الَّذِي فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ».(٢)

الكافي: عبد الاعلى مولى آل سام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «وَ الله إِنِّي لَأَعْلَمُ كِتَابَ الله مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ كَأَنَّهُ فِي كَفِّي، فِيهِ خَبَرُ السَّمَاءِ وخَبَرُ الأَرْضِ، وخَبَرُ مَا كَانَ وخَبَرُ مَا هُوَ كَائِنٌ.قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ﴾».(٣)

و هذا يؤكّد على أنّ هجر الإمام يكون هجراناً للقرآن، وأنّ التمسك بالقرآن لايمكن دون التمسّك بالإمام، وذاك لأنّ المنازل العالية من القرآن المكنونة المحفوظة التي لايصل إليها ولايمسّها إلا المطهّرون من المصطفين، خارجة عن حيطة إمكانية

(١) بصائر الدريجات: ج١ ص ٢٠٤، الكافي: ج ١ ص ٢١٣.
(٢) بصائر الدرجات: ٦٨، والكافي: ج ١ ص ٢٢٦.
(٣) الكافي: ج ١ ص ٢٢٨.

نيلها من غير الإمام، فترك الإمام من أهل بيت النبي يلازم ترك القرآن ضرورة.

و هذا هو مؤدى حديث الثقلين المتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ أَمَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا- كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ**».(١)

فإنّ الأمان من الضلال رهن التمسك بهما معاً، بل لايمكن إيجاد التفرقة وإفراد الكتاب عن العترة، حتى يتمسّك بأحدهما دون الآخر؛ لأنّ القرآن في كتاب مكنون ولايمسه إلا المطهرون.

و من هنا تعرف أن دعوى (حسبنا كتاب الله)(٢) ليست إلا دعوى مزيّفة، غير قابلة للتحقّق ثبوتاً، فانّ الكتاب الذي يكون مكنوناً ومرفوعاً من أن تناله أيدي البشر، كيف يمكن التمسك به دون التمسّك بالحامل والوارث له؟

---

(١) راجع الملحقات : ملحق رقم(٢).

(٢) راجع الملحقات: ملحق رقم (٣).

الأسئلة

١- كيف يمكن تشخيص مركز النزاع في الإمامة في القرون الأربعة الأولى؟

٢- اذكر نماذج من دعاوى الأئمة والشيعة في القرون الأربعة الأولى، ومواقف علماء العامة تجاه تلك الدعاوى في مسألة الإمامة.

٣- لماذا لاتنتهي الارتباط بالله تعالى وعالم الغيب من بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله؟

٤- ما علاقة تنزيه الباري بلزوم وجود الإمام في كلّ زمان؟

٥- ما علاقة كون القرآن تبياناً لكل شيء ببقاء الإمام في كل زمان؟

٦- ما هو مقام التحديث، واذكر نماذج من القرآن تدل على هذه الظاهرة.

٧- ما معنى وراثة القرآن؟ وما هي ضرورة وجود الوارث للقرآن؟

٨- لماذا تكون دعوى (حسبنا كتاب الله) دعوى مزيفة غير ممكنة ثبوتاً؟

٩- اذكر الآيات الدالة على وجود مساحة كبيرة من علم القرآن غير متاح لعموم الناس الاطلاع عليه.

١٠- ما الدليل على لزوم كون الإمام عالماً بجميع القرآن؟

الدرس السابع والعشرون: صفات الإمام (٢)

الثالث: التوحيد في الحاكمية وخلافة الله تعالى في الأرض

إنّ الإمامة كما مر في تعريفها هي السلطة التنفيذية لجهاز الحكم، ومقام المُلك الإلهي والتمثيل الرسمي عنه تعالى في التدبير والولاية، وبه يتمّ التوحيد في المالكية.

و يتضح ذلك بالإلتفات إلى أنّ:

كلّ مؤسسة وحكومة ونظام ودولة، لن تكون ذات سيادة إلا بعد أن تكون بيدها السطة التشريعية والتنفيذية معاً، فإنّ سياسة التدبير والتطبيق للقوانين، وتنشيط القانون وتفعيله في المجتمع غير أصل التشريع والتقنين، والدولة إنما تكون لها سيادة واستقلال إذا كان بيدها تنفيذ القوانين واجراؤها أيضاً، ومجرد كونها مصدراً للتشريع والتقنين لا يضمن لها أية سيادة واستقلال.

وفي نظام الحكم الإلهي - شأن أي نظام آخر - توجد تقنينات وتشريعات تشمل جميع مناحي الحياة الدنيوية والأخروية، فهذه التقنينات والتشريعات لو لم يكن أمر تنفيذها وإجرائها بيد خليفة الله تعالى - كما كان أصل التقنين والتشريع بيد رسول الله صلى الله عليه وآله - فهذا يعني أنّ الدولة الإلهية لاسيادة لها، وأن يكون الله تعالى منعزلاً عن ولايته وربوبيته، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

فربوبية الرب تستلزم أن تكون بيده سياسة تنفيذ التشريعات والقوانين التي شرّعها وقنّنها في القرآن الكريم، والإمام هو الممثل للدولة الإلهية، والمسؤول عن تنفيذ

سياساتها في الأرض، وبخلافه يكون الله تعالى معزولاً عن سلطانه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾.(١)

يظهر من الآية الكريمة، أن القرآن مشتمل على سياسات وتشريعات دقيقة تعالج مشكلة الخوف وتوجب بسط الأمن بشتى أقسامه من الأمن الاجتماعي والمدني والبيئي والعسكري والسياسي والاقتصادي والزراعي والأسري والأخلاقي وغيرها.

لكن لايستنبطها ويعرفها ويقدر على تطبيقها، سوى الرسول صلى الله عليه وآله وأولي الأمر عليهم السلام.

فأنت لاتجد أية دولة أوحكومة، تكتفي بجعل القوانين والتشريعات، ليكون مجال التنفيذ والإجراء لغيرها، كلاّ! إنّه انعزال وترك للسيادة والحكم، ومع ذلك فلن تأخذ القوانين مجراها في المجتمع لو لم تكن سياسة التدبير والتنفيذ بيد الدولة نفسها.

بل إنّ تفريغ ساحة التنفيذ والعمل التدبيري الميداني بالقوانين، هو بعينه فتح الباب على مصراعيه للعدو، ليأخذ بيده مصير البلد ويتغلب عليها ويحتلّها ويستعمرها! وحينها لن تفيد الدولة قوانينها!

ففي جميع الأعراف العقلائية لايكون الإقرار بسيادة الدولة، إلا بعد الإقرار بأن لها السلطة في التشريع والتنفيذ معاً، فمن أقر بالسلطة التشريعية دون التنفيذية، يُعَدُّ مخالفاً ومعارضاً للدولة، ولايجتمع إنكار صلاحية رئيس الوزراء والجهات التنفيذية للدولة، مع قبول سيادة الدولة، كما لم يقبل من إبليس إقراره بعزة الله تعالى، بعد إبائه عن قبول ولاية خليفة الله تعالى، والسجود له وطاعته واتباعه في مجريات الأمور، فكان من الكافرين.

---

(١) النساء: ٨٣.

فالإقرار بربوبية الرب لايتمّ إلا بعد الإقرار بخليفته وممثله الرسمي، وأنّه هو المتصرّف في تنفيذ هذه الإجراءات والتقنينات، وهذا هو التوحيد في الحاكمية، ومن هنا جاء في بعض الروايات بعد بيان شأن الإمامة: إلى ههنا التوحيد.

عن الهيثم بن عبد الله الرماني، عن علي ابن موسى الرضا صلوات الله عليه، عن أبيه، عن جده محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام فِي قَوْلِهِ: ﴿**فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها**﴾.قَالَ: **هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيُّ اللهِ، إِلَى هَاهُنَا التَّوْحِيد.**[١]

أي إنّ معرفة الإمام من فروع التوحيد، فإنّه من دون الاعتقاد بالإمام لايتم التوحيد.

و ذلك؛ لأنّ التوحيد حقيقة واسعة وليست فقط في الألوهية والعبادة، دون السلطة التشريعية والتنفيذية والولاية والحاكمية، ومن هنا جعل في القرآن طاعة الأحبار والرهبان بمعنى اتخاذهم أرباباً دون الله تعالى، مع أنهم لم يتّخذوهم آلهة، فقال: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ**﴾.[٢]

و ذلك لأنّ هذه الأمور كلها من شؤون توحيد الله تعالى وربوبيته، فالنبوة إقرار بأن السلطة التشريعية لله تعالى والإمامة إقرار بالسلطة التنفيذية له تعالى.

عدم إمكان زوال مقام خليفة الله تعالى

و هذه السلطة التنفيذية للإمام غير قابلة للزوال عنه، ولايمكن أخذها منه، ولايُغلَب خليفة الله تعالى ابداً، لأنّ ذلك يرجع لغلبة سلطان الله تعالى وقاهريته، نعم

(١) تفسير علي بن إبراهيم، عنه: بحار الانوار: ج ٣ ص ٢٧٧.
(٢) التوبة: ٣١.

إنّها قابلة للاشتداد والضعف، ففي حال إقبال الناس وتولّيهم للإمام ومبايعتهم له، سوف يتصدى للحكم الظاهري العلني ويراعي السقف الأعلى من الصلاح في إجراء سياسات الدولة الإلهية في الأرض، وفي حال إدبارهم يمارس دوره في السقف الأدنى من الصلاح بطرق غير ظاهرة للناس، نظير فعاليات الخضر في حفظ أموال المساكين من مصادرة الغاصبين (تعييب السفينة)، وحفظ أديانهم من غطرسة الطواغيت (قتل الغلام)، وتهيئة الطريق للوصول إلى استحقاقاتهم (بناء الجدار)، كل ذلك كان ينفّذه الخضر بسريّة تامة لم يتحمّلها النبي موسى عليه السلام، وكان فيها منفّذاً لإرادات الرَّبُّ المتعال، كما قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.[1]

فللّه تعالى نمطان من الحجج؛ حجة ظاهرة كنبي الله موسى، وحجة مغمورة كالعبد الصالح الخضر، وهذا التنويع في الحجج الإلهية أكّد عليه القرآن، كما أكّد على أنّ سياسات الدولة الإلهية تبقى محفوظة وغالبة وقاهرة، ببركة هذين النمطين من الحجج.

الرابع: الصاحب والمتصدي للهداية الإيصالية

إنّ الإنسان في سلوكه الصراط المستقيم يحتاج إلى الهداية الإيصالية زائداً على حاجته للهداية الإرائية، فَإنَّك ترى أنّ وجود القوانين الصالحة والنصائح الحسنة والمواعظ وغير ذلك مما يصبّ في تعيين طريق الخير والصلاح والرشد، لاتكفي وحدها لصلاح الناس، بل لابد من وجود من ينزل في الشارع ويخطّط ويدبّر ويسيّس لتلك القوانين، فيكون مصاحباً للناس في سلوكهم.

مثلاً: إنّ الأب الراعي للأطفال لايكتفى بمجرد إعطائهم النصائح، بل يحاول بطريقة أو بأخرى أن يهديهم للذي يرى فيه الخير والرشد، بتدبيراتٍ بعضها ظاهرة

(١) الكهف: ٨٢.

وبعضها تبقى مخفية عنهم، وكذلك الدولة والمؤسسات التعليمية، لاتكتفي بمجرد إرائة الطريق وإعطاء المعلومات، بقدر ما تحاول أن تسهّل للناس طريق التعلّم، وتسيّس لهم ليستفيدوا أقصى قدر الإمكان من الإمكانيات المتاحة، وترفع العوائق عن سبيل من يبتغي العلم والمعرفة، وغير ذلك مما هو من وظائف الجهات التربوية والحكومية، وهكذا في كلّ نظام له قوانين وغاية محددة تريد أن تسيّر المجتمع نحوها.

وقد أكّد الله تعالى في آيات عديدة على التفرقة بين هذين النمطين من الهداية؛ الإرائية والإيصالية، وأنّ الأول منهما من وظائف النبوّة، والثاني من شؤون الإمامة، سواء كان ظاهراً مشهوراً، أم خائفاً مغموراً.

وذلك لانّ تسييس المجتمع والتخطيط له لايتوقف على الظهور والشهرة، بل نرى اليوم أنّ أكثر التخطيطات الاستراتيجية المهمة في العالم، إنما يُخطّط لها وتُنفَّذ من جهات مخفية ومنظمات سريّة، آخذة بمفاصل القدرة بكل خفاء وتستّر.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.[1]

عَنِ الفُضَيْلِ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ .فَقَالَ: **كُلُّ إِمَامٍ هَادٍ لِلْقَرْنِ الَّذِي هُوَ فِيهِمْ**.[2]

فمن الواضح أنّ هذه الهداية التي جُعلت لغير النبي صلى الله عليه وآله وأنّه لايخلو قوم من الهادي بتلك الهداية، ليست بإرائة قوانين وتشريعات مغايرة لما جاء به النبي صلى الله عليه وآله، بل إيصال وهداية لدين النبي صلى الله عليه وآله، فهو إيصال إلى المقصود.

و المثال الواضح لهذا النمط من الهداية هي الشمس التي نحتاج إليها في كلّ

---

(١) الرعد: ٧.

(٢) الكافي: ج١ ص١٩١، بصائر الدرجات: ج١ ص٣٠.

خطوة زائداً على حاجتنا للخريطة وللطريق، فلايكفي للسلوك مجرد وجدان الخريطة، حتى لو كانت من أدقها وأحسنها، بل لابد من الاستضائة بنور الشمس ليتمكّن من العمل بالخريطة، وهذه هي الهداية الإيصالية التي ترافق الإنسان وتصاحبه لتوصله إلى المقصود، وليس كصاحب الخريطة التي تبقى خريطته باقية بعد رحيله، وقد شُبّه الإمام بالشمس في روايات عديدة عن النبي وأهل البيت عليهم السلام وأنّها تبقى فعّالة وتكون مصدر الهدايات بل مصدر الحياة وإنْ سترها السحاب.

و من هنا ورد أنّه لاتخلو الأرض من الإمام ولو لساعة واحدة، فإنّ خلو الإرض من الإمام يساوق عدم إمكان العمل بالدين والقرآن، ويلزم منه لغوية الدين والقرآن.

و هذه الشمس تكون فعّالة ونشطة وتهدي الناس وتصاحبهم، وإنْ سترها السحاب فلم يستطع الناس رؤيتها، إلا أنّ ضوءها وبركاتها تصل إليهم، فيستضيئون بنورها ويستمرّون في سيرهم.

في كمال الدين وتمام النعمة: عن جابر بن يزيد الجعفي قال: سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: ... فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ الله فَهَلْ يَقَعُ لِشِيعَتِهِ الِانْتِفَاعُ بِهِ فِي غَيْبَتِهِ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وآله: **إِي والَّذِي بَعَثَنِي بِالنُّبُوَّةِ! إِنَّهُمْ يَسْتَضِيئُونَ بِنُورِهِ ويَنْتَفِعُونَ بِوَلَايَتِهِ فِي غَيْبَتِهِ، كَانْتِفَاعِ النَّاسِ بِالشَّمْسِ وإِنْ تَجَلَّلَهَا سَحَابٌ...** (١)

ضرورة العلم اللدني والقدرة الإلهية لصاحب الهداية الإيصالية

ثمّ إنّ الهداية الإيصالية لها عرض عريض، وتستبطن العلم اللدني بتفاصيل الأحداث والموضوعات، والقدرة الربانية التي يتمكّن بها الإمام من الحفاظ على الأمن والأمان وسياسات الدولة الإلهية، وهذا ما يزوّده الله تعالى به، كما أنّ الدولة تزوّد

---

(١) الشيخ الصدوق؛ كمال الدين وتمام النعمة: ٢٥٣.

المسؤول الأمني بتفاصيل الإحداثيات ومجريات الأمور، وتمكّنه من تقنيات يتمكّن بها من مراقبة تفاصيل الأمور أولاً بأول، ليتمكّن من تدبيرها، فلايمكن أن تغيب عن المتصدي للهداية الإيصالية أخبار وأنباء رعيته وما يدور في الأرض من مجريات الأمور.

في الكافي: عن أبي حمزة قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: **لَا وَالله! لَا يَكُونُ عَالِمٌ جَاهِلًا أَبَداً، عَالِماً بِشَيْءٍ جَاهِلًا بِشَيْءٍ. ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَجَلُّ وَأَعَزُّ وَأَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَفْرِضَ طَاعَةَ عَبْدٍ يَحْجُبُ عَنْهُ عِلْمَ سَمَائِهِ وأَرْضِهِ. ثُمَّ قَالَ: لَا يَحْجُبُ ذَلِكَ عَنْهُ.**(١)

كيف يمكن أن تُحجب عن الإمام أخبار السماء والأرض وهو المسؤول والمتصدي لهداية الناس ومصاحبتهم، ورفع العوائق عن سبيلهم وإيصالهم نحو المقصود؟

إنّ الإمام يرافق الإنسان في سلوكه إلى الله تعالى ليوصله إليه، وإنّ الإمامة في مفهومها الإمامي مقام الملك والسلطان الإلهي، الذي يحتاج إليه الناس زائداً على احتياجهم للرسول والنبي، كما في نموذج الخضر وطالوت.

طالوت نموذج من الهداية الإيصالية

قال تعالى في قصّة طالوت: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى المَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ**

---

(١) الكافي: ج١ ص٢٦٢، وكذا في بصائر الدرجات: ج١ ص ١٢٤..

يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.(١)

فهؤلاء الملأ من بني إسرائيل رغم تواجد النبي بين أظهرهم، إلا أنهم احتاجوا لجهة ثانية تنفيذية، ليطبق قوانين الجهاد في جبهة الكفاح المسلح مع العدوّ، و هذا التطبيق والتدبير ليس بشرياً، بل بقدرة إلهية وتزويد بعلم لدني، ويعجز عنه البشر العادي الذي لم يزوّده الله تعالى بالعلم والقدرة الإلهية.

و النبي قد عزى انتخاب هذا الـمَلِك إلى الله تعالى وبَرّر ذلك بأنّ الله تعالى اصطفاه وزاده بسطة في العلم والجسم، فإنّ طالوت مسؤول عن هداية هذا الملأ من بني إسرائيل في حربهم مع جالوت بمصاحبتهم فيه وإيصالهم للمقصود، بينما كان دور النبي إراءة الطريق.

و قد عبّر عن هذا المقام الذي يغاير مقام النبوة، بِمقام الملك الإلهي، وكان طالوت مطلعاً على تفاصيل إرادات الله تعالى الجزئية ولديه قناة اتصال بالله تعالى حينما أخبر الجيش بقوله:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾(٢)

إنّ اتصاله بالله تعالى هو الذي مكّنه من أن يُخبر قومه بأنّ الله تعالى قد ابتلاهم بعدم الشرب من ماء هذا النهر الخاص الجزئي، وإلا فمن أين علم أنّ مياه هذا النهر من بين جميع مياه الأرض محرّمة عليهم؟ وهذا في حين لم يكن نبياً كما هو الظاهر من الآيات المتقدّمة.

---

(١) البقرة: ٢٤٦ و٢٤٧.

(٢) البقرة: ٢٤٩.

الأسئلة

١- ما الفرق بين السلطة التشريعية والتنفيذية؟ وهل تتم سيادة الدولة بأحدهما فقط؟ ولماذا؟

٢- اذكر بعض الآيات القرآنية المشتملة على كون التشريع الإسلامي يعم جميع مناحي الحياة.

٣- ما الملازمة فيما بين ربوبية الله تعالى ووجود الإمام الحي في كل زمان؟

٤- ما معنى التوحيد في الحاكمية وكيف يتم هذا التوحيد؟

٥- ما وجه الحاجة للهداية الإيصالية وراء الهداية الإرائية؟

٦- لماذا لايمكن خلو الأرض من الحجة؟

٧- ما هو وجه الشبه بين الشمس والإمام؟

٨- اذكر البرهان على لزوم توفّر العلم اللدني والقدرة الإلهية للإمام.

٩- ما صلة قصة طالوت بالإمامة، وكيف يمكن معرفة دور الإمام المغاير لدور النبي من خلال هذه القصة؟

الدرس الثامن والعشرون: صفات الإمام (٣)

الخامس: منصوب من الله تعالى

لا أعتقد أنّنا بحاجة للاستدلال على لزوم النصب والتنصيص على الإمام من قِبَل الله تعالى، بعد كلّ ما مر في تعريف الإمام ومقاماته ومناصبه الإلهية.

١ - فهل يا ترى أنّ مقام خلافة الله تعالى والتمثيل الرسمي للدولة الإلهية قابل لأن يكون انتخابه بيد الناس؟

كيف يكون ناطقاً رسمياً عن الله تعالى وسبباً متصلاً بين الأرض والسماء، ووارثاً لعلم الكتاب، وهو لم يختره ولم يصطفه ولم يرض به؟!

وهذا هو نظير اعتراض القرآن على عبدة الأصنام الذين كانوا يتّخذون من عند أنفسهم أسماء، ويعطون لهم أدواراً في الحكم الربوبي والدولة الإلهية، من كونهم شفعاء أو وسطاء أو مقربين وحجباً، وهذا يعني فرض الرأي على الله تعالى.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.[1]

فمن لم يختره الله تعالى ويصطفه، لايمكن أن يكون إماماً.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا

(١) الحجرات: ١٦.

يُشْرِكُونَ﴾.[1]

إنّ الاختيار الذي ترفضه الآية رفضاً باتاً، إنما هو الاختيار في المناصب الإلهية، فليس لغير الخالق أن ينتخب ويختار لهذه المناصب كمنصب النبوة والسفارة بين الله تعالى وبين خلقه، وكمنصب خلافة الله تعالى ووراثة علم الكتاب.

والوجه في ذلك: أنّه عدّ ذلك من الشرك بالله تعالى، وهذا لايكون إلا في المناصب الإلهية، لأنّ هذا الاختيار من شؤون مولوية المولى جلّ جلاله، فاختيار شخص وإعطائه تلك المناصب الإلهية، يكون من تحكيم سلطان العبد وعدم الانقياد لسلطانه جل جلاله.

٢- من مقوّمات معنى الإمامة أنّها سلطة إلهية وملك إلهي، فالإمام هو الذي مكّنه الله تعالى وأعطاه الملك والسلطان، ومن الواضح أن لادور للعباد في ذلك إلا الانقياد والطاعة.

قال تعالى:﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾.[2]

و كما قال الله تعالى في قصة طالوت، حينما اعترضوا على اختياره مَلِكاً ولم يؤت سعة من المال، ردّ الله تعالى عليهم بقوله: انه ملك الهي، والله تعالى هو الذي يختار من يعطيه هذا الملك والسلطان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ

(١) القصص: ٦٤.

(٢) النساء: ٥٤.

عَلِيمٌ﴾.(١)

٣- إنّ الإمامة بالمعنى الذي وقع فيه الخلاف بين الخاصة والعامة، مقام منيع وحبوة الهية، ومنزلة شريفة، ولابد من أن يكون الإمام واجداً للطهارة والقدس والمقامات العلمية والعملية بحيث تؤهّله لهذا المنصب، ومن الواضح أنّ عقول الناس لاتبلغ لمعرفة مثل هذا الإنسان.

حديث الإمام الرضا عليه السلام في الإمامة

و فيما يلي نذكر بعض المقاطع من حديث الإمام الرضا عليه السلام في الإمامة، وفيها وجوه عديدة قرآنية وعقلية على أنّ أمر انتخاب الإمام لن يكون للناس، وإنما هو اختيار واصطفاء إلهي، ينبغي التدبّر في كلام الإمام، والتنبّه لتلك الوجوه البرهانية العديدة.

الكافي وعيون اخبار الرضا: أبو محمد القاسم بن العلاء رفعه، عن عبد العزيز بن مسلم قال: كنا مع الرضا عليه السلام بمرو فاجتمعنا في الجامع يوم الجمعة في بدء مقدمنا فأداروا أمر الإمامة وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها، فدخلت على سيدي عليه السلام فأعلمته خوض الناس فيه، فتبسم عليه السلام ثم قال: «**يَا عَبْدَ العَزِيزِ! جَهِلَ القَوْمُ وَخُدِعُوا عَنْ آرَائِهِمْ، إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَمْ يَقْبِضْ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ الدِّينَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ القُرْآنَ، فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، بَيَّنَ فِيهِ الحَلَالَ وَالحَرَامَ وَالحُدُودَ وَالأَحْكَامَ وَجَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ كَمَلًا، فَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ما فَرَّطْنا فِي الكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾.وَ أَنْزَلَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ، وَهِيَ آخِرُ عُمُرِهِ صلى الله عليه وآله ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾.وَ أَمْرُ الإِمَامَةِ مِنْ تَمَامِ الدِّينِ، وَلَمْ يَمْضِ صلى الله عليه وآله حَتَّى بَيَّنَ لِأُمَّتِهِ مَعَالِمَ دِينِهِمْ، وَأَوْضَحَ لَهُمْ سَبِيلَهُمْ وَتَرَكَهُمْ عَلَى قَصْدِ سَبِيلِ الحَقِّ، وَأَقَامَ لَهُمْ عَلِيّاً عليه السلام عَلَماً وَإِمَاماً، وَمَا تَرَكَ لَهُمْ شَيْئاً يَحْتَاجُ**

---

(١) البقرة: ٢٧٤.

إِلَيْهِ الأُمَّةُ إِلَّا بَيَّنَهُ. فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَمْ يُكْمِلْ دِينَهُ فَقَدْ رَدَّ كِتَابَ اللهِ، وَمَنْ رَدَّ كِتَابَ اللهِ فَهُوَ كَافِرٌ بِهِ.

هَلْ يَعْرِفُونَ قَدْرَ الإِمَامَةِ وَمَحَلَّهَا مِنَ الأُمَّةِ فَيَجُوزَ فِيهَا اخْتِيَارُهُمْ؟ إِنَّ الإِمَامَةَ أَجَلُّ قَدْراً وَأَعْظَمُ شَأْناً وَأَعْلَى مَكَاناً وَأَمْنَعُ جَانِباً وَأَبْعَدُ غَوْراً مِنْ أَنْ يَبْلُغَهَا النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ، أَوْ يَنَالُوهَا بِآرَائِهِمْ، أَوْ يُقِيمُوا إِمَاماً بِاخْتِيَارِهِمْ.

إِنَّ الإِمَامَةَ خَصَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِهَا إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلَ عليه السلام بَعْدَ النُّبُوَّةِ وَالخُلَّةِ مَرْتَبَةً ثَالِثَةً، وَفَضِيلَةً شَرَّفَهُ بِهَا وَأَشَادَ بِهَا ذِكْرَهُ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً﴾. فَقَالَ الخَلِيلُ عليه السلام سُرُوراً بِهَا: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾. قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. فَأَبْطَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ إِمَامَةَ كُلِّ ظَالِمٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَصَارَتْ فِي الصَّفْوَة ...

الإِمَامُ وَاحِدُ دَهْرِهِ، لَا يُدَانِيهِ أَحَدٌ، وَلَا يُعَادِلُهُ عَالِمٌ وَلَا يُوجَدُ مِنْهُ بَدَلٌ، وَلَا لَهُ مِثْلٌ وَلَا نَظِيرٌ، مَخْصُوصٌ بِالفَضْلِ كُلِّهِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ مِنْهُ لَهُ وَلَا اكْتِسَابٍ، بَلِ اخْتِصَاصٌ مِنَ المُفْضِلِ الوَهَّابِ. فَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْلُغُ مَعْرِفَةَ الإِمَامِ أَوْ يُمْكِنُهُ اخْتِيَارُهُ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! ضَلَّتِ العُقُولُ، وَتَاهَتِ الحُلُومُ، وَحَارَتِ الأَلْبَابُ، وَخَسَأَتِ العُيُونُ، وَتَصَاغَرَتِ العُظَمَاءُ، وَتَحَيَّرَتِ الحُكَمَاءُ، وَتَقَاصَرَتِ الحُلَمَاءُ، وَحَصِرَتِ الخُطَبَاءُ، وَجَهِلَتِ الأَلِبَّاءُ، وَكَلَّتِ الشُّعَرَاءُ، وَعَجَزَتِ الأُدَبَاءُ، وَعَيِيَتِ البُلَغَاءُ عَنْ وَصْفِ شَأْنٍ مِنْ شَأْنِهِ أَوْ فَضِيلَةٍ مِنْ فَضَائِلِهِ، وَأَقَرَّتْ بِالعَجْزِ وَالتَّقْصِيرِ.

وَ كَيْفَ يُوصَفُ بِكُلِّهِ، أَوْ يُنْعَتُ بِكُنْهِهِ، أَوْ يُفْهَمُ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِ، أَوْ يُوجَدُ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ وَيُغْنِي غِنَاهُ؟ لَا كَيْفَ وَأَنَّى وَهُوَ بِحَيْثُ النَّجْمُ مِنْ يَدِ المُتَنَاوِلِينَ، وَوَصْفِ الوَاصِفِينَ. فَأَيْنَ الاخْتِيَارُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيْنَ العُقُولُ عَنْ هَذَا؟ وَأَيْنَ يُوجَدُ مِثْلُ هَذَا؟

أَتَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ يُوجَدُ فِي غَيْرِ آلِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله؟ كَذَبَتْهُمْ وَاللهِ أَنْفُسُهُمْ، وَمَنَّتْهُمُ

الأَبَاطِيلَ، فَارْتَقَوْا مُرْتَقًى صَعْباً دَحْضاً تَزِلُّ عَنْهُ إِلَى الحَضِيضِ أَقْدَامُهُمْ.رَامُوا إِقَامَةَ الإِمَامِ بِعُقُولٍ حَائِرَةٍ بَائِرَةٍ نَاقِصَةٍ، وَآرَاءٍ مُضِلَّةٍ، فَلَمْ يَزْدَادُوا مِنْهُ إِلَّا بُعْداً، ﴿قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.وَ لَقَدْ رَامُوا صَعْباً وَقَالُوا إِفْكاً وَضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً وَوَقَعُوا فِي الحَيْرَةِ، إِذْ تَرَكُوا الإِمَامَ عَنْ بَصِيرَةٍ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ.

رَغِبُوا عَنِ اخْتِيَارِ اللهِ وَاخْتِيَارِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَأَهْلِ بَيْتِهِ إِلَى اخْتِيَارِهِمْ، وَالقُرْآنُ يُنَادِيهِمْ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ سُبْحانَ اللهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ الآيَةَ﴾.وَ قَالَ: ﴿ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ القِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ﴾. ...بَلْ هُوَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ.

فَكَيْفَ لَهُمْ بِاخْتِيَارِ الإِمَامِ؟ وَالإِمَامُ عَالِمٌ لَا يَجْهَلُ، وَرَاعٍ لَا يَنْكُلُ، مَعْدِنُ القُدْسِ وَالطَّهَارَةِ وَالنُّسُكِ وَالزَّهَادَةِ وَالعِلْمِ وَالعِبَادَةِ، مَخْصُوصٌ بِدَعْوَةِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله، وَنَسْلِ المُطَهَّرَةِ البَتُولِ، لَا مَغْمَزَ فِيهِ فِي نَسَبٍ، وَلَا يُدَانِيهِ ذُو حَسَبٍ.فِي البَيْتِ مِنْ قُرَيْشٍ، وَالذِّرْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ، وَالعِتْرَةِ مِنَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله، وَالرِّضَا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.شَرَفُ الأَشْرَافِ، وَالفَرْعُ مِنْ عَبْدِ مَنَافٍ، نَامِي العِلْمِ، كَامِلُ الحِلْمِ، مُضْطَلِعٌ بِالإِمَامَةِ، عَالِمٌ بِالسِّيَاسَةِ، مَفْرُوضُ الطَّاعَةِ، قَائِمٌ بِأَمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، نَاصِحٌ لِعِبَادِ اللهِ، حَافِظٌ لِدِينِ اللهِ.

إِنَّ الأَنْبِيَاءَ وَالأَئِمَّةَ عليهم السلام يُوَفِّقُهُمُ اللهُ وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ مَخْزُونِ عِلْمِهِ وَحِكَمِهِ مَا لَا يُؤْتِيهِ غَيْرَهُمْ، فَيَكُونُ عِلْمُهُمْ فَوْقَ عِلْمِ أَهْلِ الزَّمَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ

أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾. وَ قَوْلِهِ تبارَكَ وَتَعالَى: ﴿وَ مَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾. وَقَوْلِهِ فِي طَالُوتَ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَزادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾. وَ قالَ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾. وَ قَالَ فِي الأَئِمَّةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ وَعِتْرَتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾.

وَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اخْتَارَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِأُمُورِ عِبادِهِ شَرَحَ صَدْرَهُ لِذَلِكَ، وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ يَنَابِيعَ الحِكْمَةِ، وَأَلْهَمَهُ العِلْمَ إِلْهَاماً، فَلَمْ يَعْيَ بَعْدَهُ بِجَوَابٍ، وَلَا يُحَيَّرُ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ، فَهُوَ مَعْصُومٌ مُؤَيَّدٌ مُوَفَّقٌ مُسَدَّدٌ، قَدْ أَمِنَ مِنَ الخَطَايَا وَالزَّلَلِ وَالعِثَارِ، يَخُصُّهُ اللهُ بِذَلِكَ لِيَكُونَ حُجَّتَهُ عَلَى عِبَادِهِ وَشَاهِدَهُ عَلَى خَلْقِهِ، وَ﴿ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾.

فَهَلْ يَقْدِرُونَ عَلَى مِثْلِ هَذَا فَيَخْتَارُونَهُ، أَوْ يَكُونُ مُخْتَارُهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَيُقَدِّمُونَهُ؟ تَعَدَّوْا - وَبَيْتِ اللهِ - الحَقَّ، وَنَبَذُوا كِتابَ اللهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ، كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ، وَفِي كِتَابِ اللهِ الهُدَى وَالشِّفَاءُ فَنَبَذُوهُ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، فَذَمَّهُمُ اللهُ وَمَقَّتَهُمْ وَأَتْعَسَهُمْ، فَقَالَ جَلَّ وَتَعَالَى: ﴿وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وَ قَالَ: ﴿فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾. وَ قَالَ: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾. وَ صَلَّى اللهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً». (١)

---

(١) الكافي: ج ١ ص ١٩٨ - ٢٠٣.

الأسئلة

١- ما علاقة الشرك بالله تعالى وحق الانتخاب في المناصب الإلهية في آية ٦٤ من سورة القصص ؟

٢- ما علاقة آية إمامة إبراهيم في ١٢٤ من سورة البقرة بمسألة عدم إمكان اختيار الإمام في حديث الإمام الرضا عليه السلام ؟

٣- كيف يستدل بآية إكمال الدين (المائدة: ٣) وأنه لم يفرط شيء في الكتاب (الأنعام ٣٨) على كون أمر الإمامة بيد الله تعالى؟

٤- لماذا حسم الخلاف في مسألة كون الإمام بتنصيص من الله تعالى أو باختيار من الناس يرجع لتعريفنا لمقام الإمامة وصفات الإمام؟

الدرس التاسع والعشرون: آراء المدارس الأخرى في انتخاب الإمام

مناقشة آراء أخرى في انتخاب الإمام

و لابأس بالإشارة لبعض المناهج التي اتّبعتها مدارس أخرى غير الشيعة الإمامية في اختيار الإمام.

الشورى

ذهبت بعض المدارس الإسلامية إلى اختيار الإمام والخليفة عن طريق الشورى بين المسلمين، أو بين أهل الحلّ والعقد (أي الرؤساء والنخب).

و ممّا يؤاخذ عليهم:

أولاً: إنّ الشورى والأخذ بآراء الناس إنّما يصحّ وينبغي في ما يكون من صلاحياتهم، وأمّا ما يكون خارجاً عن صلاحيتهم، فلايكون مجالاً لتحكيم رأي الناس، من هنا قال تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾[1] فجعل الشورى في أمور الناس، دون الأمر الربوبي، وقد أثبتنا أنّ الإمامة خلافة الله تعالى وهي من أهم الشؤون الربوبية، فكيف للآخرين أن يتشاوروا لانتخاب خليفة لله تعالى؟!

ثانياً: إنّ مبدأ الشورى والمشورة إنّما وُضع للاستفادة من عقول الآخرين في ما تصل إليه أفهامهم وعقولهم، وأمّا فيما يكون فوق علمهم وعقلهم فلامعنى للمشورة

---

(١) الشورى: ٣٨.

فيه، وكما مرّ في صفات الإمام أنّها فوق إدراك البشر ولاتصل إليها عقولهم وأفهامهم، فمن صفات الإمام العصمة من كل ذنب وخطأ عمداً أو سهواً أو جهلاً، فمن أين يمكن للناس أن يعرفوا المعصوم لولا أنْ عيّنه الله تعالى وعرّفه لهم؟ وكذا سائر صفاته وكمالاته، فكيف لهم أن يتشاوروا فيختاروا من لايعرفونه؟

ثالثاً: إنّ حقيقة الشورى التي هي من مادة المشورة تكون بمثابة بنك المعلومات والخبرات، ليتسّع الأفق المعرفي لدى الإنسان، فيقدر على الانتخاب الصحيح، وليس تحكيم رأي الأكثرية، ومن هنا فإنّ التركيز في المشورة على الأكثر صواباً، وليس الأكثر عدداً.

وقد ذمّت الأكثرية في مواضع شتّى من القرآن، حيث كان الغالب على الطابع العامّ لدى الجماهير، ظاهرة اللاالتزام واللاتعقّل، وتخصيص أهل الشورى بأهل الحل والعقد وعدم الإعتناء بآراء سائر الناس، خير دليل على أنّ الشورى ليس معناها تحكيم رأي الأكثرية.

رابعاً: هنالك فوائد مهمّة في مشورة الراعي مع الرعية، حتى وإنْ كان معصوماً وغير محتاج لازدياد علمه، نظير:

١. حثّ الناس على تحمّل المسؤولية ومشاركتهم في الحكم.

٢. تعاطف الراعي مع الرعية، ولين العريكة كي لاينفضّوا من حوله.

٣. تعليمهم طريق الصواب عبر آليات مرنة وغير حادّة.

٤. تدريبهم على الاستعانة بالآخرين فلايستبدّون بآرائهم، فإنّ من استبدّ برأيه هلك.

و هذا هو الوجه في أمر الله تعالى نبيّه ﷺ بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ لكن مع ذلك يجعل القرار النهائي بيده ﷺ، قال: ﴿فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[1].

خامساً: إنّ أصحاب السقيفة لم يراعوا حتى مبدأ الشورى في انتخاب الخليفة، وتشبثهم بالشورى ليس سوى دجل واضح للتمويه والتعتيم على الناس، فمن يقرأ أحداث السقيفة يجد غياب وجوه المهاجرين والأنصار وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام أخو الرسول ﷺ وباب مدينة علمه ومن كان منه بمنزلة هارون من موسى، وهو أعرفهم بالدين وأقضاهم وأعلمهم باعتراف الكلّ.

و قد أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام فيما رواه السيد الرضي ; في نهج البلاغة:

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَى مَلَكْتَ أُمُورَهُم

فَكَيْفَ بِهَذَا والمُشِيرُونَ غُيَّب

وَ إِنْ كُنْتَ بِالقُرْبَى حَجَجْتَ خَصِيمَهُم

فَغَيْرُكَ أَوْلَى بِالنَّبِيِّ وأَقْرَب[2]

الإجماع

لجأ البعض إلى أنّ مبدأ انتخاب الخليفة يكون هو إجماع المسلمين، واستندوا بحديث رووه في كتبهم مفاده أن الأمة لن تجتمع على الخطأ، فما أجمعت عليه الأمة يكون صواباً.

ويلاحظ عليه:

أولاً: إنّ وجه الحاجة إلى الإمام إنّما هو أن يكون حافظاً للوحي والقرآن الذي هو

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) نهج البلاغة: حكمة ١٩٠، أو ١٨٥.

تبيان لكل شيء، فلابد وأن يكون الإمام حاملاً لعلم النبي ﷺ كي لايلزم زوال الدين برحيل النبي ﷺ، و هنا نسأل: هل مجموع الأمّة وإجماعهم يمكن أن يكون حاملاً لعلم النبي ولعلم القرآن، فيكون عاصماً للدين وحافظاً للوحي وللقرآن؟

والجواب: نعم! إن كان فيهم من يكون حاملاً لعلم الرسول ﷺ ووارثاً للكتاب، فيكون إجماعهم من أجل وجود ذلك الشخص صائباً وصحيحاً، ولكن إن لم يكن ذلك الشخص فيهم، فلايمكن أن يكون هذا الإجماع عاصماً وحافظاً للوحي والقرآن، حيث إنّ من لم يستوعب علم شيء لايمكن أن يكون حافظاً ولا حارساً ولا أميناً ولا صادقاً، كما مرّت البراهين عليه مفصلاً.

ثانياً: حديث عدم اجتماع أمّة النبي على الخطأ، صحيح، لكنّه من أجل عدم خلوّ الأمّة من إمام معصوم، فإن كان الإمام داخلاً في المجمعين فلن يكون خطأ، ومن هنا ذهبت الشيعة الإمامية إلى حجيّة الإجماع بشرط دخول الإمام فيهم أو كشفه لرأي الإمام، وأما من دون ذلك فلاحجيّة فيه.

ثالثاً: إنّ حصول الإجماع في مسألة الإمامة والزعامة والرئاسة، أمر غير ممكن الحصول عادة، فإنّ القدرة والرئاسة والزعامة مما يتقاتل الناس للوصول إليها ونيلها، كما نشاهد أنّ جذوة الخلاف وفتيل نيران الحروب التي وقعت بين المسلمين كلّها تعود لنزاعهم في الخلافة والإمارة، فكيف يتوقّع حصول الإجماع في مثل هذه المسألة التي هي أساس كلّ الخلافات والمنازعات والفتن والحروب وسفك الدماء وهتك بيت الله تعالى الحرام وإبادة ذريّة الرسول ﷺ وتشريدهم وسبيهم وقتلهم؟

وهل يُعقَل أن يوكل الله تعالى انتخاب الإمام والخليفة إلى إجماع لايحصل ولن يحصل أبداً؟

رابعاً: لايمكن تحصيل إجماع من كلّ الأمّة أبداً، فإنّك مهما سعيت لايمكنك أن تقف على آراء كلّ المسلمين، ومن هنا قالوا: يكتفى بآراء العلماء وأهل الحلّ والعقد، وهذا يدلّ على أنّه لاموضوعيّة لإجماع المسلمين، وإنما للعلم وللعالم له الموضوعيّة التامّة، وهذا عدول عن المبنى.

خامساً: لم يحصل أي إجماع لأي من خلفاء العامّة بدءاً من أبي بكر فمن دونه، وهذا واضح لمن قرأ التاريخ.

القيام بالسيف مع كونه من العترة ومجتهداً وعادلاً

و هذا ما ذهب إليه الزيدية في ما بعد أمير المؤمنين والإمام الحسن والإمام الحسين عليهم السلام.

و يلاحظ عليه:

أولاً: إنّ الحاجة إلى الإمام ليست لأجل الثورة والقيام بالسيف، بل ليكون متصدّياً للهداية الإيصالية وحافظاً للوحي كما مر، وهذه الهداية قد تقتضي العمل السري، كما أنّه يلازم الإحاطة بعلم الكتاب وغيره مما أشرنا إليه سابقاً.

ثانياً: أنّ الحجية لاتدور مدار القيام بالسيف والثورة، بل لابد من اتخاذ القرار المناسب في كلّ ظرف، فقد يكون وقت العمل العلني والجهاري، كما قد يكون وقت العمل السري، وكل واحد من العمل السري والعلني، تكتيك لنيل الغاية، وليس أي واحد منهما هي الغاية، بل لابد من اتخاذ القرار المناسب في المكان المناسب، ومن هنا قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.(١)

---

(١) السجدة: ٢٤.

ثالثاً: المجتهد مهما بلغ في علمه لايمكن أن يكون وارثاً لعلم الكتاب، وواعياً لكل علم الرسول، فلو لم يكن في الأمّة من يعي علم القرآن، لزم منه زوال الدين وبطلان القرآن كما مرّ، كما أنّه لايمكن أن تكون معرفة المجتهد محقّقة للإيمان، ولايكون الموت من دون معرفته ميتة جاهلية، كما هو مضمون الحديث المتواتر.

الأسئلة

١- ما هي حقيقة الشورى، ولماذا لايمكن التعويل عليها لاختيار الإمام؟ اذكر وجهين.

٢- ما هي فوائد مشورة النبي أو الإمام المعصوم مع الأمة؟

٣- ما وجه استدلال العامة بآية ٣٨ من سورة الشورى، وكيف يرد عليه؟

٤- هل يمكن لإجماع الأمة أن يكون حارساً وحافظاً للوحي الإلهي ولماذا؟

٥- لماذا لايمكن تحقق الإجماع في مسألة الإمامة؟

٦- ما هو مدلول عدول أهل السنة من إجماع جميع الأمة إلى إجماع أهل الحل والعقد؟

٧- هل الإمامة تناط بالقيام بالسيف؟

٨- بين كيفية الاستدلال بحديث «**من مات ولم يعرف إمام زمانه**» للرد على مبدأ كون الإمام مجتهداً؟

الدرس الثلاثون: عصمة الإمام

العصمة

مما تميّزت به الشيعة الإمامية الاثناعشرية من بين جميع فرق المسلمين - سنّة وشيعة - القول بلزوم العصمة في الإمام كما يرون لزومها في النبي.

عن الصادق عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: وَالإِمَامُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْإِمَامَةِ لَهُ عَلَامَاتٌ: فَمِنْهَا أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا صَغِيرِهَا وكَبِيرِهَا، لَا يَزِلُّ فِي الفُتْيَا ولَا يُخْطِئُ فِي الجَوَابِ، ولَا يَسْهُو ولَا يَنْسَى ولَا يَلْهُو بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا... الخَامِسُ: العِصْمَةُ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، وبِذَلِكَ يَتَمَيَّزُ عَنِ المَأْمُومِينَ الَّذِينَ هُمْ غَيْرُ مَعْصُومِينَ، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَعْصُوماً لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ فِيمَا يَدْخُلُ النَّاسُ فِيهِ مِنْ مُوبِقَاتِ الذُّنُوبِ المُهْلِكَاتِ والشَّهَوَاتِ واللَّذَّاتِ، ولَوْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الأَشْيَاءِ لَاحْتَاجَ إِلَى مَنْ يُقِيمُ عَلَيْهِ الحُدُودَ، فَيَكُونُ حِينَئِذٍ إِمَاماً مَأْمُوماً، ولَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِمَامٌ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ..».(١)

تعريف العصمة

استعملت كلمة العصمة ومشتقاتها في اللغة بمعنى المنع والتحفظ من الوقوع في ضرر أو مصيبة أو عقوبة وخطر.

قال الخليل في كتاب العين:

---

(١) بحار الانوار: ج ٢٥ ص ١٦٤.

العصمة أن يعصمك الله تعالى من الشر، أي يدفع عنك، واعتصمت بالله تعالى أي امتنعت به من الشر، واستعصمت أي أبيت، وأعصمت أي لجأت إلى شئ اعتصمت به...وأعصمت فلاناً: هيأت له ما يعتصم به، والغريق يعتصم بما تناله يده، أي: يلجأ إليه...والعصمة: المنع، يقال عصمه الطعام، أي منعه من الجوع، والعصمة: الحفظ، يقال: عصمته فانعصم، واعتصمت بالله، إذا امتنعت بلطفه من المعصية، انتهى

الفرق بين العدالة والعصمة

قديقال: هل يمكن لإنسان أن يكون معصوماً، وماذا عن الناس الأتقياء العدول الذين لم يرتكبوا معصية طول حياتهم؟

والجواب: أنّ العصمة بالمفهوم الذي يعتقد به الشيعة الإمامية تسديد إلهي لا ينالها إلا من اصطفاه الله تعالى لذلك.

وذلك للفرق بين مفهوم العدالة والعصمة: أن العادل وإنْ بلغ أعلى درجات العدالة والتُقىٰ وهاجر المعاصي والأهواء، إلا أنّه ليس بمأمون عن الخطأ والسهو والنسيان والعدول عن الحق جهلاً أو قصوراً، لا تقصيراً.

فهو قد يضع الأشياء في غير موضعها، فلايمكن أن يكون ميزاناً للحق والعدل المطلق، وإن كان معذوراً في ذلك، إلا أنّ عذره يفيد في دفع العقوبة عنه، لا لعصمته عن الخطأ، وبينهما بون بعيد.

والذي يعتقده الشيعة الإمامية الاثنا عشرية في النبي والإمام، هو القول بعصمته عن الخطأ والزلل عمداً أو سهواً أو من أيّ سبب آخر، ليكون قوله وفعله وسكونه وسكوته وإقدامه وإحجامه معيارًا لمعرفة الحق من الباطل، ويُستعلم من رضاه رضى الرحمن ومن سخطه سخط الرحمن، وهذا المقام إنما يكون لمن اصطفاه الله تعالى وأيّده

بروح القدس وزوّده بالعلم اللدني، وحفظه عن السهو والنسيان والغفلة، وبعيداً كلّ البعد عن غيره من الناس حتى لو بلغ أعلى درجات الكمال والقرب الإلهي.

و حينما يكون الإمام مبيناً للقرآن وحاكماً بالقرآن، وكان القرآن تبياناً لكل شيء ولم يفرط فيه رطب ولا يابس، فلابد أن يكون الإمام عالماً بكل شيء ومسدداً من الله تعالى أن لا يزيغ في العمل بالقرآن المبين لكل شيء، ومن هنا ورد في تعريف العصمة عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**الإِمَامُ مِنَّا لَا يَكُونُ إِلَّا مَعْصُوماً، ولَيْسَتِ العِصْمَةُ فِي ظَاهِرِ الخِلْقَةِ فَيُعْرَفَ بِهَا، فَلِذَلِكَ لَايَكُونُ إِلَّا مَنْصُوصاً.**

فَقِيلَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله، فَمَا مَعْنَى المَعْصُومِ؟

فَقَالَ: **هُوَ المُعْتَصِمُ بِحَبْلِ الله، وحَبْلُ الله هُوَ القُرْآنُ لَا يَفْتَرِقَانِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، والإِمَامُ يَهْدِي إِلَى القُرْآنِ، والقُرْآنُ يَهْدِي إِلَى الإِمَامِ، وذَلِكَ قَوْلُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾**».(١)

فأي زيغ أو خطأ حتى لو كان غير متعمد وكان معذوراً في ذلك، يجعله مجانباً لكتاب الله تعالى الذي بيّن فيه الصواب من ذلك الفعل.

منشأ عصمة المعصوم

عصمة المعصوم ليست جبراً عليه بحيث لايكون للمعصوم أي اختيار ولاتُطلب منه المكابدة والجهاد مع قوى الشر، كما أنها ليست تفويضاً بحيث تكون العصمة معلولاً لاختياره وقدرته دون التسديد والعون من الله تعالى، بل تكون العصمة باختيار المعصوم وجهاده واجتهاده بعد التسديد والتوفيق والعون والمدد من الله تعالى، فالذي يضمن لنا عصمة المعصوم هو الله تعالى العاصم الذي يعصمه بتوفيقاته وتسديداته.

(١) بحار الانوار: ج ٢٥ ص ١٩٤.

فكما لاحول ولا قوة إلا بالله، كذلك لا عصمة ولانور ولا صلاح إلا بالله، كما حكى الله تعالى كلام أهل الجنة: ﴿**الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ**﴾.(١)

العبد الصالح يوسف الصديق، مع أنه لم يتوان عن جهاد النفس والشيطان، وبذل الغالي والنفيس في سبيل عدم تلوّثه بالمعصية، إلا أنه اعترف وأقرّ بأنه: ﴿**وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ**﴾.(٢)

فالمعصوم إنما يكون معصوماً بالله تعالى ويكون هو تعالى العاصم له، في حين أنه يكابد ويجاهد، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾.(٣)

فهذه الآية تؤكّد عصمة يوسف عليه السلام وانّ منشأ هذه العصمة إنما هو المدد الإلهي ورؤيته لبرهان الرب المتعال، وأنّ الله تعالى هو الذي صرف عنه السوء والفحشاء.

ومن أقسام الهدايات والتسديدات الإلهية للمعصوم، أنه يزوّده بعلم لدني حيث لايجهل شيئاً مما يرتبط بتصرفاته في شؤون إمامته، ويوقفه على قبح المعصية فيحصل لديه من النفرة منها ما لايخطر بباله الاقتراب منها، كما أنّ أحدنا لايفكر يوماً في تناول القاذورات.

فالعصمة ليست جبراً ولا تفويضاً، بل أمر بين الامرين، إنها توفيق وتسديد من الله تعالى يحفظ المعصوم من الزلل والاشتباه وعن المعصية والخطأ.

---

(١) الاعراف: ٤٣.

(٢) يوسف: ٣٣.

(٣) يوسف: ٢٤.

أدلة عصمة الإمام

إنّ أدلة ضرورة وجود الإمام بالمعنى الذي مر، هي بنفسها أدلة على لزوم عصمته، فإنّا نثبت للإمام مقام خلافة الرسول ﷺ في جميع ما له إلا النبوة، وليست زعامة دنيوية بحتة، وتلك المقامات لايمكن لغير المعصوم أن ينالها.

و مع ذلك يمكن الاستدلال عليها بوجوه أخرى أيضاً:

١ .انّ من أهم مقامات الإمام أنّه حجة الله تعالى الذي يحتج به على موارد رضى الله تعالى وسخطه، وحجة يؤخذ بقوله وفعله وتقريره ويُعرَف من خلال مواقفه إرادات الله تعالى، فهو العاصم للمجتمع من الزلل والزيغ، فكيف يمكن أن يزيغ أو يزلّ هو بنفسه؟ وهذا يناقض كونه مرجعاً لرفع اختلافات الناس، التي تحدث من الجهل أو الغفلة أو تعمّد الخطأ، فكونه حجة يحتج به الله تعالى يناقض طرو الخطأ والسهو عليه.

٢ .كما أنه جُعل هادياً إلى الصراط المستقيم، وقد أُمِر الناس باتباعه ووجب عليهم طاعته بقول مطلق، مع أنّه لو لم يكن معصوماً فقد يخطيء ويزل، ومع ذلك كيف يجب اتباعه ويقتدي به في السلوك الرباني.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.(١)

٣.انّ احتمال عروض الزيغ أو الزلل أو الخطأ من الإمام، يُعدِم الثقة به وبكلامه ومواقفه، وهو نقض للغرض من جعله الناطق الرسمي عن الدين والقرآن، والممثّل الرسمي عن الدولة الإلهية، ومن هنا يمنع من عروض السهو والنسيان على النبي والإمام، لأنّ هذا الاحتمال يُعدِم الثقة بكلامه وهو نقض لغرض البعثة والإمامة.

---

(١) يونس: ٣٥.

٤.التطبيق الوحياني للقرآن الذي لارطب ولايابس إلا فيه وما من غائبة في السماء والأرض إلا وهو تبيان له، لايمكن إلا بعد الإلمام والإحاطة بجميع علم الكتاب وعوالم الغيب والشهود والتأثيرات والتأثرات والملابسات والمؤثرات والمزاحمات، وهذا لايتأتى ممن يقصر علمه أو أمانته عن تحمل هذه الأمانة العظيمة التي لم تحملها الجبال الراسيات.

الأسئلة

١- ما هو الفرق بين العدالة والعصمة؟

٢- إذا كانت العصمة لا تعني عدم المكابدة والمجاهدة وسلب الاختيار من المعصوم فكيف يمكن تفسيرها لتحصل الثقة من عدم الخطأ والزلل عنده؟

٣- ما هي الملازمة بين حصول الخطأ من الإمام ومفارقته للقرآن؟

٤- من أدلة عصمة الإمام أن عدمها يوجب نقض الغرض، بيّن هذا الدليل بشكل واضح؟

الدرس الحادي والثلاثون: العصمة في القرآن

العصمة في القرآن

و يمكن الاستدلال عليها من الآيات والروايات:

الأول: آية الابتلاء

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.[1]

إنّ النبي إبراهيم (على نبينا وآله وعليه السلام) بعد ما اختاره الله تعالى واجْتبَاه وأعطاه درجة النبوة ووصل إلى مرتبة الخلّة، جعله تعالى إماماً للناس، مما يدلّ على أنّ هذا المقام أفضل من جميع تلك المقامات السابقة، فطلَبَ من الله تعالى أن يجعل من ذريته أيضاً أئمة.

و من المعلوم أنّ شخصاً كإبراهيم عليه السلام لايطلب للفساق والظالمين هذا المقام الرفيع الإلهي الذي هو فوق مقام النبوة والخلّة، ومن هنا لم يطلبه لجميع ذريته، بل لبعض ذريته، وعليه فما معنى قوله تعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾؟ فإنّ إبراهيم عليه السلام لم يدع للظالمين من ذريته أصلاً، فلمَ أخرجهم الله تعالى من دائرة من يمكن أن ينال مرتبة الإمامة؟

(١) البقرة: ١٢٤.

الجواب: أن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه كما مر في مبحث العدل، فالظالم هو من يضع الأشياء في غير مواضعها، وهذا الظالم يكون على قسمين:

فتارة يظلم وليس بمعذور في ظلمه، وأخرى يظلم (أي يضع الشيء في غير موضعه) لكنه معذور في ذلك، أما لعدم علمه أو للغفلة أو النسيان أو السهو، وهذا الثاني لاينافي العدالة الظاهرية التي قد تسمّى بالعدالة العذرية.

فالقسم الأول من الظاليمن، كانوا خارجين أساساً من دعاء إبراهيم عليه السلام، لوضوح أنّه لم يكن ليطلب هذا المقام العظيم للفسقة الفجرة، فيكون المراد بالظالم الذي لايناله عهد الإمامة هو الثاني، أي من يخطئ أو يسهو أو يشتبه من دون تعمّد لذلك، وهذا ما نسمِّيه بالعدالة الواقعية في مقابل العدالة العذرية، وهذا هو المراد من العصمة.

عن زيد الشحام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالَى اتَّخَذَ إبْرَاهِيمَ عَبْداً قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ نَبيّاً، وإنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ نَبياً قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولًا، وإنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ رَسُولًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ خَليلًا، وإنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَجْعَلَهُ إمَاماً، فَلَمّا جَمَعَ لَهُ الأَشْياءَ قَالَ: ﴿إنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماماً﴾. قالَ: فَمِنْ عِظَمِهَا فِي عَيْنِ إبْرَاهِيمَ قَالَ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. قَالَ: لَا يَكُونُ السَّفِيهُ إمَامَ التَّقِيِّ**».(١)

فقوله تعالى: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ بعد سؤال إبراهيم عليه السلام الإمامة لذريته، ليس لاخراج الفسقة الظالمين المتلّبسين بالظلم، فإن إبراهيم عليه السلام أجل شأناً من أن يسأل لهم الإمامة، وقد نّبه الإمام عليه السلام إلى أن إبراهيم عليه السلام لعظم مقام الإمامة في عينه طلبها لذريته، وهذه المقدمة لابد منها في الاستدلال، ليُعلم أن المراد بالظالم هو كل من خرج عن الصراط المستقيم لخلل في علمه أو عمله، فإن السفيه لايكون إماماً للتقي.

---

(١) الكافي: ج ١ ص ١٧٥.

و لابد من أن يفرق الإنسان بين العدالة الواقعية والعدالة العذرية، وأن غاية ما يمكن أن يصل إليه البشر العادي هي العدالة العذرية، فيمكن أن يضع الشيء في غير موضعه لكنه معذور في ذلك، وأما العدالة الواقعية فلا تتأتى من غير المعصوم، وهي أيضاً على درجات حسب درجات العلم والعدالة، ولاتكون إلا بعد الإحاطة التامة بحميع ملابسات الحكم والموضوع والتأثيرات والتأثرات في عوالم الوجود، وهذا هو مقام الإمامة التي طلبها إبراهيم عليه السلام لبعض ذريته.

الثاني: آية التطهير

قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾.(١)

دلت النصوص الصريحة من الفريقين الشيعة والسنة أنّ الآية نزلت في رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، حيث جمعهم النبي صلى الله عليه وآله تحت ردائه وقال:

اللهُمَ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِير.

فنزلت الآية إجابة لدعاء النبي صلى الله عليه وآله.

وفي بعض الروايات أن أم سلمة قالت: وأنا منهم يا نبي الله؟ قال: «**أَنْتِ عَلَى مَكَانِكِ وَأَنْتِ عَلَى خَير**».

ونظير هذا الموقف حصل لزينب بنت جحش زوجة النبي صلى الله عليه وآله، مما هو الصريح في عدم شمول الآية لأزواج النبي صلى الله عليه وآله.

كما أنّ عائشة روت هذا الحديث وأن النبي صلى الله عليه وآله أدخل في الكساء فاطمة وعلياً والحسن والحسين عليهم السلام، فقال: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ**

---

(١) الاحزاب: ٣٣.

وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وهو أيضاً ظاهر في عدم دخول عائشة في الآية، حيث كانت هي الراوية والشاهدة للحدث، ولم تذكر شمول الآية لها.

هذه الأحاديث أخرجها مسلم في صحيحه [١] والحاكم في المستدرك [٢] والذهبي في تلخيص [٣] والسيوطي في الخصائص الكبرى [٤].

كما روى غيرهم نزول هذه الآية في الخمسة الطيبة عليهم السلام دون أزواجه صلى الله عليه وآله. [٥]

و قد روى كثير من الصحابة أنهم شهدوا رسول الله صلى الله عليه وآله تسعة أشهر أو ستة أشهر أو سنة أو أقل أو أكثر (كل حسب ما شاهد) يأتي كل يوم باب علي بن ابي طالب عليه السلام عند وقت كل صلاة فيقول: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ أَهْلَ البَيْتِ ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.أَنَا حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبْتُمْ وَسِلْمٌ لِمَنْ سَالَمْتُمْ**». [٦]

دلالة الآية على العصمة

تتضح دلالة الآية على عصمة أهل البيت عليهم السلام بمعرفة معنى الإرادة في قوله تعالى **﴿يُرِيدُ﴾** فإنه محتمل لمعنيين:

الأول: الإرادة المستتبعة لفعل صادر من الباري تعالى نفسه، أعني إذهاب الرجس

(١) صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٨٨٣، كتاب مناقب الصحابة باب ٩.
(٢) المستدرك على الصحيحين: ج ٣ ص ١٤٦ – ١٤٨، وج٢ ص ٤١٦.
(٣) تلخيص المستدرك: ج ٣ ص ١٤٦ و١٤٧، وج ٢ ص ٤١٦.
(٤) الخصائص الكبرى: ج ٣ ص ٣٥٩.
(٥) راجع الملحقات : ملحق رقم(٤)
(٦) راجع للوقوف على المصادر: فضائل الخمسة من الصحاح السنة لفيروزآبادي: ج ١ ص ٢٣٠.

عن أهل البيت عليهم السلام بالتوفيق والتسديد، حتى يكون الكلام في قوّة أن يقال: إنما أذهب الله عنكم الرجس أهل البيت، فيكون الباري تعالى هو المتصدّي لتطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم، بتسديدهم وتأييدهم وتخصيصهم بالعلم اللدني والقوة الربانية، فيعصمهم عن كل زلل وخطأ وذنب، وهذا هو الظاهر من الآية، حيث إن إرادته تعالى تعلقت بفعل صادر عنه سبحانه، فقال: ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾، وليس لتذهبوا الرجس عن أنفسكم، وقال: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، وليس تُطهِّروا أنفسكم.

الثاني: الإرادة المحضة التي لايتبعها صدور الفعل من الباري تعالى سوى الأمر بتزكية أنفسهم، حتى يكون المعنى: أمركم الله تعالى باجتناب المعاصي يا أهل البيت، نظير قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.(١)

او كقوله تعالى بعد الأمر بالوضوء والتيمم: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾(٢)

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾(٣)

فالمراد في هاتين الآيتين هو أن الغاية من نزول الماء من السماء والأمر بالوضوء والغسل والتيمم، أن يطهركم، أي إنّكم بامتثالكم ستطهّرون أنفسكم به، وليس من الله تعالى تعهد وضمان بأنكم سوف تطهرون أنفسكم أم لا.

والمدّعى: أنّ الإرادة في آية التطهير لا يمكن أن تكون بالمعنى الثاني، بل المتعيّن هو المعنى الأول، إذ المراد من العصمة كما مر، هو ان يتكفّل الباري ويتعهّد بتسديد وتأييد

---

(١) الحج: ٣٠.

(٢) المائدة: ٦.

(٣) الانفال: ١١.

وتطهير أهل البيت عليهم السلام ويوفّقهم كيما يقترب الرجس إليهم، وتكون ثقتنا بوعد الله تعالى وتعهده وتكفّله وحفظه للمعصوم بالتوفيقات والتسديدات وغير ذلك.

و يدلّ عليه وجوه:

الأول: الملاحِظ في ألفاظ الآية يقف على عناصر متعددة تؤكّد الحصر والاختصاص وأنّ هذه الإرادة ليست عامّة لعموم المكلفين، بل تخصّ أهل البيت عليهم السلام.

منها: كلمة ﴿إِنَّما﴾ المفيد الحصر، والمعنى وفق صياغات الأدب العربي يكون كالتالي: إن إرادة الله تعالى تعلقت بشيء واحد تجاهكم أنتم أهل البيت، وهو أن يُذهِب عنكم الرجس ويُطهِّركم تطهيراً عظيماً وجليلاً.

فمحور إرادات الله تعالى تجاه أهل البيت عليهم السلام والذي يكون غيره كالظل بالنسبة له، إنما هو تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم، وهذا ينبيء عن أهميّة هذه الإرادة وجديتها عند الله تعالى، وهذا كما ترى لايناسب الأمر باجتناب المعاصي الذي هو ليس إلا في رتبة سائر الأوامر والنواهي الصادرة من الله تعالى لجميع المكلفين.

ومنها: تقديم ﴿عَنْكُمُ﴾ على ﴿الرِّجْسَ﴾، لأن تقديم ما حقّه التأخير يفيد الحصر والتخصيص، والمعنى أن هذه الموهبة وهي إذهاب الرجس خصَّ الله تعالى أهل البيت بها حصراً، وليس غيرهم، مع أنّ الأمر باجتناب المعاصي وتحصيل الطهارة عام للجميع.

ومنها: نصب أهل البيت عليهم السلام من باب الاختصاص، وتقدير الكلام إنما يريد الله تعالى ليذهب عنكم الرجس أخصّ وأعني أهل البيت، وهذا لنفي توهّم شمول هذه الإرادة للآخرين.

ومنها: نصب كلمة (تطهيراً) مفعولاً مطلقاً، أي إن هذا التطهير الذي أراده الله

تعالى لكم ليس من سنخ التطهيرات الاعتيادية الأخرى، بل إنه تطهير خاص يخص هؤلاء، ومن الواضح أن الله تعالى لم يكلف عموم الناس بتحصيل هذه الدرجة من التطهير.

الثاني: لاشك أن الآية في مقام تجليل وتعظيم أهل البيت عليهم السلام وتخصيصهم بفضيلة لايشاركهم فيها غيرهم، ومن هنا أكّد التطهير بعد بيان إذهاب الرجس والمصدر بعده منوناً بتنوين التعظيم.

ويظهر هذا جلياً عند النظر للروايات التي رواها الفريقان، حيث خُصَّ أهل الكساء بالآية ولم يدخل فيها غيرهم، بل حتى لم يسمح لأم سلمة المتفق على تقواها وعدالتها ان تدخل في ضمن من دعا لهم النبي صلى الله عليه وآله بإذهاب الرجس وتطهيرهم، فلو كانت الإرادة بمعنى الأمر باجتناب الرجس لما اختص بهم، بل لم يكن هنالك فضيلة لهم، وهو خلاف صريح الآية.

حيث لايكون عندئذ تخصيص وتشريف لأهل البيت عليهم السلام، فإن الله تعالى أراد من جميع المكلفين أن يطهّروا أنفسهم ولا اختصاص لها بأهل البيت عليهم السلام.

الثالث: «إنّ الآية على ما في بعض الروايات إنما نزلت بعد دعوة النبي صلى الله عليه وآله لهم وأن يعطيه ما وعده فيهم، وقد سأل الله تعالى أن يذهب عنهم الرجس ويطهّرهم، لا أن يريد ذلك منهم ويكلّفهم بطاعته، فلو كان المراد هذا النوع من الإرادة لكان نزول الآية في الحقيقة ردّاً لدعوته صلى الله عليه وآله، لا إجابة لها، وبطلانه ظاهر».[1]

الرابع: الآية الشريفة وردت في المصحف في أثناء الأوامر الصادرة من الله تعالى لنساء النبي حيث قال: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ**

(١) العلامة المجلسي؛ مرآة العقول: ج ٣ ص ٢٤٣.

بِالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.(١)

نرى أنّ هذه الفقرة تغاير ما قبلها وما بعدها في شيئين:

الأول: تذكير الضمائر (عنكم، يطهركم) بينما الضمائر فيما قبلها وما بعدها مؤنثة (لستن، تخضعن، قرن، بيوتكن، تبرجن، أقمن، آتين، اذكرن، بيوتكن).

الثاني: إفراد البيت في هذه الفقرة (أهل البيت) بينما في ما قبلها وما بعدها كان التعبير بصيغة الجمع (بيوتكن).

وهذا يشير إلى أن المخاطب في آية التطهير مغاير للمخاطب في الفقرات الأخرى وأنها ليست موجّهة لنساء النبي صلى الله عليه وآله، وأن أهل هذا البيت الذين أراد الله تعالى تطهيرهم غير أهل تلك البيوت اللاتي أمرهن بأن يقرن في بيوتهن ونهاهن عن التبرج، وأنّ هذه الفقرة ليست كما قبلها وما بعدها، بينما لو كان المراد من الإرادة في الآية هو الأمر باجتناب الرجس والمعاصي، لم يكن وجه لهذا العدول، إذ الأمر بذلك يعم نساء النبي أيضاً، كما أمرهن ونهاهن في ما قبلها وما بعدها.

الخامس: التأكيد على عمومية الرجس المنفي عن أهل البيت عليهم السلام، حيث دخلت عليه لام الجنس لينفي مطلق ما يدخل تحت هذا العنوان، ثم لم يكتف بذلك بل اكّده بمفهوم إثباتي وهو تطهيرهم، وفي المرحلة الثالثة أكّد على أن ذلك إنما يكون النمط العالي من التطهير الذي لايتيسّر لعموم الناس، فهنا عدة تأكيدات على عمومية نفي

(١) الاحزاب: ٣٢ - ٣٤.

مطلق الرجس وإثبات أعلى درجات الطهارة لأهل البيت عليهم السلام.

و بالجملة:

«أن من نظر إلى الأخبار المتقدمة وأنصف من نفسه علم أن الأمر الذي دعا رسول الله صلى الله عليه وآله لأهل بيته وخصهم به، ومنع أم سلمة من الدخول فيهم مع جلالتها وكرامتها، لا بد أن يكون أمراً جليلاً لا يتيسر لسائر الخلق، ومعلوم أنه من قبيل إذهاب النقائص والرذائل، وكذا التطهير لا ريب أنه التطهير من الأدناس المعنوية، ولو أريد بهما إذهاب بعض الذنوب كالكبائر على ما قيل فأي اختصاص له بأهل البيت؟ لا سيما وهم يدّعون أن الصحابة كلهم عدول، فلما ذا منع أم سلمة من الدخول مع كونها عادلة متقية بالاتفاق؟ فلا بد من كون المراد العصمة من جميع الذنوب والمعاصي والشكوك في أمور الدين».(١)

فبحسب الآية الكريمة أن الله تعالى شرّف أهل البيت عليهم السلام وخصهم من بين سائر المؤمنين بنفى جنس الرجس عنهم عليهم السلام بصورة مطلقة ومؤكّدة، والعمد إلى تطهيرهم تطهيراً في أعلى مراتب الطهارة، وهذه الإرادة من الله تعالى بمثابة صك الضمان للناس جميعاً للاقتداء بأهل البيت عليهم السلام وطاعتهم واتباعهم، فانهم معصومون من كل ما يسمى بالرجس ومطهرون في أعلى درجات الطهارة، لايصدر منهم معصية ولاذنب ولا خطأ ولاسهو، لأنّ كل ذلك ينافي الطهارة الواقعية، حتى وإن كان معذوراً فيها.

(١) مقتبس من العلامة المجلسي؛ مرآة العقول: ج ٣ ص ٢٤٦.

الأسئلة

٥- لماذا لايمكن حمل الظالم في آية الابتلاء على الظالم الظاهري؟ وما هو الفرق بين العدالة والظلم الواقعي والظاهري؟

٦- ما هي حجتنا للقول بحصر آية التطهير بالنبي وأهل بيته عليهم السلام دون نساء النبي صلى الله عليه وآله؟

٧- ما هو المراد بالإرادة في آية التطهير؟

٨- من وجوه الاستدلال بآية التطهير على العصمة، الحصر الموجود فيها والتأكيد على إذهاب مطلق الرجس والإيصال للمراتب العالية من التطهير، ما وجه الاستدلال بهذين الأمرين؟

٩- ادعى العلامة المجلسي أنه لو كانت الآية بمعنى طلب التطهير من أهل البيت عليهم السلام لكان ذلك رداً لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وليس استجابة لدعوته، ما وجه هذا الكلام؟

الدرس الثاني والثلاثون: إمامة أميرالمؤمنين عليه السلام

توطئة: منهج إثبات إمامة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام

كما أكّدنا في باب النبوة الخاصة، أن النظر في أدلة مدّعي النبوة إنما يكون بعد الفراغ من إمكان كونه نبياً.

وهنا أيضاً نؤكد على أنّ البحث عن الإمام والخليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله لابد وأن يكون وفق المعايير التي بحثنا عنها في مباحث الإمامة العامة.

فنحن لانبحث عن كل من ادّعى مقام خلافة الرسول صلى الله عليه وآله ولايهمنا ذلك، إنما نحاول هنا أن نجد شخصاً يكون مصداقاً لكل ما ثبت عندنا بالدليل والبرهان من شرائط الإمام وصفاته ووجوه الحاجة إليه.

ومن هنا فكل من ادعى خلافة النبي صلى الله عليه وآله ولايكون واجداً لتلك الصفات، أو لم يدّعها هو لنفسه ولااتباعه ادعوها له، يكون خارجاً عن موضوع البحث تخصصاً.

فحينما أثبتنا أن الإمام لابد وأن يكون حاملاً لعلم النبي ووارثاً للكتاب الذي لارطب ولا يابس إلا فيه وتبيان لكل شيء، فلايمكن أن يكون الجاهل بالقرآن أو بشيء منه أو بشيء من تأويله، أو من لاتتيسّر له معرفة كل شيء عياناً بالقرآن، فلايمكن أن يكون إماماً ولانبحث عنه ولاعن دلائل إمامته، بل يكون خارج دائرة البحث.

حينما قلنا: إن الإمام لابد وأن يكون خليفة الله تعالى في أرضه ويكون له صفة التمثيل الرسمي عن الله جل جلاله، ليكون أمينه في عباده وعلى وحيه، فمن لم يدّع

لنفسه هذا المقام ولم يُدع له، يكون خارجاً من البحث موضوعاً.

و هكذا من ليس بمعصوم، ومن لايعزى انتخابه إلى التنصيص من رب العالمين، فإنا قد أثبتنا أن الأرض لاتخلو من حجة لله يُنص عليه بالإمامة وأن تعيينات الناس في مقام الملك الإلهي لاقيمة لها، فتكون خلافة من يسند نفسه إلى انتخاب الناس أمراً مرفوضاً لايهمنا النظر فيه بتاتاً.

قد مرّ أن بقاء الدين والقرآن ودوام حجيتهما إنما يكون رهن وجود خليفة من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يكون حاملاً لعلم الرسول صلى الله عليه وآله ومحيطاً بتأويل القرآن بعد تنزيله، فمع هذا كيف يصدق عقلك أن يكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله من لايعرف معاني ألفاظ القرآن، أو لايعرف ألفاظ آيات القرآن.

فمن الواضح أنّه لايُتوقّع من الجاهل بظاهر التنزيل أن يكون عارفاً بتأويله وعلومه التي وصفها في كتابه أنها تبيان لكل شيء ومكنون لايمسه إلا المطهرون، وهذا يعني أنه لايمكن أن يكون خليفة وإماماً من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، حسبما مر في ذكر شرائط الإمام وصفاته.

و هكذا يحاكم كل من ادعى خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله أو ادعيت له من يوم قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى يومنا هذا، بتلك المعايير التي مرت في مباحث الإمامة العامة.

فترى سوف لايبقى في دائرة الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله وأئمة من بعده إلا الأئمة الاثنا عشر صلوات الله عليهم اجمعين، وبذاك قد طوينا مراحل مهمة في مبحث الإمامة الخاصة.

و خلاصة الكلام: أنّنا في الإمامة الخاصة لانبحث عن كل من ادعى الإمامة أو الخلافة، بل عن من يمكن أن ينطبق عليه ما أسّسناه في مباحث الإمامة العامة.

و يقع البحث في مقامين:

المقام الأول: إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

والمقام الثاني: إمامة سائر الائمة عليهم السلام.

المقام الأول: إمامة أمير المؤمنين عليه السلام

ولنكتف بذكر بعض البراهين المختصرة:

الأول: استغناؤه عن الكل وحاجة الكل إليه

و يظهر بالنظر إلى مقدمتين:

الأولى: إنّ أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام قد ادّعى لنفسه منصب الإمامة والعصمة وأنه منصوب من قبل الله تعالى، والناظر في شخصية أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) وما ظهر منه من العلوم والمعارف والغرائب والخصائص، يظهر له بداهة أنه واجد لجميع شرائط الإمامة، وإثبات هذه المقدمة لايحتاج إلى جهد كبير، فإن ذلك أكثر من أن يُحصى، وقد رواه جميع طوائف المسلمين، بل لم يخالف أحد في ذلك عدا بعض النواصب الخارجين عن الملة بالاتفاق.

فانظر إلى ما قاله الفضل بن روزبهان - وهو من متعصبي علماء العامة - في رده على العلامة الحلي، حيث قال العلامة:

«الناس كلهم بلاخلاف عيال عليه في المعارف الحقيقية والعلوم اليقينية والأحكام الشرعية والقضايا النقلية... وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أقضاكم علي**».[1]

(١) انظر: سنن ابن ماجة: ج ١ص ٥٥ ح ١٥٤، المعجم الصغير: ج ١ ص ٢٠١، أخبار القضاة لوكيع: ج ١ ص ٨٨ - ٩٠، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص ١٢٧، الاستيعاب: ج ٣ ص

والقضاء يستلزم العلم والدين، وروى الترمذي في صحيحه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**».[١]

فلم يتيسّر لفضل بن روزبهان أن يرد كلام العلامة مع غاية جهده في الرد عليه، فقال:

«ما ذكره من علم أمير المؤمنين فلاشك أنّه من علماء الأمة والناس محتاجون إليه فيه، كيف لا؟ وهو وصي النبي في إبلاغ العلم وودائع حقائق المعارف، فلانزاع لأحد فيه، وأما ما ذكره عن الترمذي فصحيح».[٢]

وقال الفضل أيضاً:

«هذا يدلّ على وفور علمه واستحضاره أجوبة الوقائع واطّلاعه على شتات العلوم والمعارف، وكلّ هذه الأمور مسلّمة ولا دليل على النصّ، حيث لا يجب أن يكون الأعلم خليفة، بل الأحفظ للحوزة، والأصلح للأمّة، ولو لم يكن أبو بكر أصلح للإمامة لما اختاروه، كما مرّ».

فرد عليه المظفر بقوله:

«معنى كونه باب مدينة علم النبيّ ﷺ أنّه الواسطة للناس في وصولهم إلى علم النبيّ ﷺ، فلا واسطة غيره، والآخذ من غيره كالسارق، فيكون أخذ العلم منه واجباً ومن غيره حراماً، فهو الإمام دون غيره؛ لعدم اجتماع إمامة

١١٠٢، الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي: ج ٢ ص ٢٩١ ح ٩٩٢، التبصير في الدين للاسفرايني: ص ١٧٩، مصابيح السنة: ج ٤ ص ١٨٠ ح ٤٧٨٧، تاريخ دمشق: ج ٤٧ ص ١١٢، أسد الغابة: ج ٣ ص ٥٩٧، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ١ ص ١٨.

(١) نهج الحق للعلامة الحلي: ٢٣٥، راجع الملحقات: ملحق رقم(٥).

(٢) نقل عنهما المظفر في دلائل الصدق: ج ٦ ص ٣١٩ - ٣٢١

الشخص وحرمة الأخذ عنه واتّباعه في ما يحكم به، كما أنّ وجوب الأخذ عنه للوصول إلى علم الرسول ﷺ لا يتمّ إلّا بعصمته، فيتعينّ للإمامة، وكذا جعله الباب لعلمه دالّ على إحاطته بجميع ما يصدر عن النبيّ ﷺ من العلوم، وذلك شأن الإمام.

ويشهد لانحصار طريق علم النبيّ ﷺ بعليّ عليه السلام، جهل الأمّة بأكثر الأحكام لّما أعرضوا عنه، والحال أنّ الله سبحانه قد أكمل دينه، فما زالت آراؤهم مضطربة، وأحكامهم مختلفة، حتّى كأنّ الله تعالى قد أوكل إلى أهوائهم أحكامه...و لو سلّم عدم دلالة الحديث على انحصار طريق علم النبيّ ﷺ بعليّ عليه السلام، فلا إشكال بدلالته على أعلميّته، كما أقرّ به الفضل في ظاهر كلامه، فيقبح تقديم المفضول عليه.».[١]

وقال العلامة الحلي:

«وأيضاً جميع الصحابة رجعوا إليه في الأحكام واستفادوا منه ولم يرجع هو إلى أحد منهم في شيء البتة، وقال عمر بن الخطاب في عدة مواضع: «لولا علي لهلك عمر».، حيث ردّه عن خطأ كثير».[٢]

أيضاً لم يتيسّر للفضل أن يرد على العلامة حين قال:

«رجوع الصحابة إليه في الفتوى غير بعيد، لأنّه كان مفتي الصحابة، والرجوع إلى المفتي من شأن المستفتين، وأنّ رجوع عمر إليه كرجوع الأئمة وولاة العدل إلى علماء الأمة، وما ذكره من قوله «لولا علي لهلك عمر».فهو

---

(١) دلائل الصدق: ج ٦ ص ١٧١ – ١٧٤.

(٢) نهج الحق: ٢٣٩.

من فضائل عمر في عدله وصدقه وإنصافه وتواضعه».

ورد عليه المظفر بقوله:

«أما قوله «إن رجوع عمر إليه كرجوع الأئمة وولاة العدل إلى علماء الأمة». فهو تجهيل لعمر؛ إذ اعتبره كسائر الولاة الذين يحتاجون إلى علم العلماء، وقد سبق موضّحاً أن الإمام أجلّ قدراً، وأعلى شأناً، من أن يحتاج إلى علم الرعية.(١)

وأما ما زعمه من صدق عمر وتواضعه، فمتنافيان ظاهراً؛ لأنّ الحقّ إنْ كان مع أمير المؤمنين عليه السلام وكان عمر صادقاً في قوله، لزم أن لايكون ذلك تواضعاً، بل إقرار بالحق، وإنْ كان الحقّ مع عمر، فلا وجه لإقراره بعدم علمه وعلمه بغير الحق تواضعاً، بل لزم أن يكون كاذباً في قوله».(٢)

وقال العلامة الحلي:

«و في مسند أحمد بن حنبل: «لم يكن أحد من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله يقول: سلوني؛ إلّا عليّ بن أبي طالب».(٣) وفي صحيح مسلم، أنّ عليّا قال على المنبر:

---

(١) تقدم عنده في دلائل الصدق: ج ٤ ص ٢٣٧ - ٢٤٠.

(٢) دلائل الصدق: ج ٦ ص ٣٥١ - ٣٥٣.

(٣) انظر: ينابيع المودّة ١/ ٢٢٤ ح ٥٠ عن مسند أحمد وانظر: فضائل الصحابة- لأحمد بن حنبل- ٢/ ٨٠٢ ح ١٠٩٨، الطبقات الكبرى- لابن سعد ٢/ ٢٥٦، ذخائر العقبى: ١٥١، الاستيعاب ٣/ ١١٠٣، جامع بيان العلم ١/ ١٣٧، الفقيه والمتفقّه ٢/ ٣٥٢ ح ١٠٨٣، شواهد التنزيل ١/ ٣٨ ح ٤٦- ٤٨، مناقب الإمام عليّ عليه السلام- للخوارزمي-: ٩٠- ٩١ ح ٨٣، تاريخ دمشق ٤٢/ ٣٩٩، أسد الغابة ٣/ ٥٩٧، الرياض النضرة ٣/ ١٦٦- ١٦٧، كنز العمّال ١٣/ ١٣٠- ١٣١ ح ٣٦٤١٥.المستدرك على الصحيحين: ح ٣٣٤٢، الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، جامع الأحاديث للسيوطي: ح ٣٢٧٦٤، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور.

«سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن كتاب الله عزّ وجلّ، فما من آية إلّا وأعلم حيث نزلت، بحضيض جبل، أو سهل أرض. سلوني عن الفتن، فما من فتنة إلّا وقد علمت كبشها، ومن يقتل فيها».[١]

وكان يقول: **«سلوني عن طرق السماء فإنّي أعرف بها من طرق الأرض»**.[٢]

وقال عليّ: **«علّمني رسول الله ألف باب من العلم، في كلّ باب ألف باب»**.[٣]

وقضاياه العجيبة أكثر من أن تحصى؛ كقسمة الدراهم على صاحبي الأرغفة[٤]، وبسط الدّية على القامصة، والناسخة[٥]، وإلحاق الولد بالقرعة، وصوّبه النبيّ ﷺ[٦]، والأمر بشقّ الولد نصفين، حتّى رجعت المتداعيتان إلى

والملفت للنظر ان هذا التحدي صدر من الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أيضاً في ما روته العامة: تاريخ الإسلام التوفيقية لشمس الدين الذهبي، تهذيب الكمال لجمال الدين المزي، وسير اعلام النبلاء لذهبي.

(١) عمدة عيون صحاح الأخبار: ٣٢٦ ح ٤٣٥ عن صحيح مسلم، وانظر: تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور وكثير من المصادر المذكورة في التعيقة السابقة.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة رقم: ١٨٩. راجع الملحقات: ملحق رقم (٦).

(٣) الرسالة اللدنّيّة- للغزّالي-: ٢٣٢، تاريخ دمشق ٤٢/ ٣٨٥، مطالب السؤول: ١١٨، فرائد السمطين ١/ ١٠١ ح ٧٠، البداية والنهاية ٧/ ٢٨٦، شرح المقاصد ٥/ ٢٩٧، سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٤، كنز العمّال ١٣/ ١١٤- ١١٥ ح ٣٦٣٧٢.

(٤) الاستيعاب ٣/ ١١٠٥، ذخائر العقبى: ١٥٢، الرياض النضرة ٣/ ١٦٨، الصواعق المحرقة: ١٩٩، تاريخ الخلفاء: ٢١١- ٢١٢، وانظر: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١/ ٢١٨- ٢١٩.

(٥) انظر: السنن الكبرى- للبيهقي- ٨/ ١١٢، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١/ ١٩٦.

(٦) انظر: سنن ابن ماجة ٢/ ٧٨٦ ح ٢٣٤٨، سنن النسائي ٦/ ١٨٢، سنن أبي داود ٢/ ٢٨٩ ح ٢٢٦٩ و٢٢٧٠، مسند أبي داود الطيالسي ١/ ٢٦ ح ١٨٧، مسند أحمد ٤/ ٣٧٤، المستدرك على الصحيحين ٣/ ١٤٦ ح ٤٦٥٩، السنن الكبرى- للبيهقي- ١٠/ ٢٦٦- ٢٦٧، الرياض النضرة ٣/ ١٦٩، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١/ ١٩٥.

الحقّ[1]، والأمر بضرب عنق العبد حتّى رجع إلى الحقّ[2]، وحكمه في ذي الرأسين بإيقاظ أحدهما[3]، واستخراج حكم الخنثى[4]، وأحكام البغاة؛ قال الشافعي: عرفنا أحكام البغاة من عليّ.[5].وغير ذلك من الأحكام الغريبة، التي يستحيل أن يهتدي إليها من سئل عن الكلالة والأبّ فلم يعرفهما، وحكم في الجدّ بمئة قضيّة».[6]

وهنا أيضاً لم ير ابن روزبهان إلا أن يسلّم للعلامة فقال:

«ما ذكره من الأقضية والأحكام التي قضى فيها أمير المؤمنين، فهو حقّ لا يرتاب فيه، وهذا شأنه وهو مشتهر به، وأمّا قوله: «سلوني».، فهذا من وفور علمه، كالبحر الزاخر الذي يتموّج بما فيه ويريد إلقاء الدرّ على الساحل، وليس هذا من باب النزاع حتّى يقيم فيه الدلائل، وأمّا قوله: «من سئل عن الكلالة والأبّ فلم يعرفهما».، فهو من المطاعن، وستعرف جوابه في محلّه إن شاء الله».

فرد عليه المظفر بقوله:

---

(١) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١/ ٢٠٥، مناقب آل أبي طالب- لابن شهر آشوب- ٢/ ٤٠٩.

(٢) انظر: مناقب آل أبي طالب- لابن شهر آشوب- ٢/ ٤٢٣.

(٣) كنز العمّال ٥/ ٨٣٣ ح ١٤٥٠٩، وانظر: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١/ ٢١٢، مناقب آل أبي طالب- لابن شهر آشوب- ٢/ ٤١٨.

(٤) الغارات: ١١٤، مناقب الإمام عليّ عليه السلام- للخوارزمي-: ١٠١- ١٠٢ ح ١٠٥، تذكرة الخواصّ: ١٤٨.

(٥) انظر: كتاب الأمّ ٤/ ٣١٧، شرح نهج البلاغة- لابن أبي الحديد- ٩/ ٣٣١.

(٦) نهج الحق للعلامة الحلي: ٢٤٠.و يقصد ابابكر وعمر الذين لم يعرفا معنى الكلالة والاب ولم يعرفا حكم الجد في الميراث، وسنذكرها.

«مقصود المصنّف رحمه الله بيان فضل أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّه لا نسبة بينه وبين من تقدّم عليه، فكيف يكون رعيّة لهم وهم أئمّته، والله سبحانه يقول: **هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**، و يقول: **أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**؟! وليس مراده مجرّد بيان علم أمير المؤمنين عليه السلام؛ لئلّا يكون محلّ النزاع، ولا مجرّد الطعن في غيره ليحيل جوابه على ما يأتي».[١]

الثانية: أنّ كلّ من ادعي الإمامة سواه غير واجد لشرائط الإمامة، بل لم يدع لنفسه تلك المقامات، ولو ادعى ذلك فقد ظهر كذبه وفشله، وهذا أيضاً واضح وظاهر لكل متتبع منصف.

إنّ أبابكر وعمر لم يعرفا معنا «**أَبًّا**».في قوله تعالى «**وَ فاكِهَةً وأَبًّا**».[٢].

---

(١) دلائل الصدق: ج ٦ ص ٣٥٤ – ٣٥٨.

(٢) حينما سئل أبوبكر ومن بعده عمر عن معنى (ابّا) في قوله تعالى: ﴿**وَ فاكِهَةً وأَبًّا**﴾ لم يعرفا المعنى واعترفا بجهلهما.

أخرج أبو عبيدة عن إبراهيم التيمي قال: سُئل أبو بكر عن قوله تعالى: ﴿**وَ فاكِهَةً وأَبًّا**﴾ فقال: أيّ سماء تظلّني- أو أيّ أرض تقلّني- إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟

و في لفظ القرطبي: أيّ سماء تظلّني؟ وأي أرض تقلّني؟ وأين أذهب؟ وكيف أصنع؟ إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى.(الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/ ٢٧ و١٩/ ١٤٥، مقدمة في أصول التفسير لابن تيميه: ص ٤٧، الكشّاف للزمخشري: ٤/ ٧٠٤، أعلام الموقّعين لابن القيم: ١/ ٥٤، تفسير الخازن: ٤/ ٣٥٤، تفسير أبي السعود: ٩/ ١١٢، الدرّ المنثور: ٨/ ٤٢١، فتح الباري: ١٣/ ٢٧١.) وللاطلاع على تفاصيل الحدث، راجع: الغدير للعلامة الاميني: ج ٧ ص ١٣٨.

وعن أنس بن مالك قال: إنّ عمر قرأ على المنبر: ﴿**فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا ۞ وعِنَباً وقَضْباً ۞ وزَيْتُوناً ونَخْلا ۞ وحَدائِقَ غُلْباً ۞ وفاكِهَةً وأَبًّا**﴾، قال: كلّ هذا عرفناه، فما الأبّ؟ ثمّ رفض عصاً كانت في يده فقال: هذا لعمر الله هو التكلّف، فما عليك أن لا تدري ما الأبّ؟ اتّبعوا ما بُيِّن لكم هداه من الكتاب فاعملوا به

و إن أبا بكر لم يعرف ميراث الجدة والجد والجدتين![1]

و انّ عمر بن الخطاب في أيام خلافته لم يكن يعلم أن هنالك آية في القرآن للتيمم، وأمر بترك الصلاة لمن لايجد ماء! رغم أنه كان مع عمارٌ حين بَيَّن رسول الله ﷺ له حكم التيمم، وقد ذكر الله تعالى حكم التيمم مرتين في القرآن.[2]

وما لم تعرفوه فكِلوه إلى ربّه.(الطبقات الكبرى: ٣/ ٣٢٧، شعب الإيمان: ٢/ ٤٢٤ ح ٢٢٨١، جامع البيان: مج ١٥/ ج ٣٠/ ٥٩، المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٥٥٩ ح ٣٨٩٧ وكذا في تلخيصه، تفسير الكشّاف: ٤/ ٧٠٤، الرياض النضرة: ٢/ ٣٢٣، الموافقات: ١/ ٤٩، تاريخ عمر بن الخطّاب: ص ١٤٥، النهاية: ١/ ١٣، مقدمة في أصول التفسير: ص ٤٧ و٤٨، تفسير الخازن: ٤/ ٣٥٤، الدرّ المنثور: ٨/ ٤٢١، كنز العمّال: ٢/ ٣٢٨ ح ٤١٥٤، المصنّف: ١٠/ ٥١٢ ح ١٠١٥٤، تفسير أبي السعود: ٩/ ١١٢، إرشاد الساري: ١٥/ ٢٨٨ ح ٧٢٩٣، عمدة القاري: ٢٥/ ٣٥ ح ٦٤، فتح الباري: ١٣/ ٢٧٠ – ٢٧٢.) للاطلاع على تفاصيل الحدث، راجع الغدير: ج ٦ ص ١٤٢.

(١) انظر: سنن الدارمي ٢/ ٢٤١ – ٢٤٢ ح ٢٩٠٨ – ٢٩١١، مصنّف عبد الرزّاق ١٠/ ٢٦١ – ٢٦٤ ح ١٩٠٤١ – ١٩٠٥٢ وص ٢٦٥ – ٢٦٧ ح ١٩٠٥٨ – ١٩٠٦٢، المعجم الأوسط ٤/ ٤٨٢ – ٤٨٣ ح ٤٢٤٥، المستدرك على الصحيحين ٤/ ٣٧٧ – ٣٧٨ ح ٧٩٨٣.و راجع الغدير للعلامة الاميني: ج ٧ ص ١٦٣ – ١٧٩.

(٢) في سورة النساء: ٤٣ والمائدة: ٦.

روى مسلم في صحيحه في باب التيمّم بأربعة طرق عن عبد الرحمن ابن أبزي: إنّ رجلًا أتى عمر فقال: إنّي أجنبت فلم أجد ماءً فقال عمر: لا تصلِّ.فقال عمّار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سريّة فأجنبنا فلم نجد ماءً، فأمّا أنت فلم تصلِّ، وأمّا أنا فتمعّكت في التراب وصلّيت، فقال النبيُّ ﷺ «**إنّما كان يكفيك أن تضرب بيديك الأرض ثمّ تنفخ ثمّ تمسح بهما وجهك وكفّيك**».، فقال عمر: اتّق الله يا عمّار، قال: إن شئت لم أُحدّث به، وفي لفظ: قال عمّار: يا أمير المؤمنين إن شئت لِما جعل الله عليّ من حقّك أن لا أُحدّث به أحداً، ولم يذكر.(صحيح مسلم: ١/ ٣٥٥ ح ١١٢ كتاب الحيض، سنن أبي داود: ١/ ٨٨ ح ٣٢٢، سنن ابن ماجة: ١/ ١٨٨ ح ٥٦٩، مسند أحمد: ٥/ ٣٢٩ ح ١٧٨٦، السنن الكبرى: ١/ ١٣٤ ح ٣٠٣- ٣٠٥.)

وللاطلاع على تفاصيل الحدث، راجع: الغدير للعلامة الاميني: ج ٦ ص ١٣٠.

وأبرح السائل عن تفسير ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾.ضرباً، فراراً عن جوابه![١]

وأقرّ بأنّ المخدرات في الحجال أفقه منه![٢]

قال الشهيد قاضي نور الله التستري ردّاً على فضل بن روزبهان:

«فلينظر هذا الناصب الضال، أنّ المتصف بهداية الأمة أهو من يطالع اللّوح المحفوظ بشهادة ابن حجر العسقلاني في شرح صحيح البخاري كما مرّ، ويقول: «سلوني عما دون العرش».و نحو ذلك مما يدل على غزارة علمه؟ أو من لا يعرف معنى الكلالة والأب من القرآن؟ أو من يعترف بأفقهية مخدّرات النساء عنه، ويقول سبعين مرّة: «لولا علي لهلك عمر».[٣]، و«هذه معضلة ولا أبا حسن فيها».[٤].

---

(١) انظر: مسند البزاز ج ١ ص ٤٢٣ ح ٢٩٩، تفسير القرطبي: ج ٧ ص ٢١، تفسير ابن كثير: ج ٤ ص ٢٣٣، الدر المنثور: ج ٧ ص ٦١٤.

(٢) انظر: سنن سعيد بن منصور: ج ١ ص ١٦٦ – ١٦٨ ح ٥٩٨، السنن الكبرى لبيهقي: ج ٧ ص ٢٣٣، تمهيد الاوائل: ج ١ ص ٥٠١، الاربعين في اصول الدين للفخر الرازي: ج ٢ ص ٣٠٣، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ١٢ ص ٢٠٨، مجمع الزوائد: ج ٤ ص ٢٨٤.

(٣) في هامش احقاق الحق: قالها عمر في موارد كثيرة حتى اشتهر بين المحدثين انها سبعون موردا فمنها ما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب (ج ٢ ص ٤٦١) وفي كتاب الجامع للعلم (ص ١٥٠) في مسألة أمره برجم المجنونة، وفي المرأة التي وضعت لستة أشهر وكذا ابن حجر في الاصابة والطبري في الذخائر والكنجي في كفاية الطالب وأحمد بن حنبل في المسند وغيرهم وبالجملة الأمر مما لا يرتاب فيه إلا المعاند عصمنا الله تعالى عن العصبية الباردة تراث الجاهلية.

(٤) في هامش احقاق الحق: قد نقلت هذه الاستعاذة من عمر كثيراً فمن تلك الموارد ما ذكره ابن عبد البر الأندلسي في كتاب الاستيعاب (ج ٢ ص ٤٦١ طبع حيدرآباد) قال ما لفظه: وقال أحمد بن زهير حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا مؤمل بن اسماعيل حد ثنا سفيان الثوري عن يحيى بن سعيد بن المسيب قال: كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن انتهى، وكذا في طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ في علم علىﷺ وقضاوته قال وروى عن سعيد بن

﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.(١)

و أمثال ذلك الكثير، فمثل هؤلاء الناس لايمكن أن يكونوا خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله، والإيلزم منه زوال الدين وبطلان القرآن كما مرّ البرهان على ذلك.

بعد وضوح هاتين المقدمتين نقول:

لو لم يكن علي بن ابي طالب عليه السلام هو الإمام من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لزم منه خلو الأرض من إمام، وهو الآخر أيضاً يلزم منه زوال الدين وبطلان الكتاب.

و هذا البرهان مستفاد من هذا الحديث الشريف: عَنْ مَنْصُورِ بْنِ حَازِمٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام: ...قُلْتُ لِلنَّاسِ: تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله كَانَ هُوَ الحُجَّةَ مِنَ الله عَلَى خَلْقِهِ؟ قَالُوا: بَلَى، قُلْتُ: فَحِينَ مَضَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله مَنْ كَانَ الحُجَّةَ عَلَى خَلْقِهِ؟ فَقَالُوا: القُرْآنُ.فَنَظَرْتُ فِي القُرْآنِ فَإِذَا هُوَ يُخَاصِمُ بِهِ المُرْجِئُ وَالقَدَرِيُّ وَالزِّنْدِيقُ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِهِ حَتَّى يَغْلِبَ الرِّجَالَ بِخُصُومَتِهِ، فَعَرَفْتُ أَنَّ القُرْآنَ لَا يَكُونُ حُجَّةً إِلَّا بِقَيِّمٍ، فَمَا قَالَ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ كَانَ حَقّاً، فَقُلْتُ لَهُمْ: مَنْ قَيِّمُ القُرْآنِ؟ فَقَالُوا ابْنُ مَسْعُودٍ قَدْ كَانَ يَعْلَمُ، وَعُمَرُ يَعْلَمُ، وَحُذَيْفَةُ يَعْلَمُ.قُلْتُ: كُلَّهُ؟ قَالُوا: لَا، فَلَمْ أَجِدْ أَحَداً يُقَالُ إِنَّهُ يَعْرِفُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَّا عَلِيّاً عليه السلام، وَإِذَا كَانَ الشَّيْءُ بَيْنَ القَوْمِ فَقَالَ هَذَا لَا أَدْرِي، وَقَالَ هَذَا لَا أَدْرِي، وَقَالَ هَذَا لَا أَدْرِي، وَقَالَ هَذَا أَنَا أَدْرِي، فَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيّاً عليه السلام كَانَ قَيِّمَ القُرْآنِ، وَكَانَتْ طَاعَتُهُ مُفْتَرَضَةً، وَكَانَ الحُجَّةَ عَلَى النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله، وَأَنَّ مَا قَالَ فِي القُرْآنِ فَهُوَ حَقٌّ.فَقَالَ: **رَحِمَكَ اللهُ**».(٢)

المسيب انه قال كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس فيها أبو الحسن.

(١) إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ج٣، ص: ١٠٢

(٢) الكافي: كتاب الحجة باب الاضطرار إلى الحجة ح ٢، ج ١ ص ١٦٨

إنّ برهان منصور بن حازم في هذا الحديث قائم على ما يعلمه المسلمون ضرورة، من أنّ رسول الله ﷺ كان عالماً بكل القرآن، تنزيله وتأويله وظاهره وباطنه، كما قال تعالى ﴿وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْء﴾[1] فكان حجة من الله تعالى على خلقه بما يحمل صدره من تلك العلوم والأسرار، ثم ضرورة الدين على بقائه إلى يوم القيامة تحتّم وجود من يخلفه في هذا العلم وفي هذه الحجية، وإلا يلزم بطلان الإسلام والقرآن وبطلان تلك الحجية، حيث ارتفع علم القرآن بوفاة النبي ﷺ، فالناس لتمسكهم بالقرآن يحتاجون إلى من يعرف حقائق القرآن وتكون حجيته كحجية رسول الله ﷺ، كيلا يفنى الدين وتزول حجية القرآن، والذي يكون عالماً بالقرآن يستحيل أن يجهل بعض القرآن.

فجهل الكل غير علي عليه السلام بكل القرآن، دليل على أنّه إمام الكل وأنّه خليفة رسول الله ﷺ وقيّم القرآن، كما نقل عن الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٥ وقد سألوه عن علة تفضيله علياً عليه السلام فقال: «**احتياج الكل إليه واستغناؤه عن الكل دليل على أنه إمام الكل**».

ثم لايخفى أنّ هذا البرهان يثبت إمامة سائر الأئمة عليهم السلام حينما تقارن سيرتهم وعلمهم بمن قارنهم ممن ادعى الإمامة أو أدعيت في حقه.

زيادة يقين

و مما يزيد الأمر وضوحاً، أنّ ادعاء هذه المقامات العالية من العلم والإحاطة بأسرار القرآن من أئمة أهل البيت عليهم السلام، كان يعد تحدّياً سافراً لكلّ من يزعم أنّه خليفة رسول الله ﷺ، و كلّنا نعلم أنّهم كانوا من أشد أعداء أهل البيت عليهم السلام حيث قتلوهم وشرّدوهم وفعلوا كلّ ما بوسعهم في العداوة معهم، فبطبيعة الحال لو استطاعوا أن

---

(١) النحل: ٨٩.

ينقضوا عليهم في هذه التحديات المتعددة والمكرّرة منهم ومن أشياعهم واتباعهم، لكان من أسهل طرق المواجهة معهم إبطال هذه التحديات، بإظهار جهلهم بشيء من القرآن أو حكمٍ من الدين، أو عوزهم من الجواب عن مسألة مما يحتاج إليه الناس.

و قد فعلوا كلّ ما بوسعهم وشكّلوا لجاناً علمية، واستدعوا علماء البشر من جميع طبقاتهم وأصنافهم، عسى أن يجدوا للعيب والجهل فيهم مجالاً، لكن خابت آمالهم ورجعت إليهم أبصارهم خاسئين، بل لم يجدوا بدّا من الإقرار بفضلهم وعلمهم والتتلمذ عندهم، بل لم يجرؤ حتى أعداؤهم أن يرموهم بجهل أو قصور في علم باطن القرآن وحقائق التنزيل.

تلخّص:

ألف/ لابدّ من وجود إمام بعد النبي وفي كلّ زمان يكون حاملاً لعلم القرآن وعلوم النبي، ويكون عالماً بجميع ما في القرآن من تأويه وتنزيله، كي لاتتعطل حجج الله تعالى وبيناته.

ب / إنّ الإمام علياً وأبناءه المعصومين الأحد عشر عليهم السلام قد ادعوا لأنفسهم هذا العلم الإلهي والمقامات العالية بباطن القرآن وتأويله، وتحدّوا الناس بذاك.

ج / أنّ غيرهم لم يدّعوا هذه المقامات، بل اعترفوا بجهلهم وقصورهم وتقصيرهم، ومن رام أن يدّعيها غيرهم، ظهر فشله وجهله وإعوازه.

فينتج: أنّ أميرالمؤمنين وأولاده الأحد عشر عليهم السلام هم المصاديق الحصرية للأئمة من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

د / أضف إلى ذلك: أنّ السلطات والحكومات القائمة بعد النبي صلى الله عليه وآله صرفوا غاية

جهدهم لإبطال ونقض التحدي القائم من أئمة أهل البيت عليهم السلام فلم يتيسّر لهم ذلك.

وبذلك يتشكّل يقين ضروري على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام وأبنائه الأئمة عليهم صلوات الله.

الأسئلة

١- هل يجب النظر في دعوى كل من ادعى الإمامة والخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله؟ ومن الذي يجب النظر في دعوته وأدلته عليها؟

٢- من أقوى الأدلة على إثبات إمامة الأئمة الاثني عشر، هو ما ثبت عندنا في الإمامة العامة من مواصفات الإمام وتعريف الإمامة وضرورة وجوده بعد النبي صلى الله عليه وآله في كل زمان، كيف يتم هذا البرهان؟

٣- اذكر بعض الكلمات والروايات من علماء العامة الذين اعترفوا بأن أمير المؤمنين عليه السلام هو أعلم الصحابة.

٤- اذكر بعض الكلمات والروايات من العامة الدالة على جهل الخلفاء وعدم علمهم بالقرآن والاحكام.

٥- ما هو برهان منصور بن حازم على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام؟ كيف يمكن إثبات إمامة سائر الائمة عليهم السلام بهذا البرهان؟

٦- اذكر نموذجاً من محاولات الخلفاء وسعيهم لإبطال تحدي أهل البيت عليهم السلام أنهم أعلم الناس بالقرآن، وكيف يمكن الاستدلال بها على صدق أهل البيت عليهم السلام؟

الدرس الثالث والثلاثون: إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) في القرآن

الثاني: آية الولاية

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.[١]

استدل علماء الإمامية من قديم الزمان بهذه الآية الكريمة على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام وولايته، وأجابوا عن الإشكالات التي قد ترد على ذلك.[٢]

والاستدلال بالآية متوقف على بيان أمور:

الأول: نزول الآية في أمير المؤمنين عليه السلام

روت العامة والخاصة أنها نزلت في علي بن ابي طالب عليه السلام حينما تصدّق بخاتمه على المسكين وهو راكع في الصلاة.

أخرج أبو إسحاق الثعلبي (من أعلام العامة) في تفسيره بإسناده عن أبي ذرّ الغفاري قال: أما إنّي صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً من الأيام الظهر، فسأل سائلٌ في المسجد فلم يعطه أحدٌ شيئاً، فرفع السائل يديه إلى السماء، وقال: اللهمَّ اشهد أنّي سألت في مسجد نبيِّك محمد صلى الله عليه وآله فلم يعطِني أحدٌ شيئاً، وكان عليّ عليه السلام في الصلاة راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وفيه خاتم، فأقبل السائل فأخذ الخاتم من خنصره، وذلك بمرأى

---

(١) المائدة: ٥٥.

(٢) راجع الملحقات : ملحق رقم (٧).

من النبي ﷺ وهو في المسجد، فرفع رسول الله ﷺ طرفه إلى السماء، وقال:

«اللهمَّ إنَّ أخي موسى سألك فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۞ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۞ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِساني ۞ يَفْقَهُوا قَوْلي ۞ وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ فانزلت عليه قرآناً ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما﴾ اللهمَّ، وإنّي محمد نبيّك وصفيّك، اللهمَّ واشرحْ لي صدري، ويسِّر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي، عليّا أشدد به ظهري».

قال أبو ذر رضي الله عنه: فما استتمَّ دعاءه حتى نزل جبرئيل عليه السلام من عند الله تعالى وقال: يا محمد اقرأ ﴿**إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ الآية.[1]

و رواه جمٌّ غفيرٌ من علماء الخاصة والعامة بهذا اللفظ وبألفاظ أخرى، ذكرهم السيد هاشم البحراني في غاية المرام،[2] والعلامة المجلسي في بحار الأنوار[3]، والعلامة الأميني في الغدير[4].

---

(١) الكشف والبيان للثعلبي: ١٨٠ سورة المائدة: ٥٥.

(٢) غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاص والعام: ج ٢ ص ٥ - ص ٢٢، وقد ذكر ٢٤ حديثاً من طريق العامة و١٩ حديثاً من طريق الخاصة في نزول الآية في أمير المؤمنين عليه السلام.

(٣) بحار الانوار: ج ٣٥ ص ١٨٣.

(٤) الغدير: ج ٣ ص ٢٢١ - ٢٣٠. و قد ذكر الأميني قدس سره قرابة سبعين عالماً ومحدثاً من العامة رووا نزول الآية في أمير المؤمنين عليه السلام حينما تصدّق بخاتمه في الركوع، من القرن الثالث وهو القاضي أبو عبد الله محمد بن عمر المدني الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ الهجرية، إلى الشيخ عبد القادر بن محمد السعيد الكردستاني المتوفى سنة ١٣٠٤ الهجرية، ففي كل قرن هنالك جماعة ممن رووا هذا الخبر.

و في الغدير: ج ٢ ص ٩١، ذكر من جملة من رووا نزول الآية فيه سلام الله عليه، منهم: جامع البيان: مج ٤/ ج ٦/ ٢٨٨، أسباب النزول: ص ١٣٣، التفسير الكبير: ١٢/ ٢٦، تفسير الخازن: ١/ ٤٧٥، تفسير النسفي: ١/ ٢٨٩، غرائب القرآن: مج ٣/ ج ٦/ ١٦٧- ١٦٩، الفصول المهمّة: ص ١٢٢، تذكرة الخواص: ص ١٥، كفاية الطالب: ص ٢٢٩ باب ٦١، ص ٢٥٠ باب ٦٢، تاريخ مدينة دمشق:

وقال السيد بن طاووس (م ٦٦٤) في سعد السعود:

«رأيت في تفسير محمد بن العباس بن علي مروان أنه روى نزول آية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ...﴾ في علي من تسعين طريقاً بأسانيد متصلة كلّها أو جلّها من رجال المخالفين لأهل البيت عليهم السلام.

وقال محمد ابن شهر آشوب في مناقبه:

«اجتمعت الأمة أن هذه الآية نزلت في علي عليه السلام لما تصدق بخاتمه وهو راكع لا خلاف بين المفسرين في ذلك، ذكره الثعلبي والماوردي والقشيري والقزويني والرازي والنيسابوري والفلكي والطوسي والطبري في تفاسيرهم، عن السدي ومجاهد والحسن والأعمش وعتبة بن أبي حكيم وغالب بن عبد الله وقيس بن الربيع وعباية الربعي وعبد الله بن عباس وأبي ذر الغفاري، وذكره ابن البيع في معرفة أصول الحديث عن عبد الله بن عبيد الله بن عمر بن علي بن أبي طالب، والواحدي في أسباب نزول القرآن عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس والسمعاني في فضائل الصحابة عن حميد الطويل عن أنس وسليمان بن أحمد في معجمه الأوسط عن عمار وأبو بكر البيهقي في المصنف، ومحمد الفتال في التنوير، وفي الروضة عن عبد الله بن سلام وأبي صالح والشعبي ومجاهد وزرارة بن أعين عن محمد بن علي والنطنزي في الخصائص عن ابن عباس والإبانة عن الفلكي عن جابر الأنصاري وناصح التميمي وابن عباس والكلبي في روايات مختلفة

١٢/ ٣٠٥، وفي ترجمة الإمام عليّ بن أبي طالب ٧- الطبعة المحقّقة-: رقم ٩١٦، المناقب: ص ٢٦٤ ح ٢٤٦، ص ٢٦٦ ح ٢٤٨، فرائد السمطين: ١/ ٧٩ ح ٤٩، ص ١٨٧ ح ١٤٩، ص ١٩٣ ح ١٥٢، ص ١٩٤ ح ١٥٣، المواقف في علم الكلام: ص ٤٠٤، الرياض النضرة: ٣/ ١٨٢ باب ٤ فصل ٩، ص ١٥٦ فصل ٦، البداية والنهاية: ٧/ ٣٩٤ حوادث سنة ٤٠ ه، كنز العمّال: ١٣/ ١٠٨ ح ٣٦٣٥٤، ص ١٦٥ ح ٣٦٥٠١، الصواعق المحرقة: ص ٤١، نور الأبصار: ص ١٥٨، روح المعاني: ٦/ ١٦٧.

الألفاظ متفقة المعاني».(١).

وقال سعد الدين التفتازاني (المتوفى سنة ٧٩١) وعلاء الدين القوشجي (المتوفى سنة ٨٧٩) وهما من أشهر متكلمي العامة في مقام الرد على استدلال الشيعة بالآية فنسبا إلى الشيعة قولهم:

«نزلت باتفاق المفسرين في علي بن أبي طالب حين أعطى السائل خاتمة وهو راكع في صلاته».(٢)

ثمّ إنّهما حاولا بعد ذلك المناقشة في الاستدلال بها على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، إلا أنّهما لم ينكرا اتّفاق المفسّرين على نزولها في الإمام عليه السلام.

وممّن اعترف من أئمّة أهل السُنّة بإجماع المفسّرين واتّفاقهم على نزول الآية المباركة في أمير المؤمنين عليه السلام:

القاضي عضد الدين الإيجي (المتوفّى سنة ٧٥٦) في كتابه المواقف في علم الكلام، فقال في معرض ذكر استدلال الشيعة بالآية، قولهم:

«وأجمع أئمّة التفسير أنّ المراد عليّ».(٣)

وكذا الشريف الجرجاني (المتوفّى سنة ٨١٦) في شرح المواقف:

«وقد أجمع أئمّة التفسير على أنّ المراد ب: ﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وَ هُمْ راكِعُونَ**﴾ عليّ، فإنّه كان في الصلاة راكعاً، فسأله سائل فأعطاه خاتمه، فنزلت

---

(١) مناقب ال ابي طالبل، بن شهر اشوب:ج٢ ص٢٠٨

(٢) شرح المقاصد للتفتازاني: ج ٥ ص ٢٧٠، وشرح تجريد العقائد للقوشجي: ص ٣٦٨ المقصد الخامس في الإمامة.

(٣) المواقف في علم الكلام ٣: ٦٠١.

الآية».[١]

ثم حينما شرعا في مناقشة الاستدلال لم يناقشوا في دعوى إجماع المفسّرين، وهذا واضح في اعترافهم بهذا الاتفاق، وإلا كان الأولى المناقشة في ذلك.

وقال الآلوسى (م ١٢٧٠) وهو من مفسرى العامة في تفسيره:

«غالب الاخباريين (المحدثين) على أنّها نزلت في عليّ».[٢]

فتحصّل: أنّ الآية خاصّة بأمير المؤمنين عليه السلام وليست بعامة لجميع المؤمنين، وأنها نازلة في قضية شخصيةخارجية تحكي قصة تصدق أمير المؤمنين عليه السلام بخاتمه في الصلاة، ويدل على أن التصدّق في الركوع ليس وصفاً لجميع المؤمنين، وليس أمراً ندب إليه الشارع، فالآية تحكي عن قضية خارجية، وتدل عليه أيضاً الروايات المتواترة الواردة في شأن نزول الآية الواردة عن الفريقين.[٣]

---

(١) شرح المواقف ٨: ٣٦٠.

(٢) روح المعانى في تفسير القرأن: ج ٣ ص ٢٣٣.

(٣) ثمّ لايخفى أنّ الله تعالى جعل النبي والإمام هادياً بأمره ووسيطاً بين عالم الملك والملكوت، فهو بشر يوحى إليه، فقلبه يتعلّق بعالم الملكوت ويشتغل بالنظر إلى وجه العزيز الجبار، وفي نفس الوقت لايشتغل عن النظر في أمور رعيته، فلا إقباله إلى الله تعالى يمنع من توجهه لكلام الخلق، ولاسماعه كلام رعيته يحجبه عن الانقطاع إليه تعالى، إنّه بشر وحياني، اصطفاه الله تعالى ليكون سبباً متصلاً بين الأرض والسماء، فله أن يتوجّه إلى خالقه فيتجلّى له بجبروته، وإلى المخلوق يرعاه ويهديه بأمر الله تعالى في نفس الوقت، من دون أن يحجبه واحد منهما عن الآخر.

ثمّ إنّ هذا التوجّه والالتفات منه إلى كلام السائل هو بنفسه عبادة لله تعالى ، حيث جعله الله تعالى أميناً وراعياً على عباده، وعلى الراعي أن لايحتجب عن رعيّته.

و قد أشار بعض مفسري العامّة ممن له توجّه صوفي، إلى توارد هاتين الحالتين (حالة الإقبال إلى الله تعالى والإقبال إلى الناس) في النبي صلى الله عليه وآله، وقالوا: لولا توجهه إلى الفرش لذاب واستغرق في العرش، فلا يتيسّر من أن يعيش ويعاشر الناس في الدنيا ليكون هادياً لهم.

وأما اطلاق لفظ الجمع (الذين) على الواحد (أمير المؤمنين عليه السلام) تعظيماً فهو شائع ذائع في اللغة والعرف، وقد ذكر المفسرون هذا الوجه في كثير من الآيات الكريمة.[1]

الثاني: الولي هو الإمام

ذكرت عدة معاني لكلمة الولي في اللغة؛ كالمتولي والمالك للأمر، والقريب، والمحب والناصر والصديق.

قال ابن منظور:

«ولي في أسماء الله تعالى: الولي هو الناصر، وقيل: المتولّي لأمور العالم والخلائق القائم بها ...قال ابن الأثير: وكأنّ الولايه تشعر بالتدبير والقدرة والفعل ...ابن السكيت:

قال الاسكداري م ١٠٣٨: «و كان صلى الله عليه وآله إذا أراد الانتقال من إرشاد أهل الملكوت يقول: «**أرحني يا بلال**».و متى أراد التنزّل من إرشاد الملكوت إلى إرشاد الملك يقول لعائشة: «**كلّميني يا حميراء**». الواردات والواقعات الصوفية الهدائية للهدائي الاسكداري الجلوتي: ص ١٨٩.و وتجد نظيره في: تفسير عرائس البيان في حقائق القرآن للبقلي م ٦٠٦ عند قوله تعالى ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾، وتفسير روح البيان لاسماعيل الخلوتي م ١١٢٧؛ ج٩ ص٣٠٤.

و إن كان ما استشهدوا به من حديث عائشة لايصحّ عند العامة كما صرّح به أعلامهم، إلا أنّ الشاهد من الكلام؛ ضرورة توجّه النبي إلى عالم المادة الدنية في عين توجّهه لعالم الملكوت، وعدم حصر نظر قلبه إلى الملكوت فقط، وإلا فكيف يمكن أن يكون هادياً لهم؟

و نضيف على ما ذكروه من أنّ هذه الثنائية من التوجّه في النبي والإمام، لاتتوقّف على تعاقب الأزمان، بل هو حاصل في زمان واحد، فهو دائماً في حال الذكر والتوجّه إلى الله تعالى، ودائماً في حال التوجّه إلى عباد الله تعالى من حيث أنّه نبي أو إمام هاد وراع لهم، وقد مكّن الله تعالى نبيّه تعالى من ذلك، من دون أن يشغله هذا الشأن عن ذلك الشأن، وقد يحصل لنا أحياناً بعض درجاته لكن بدرجة ضعيفة جداً، حيث نتوجّه لشيئين في زمان واحد دون أن يشغلنا التوجّه لأحدهما عن التوجّه للآخر، نظير السائق المحترف الذي يسوق ويتكلّم ويأكل ويشرب.

(١) انظر: العلامة المجلسي؛ مرآة العقول:ج٢ ص٣٣٠.و ذكر العلامة الأميني في الغدير عشرين آية من القرآن الكريم بلفظ الجمع والمراد بها واحد، الغدير: ج٣ ص٢٣١ - ٢٣٨

الولاية بالكسر؛ السلطان ...والولاية النصرة ...الولاية بالكسر الاسم مثل اللإمارة والنقابة لأنه اسم لما توليته وقمت بهي ...الولي: ولي اليتيم الذي يلي أمره ويقوم بكفايته ...و الولي الصديق والنصير ...الولي: القرب والدنوّ».[١]

و هذه المعاني كلّها ترجع لجذر واحد وهو: نوع من التقارب والارتباط بين اثنين يسبّب نوعاً من التصرّف من أحدهما في شؤون الآخر، وهذا التصرف يمكن أن يكون من أجل المحبّة أو الصداقة أو القرابة والنسب أو الملكية والإمارة.

وكلمة (الولي) في الآية تكون بمعنى: الأولى بالتصرف والذي يلي تدبير الأمر، كما يقال: ولي الطفل ولي الدم، وأنّ السلطان ولي أمر الرعية، وكما يقال لمن يقيمه بعده؛ ولي العهد، ولايمكن حمل (الولي) في الآية على المعاني الأخرى، بل لو حملته على تلك المعاني فهي ترجع لمعنى الأولى بالتصرف والإمامة ضرورة.

و ذلك لوجوه:

الأول: لفظ (إنما) المفيد للحصر، وحصر الولاية في ثلاثة؛ الله عزوجل والنبي صلى الله عليه وآله والوصي عليه السلام، و لايرتاب من تتبّع اللغة وكلام الفصحاء أنّ التخصيص ينافي حمله على سائر المعاني، فان الولاية بسائر المعاني ليست محصورة في هذه الثلاثة، بل حتى فيما يخصّ المؤمنين من تلك المعاني تكون عامّة لجميع المؤمنين، ولاتختصّ ببعض المؤمنين دون بعض، لكنّنا نرى الله تعالى قد خصّ هذه الولاية ببعض المؤمنين، وهو الذي تصدق بخاتمه في الركوع، كما مرّ في الأخبار السابقة، امّا سائر المعاني من الولي فيعمّ جميع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**الْمُؤْمِنُونَ والْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ**﴾[٢].فلابد من حمل

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج٢١ ص٣٤٩ – ٣٥٥ باب: ولي.

(٢) التوبة: ٧١.

الآية على معنى يمكن أن يكون مخصوصاً بالله تعالى ورسوله وبعض المؤمنين.

الثاني: تشريك ولاية أمير المؤمنين عليه السلام مع ولاية الله تعالى وولاية رسوله صلى الله عليه وآله في تركيب عطفي واحد، ولا شكّ أنّ ولاية الله تعالى عامّة في ذاتها، وهكذا ولاية النّبي صلى الله عليه وآله في الرتبة الثانية ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾(١) فتكون ولاية أمير المؤمنين عليه السلام في مرحلة ثالثة من سنخ ولاية الله تعالى وولاية النّبي صلى الله عليه وآله، فلابد أنّ يكون لأمير المؤمنين عليه السلام إمتيازٌ على الناس جميعاً بما لا يحيط به وصف الواصفين، حيث حصر الله تعالى ولاية النّاس في نفسه تعالى أولاً ورسوله ثانياً وأمير المؤمنين ثالثاً، فلا يليق إلا أن يكون إماماً وخليفة من الله تعالى ورسوله على النّاس جميعاً.

الثالث: لو سلّم أن المراد بالولي هو الناصر والصديق المحب، فيكون المعنى: أن لا ناصر لكم ولاصديق ولامحب ولاقريب إلا الله تعالى ورسوله وعلي، وهذا أيضاً يرجع لمعنى الإمامة، اذ حصرها بهؤلاء الثلاثة لا يصح إلّا بلحاظ إحدى جهتين:

الأولى: إنّ نصرتهم للمؤمنين مشتملة على القيام والتصرّف بأمورهم، وحينئذ يرجع إلى المعنى المطلوب.

الثانية: أن تكون نصرة غيرهم للمؤمنين، كَلَا نصرة بالنسبة إلى نصرتهم، وحينئذ يتمّ المطلوب أيضاً، إذ من أظهر لوازم الإمامة هي النصرة الكاملة للمؤمنين، ولا سيّما قد حكم الله عزّ وجلّ بأنّها تقارن نصرته ونصرة رسوله.(٢)

الرابع: وقد يقال: إنّ سبب نزول الآية لايخصص بها الآية، فهي عامّة للمؤمنين وإن كان سبب نزولها هو علي بن ابي طالب عليه السلام.

---

(١) الأحزاب: ٦.

(٢) انظر: دلائل الصدق للمظفر: ج٤ ص٣٠٠ وص٣٠١

و لكن هذا التوهم ناش عن غفلة، فإنّ مما لايقبل المناقشة بعد ذاك الكمّ الهائل من الروايات المبيّنة لسبب نزول الآية، أنّ المراد بالركوع في قوله ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ هو ركوع الصلاة، أي الذي أدّى زكاة ماله في حال ركوعه، هذا واضح بحسب الروايات، وحينئذ نقول: لو كانت الآية عامّة لعموم المؤمنين فلازم ذلك أن يكون التصدّق في حال الركوع من المستحبات التي ندب إليها الله تعالى، لأنّه حسب هذا الزعم القائل بأن سبب النزول لايقيّد عموم الآية، تكون الآية بصدد وصف عموم المؤمنين، ويعدّ التصدّق في حال ركوع الصلاة من فضائلهم، بينما لم يفْتِ أحد من المسلمين من الشيعة والسنة ومن كلّ المذاهب باستحباب ذلك، وهذا إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على وجود تسالم من المسلمين كلّهم أنّ الآية ناظرة لقضية خارجية معيّنة وخاصة بمن نزلت في حقّه وليست عامّة، وهو لايناسب إلا الإمامة من معاني الولاية.

الخامس: مرّ في بعض ألفاظ الرواية أنّ النبي صلى الله عليه وآله فسّر ولاية علي عليه السلام بكونه وزيراً له وشريكاً في أمره، كما كان هارون من موسى، ففي رواية ابن عباس عن أبي ذر فيما رواه الثعلبي وغيره من علماء العامة:

فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله طرفه إلى السماء، وقال:

«اللهمَّ إنَّ أخي موسى سألك فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۞ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۞ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِساني ۞ يَفْقَهُوا قَوْلي ۞ وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ فانزلت عليه قرآناً ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما﴾ اللهمَّ، وإنّي محمد نبيّك وصفيّك، اللهمَّ واشرحْ لي صدري، ويسِّر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي، عليّا أشدد به ظهري».

قال أبو ذر رضي الله عنه: فما استتمَّ دعاءه حتى نزل جبرئيل عليه السلام من عند الله وقال:

يا محمد اقرأ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

و هو يشير إلى حديث الوزارة في يوم الدار حيث جمع النبي صلى الله عليه وآله عشيرته الأقربين فقال:

«**مَنْ يُؤَازِرُنِي عَلَى هَذَا الأَمْرِ يَكُنْ أَخِي ووَصِيِّي ووَزِيرِي ووَارِثِي وخَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي**. فَقَامَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عليه السلام مِنْ بَيْنِ جَمَاعَتِهِمْ، وَهُوَ أَصْغَرُهُمْ يَوْمَئِذٍ سِنّاً فَقَالَ: **أَنَا أُؤَازِرُكَ يَا رَسُولَ الله**. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: **اجْلِسْ، فَأَنْتَ أَخِي ووَصِيِّي ووَزِيرِي ووَارِثِي وخَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي**».[(١)]

وفي مواطن أخرى عديدة صرّح بوزارة علي عليه السلام، ذكر الشيخ الحر العاملي ٢٥ موطناً رواه في إثبات الهداة، خاطب النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام بقوله: «**أَنْتَ وَصِيِّي ووَزِيرِي**».[(٢)]

كما أنّه صلى الله عليه وآله يشير لحديث المنزلة حيث قال لعلي عليه السلام: «**أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**».[(٣)]

فهل أبقى بيان الصادع الأمين صلى الله عليه وآله في تفسير ولاية علي عليه السلام بالوزارة له وإشراكه في أمره كما كان هارون بالنسبة لموسى، مجالاً لمتكلّفٍ ليأتي ويتفلسف ويفسّر الولي بما يشتهيه ويرتضيه؟

أفهل يكون اجتهاداً في مقابل نصّ النبيّ صلى الله عليه وآله؟

السادس: أنّ النبي صلى الله عليه وآله قد صرّح بمضمون الآية الكريمة في حديث الولاية، وهو

---

(١) الإرشاد للشيخ المفيد: ج١ ص٨.و روته العامة والخاصة في مصادر عديدة، راجع: غاية المرام للبحراني: ج٣ ص٢٧٩.

(٢) راجع الملحقات : ملحق رقم (٨).

(٣) راجع الملحقات : ملحق رقم (٩).

حديث مشهور رواه الفريقان.

روى الترمذي وغيره بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله غضب من جماعة كانوا يؤذون أمير المؤمنين عليه السلام فقال:

«مَا تُرِيدُونَ مِنْ عَلِيٍّ؟! مَا تُرِيدُونَ مِنْ عَلِيٍّ؟! مَا تُرِيدُونَ مِنْ عَلِيٍّ؟! إنّ عَلِيّاً مِنِّي وأَنَا مِنْهُ، وهُوَ وَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي».(١)

وفي مسند أحمد بن حنبل، عن النبيّ صلى الله عليه وآله، من عدّة طرق: **«إنّ عليّا منّي وأنا من عليّ، وهو وليّ كلّ مؤمن بعدي، لا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو عليّ»**.(٢)

التنبيه إلى أمور:

الأول: فعليّة ولاية الوصي عليه السلام في زمن النبي صلى الله عليه وآله

إنّ هذه الولاية التي أثبتها الله تعالى ونبيه صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام، موجودة وفعليّة في زمن الرسول صلى الله عليه وآله، فضلاً عما بعد وفاته، وذلك لانّها تكون في طول ولاية الرسول صلى الله عليه وآله، كما أنّ ولاية الرسول صلى الله عليه وآله موجودة في طول ولاية الله تعالى، فلايمكن أن يقال: إنّ فعليّة ولاية الرسول صلى الله عليه وآله والعياذ بالله تعالى متوقفة على انتهاء زمان ولاية الله جلّ عن ذلك وتقدّس، وذلك لعدم وجود المزاحمة بين الولايتين، بل الثانية قائمة بالأولى، وهكذا تكون النسبة بين ولاية الإمام عليه السلام وولاية النبي صلى الله عليه وآله، غاية الأمر أنّ هذه الولاية تتجلّى في زمن النبي صلى الله عليه وآله في قالب الوزارة والمشاركة في أمر النبوّة كما صرّح بذلك في أحاديث الوزارة، ومن بعد رحيله في الوصاية والإمارة والإمامة.

و العمدة أنّ ولاية علي عليه السلام كانت فعليّة وموجودة في زمن النبي صلى الله عليه وآله وتحت ظلّ

(١) راجع الملحقات : ملحق رقم (١٠).
(٢) راجع الملحقات: ملحق رقم (١١).

ولايته صلى الله عليه وآله.

الثاني: نفي الولاية عن غير الثلاثة وحصرها فيهم

الآية الشريفة حصرت الولاية بمعنى المتولّي والمالك للأمور ومن يجب تولّيه من المؤمنين في ثلاث، ممّا يكون كالصريح في نفي الولاية عن غيرهم، وإبطال لولاية وإمامة غيرهم.(١)

كما أنّ من الواضح أنّ الأئمة الطاهرين من ولد علي عليهم السلام هم قائمون مقامه ويثبت لهم كلّ ما ثبت لأمير المؤمنين عليه السلام، وهذا ثابت بالأدلّة اليقينية كما سنشير إلى بعضها لاحقا.

فالحصر الموجود في الآية، إنّما هو لنفي الولاية عن غير أهل البيت عليهم السلام ممن كانوا في زمن نزول الآية، فلا ينافي إثبات ولاية سائر الأئمة من أهل البيت عليهم السلام بعد أمير المؤمنين عليه السلام بأدلة أخرى، مع أنّه ورد من طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ كلّ واحد من الأئمة الاثني عشر اتفق له في زمان حياته أن تصدّق في حال الركوع للسائل، وفي بعض الأخبار أن ذلك السائل كان ملكاً من الملائكة، أنزله الله تعالى لأمير المؤمنين وللأئمة من بعده عليهم السلام، ليعرف الناس وليّهم وإمامهم.(٢)

---

(١) نظير ما ذهب إليه بعض العرفاء والصوفية من القول بالإمامة النوعية، وأنها غير محصورة في عدد معيّن، بل كل انسان قد يصل لمقام الإمامة والولاية.

(٢) الكافي، الكيني: كتاب الحجة، باب ما نصّ الله ورسوله على الأئمة، ح٣.

الأسئلة

١- ادعى بعض العامة أنّ الآية تبين صفة عامة للمؤمنين وليست تحكي عن قضية خارجية، كيف يمكن الرد على هذا الكلام؟

٢- اذكر كلام بعض من ادعى الإجماع على نزول الآية في أمير المؤمنين عليه السلام.

٣- من وجوه إثبات كون الولي في الآية بمعنى أولى بالتصرف هو الحصر الموجود في الآية وتشريك ولاية أمير المؤمنين عليه السلام مع ولاية الله تعالى وولاية رسوله صلى الله عليه وآله، بيّن هذين الوجهين.

٤- كيف يمكن إثبات كون الولي في الآية بمعنى الإمامة من خلال حديث الوزارة؟

٥- كون الولي بمعنى المحب والناصر أيضاً يستلزم الإمامة في هذه الآية، ما وجه ذلك؟

٦- هل ولاية أمير المؤمنين عليه السلام تتوقف على رحيل النبي صلى الله عليه وآله وكيف يمكن الجمع بين الولايتين في زمان واحد؟

الدرس الرابع والثلاثون: إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) في السنة

الثالث: حديث الغدير

و هو من الأحاديث المتواترة عن النبي صلى الله عليه وآله، رواه العشرات من الصحابة والتابعين ومئات من أرباب الكتب والمصنفات، بل يعد من الضروريات والمسلمات عند كافّة المسلمين بجميع مذاهبهم وطوائفهم.

مجمل واقعة الغدير

إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج إلى الحجّ في سنة عشرٍ من مُهاجره، وأذّن في الناس بذلك، فقدم خلق كثير يأتمّون به في حِجّته تلك التي يُقال عليها حجّة الوداع، فلمّا قضى مناسكه، وانصرف راجعاً إلى المدينة ومن معه من جموع الناس، وصل إلى غدير خُمّ من الجُحْفة التي تتشعّب فيها طرق المدنيِّين والمصريِّين والعراقيِّين، وذلك يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجّة، نزل إليه جبرئيل الأمين عن الله تعالى بقوله: ﴿**يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ وأمره أن يقيم عليّا عَلَماً للناس، ويبلِّغهم ما نزل فيه من الولاية وفرض الطاعة على كلّ أحد، وكان أوائل القوم قريباً من الجُحْفة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يردّ من تقدّم منهم، ويحبس من تأخّر عنهم في ذلك المكان، ونهى عن سَمُراتٍ خمْسٍ متقاربات دَوْحاتٍ عظام أن لا يَنزل تحتهنَّ أحد، حتى إذا أخذ القوم منازلهم، فقُمَّ ما تحتهنَّ، حتى إذا نودي بالصلاة- صلاة الظهر - عمد إليهنّ، فصلّى بالناس تحتهنّ، وكان

يوماً هاجراً يضع الرجل بعض ردائه على رأسه، وبعضه تحت قدميه، من شدّة الرمضاء، وظُلِّل لرسول الله ﷺ بثوبٍ على شجرةِ سَمُرةٍ من الشمس، فلمّا انصرف ﷺ من صلاته، قام خطيباً وسط القوم على أقتاب الإبل، وأسمع الجميع، رافعاً عقيرته، فخطب خطبة بليغة طويلة.

وقد روى الخطبة بتفصيلها الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام، وحذيفة بن اليمان، وهي تشتمل على أمور مهمة كثيرة مرتبطة بشتى مجالات الدين والعقيدة، ومرتبطة بأمير المؤمنين علي وأولاده المعصومين من السبطين عليهما السلام إلى الإمام المهدي عليهم السلام وبيّن أدوارهم ومناصبهم، وكشف عن وجوه المنافقين والمرتابين وغير ذلك، إلا أنّنا نقتصر ههنا على ذكر بعض الكلمات من هذه الخطبة الشريفة التي روتها علماء العامة وأوردوها في كتبهم، وللاطلاع على تمام الخطبة لكم المراجعة إلى مصادرها التي نشير إليها في الهامش.(١)

فمن جملة ما قال فيها برواية العامة:

«أيُّها الناس إنّي أُوشِك أن أُدعى فأُجيب، وإنّي مسؤول، وأنتم مسؤولون، فما ذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهدُ أنّك قد بلّغتَ ونصحتَ وجهدتَ، فجزاكَ الله تعالى خيراً.

قال: **فإنّي فَرَط على الحوض، وأنتم واردون عليّ الحوض، وإنَّ عُرضه ما بين صنعاءَ وبُصرى، فيه أقداح عدد النجوم من فضّة، فانظروا كيف تخلِفوني في الثقلَينِ.**

فنادى منادٍ: وما الثقَلان يا رسول الله؟

---

(١) راجع الملحقات: ملحق رقم (١٢).

قال: **الثقَل الأكبر كتاب الله طرفٌ بيد الله عزّ وجلّ وطرفٌ بأيديكم، فتمسّكوا به لا تضلّوا، والآخر الأصغر عترتي، وإنَّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تَقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا.**

ثمّ أخذ بيد عليّ فرفعها حتى رُؤي بياض آباطهما وعرفه القوم أجمعون، فقال:

أيّها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟.قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: **إنَّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعليّ مولاه، يقولها ثلاثَ مرّات - وفي لفظ أحمد إمام الحنابلة: أربع مرّات- ثمّ قال: اللهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وأحِبَّ من أحبّه، وأبغِضْ من أبغضه وانصُرْ من نصره، واخذُلْ من خذله، وأَدرِ الحقَّ معه حيث دار، ألا فليبلّغ الشاهدُ الغائب. ثمّ لم يتفرّقوا حتى نزل أمين وحي الله تعالى بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾** الآية، فقال رسول الله ﷺ: **الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الربّ برسالتي، والولاية لعليٍّ من بعدي**».

ثمّ طَفِق القوم يهنِّئون أمير المؤمنين- صلوات الله عليه- وممّن هنّأه- في مُقدّم الصحابة- الشيخان: أبو بكر وعمر كلٌّ يقول: بَخٍ بخٍ لك يا ابن أبي طالب أصبحتَ وأمسيتَ مولايَ ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة، وقال ابن عبّاس: وجبت- واللهِ- في أعناق القوم.

فقال حسّان: ائذنْ لي يا رسول الله أن أقول في عليٍّ أبياتاً تسمعهُنّ.فقال: «**قُلْ على بركة الله**».

فقام حسّان، فقال: يا معشر مشيخة قريش أتبعها قولي بشهادةٍ من رسول الله في الولاية ماضية، ثمّ قال:

يُناديهِمُ يومَ الغديرِ نبيُّهمْ بخُمٍّ فأسمِعْ بالرسولِ مُناديا

إلى آخر الابيات.[١]

صدور حديث الغدير عند العامة

قد تناول العلامة الأميني؛ في موسوعة الغدير البحث عن حديث الغدير في القرآن والسنة والأدب والشعر العربي، فذكر ١١٠ صحابياً مرتباً على حروف الهجاء من الذين رووا حديث الغدير كلها من مصادر العامة.[٢] كما ذكر ٨٤ تابعياً رووه عن الصحابة[٣].و بعد ذلك ذكر ٣٦٠ عالماً ومحدثاً وحافظاً رووا حديث الغدير رتّبهم على ترتيب الوفيات[٤].و من بعد ذلك تناول «المؤلّفون في حديث الغدير».ممن اهتمّ بهذا الحديث فأفردوه بالتأليف، وهم ٢٦ مولّفاً، من علماء الفريقين.[٥]

ثمّ ذكر العلامة الأميني ٢٢ مورداً من الذين احتجوا بحديث الغدير وناشدوا به لإثبات إمامة أمير المؤمنين، يبدأ من مناشدة أمير المؤمنين عليه السلام به في يوم الشورى سنة

(١) يراجع الملحقات: ملحق:(١٣).

(٢) الغدير: ج١ ص٤١ – ص١٤٤ تحت عنوان (رواة حديث الغدير من الصحابة) يبدأ من أبي هريرة الدوسي وينتهي بالرقم ١١٠: أبو مزارم يعلى بن مرّة بن وهب الثقفي.

(٣) الغدير: ج١ ص١٤٥ – ١٦٥ تحت عنوان (رواة حديث الغدير من التابعين) يبدأ بأبي راشد الحبراني الشامي وينتهي بأبي نجيح يسار الثقفي.

(٤) الغدير: ج١ ص١٦٧ – ص٣١١ تحت عنوان «طبقات الرواة من العلماء».يبدأ من أبي محمد عمرو بن دينار الجمحي (م ١١٥، ١١٦) في القرن الثاني، إلى الحافظ شهاب الدين أحمد بن محمد بن الصديق في القرن الرابع عشر.

(٥) الغدير: ج١ ص٣١٣ – ص٣٢٥، يبدأ من أبي جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ (م ٣١٠) حيث ألّف كتاباً أسماه «كتاب الولاية».، إلى ابن عقدة (م ٣٣٣) والجعابي (م ٣٥٥) وغيرهم إلى بعض المعاصرين.

٢٣ الهجرية، إلى احتجاج المأمون العباسي على الفقهاء بحديث الغدير.(١)

ثم بدأ العلامة بذكر الآيات القرآنية النازلة بشأن الغدير وهي ثلاث آيات:

آية التبليغ وهي: ﴿**يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الكافِرين**﴾.(٢)

آية الإكمال وهي: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي ورَضيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دينا**﴾.(٣)

آية سأل سائل وهي: ﴿**سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ مِنَ اللهِ ذِي المَعارِج**﴾.(٤)

فذكر الروايات وكلمات الحفاظ والمفسرين وعلماء العامة ممن ذكروا نزول الآيات في واقعة غدير خم.(٥)

و ذكر أيضاً كلمات أعلام العامة حول سند الحديث، فمن جملة ذلك:

أنّ شمس الدين الجزري أفرد رسالة في إثبات تواتره، ونسب منكره إلى الجهل.

وعن الفقيه ضياء الدين المقبلي: «إن لم يكن معلوماً فما في الدين معلومٌ».

وعن العاصمي: «حديثٌ تلقّته الأمّة بالقبول، وهو موافقٌ بالأصول».

وعن الغزالي: «أنَّه أجمع الجمهور على متنه، واتّفق عليه جمهور أهل السنّة».

---

(١) الغدير: ج١ ص ٣٢٧ – ص٤٢٢.

(٢) المائدة: ٦٧.

(٣) المائدة: ٣.

(٤) المعارج: ١ – ٣.

(٥) الغدير: ج١ ص٤٢٣ – ص٥٠١.

وعن البدخشي: «حديث صحيح مشهور، ولم يتكلّم في صحّته إلّا متعصِّبٌ جاحد لا اعتبار بقوله، وأنَّه حديث متّفق على صحّته، وأنَّ صدره متواتر يُتيقّن أنَّ رسول الله قاله، وذيله زيادة قويّة الإسناد، وأنَّه حديث صحيح قد أخطأ من تكلّم في صحّته، وأنّه حديث مشهور كثير الطرق جدّا».

ومن قول الآلوسي: «نعم ثبت عندنا أنّه ﷺ قاله في حقّ عليّ، وأنّه حديث صحيح لا مِرْية فيه، وأنَّه متواترٌ عن النبيّ ﷺ ومتواترٌ عن أمير المؤمنين أيضاً، رواه الجمّ الغفير، ولا عبرة بمن حاول تضعيفه ممّن لا اطِّلاع له في هذا العلم؛ يعني علم الحديث، وأنَّه حديث صحيح لا مِرْية فيه ولا شكّ ينافيه، ولا يُلتفت إلى قول من تكلّم في صحّته، ولا إلى قول من نفى الزيادة، وأنَّه متواترٌ لا يُلتفت إلى من قدح في صحّته، وصحّ عن جماعة ممّن يحصل القطع بخبرهم».

وعن الأصبهاني: «حديثٌ صحيح ثابت، لا أعرف له علّةً، قد رواه نحو مائة نفس منهم العشرة المبشَّرة..».

إلى كلمات أخرى ذكرها الاميني مفصّلة.(١)

وقال ابن حجر الهيتمي: وهو من أعلام الأشاعرة من متكلّمي العامة (المتوفّى سنة ٩٧٣) في حديث الغدير:

«إنّه حديث صحيح لا مرية فيه، وقد أخرجه جماعة كالترمذي والنسائي وأحمد، وطرقه كثيرة جدّا، ومن ثمّ رواه ستّة عشر صحابياً.. و في رواية لأحمد أنّه سمعه من النبيّ ﷺ ثلاثون صحابياً، وشهدوا به لعليّ لمّا نوزع أيّام خلافته، كما مرّ وسيأتي، وكثير من أسانيده صحاح وحسان، ولا التفات لمن قدح في صحّته، ولا لمن ردّه بأنّ عليّا كان

---

(١) الغدير: ج١ ص٥٤٣ - ص٥٧٤.

باليمن؛ لثبوت رجوعه منها وإدراكه الحجّ مع النبيّ صلى الله عليه وآله ..و قول بعضهم: إنّ زيادة: «**اللهمّ وال من والاه** ...» إلى آخره موضوعة، مردود، فقد ورد ذلك من طرق، صحّح الذهبيّ كثيراً منها».[١]

والجـزري الشافعي أثبت تواتره من طرق كثيرة، ونسب منكره إلى الجهل والعصبيّة.[٢]

وقال ابن كثير في تاريخه في ترجمة الطبري: «إنّي رأيت له كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خم في مجلّدين ضخمين، وكتاباً جمع فيه حديث الطير».[٣]

وقال في حوادث سنة ١٠: «وقد اعتنى بأمر هذا الحديث أبوجعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ، فجمع فيه مجلّدين أورد فيهما طرقه وألفاظه...و كذلك الحافظ الكبير أبوالقاسم بن عساكر، أورد أحاديث كثيرة في هذه الخطبة».[٤]

وقال الشيخ سليمان الحنفي في ينابيع المودّة: «حكي عن أبي المعالي الجويني الملقب بإمام الحرمين أستاذ أبي حامد الغزالي[٥] يتعجّب ويقول: رأيت مجلّدا في بغداد في يد صحّاف فيه روايات خبر غدير خم مكتوباً عليه: المجلّدة الثامنة والعشرون من طرق قوله صلى الله عليه وآله: «**من كنت مولاه فعليّ مولاه**».و يتلوه المجلدة التاسعة والعشرون».[٦]

---

(١) الصواعق المحرقة ٦٤ الشبهة الحادية عشرة، وانظر: مسند أحمد ٤/ ٣٧٠.

(٢) في رسالته «أسنى المطالب في مناقب علّي بن أبي طالب».: ص ٣ -٤، انظر: إحقاق الحق: ج٢ ص٤٨٧.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية: ج١١ ص١٦٧ حوادث سنة ٣١٠.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية: ج٥ ص ٢٢٢، وانظر ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ج١٢ ص ٢٢٤ - ٢٣٧.

(٥) المولود في سنة (٤١٩ ﻫ) والمتوفى في سنة (٤٧٨ ﻫ).

(٦) القندوزي الحنفي، ينابيع المودّة: ج١ ص٣٤ باب٤.

دلالة حديث الغدير

بعد ما أذعن علماء العامّة ومتكلّموهم بصحة حديث الغدير وتواتره، ولم يبق مجال للريب في صدوره عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، عمد بعضهم إلى مفاد الحديث لينكر دلالته على إمامة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، بدعوى أنّ المولى هو بمعنى الناصر والمحب وليس الأولى بالأمر والمتولّي والسلطان، في حين أذعن البعض الآخر بدلالته على مقام الإمامة.

وكلمة «مولى» على وزن مَفعَل، واللغويون صرّحوا بأنّه يكون بمعنى أفعل أو أنّه أحد معانيه، وقد ذكر المفسّرون والمحدّثون ذلك في قوله تعالى ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ فمنهم من حصر المعنى بأنّها أولى، ومنهم من جعله أحد المعاني في الآية.[1]

و قد ذكر المحققون من الإمامية منذ القرون الأولى وجوهاً عديدة لإثبات كون المولى بمعنى الإمام والراعي، نشير لبعضها:

الأوّل: من أهمّ القرائن لفهم مراد المتكلّم، فهم المخاطب الذي قصد المتكلم إفهامه، سيما إذا كان الكلام أمام الملأ من الناس، وفهم كلّهم منه معنى معيناً، فحينئذ لايعتنى بكلام من تأخر عن الحدث ولم يشهده المنكر لتلك الدلالة، فإنّ الشاهد الحاضر في مجلس الخطاب يقف على قرائن حالية ومقالية يستعين بها على فهم المقصود بصورة جيدة، وأيضاً خطأ المخاطبين في فهم مقصود المتكلم يكون من جملة عيوب الخطيب الذي ما استطاع أن يفصح عن مراده، ولاريب أن رسول الله صلى الله عليه وآله بعيد عن ذلك كلّ البعد.

قال العلامة الاميني:

---

(١) ذكر العلامة الأميني من الفريق الأول سبعة وعشرين، ومن الفريق الثاني أربعة عشر عالماً ومفسّراً من رجال العامة؛ الغدير: ج١ ص٦١٥ - ٦٢٢.

«و أمّا دلالته على إمامة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فإنّا مهما شككنا في شيء، فلا نشكُّ في أنَّ لفظة (المولى) سواءٌ كانت نصّاً في المعنى الذي نحاوله بالوضع اللغويّ أو مجملةً في مفادها لاشتراكها بين معانٍ جمّة، وسواء كانت عريّة عن القرائن لإثبات ما ندّعيه من معنى الإمامة أو محتفّة بها، فإنّها في المقام لا تدلّ إلّا على ذلك لِفَهْم من وعاه من الحضور في ذلك المُحتَشد العظيم، ومن بلغه النبأ بعد حين ممّن يحتجُّ بقوله في اللغة من غير نكير بينهم، وتتابع هذا الفهم فيمن بعدهم من الشعراء ورجالات الأدب حتى عصرنا الحاضر، وذلك حجّة قاطعة في المعنى المراد».(١)

ففي طليعتهم مولانا أمير المؤمنين عليه السلام كتب إلى معاوية في جواب كتاب له:

واوجب لي ولايته عليكم رسول الله يوم غدير خمّ(٢)

وقد ناشد به أمير المؤمنين عليه السلام واحتج على خلافته وإمامته وفي أكثر من مورد في يوم الشورى، وفي أيام عثمان، ويوم الرحبة، ويوم الجمل، ويوم الصفين وغير ذلك، وكان ذلك حينما نوزع في الخلافة.

و من بعد ذلك احتجاج الصديقة فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله حيث خاطبت الناس وقالت: «**أنسيتم قول رسول الله صلى الله عليه وآله يوم غدير خم: من كنت مولاه فعليّ مولاه؟**».

---

(١) الغدير: ج١ ص٦٠٩.

(٢) الشيخ المفيد (المتوفى سنة ٤١٣)، الفصول المختارة: ص ٢٢٦، والكراجكي (المتوفى سنة ٤٤٩)؛ كنز الفوائد: ج١ ص٢٢٦، وآخرون من الخاصة. ورواها من العامة: سبط ابن جوزي (المتوفي سنة ٦٥٤)؛ تذكرة الخواص: ص١٠٧، وابن أبي الحديد (المتوفى سنة ٦٥٦)؛ شرح نهج البلاغة ج٤ ص١٢٢ ختبة٥٦، ابن حجر الهيثمي (المتوفى سنة ٩٧٤)؛ الصواعق المحرقة: ص١٣٢، والمتقي الهندي (المتوفى سنة٩٧٥)؛ كنز العمال: ج١٣ ص١١٢ ح٣٦٣٦٦ وغيرهم، راجع: الغدير: ج٢ ص٥٣-٦١ فقد ذكر ٢٦ من أعلام الخاصة والعامة ممن رووا هذا الشعر عن أمير امؤمنين عليه السلام.

ثم احتجاج السبطين عليهما السلام وآخرين بحديث الغدير.[١]

بل هنالك روايات روتها أعلام الفريقين، أنّ الصحابة سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن معنى قوله هذا فأجابهم مرّة بقوله:

«الله مولاي، أولى بي من نفسي لا أمر لي معه، وأنا مولى المؤمنين، أولى بهم من أنفسهم لا أمر لهم معي، ومن كنت مولاه أولى به من نفسه لا أمر له معي، فعليّ مولاه، أولى به من نفسه، لا أمر له معه».

و روايات أخرى بهذا المضمون عنه صلى الله عليه وآله.[٢]

من جملة الشاهدين والحاضرين في ذاك المشهد العظيم؛ حسّان بن ثابت الحاضر في مشهد الغدير، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله ونظّم أبياتا قال فيها:

فقال له: قمْ يا عليُّ فإنّني رَضِيتُكَ من بعدي إماماً وهاديا[٣]

و من أولئك: الصحابيّ العظيم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الذي يقول:

و عليٌّ إمامنا وإمامٌ لسوانا أتى به التنزيلُ
يوم قال النبيُّ: من كنت مولا ه فهذا مولاه خطبٌ جليلُ[٤]

---

(١) راجع: الغدير: ج١ ص٣٢٧ - ص٤٢٢ فقد جمع فيها الروايات والأخبار بذكر هذه الموارد.
(٢) جمعها العلامة الأميني في الغدير: ج١ ص٦٧١ - ٦٧٧.
(٣) نقل الأميني هذا الشعر عن ١٢ من رجال العامة و٢٦ من الخاصة؛ الغدير: ج٢ ص٦٥-٧٣.
(٤) الشيخ المفيد (المتوفى سنة ٤١٣)؛ الفصول المختارة: ص٢٣٦، ورسالة في معنى المولى المطبوع ضمن مصنّفات الشيخ المفيد: ج٨ ص٢٠، الشريف الرضيّ(المتوفى سنة ٤٠٦)؛ خصائص الأئمة:ص٤٢ وسبط ابن الجوزي (المتوفى سنة ٦٥٤): تذكرة الخواص ص٣٣.راجع الغدير:ج٢ ص١١٣-١١٥ فقد رواها المصادر كثيرة.

و من القوم: عمرو بن العاص[١] وزميله محمد بن عبد الله الحميري القائل:

تناسَوا نصبَه في يوم خُمٍ   من الباري ومن خير الأنام[٢]

وغيرهم.[٣]

ومما يشهد على ذلك قول الصحابة - ومنهم الشيخان أبو بكر وعمر - بعد ذلك مخاطباً لعلي عليه السلام: «بخ بخ لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة»، كما مر في النصوص السابقة، وهذا يشهد على أنّهم فهموا من كلام النبي صلى الله عليه وآله مقام الولاية والإمرة.

ومن هنا قال أبو حامد الغزالي الشافعي الأشعري من أشهر علماء العامّة في القرن الخامس (المتوفى سنة ٥٠٥) بل يعدّ كأحد مؤسسي المدرسة الأشعرية في علم كلام العامة:

«اختلف العلماء في ترتيب الخلافة وتحصيلها لمن آل أمرها إليه ...هذا جملةُ ما يتعلّق به القائلون بالنصوص، ثمّ تأوّلوا وقالوا: لو كان عليٌّ أوّل الخلفاء لانسحب عليهم ذيل الفناء، ولم يأتوا بفتوح ولا مناقب، ولا يقدح في كونه رابعا ...لكن أسفرت الحجّة وجهها، وأجمع الجماهير على متن الحديث من خطبته في يوم غدير خُمّ باتّفاق الجميع، وهو يقول: «**من كنتُ مولاه فعليّ مولاه**».

فقال عمر: بخٍ بخٍ [لك] يا أبا الحسن لقد أصبحت مولاي ومولى كلِّ

(١) راجع الملحقات: ملحق (١٤).

(٢) وكان الحميري زميل عمرو ابن العاص وروى شعره الحمّوئي في فرائد السمطين: ج١ ص٣٧٥ ح٣٠٥، وعماد الدين الطبري؛ بشارة المصطفى لشيعة المرتضى: ص١٠.

(٣) للوقوف عليهم راجع الغدير للأميني: ج١ ص٦٠٩ - ٦١٤.

مؤمن ومؤمنة، فهذا تسليم، ورضا وتحكيم، ثمّ بعد هذا غلب الهوى لحبّ الرئاسة، وحمل عمود الخلافة، وعقود البنود، وخفقان الهوى في قعقعة الرايات، واشتباك ازدهام الخيول، وفتح الأمصار سقاهم كأس الهوى، فعادوا إلى الخلاف الأوّل فنبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون».[1]

الثاني: إنّه قد ورد في كثير من روايات الخاصة والعامة أنّ النّبي صلى الله عليه وآله قال أولاً: «**ألست أولى بكم من أنفسكم**»، أو ما يؤدّي مؤدّاه من ألفاظ متقاربة، ثم فرّع على ذلك قوله: «**من كنت مولاه فعليّ مولاه**»، و هذه المقدمة والتفريع عليها قرينة واضحة على أن المراد بالمولى هو ما ذكره أولاً من الأولوية التي أثبتها لنفسه، ولا ينكر هذه إلا جاهل بأساليب الكلام.[2]

الثالث: ذيل الحديث وهو قوله صلى الله عليه وآله: «**اللهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ وعَادِ مَنْ عَادَاهُ وانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ واخْذُلْ مَنْ خَذَلَه**»، يدل على المراد من جهة: أنّه لما أثبت صلى الله عليه وآله له الرئاسة العامة والإمامة الكبرى، وهي مما يحتاج إلى الجنود والأعوان، مع علمه بأنّ في الملأ من يحسده وفيهم من يحقد عليه، وفي زمر المنافقين من يضمر له العداء لأوتار جاهلية، فقام بالدعاء لمن والاه (أي تولاه وقبل ولايته) ونصره، وعلى من عاداه وخذله وقصّر في شأنه، ليتمّ له أمر الخلافة، وليعلم الناس أنّ موالاته مجلبة لموالاة الله تعالى ومعاداته مدعاة لغضب الله تعالى، ومثل هذا الدعاء بلفظ العام لايكون إلا في من له مقام الإمامة والولاية، وأما نصرة بعض المؤمنين بعضهم، وموالاة بعضهم بعضاً وخذلانهم ومنافرتهم فلا تبلغ هذا

---

(١) سر العالمين، الغزالي: ص٢٠.

(٢) راجع السيد المرتضى؛ الشافي: ج٢ ص٢٧٤، والمجلسي؛ مرآة العقول: ج٣ ص٢٢٢، والاميني؛ الغدير: ج١ ص٦٥١.

المبلغ، وإنما يحصل ذلك فيما كان إمام الأمة وعلم الإسلام ودعامة الدين، هذا أولاً.

وثانياً: أنّه يدلّ على عصمته اللازمة لإمامته، لأنّه لو كان تصدر منه المعصية، لكان يجب على من يعلم ذلك منه منعه وزجره وترك موالاته وإبداء معاداته لذلك، فوجوب موالاته ونصرته على كل حال وحرمة خذلانه ومعاداته كذلك، يستلزم أن لايكون أبداً على حال يستحقّ معها ترك الموالاة والنصرة، ولايقول إلا الحق ولايعمل إلا به ولايكون إلا معه.

وثالثاً: لو كان المراد بالمولى الناصر والحبيب، لكان المعنى من كنت ناصره ومحبه فيكون علي محبه وناصره، أي أنّ علياً ألزم بأن يكون ناصراً للناس، وهذا يناسب الدعاء لعلي عليه السلام إن قام بالمحبة والنصرة، لا للناس عامة إن قاموا بنصرته وموالاته والدعاء عليهم إن خذلوه ونصبوا العداء له، بينما لو كان المراد بالمولى الإمام والأولى بالتصرف، لكان قد ألزم الناس بقبول ولايته، وهذا يناسب الدعاء لهم إن والوه ونصروه، والدعاء عليهم إن تركوه وخذلوه.

الرابع: القرائن الحالية التي لاتبقي مجالاً للشك في مراد النبي صلى الله عليه وآله، فإنّا لو فرضنا أنّ أحداً من الملوك جمع عند قرب وفاته جميع عسكره في وميض الحر في صحراء، وأخبرهم بقرب رحيله، ثم أخذ بيد رجل هو أقرب أقاربه وأخصّ الخلق به، وقال: من كنت مولاه فهذا مولاه، ثمّ دعا لمن نصره ولعن من خذله، ولم يقل هذا لغيره، فلايفهم إلا أنّه أراد بذلك استخلافه وترغيب الناس في نصره ومحبّته.

فهل يصدّق عقلك أن يكون إيقاف هذا الكمّ من الحجاج في الحرّ في غدير خمّ، وأمره برجوع من تقدّم وانتظار من تأخّر، ثمّ القيام بخطبة بليغة وقوله صلى الله عليه وآله: «**أَلَا وإِنِّي أَوْشَكَ أَنْ أُفَارِقَكُم**»، مما يدلّ على أنّه قد بقي من تبليغه مهمّة يخشى أن يدركه الأجل قبل

أن يبلّغها، فبعد هذا كلّ يأخذ بيد أخيه ويقول ما قال، ثم يحرّض الناس على مناصرته ويهدّدهم من خذلانه ومعاداته، أن يكون كلّ هذا لبيان أنّ علياً كسائر آحاد المؤمنين الذين ينبغي له أن يحب الآخرين وينصرهم، بحكم: إنما المؤمنون إخوة؟!

الخامس: نزول آية التبليغ قبل الواقعة كما مرّت الإشارة إلى النصوص في المقام.

كيف يهدّد الباري رسوله أنّ التواني والتفريط في تبليغ هذه المهمّة يعادل عدم تبليغ الرسالة بكاملها، فلامناص إلا أن يكون ما يعادل الدين برمّته الذي لولاه لزال الدين وتعطّل القرآن، وليس هو سوى الإمام الذي بينّا في مباحث الإمامة العامة أنّه قوام الدين وقيّم القرآن.

ثم نزول العصمة من الله تعالى بقوله ﴿**وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ يدلّ على تخوّف النبي صلى الله عليه وآله من المنافقين والمندسّين المتكالبين على الدنيا، حيث يهدّد هذا التبليغ أمنياتهم التي طالما ترقّبوها، وأما لو كان مجرد بيان حب علي عليه السلام ونصرته، فلا يستدعي كلّ هذا التضخيم.

السادس: نزول آية الإكمال بعد إبلاغ الخطبة، فالدين إنما كمل بولاية علي عليه السلام، والنعمة إنّما تمّت بها، ورضي الله تعالى عن الإسلام بعد تبليغها؛ مما يدلّ على نقص الدين وعدم تمام النعمة وعدم رضى الباري عن الإسلام لو لم يكن فيه مؤدّى حديث الغدير، فكيف يمكن أن يكون ذلك نصرة علي عليه السلام للناس وحبه لهم شأن كل مؤمن ومؤمنة؟!

و هذا دليل واضح على كون الإمامة من أصول الدين وشرط لقبول الشهادتين، حيث أنّ الله تعالى لايرضى بالإسلام ديناً، ولا يقبل التشهّد بالشهادتين، لو لم يكن معه موالاة علي (سلام الله عليه) ومناصرته.

السابع: على فرض كون المولى في الحديث بمعنى المحبّ والناصر، فهو يدلّ على

إمامته وولايته أيضاً، وذلك لأنّ المؤدّى حسب الفرض يكون (من كنت ناصره فعلي ناصره) وظاهره أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بحكم نبوّته وولايته يتمشّى منه نصرة كلّ أحد، كما أنبأ اللطيف الخبير: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(١)، فلابدّ أن تكون نصرة علي عليه السلام للناس كذلك، وذلك لا يكون إلا بحصوله على مقام الإمامة والرئاسة العامّة، إذ لا يخفى على منصف أنّه لا يحسن من أمير قويّ الأركان كثير الأعوان أن يقول في شأن بعض آحاد الرعايا: من كنت ناصره فهذا ناصره! وأمّا إذا استخلفه وأمّره على الناس فهذا في غاية الحسن، لأنّه جعله بحيث يمكن أن يكون ناصر من نصره.(٢)

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) راجع: العلامة المجلسي؛ مرآة العقول: ج٣ ص٢٢١.و هنالك وجوه أخرى ذكرها الأميني في الغدير: ج١ ص٦٥١ - ص٦٦٩، فراجع.

الأسئلة

١- اذكر مورداً من موارد المناشدة بحديث الغدير من أمير المؤمنين عليه السلام بالمراجعة لكتاب الغدير للعلامة الأميني.

٢- ما هي الآيات النازلة في الغدير؟ أذكرها واذكر مع ذكر رواية واحدة من العامة الدالة عليه.

٣- اذكر بعض كلمات العامة في صحة خطبة الغدير.

٤- ما هو المعنى اللغوي لكلمة المولى وما هي صيغتها؟ واذكر بعض كلمات المفسرين في تفسير هذه الكلمة.

٥- كيف يكون فهم المخاطب هو المعيار في دلالة الكلام؟ واذكر كلام بعض الحاضرين في الغدير وأنهم كيف فهموا قول الرسول صلى الله عليه وآله.

٦- مما يدل على كون المولى في حديث الغدير بمعنى الإمام هو تقدم قوله صلى الله عليه وآله: **ألست أولى بكم من أنفسكم**، وتأخر قوله: **اللهم وال من والاه وعاد من عاداه**، بين وجه دلالة الدليلين.

٧- ما هي القرائن الحالية التي تعيّن المراد من كلمة المولى، سوى فهم المخاطبين؟

٨- كيف يمكن إثبات كون حديث الغدير في مقام بيان الإمامة بآية التبليغ وآية الإكمال؟

٩- كيف يتم الاستدلال بحديث الغدير على فرض كون المولى بمعنى المحب والناصر؟

الدرس الخامس والثلاثون: إمامة سائر الأئمة عليهم السلام(١)

من الإمام الحسن بن علي إلى الحجة بن الحسن العسكري عليهم السلام.

و هنالك عدّة مناهج كل واحد منها يورث اليقين بإمامتهم، ويشتدّ اليقين بملاحظة مجموعها:

المنهج الأول: عدم انطباق ضوابط الإمامة العامة إلا عليهم عليهم السلام

بعد قيام الضرورة القرآنية ودلالة محكمات القرآن، وبعد البراهين العقلية التي مرّت الإشارة لبعضها؛ الدالة على عدم خلو الأرض من إمام يكون مثل النبي صلى الله عليه وآله في علمه بالقرآن ووراثته لروح القدس، ويكون خليفة الله تعالى في أرضه وحجته على عباده، يحفظ حجج الله تعالى وبيناته، يحصل العلم الضروري بوجود إمام حامل لصفات الإمامة من العلم والعصمة والتسديد الإلهي في كل زمان، وإلا يلزم بطلان الدين، وزوال ربوبية رب العالمين.

ثمّ إنّ من أول ما يجب على الإمام، أن يدّعي هذا المقام حتى يعرفه الناس، لأنّهم مأمورون بمعرفته والمبايعة معه، كي لاتكون ميتتهم ميتة جاهلية.

والذين ادعوا مقام الإمامة وخلافة النبي صلى الله عليه وآله في كلّ عصر محصورون في عدد معين، يمكن الاطّلاع عليهم بسهولة.

وحينما ننظر إلى أولئك الذين ادّعوا الإمامة، نرى أنّ غير الأئمة الإثني عشر عليهم السلام، لم يدّع تلك المقامات والصفات التي اشترطناها في الإمام، بل لايمكن أن يُدّعى في

حقّهم تلك المقامات العلمية والمناصب الإلهية، وإذا ادّعى أحدهم ذلك أو ادّعي له، ظهر كذبه وفشله وخواؤه وخواره، فالجاهل بظاهر القرآن كيف يمكن أن يتصور في حقه كونه وارثاً لعلم الكتاب، والظالم المتجاهر بالفسق كيف يكون حافظاً لوحي الرحمن؟ وأمامك صحائف التاريخ التي اسودّت من جنايات وجهالات وظلم من تربّع على الكرسي من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أو أدعي له مقام خلافة النبي والإمامة، وهي مستمرة على مر التاريخ.

فكلما تنظر في هؤلاء - سواهم عليهم السلام- لن تجد من يمكن أن يُدّعى في حقه أنه ورث الكتاب المبين، وأنه باب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله الذي لايمكن الوصول إلى علم النبي صلى الله عليه وآله إلا من خلاله، ولولاه لبطلت حجج الله تعالى وتعطلت بيناته وأنه ورث عن رسول الله صلى الله عليه وآله علمه ووحيه وخلقه وحلمه ودينه وقرآنه، أو عنده علم الكتاب الذي فيه تبيان لكلّ شيء، ولم يدّع المدّعون - غيرهم عليهم السلام - أنّ الله تعالى عصمهم وسدّدهم وجعلهم خلفاءه على عباده وأمناءه في بلاده.

و قد علمنا أنّ الأرض لاتخلو من عالم بالكتاب يكون أمين الله تعالى على كتابه وسبباً متصلاً بين الأرض والسماء، وقد مر في مباحث الإمامة العامة، أنّ خلو الأرض ممن يحمل كامل علم رسول الله صلى الله عليه وآله وعلم الكتاب التبيان لكل شيء والمعصوم والمصطفى من الله تعالى، يوجب زوال الدين وبطلان الحجة من رب العالمين، كما أنّه ينافي التوحيد في الربوبية والحاكمية، وهذا كلّه منفي بأدلة خلود الدين ودوام ربوبية رب العالمين وحاكميته وسيادته جل جلاله.

لمحات من حياتهم واعتراف الكل بفضلهم الملازم لإمامتهم

أما الإمام الحسن والحسين عليهما السلام فهما سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما،

وهو حديث متواتر رواه الفريقان بطرق متعددة.

فعَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّيْتُ مَعَهُ المَغْرِبَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي حَتَّى صَلَّى العِشَاءَ، ثُمَّ خَرَجَ فَاتَّبَعْتُهُ، فَقَالَ: «مَلَكٌ عَرَضَ لِي اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيَّ وَيُبَشِّرَنِي أَنَّ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ»..[1]

فإنّ سيادتهما على أهل الجنة - وكلّهم شباب - صريح في سيادتهما وإمامتهما على جميع المؤمنين في الدنيا قبل الآخرة، فإنّ مقامات عالم الآخرة توافق مقامات وشؤون عالم الدنيا، فكل من دونهما من آحاد المؤمنين ليسوا إلا من رعايا الحسن والحسين عليهما السلام ما خلا أبواهما الذي هو أفضل منهما وأمهما التي تكون سيدة نساء أهل الجنة.

وإنّهما من أهل آية التطهير الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، كما مرت النصوص الدالة على ذلك من الفريقين، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله فيهما ما قال، ولم يكن من الصحابة والتابعين وغيرهم إلا أن يطأطؤوا رؤوسهم لجلال هيبة سبطي الرسول وريحانتي البتول، فإن كان هنالك وارث لعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وعالم بالكتاب المبين، فهل يمكن أن يكون غيرهما عليهما السلام؟ ومن عسى أن يكون غيرهما؟

المهم أن نعرف - وكما أكّدنا في دروس سابقة - وجه الحاجة إلى الإمام، فإن كنا نحتاج إلى من يعي علم رسول الله صلى الله عليه وآله ويكون سبباً متصلاً بين الأرض والسماء، كي تُحفظ ربوبية رب العالمين ويكون حاملاً لعلم الكتاب المبين الذي لا رطب ولا يابس إلا فيه، ويكون من تتنزل عليه الملائكة والروح في ليلة القدر بكل أمر حكيم، فلايصدّق عقلك أن يكون هذا الإنسان غير سيدي شباب أهل الجنة، بل لايتوهم ذلك، بل لم يدع غيرهما (صلوات الله عليهما) هذه المقامات في ذلك الزمان.

---

(١) راجع الملحقات: ملحق رقم(١٥).

وأما إن كنت تحتاج لقائد يؤم المسلمين في جمعتهم وجماعتهم، ويعظهم، وقد يعلم أجوبة مسائل المسلمين فيجيبهم وقد لايعلم فيسكت، وأمير يجدّ الضراب والسياف يقيم أود المتخلفين ويسيّر الجيوش ويجمع الغنائم ويوزعها بين المسلمين وغير ذلك من شؤون السلطان الظاهري، فلك أن تبحث ذلك في مكان آخر، أما الإمام بالمعنى الذي مر في مباحث الإمامة العامة فلايتصور تحققها في غير السبطين بعد أبيهما أمير المؤمنين عليهم السلام، وهذا واضح كالشمس لذي عينين.

فمن له أن يدنو من مقام السبطين وهما بحيث النجم من أيدي المتناولين؟ ترجّل في فهم فضائلهما الأكابر من أعيان الصحابة، فكيف لملاعين أمثال ابن آكلة الأكباد أو ولده السكير اللاعب بالقرد أو ابن النابغة أو ابن مرجانة أو ابن الزبير أو لغيرهم الذين سودوا صحائف التاريخ بجناياتهم، أن يحلوا محل سيدي شباب أهل الجنة في وراثة الكتاب المبين؟

وقد اعترف أعيان علماء العامة بعلم وفضل وكمال الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام كما اعترفوا بجهل وخواء وظلم وفساد غيرهم ممن تربعوا على عرش الخلافة وتقمّصوا مقام الأمامة، وأمامك صحائف التاريخ ومدونات العلماء من الفريقين، فكلما تغوص فيها فلا تجد إلا تعظيماً وتكريماً وإشادة بمقامات عالية للأئمة الاثني عشر ترافق دعواهم للإمامة الإلهية الكبرى ووراثة علم الكتاب، وكذلك تجد كتب الفريقين مليئة باعترافات غيرهم بالقصور والتقصير عن نيل مقام الإمامة العظمى والخلافة الكبرى، وهذا برهان على أنّ الإمامة لاتكون في سواهم، ولولاه لزم تعطيل الدين وزوال ربوبية رب العالمين.(١)

---

(١) راجع الملحقات: ملحق رقم(١٦).

وجوه الدلالة

ثمّ إنّ ادعاء هذا العلم وتلك المقامات العالية من أئمتنا عليهم السلام كان تحدياً صارخاً أمام أعداء متحمّسين في إبادتهم واستئصالهم بالقتل والحرق والسبي والتشريد، فيأتي إمام من الأئمة يتحدّاهم ويدّعي أنّه حامل لروح القدس وعارف بكلّ أسرار الكتاب، وكلّ رطب ويابس منه، وأنّه خليفة الله تعالى ووارث رسول الله صلى الله عليه وآله في علمه، أمام أناس قتلوا أباه وجدّه ويفكّرون في قتله أيضاً، فنفس هذه الدعوى منه دليل على صدقه من وجوه:

أولاً: لا شكّ أنّ أئمّتنا من أعقل العقلاء، والعاقل لايدّعي مثل هذه الدعاوى الكبيرة أمام العدو حينما يسهل له إظهار فشله وجهله.

وثانياً: لم يدّع هذا المقام غيرهم، فلو لم يكونوا هم الأئمة الصادقين، لزم خلوّ الأرض من أمام حامل لعلم رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا يعني بطلان الدين وزوال ربوبيّة ربّ العالمين كما مرّت البرهنة على ذلك.

وثالثاً: إنّ الناس وسلاطين الجور صرفوا كلّ ما بوسعهم لمواجهة هذا التحدّي القائم من أئمّة أهل البيت عليهم السلام، فأولعوا في امتحانهم وتجربتهم، بغية أن يجدوا مساغاً للنيل منهم وتكذيبهم في دعواهم، فلم يتيسّر لهم ذلك، وأمامك كتب التاريخ مليئة بحواريات ومجالس وأسئلة غامضة كانوا يوجّهونها للأئمة، بل كانوا يستضيفون العلماء من جميع أرجاء المعمورة ليتمكّنوا من مقارعة أئمة أهل البيت عليهم السلام في المصاف العلمي، فلم يزدادوا إلا علواً في شأنهم، ورجعت أبصار الحاسدين خاسئة محسورة.

هذا المأمون العباسي جمع العلماء من جميع المذاهب والأديان في مجلس عظيم

وأحضر فيه الإمام الرضا عليه السلام فما كان إلا وأقرّ جميعهم بفضله وعلمه.(١)

ثم الأعجب ابنه محمد الجواد عليه السلام وقد استدعى المأمون علماء البلاط وفيهم يحيى ابن أكثم وهو قاضي القضاة في البلاط العباسي وقد وعدوه أموالاً نفيسة إن سأله عن مسائل لا جواب له فيها، فما إن بدأ في سؤاله ذاك الصعب المستصعب عنده، إلا وجده بحراً من العلم لايعلم كيف يغترف منه غرفة، فاعترف بالعي والقصور، وكان ابن الرضا عليه السلام يومئذ ابن تسع سنين(٢)، وقد أجاب عن ثلاثين ألف مسألة في مجلس واحد وهو ابن عشر سنين.(٣)

و نماذج أخرى يجدها المتتبع في روايات الفريقين.

وجود الارتكاز الضروري من المسلمين على إمامتهم (عليهم السلام)

و يضاف إلى ما مر، أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام حينما ادعوا هذه الدعوى من كونهم ورثة الكتاب وحملة علم رسول الله صلى الله عليه وآله وأنّهم واقفون على إرادات الله جل جلاله ولايفصلهم شيء عن ذلك، أذعن وأقرّ به المخالف والمؤالف، بما فيهم جمهور أهل السنة وأعلامهم وأمراؤهم، وقد بلغ الأمر من وضوحه وبداهته عند المسلمين بحيث لم يبق مجال للاعتراض والإنكار، فحتّى من لايؤمن بهذه المقامات فيهم لم يكن ليجترىء على أن يظهر ذلك مخافة أن يفضح ويُشَهَّر بإنكار المسلّمات.

---

(١) توحيد الصدوق: ٤١٧، عيون أخبار الرضا: ١ / ١٦٨، مناقب آل أبي طالب: ٤ / ٣٥١، الاحتجاج للطبرسي: ٢ / ٤١٥،، تحف العقول: ٤٢٣، بحار الأنوار: ١٠ / ٢٩٩.

(٢) روضة اواعظين: ١ / ٢٣٩، الإرشاد للشيخ المفيد: ٢ / ٢٨٣، الاختصاص: ٩٨، كنز الفوائد: ١ / ٢٧٤، دلائل الإمامة: ٣٩١،

(٣) اصول الكافي: ١ / ٤٩٦، الاختصاص: ١٠٩، مناقب آل أبي طالب: ٤ / ٣٨٤، كشف الغمة: ٢ / ٣٦٤، وسائل الشيعة: ٢٨ / ٢٨٠، بحار الانوار: ٥٠ / ٨٦ و٩٣.

و لنشر إلى بعض الأمثلة على ذلك في حياة الأئمة عليهم السلام:

ألف / حينما انتهت الصديقة فاطمة بنت رسول الله عليها السلام من خطبتها في المسجد التي ندّدت فيها بسلطة أبي بكر وطالبت بحقها من فدك وغيرها، انفجر المسجد وكاد أن ينتفض الناس بعد ما نبّهتهم الزهراء عليها السلام فأثارت مشاعرهم وأحاسيسهم، فقام أبوبكر خطيباً ليهدّيء قليلاً من شدة وطأة أناس كاد أن يقلبوا الكرسي بمن عليه، فمن جملة ما قال في خطبته لتهدئة الجو:

«يا ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله! لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفاً كريماً رؤوفاً رحيماً وعلى الكافرين عذاباً أليماً وعقاباً عظيماً، فإن عزوناه وجدناه أباك دون النساء، وأخاً لبعلك دون الأخلاء، آثره على كل حميم، وساعده في كل أمر جسيم، لا يحبّكم إلا كلّ سعيد، ولا يبغضكم إلا كلّ شقي، فأنتم عترة رسول الله صلى الله عليه وآله الطيّبون، والخيرة المنتجبون، على الخير أدلّتنا، وإلى الجنّة مسالكنا، وأنت يا خيرة النساء وابنة خير الأنبياء، صادقة في قولك، سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقّك، ولا مصدودة عن صدقك، ...وأنت سيدة أمة أبيك، والشجرة الطيبة لبنيك، لا ندفع ما لك من فضلك، ولا نوضع من فرعك وأصلك، حكمك نافذ فيما ملكت يداي ...».(١)

ركّز في هذه الجمل وهو يخاطب بها فاطمة وعلياً والحسن والحسين عليهم السلام حيث استخدم ضمير الجمع:

«لا يحبّكم إلا كلّ سعيد، ولا يبغضكم إلا كلّ شقي».

---

(١) الاحتجاج للطبرسي: ١ / ١٠٥، بحار الانوار: ٢٩ / ٢٣١، دلائل الإمامة للطبري/ ٣٠، علل الشرائع: / ٢٤، وتجد شطراً منها في: أعيان النساء عبر العصور المختلفة/ ٤٢٩، بلاغات النساء ٢٦، أنوار اليقين في إمامة أمير المؤمنين للحسني اليمني مخطوط: ٢٧، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦/٢١٣.

«أنتم عترة رسول الله ﷺ الطيّبون، والخيرة المنتجبون».

«على الخير أدلّتنا، وإلى الجنّة مسالكنا».

«حكمك نافذ فيما ملكت يداي».

هذه الكلمات بيان لمقامات عالية وشامخة من الإمامة الملكوتية والاصطفاء، وأنّه لاتنال الجنّة إلا باتباعهم ولايمكن الوصول إلى الخير إلا بدلالتهم، وأنّ أهل البيت عليهم السلام أولى بالمسلمين وبأموالهم من أنفسهم، وهي تذكر لتهدئة الناس أمام الملأ، مما يدّل على أنّها كانت ضرورية وبديهية عند المسلمين فأراد أن يدفع التهمة عن نفسه، أنّه حينما يصادر فدكاً من فاطمة لاينكر لها ولبعلها وسبطيها هذه الفضائل والمقامات.

ب / حجّ هشام بن عبد الملك فأراد أن يستلم الحَجَر، فلم يتمكّن من ذلك إلا بعد ما قامت جلاوزته بتفريق الناس وإيجاد فسحة ليصل إلى هنالك، ثم ضربوا له سريراً فجلس عليه ينظر الناس، ففاجأه الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام، حيث انفرج الناس له بطيب أنفسهم ففتحوا له طريقاً في وسط الطائفين، فتقدّم فاستلم الحجر، وحينها استشاط غضباً، فقال متنكراً: من هذا؟

فقام فرزدق فأنشد قصيدته الغراءة:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته و البيت يعرفه والحلّ والحرم

إلى آخر أبياته التي أدّت به إلى السجن جراء ذلك.[1]

ج / حديث سلسلة الذهب عن الإمام الرضا عليه السلام في نيسابور، حيث اجتمع

---

(١) الاختصاص للشيخ المفيد: ١٩١، روضة الواعظين: ١ / ١٩٩، بشارة المصطفى لشيعة المرتضى: ٢ / ٢٤٤، الخرائج والجرائح: ١ / ٢٦٧، مناقب آل أبي طالب: ٤ / ١٦٩، كشف الغمة: ٢ / ٧٩، الدر النظيم يوسف بن حاتم الشامي: ٥٨٥، غرر الأخبار للديلمي: ٦٨، بحار الأنوار: ٤٦ / ١٢٥.

حوله المئات بل الآلاف من الناس فسألوا منه أن يحدّثهم بحديث قبل ما يرحل عنهم، فحدّثهم عن أبيه عن أجداده الطيّبين عن رسول الله ﷺ عن جبرئيل عن اللوح عن القلم عن الله تبارك وتعالى: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ حِصْنِي فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي**».

و انتهى الحديث إلى هنا، فلما مرّت الراحلة قليلاً، توقّف ثانياً والتفت إليهم فقال: «**بِشُرُوطِهَا وَأَنَا مِنْ شُرُوطِهَا**».[1]

و الناظر اللبيب يعرف أنّ هذا الأسلوب من البيان - حيث لم يسند الشرط إلى الله تعالى، بل أنشأه من عند نفسه - أمام أولئك الملأ من الناس الذي لايخلو عن جلاوزة المأمون وأولاد البلاط العباسي، إنّما يعرّض الإمام للمساءلة والاعتراض والاتّهام، حيث الإنسان حينما يروي شيئاً عن شخص آخر، ثمّ يقيّده بشرط، فبطبيعة الحال يُسأل: أنّ هذا القيد أيضاً من كلام ذلك الشخص، أو أنّه استنباطك من فحوى كلامه؟

سيّما إذا كان للشخص الذي نقل عنه الكلام موقعيّة مرموقة وعالية عند الناس، وسيّما إذا كان المطلب المنقول عنه مهمّاً وحسّاساً ومرتبطاً بمصير الناس وحياتهم، وسيّما إذا كان ذلك القيد يجرّ نفعاً للناقل، فحتما يُسأل عن أنّ هذا القيد أيضاً من كلام ذلك الشخص أم من عندك!

و هنا قد جعل الإمام الرضا عليه السلام الاعتقاد بإمامة نفسه شرطاً في كلام الله تعالى، وفي كلمة التوحيد وفي النجاة الأبدي والنجاة من العذاب، أي يجعل نفسه شرطاً في النجاة من العذاب الأبدي وفي قبول التوحيد، بعد ما نقل عن الله تعالى بإسناده المعنعن حصانة القائلين بكمة التوحيد، لكن لم يجرؤ أحد أن يستفسر ويسأل عنه، فضلاً من أن يتّهمه

---

(١) توحيد الصدوق: ٢٥، أمالي الصدوق: ٣٢٥، عيون اخبار الرضا: ٢ / ١٣٥، معاني الاخبار: ٣٧١، روضة الواعظين: ١/ ٤٢، بشارة المصطفى لشيعة المرتضى: ٢/ ٢٦٩، مناقب آل ابي طالب: ٣/ ١٠١، بحار النوار: ٣/ ٧.

أو يعترض عليه أو ينكره، في حين نعلم أنّ الجمع لم يكن خاليا من الأعداء والحاقدين.

و هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على الارتكاز الضروري عند المسلمين قاطبة - سنة وشيعة - أنّ علي بن موسى الرضا عليه السلام هو ترجمان الوحي، وليس بمتَّهَم فيما ينسبه إلى الله تعالى، سواء نقل عنه معنعناً، أم فسّر كلام الله تعالى بإضافة قيد أو شرط، حتّى وإن شرط نفسه في كلمة التوحيد.

د / مجلس المعتصم العباسي في قطع يد السارق أمام فقهاء السلطة، حيث اختلف حكمهم في موضع القطع، من أجل اختلافهم في تفسير قوله تعالى ﴿**السَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما**﴾ فكلّ منهم استند بآية أخرى لتعيين مفهوم اليد في الآية، فالتفت الخليفة العباسي إلى الإمام الجواد عليه السلام واستفسر عن رأيه، فأبى الإمام من الكلام، وحينما أصرّ المعتصم حكم الإمام عليه السلام بقطع أربعة أصابع، واستدل بقوله تعالى ﴿**وَ أَنَّ المَساجِدَ للهِ**﴾ فلم يجرؤ أحد أن يعترض عليه تفسيره للمساجد بأعضاء السجود، ولا كونها لله تعالى بمعنى عدم قطعها في الحدود، ولا في جعل آية المساجد حاكمة ومفسّرة لآية قطع يد السارق، وكلّنا نعلم كم كان صعباً على أولئك الفقهاء أن المعتصم يتركهم ويأخذ برأي ابن الرضا، فلم يكن ليفضّلوا ترك الاعتراض، إن وجدوا له مساغاً، لكن ابن الرضا لايُتّهَم فيما ينسبه إلى الله تعالى ولافيما يفسّر به كلام الله تعالى، فهو ترجمان القرآن ووارث علم الكتاب، وهذا ما يكون كالمسلمات عند الجمهور.(١)

فعدم اعتراض أحد على الإمام الجواد عليه السلام وحتى عدم التساؤل منه، دليل على وجود الارتكاز الضروري من المسلمين على أنه صادق في دعواه.

و المتتبع يجد الكثير من هذه النماذج في تاريخ حياة أهل البيت عليهم السلام رواها

---

(١) تفسير العياشي: ١ / ٣٢٠ وبحار الأنوار: ٥٠ / ٦.

المخالف والمؤالف، تصل إلى حد التواتر المعنوي المنعقد على وجود ارتكاز ضروري لدى المسلمين عامة بكونهم عليهم السلام ورثة الكتاب، وحملة علم النبي، والقائمين مقامه في حفظ الوحي، وبعد تحقق التواتر نكون في غنى عن إثبات صحة سند كل واحد من هذه الأخبار...

فالعاقل المنصف بعد ما يشاهد كل هذا سوف يحصل له اليقين بأنّ أولئك الأئمة عليهم السلام كانوا صادقين في دعواهم الإمامة الإلهية وخلافة النبي صلى الله عليه وآله وفق المعايير التي مرّ الكلام حولها في مباحث الإمامة العامّة.

الأسئلة

١- ما وجه الملازمة بين إنكار إمامة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام وبطلان الدين؟

٢- كيف يمكن إثبات الإمامة الخاصة بنفس أدلة الإمامة العامة؟

٣- كيف يكون نفس ادعاء هذا المقام من الأئمة الاثني عشر عليهم السلام دليلاً على صدقهم؟

٤- لماذا لايمكن أن تكون الإمامة في غير الاثني عشر عليهم السلام؟

٥- اذكر نماذج من التاريخ لعدم أهلية من ادعيت في حقه الإمامة سواهم عليهم السلام ؟

٦- من البراهين على ترسخ مقامات أهل البيت عليهم السلام الملكوتية عند جمهور المسلمين، عدم اعتراض أحد عليهم حينما كانوا يتحدثون بعلمهم اللدني، ما وجه البرهان في ذلك؟

٧- اذكر بعض نماذج أخرى من تحديات أهل البيت عليهم السلام بمقاماتهم العالية وإذعان الجمهور لها.

الدرس السادس والثلاثون: إمامة سائر الأئمة عليهم السلام (٢)

المنهج الثاني: النصوص العامّة الدستورية

توجد عندنا نصوص محكمة صدرت عن النبي صلى الله عليه وآله و هي ليست محل خلاف بين جميع فرق المسلمين، تكون بمثابة الأصول الدستورية الفوقانية التي لايمكن تجاوزها، وإلا يلزم المروق عن الدين، وهي بأجمعها تثبت إمامة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام.

ولنشر إلى بعضها:

حديث الثقلين

بعض ما روته العامة من ألفاظ هذا الحديث الشريف.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي كِتَاب الله حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْض، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِّي فيهما».(١)

و في لفظ آخر:

«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ خَلِيفَتَيْنِ، كِتَابَ الله حَبْلٌ مَمْدُودٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ - أَوْ مَا بَيْنَ

---

(١) راجع الملحقات: ملحق رقم (١٧).

السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ - وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ». (١)

و في لفظ ثالث: عن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى «خمّا». بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال:

«أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ، أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي». (٢)

و عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللهِ». (إلى أن قال الراوي عن زيد) فَقُلْنَا: مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، نِسَاؤُهُ؟ قَالَ: لَا، وَايْمُ اللهِ! إِنَّ المَرْأَةَ تَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ العَصْرَ مِنَ الدَّهْرِ ثُمَّ يُطَلِّقُهَا فَتَرْجِعُ إِلَى أَبِيهَا ... (٣)

و هنالك ألفاظ أخرى للحديث متعدّدة، وهي متواترة، وطرقها عن بضع وعشرين صحابياً متضافرة، وقد صدع بها رسول الله ﷺ في مواقف له شتّى، تارة يوم غدير خمّ، وتارة يوم عرفة في حجّة الوداع، وتارة بعد انصرافه من الطائف، ومرة على منبره في المدينة، وأخرى في حجرته المباركة في مرضه، والحجرة غاصة بأصحابه. (٤)

و هذا الحديث بلغ من تكراره وتواتره وتعدّد مصادره أن عُدّ من ضروريات

---

(١) راجع الملحقات: ملحق رقم (١٨).

(٢) راجع الملحقات: ملحق رقم (١٩).

(٣) راجع الملحقات: ملحق رقم (٢٠).

(٤) راجع الملحقات : ملحق رقم (٢١).

الإسلام ومحكمات الدين الذي يكون التغاضي عنه مروقاً عن الدين.

و يمكن تلخيص مفاده في نقاط:

١- يجب أن لانبحث عن خليفة رسول الله ﷺ وعن الإمام عليه السلام خارج إطار العترة الطاهرة، فإنّه الذي خلّفه رسول الله ﷺ لضمان عدم انحراف الأمة من لدن رحيله إلى يوم القيامة، فتبطل إمامة كل من لايكون من عترة النبي وأهل بيته عليهم السلام أياً كان.

٢- كما دلّ الحديث على استمرار وجود واحد من العترة في كل زمان بصفات الإمامة، حيث أخبر النبي ﷺ بأنّه عدل القرآن، ولن يأتي يوم تحصل التفرقة بينهما، فلايخلو زمان عن العترة كما لايخلو عن القرآن إلى يوم القيامة.

٣- ثمّ الضمان عن الضلال والانحراف لايحصل للإنسان إلا بالتمسّك بهما، وهذا يدلّ على علم العترة بباطن القرآن وتأويلاته، وعصمتها المانعة من الضلال.

٤- كما دلّ على أنّ القرآن لايُحفَظ ولايبقى إلا بوجود الإمام من العترة، حيث إنّ الأمّة بحكم هذا الحديث سوف تضلّ لو استبدّت بالقرآن وتركت العترة، وذلك لعدم وعيها حقائق القرآن وجهلها بتأويل المتشابهات، وبديهي أنّ الحافظ للقرآن لايمكن أن يكون جاهلاً به وبباطنه وتأويله، فانحصر أن يكون، الحافظ للقرآن هم العترة الحاملين لعلم الكتاب، وإلا سوف تبطل حجج الله تعالى وبيناته، فهذا الرجل من العترة لابد وأن يكون عالماً بالقرآن كما أنزل بظاهره وباطنه وتنزيله وتأويله، فهو العاصم للأمّة في تمسّكها بالقرآن.

حديث الثقلين حديث قرآني

ثم إنّ حديث الثقلين حديث قرآني قبل أن يكون حديثاً نبويّاً، فقد أكّد القرآن في

أكثر من آية، أنّ العصمة عن الضلال لن تحصل بالتمسّك بالقرآن وحده، دون الأخذ بإرشادات وتعلميات من عنده علم الكتاب، نظير ما في سورة آل عمران:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ﴾(١)

دلّت الآية على أنّ أهل الزيغ حيث لايهتدون إلى تأويل المتشابهات، يؤولونها ويوظفونها في سبيل الغي وإثارة الفتنة، وهذا بخلاف أهل الرشد الذين يتّبعون هدايات وإرشادات الراسخين في العلم في تأويل القرآن فلا يزيغون، فلامناص لمن يريد أن يقف على التأويل الصحيح للمتشابهات أن يتبع الراسخين في العلم، وإلا فسوف يكون من أهل الزيغ، أي أنّ التمسّك بالكتاب غير ممكن إلا بالتمسك بالراسخين في العلم، وهذه هي الحجية الجمعية للكتاب والعترة...

ثمّ بعد فهم هذه الأوليات من حديث الثقلين، لو ألقيت نظرة بسيطة للتاريخ سوف لن تجد غير الأئمة الاثني عشر عليهم السلام من عترة النبي صلى الله عليه وآله من كان بهذه الصفات، فيكون حديث الثقلين دليلاً قطعياً على إمامتهم، وأنّه لايخلو زمان من وجود رجل من العترة يكون عدل القرآن، فمثلاً في زمن الإمام الباقر أو الصادق أو في زمن الإمام الهادي أو الجواد أو الكاظم عليهم السلام، من يمكن أن يكون من العترة عدلاً للقرآن وعاصماً للأمّة وحافظاً للوحي غير أولئك؟

وهذا واضح لاريب فيه، بعد إلقاء نظرة بسيطة في سجل الشخصيات التي كانت

(١) آل عمران: ٧.

موجودة آنذاك من العترة، كما مر التنبيه عليه.

حديث خلفائي اثني عشر

و هذا الحديث أيضاً متواتر رواه الكثير من أبناء العامّة بألفاظ وطرق متعدّدة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فمن ألفاظ الحديث المروية من طرق العامة:

«لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ قائماً عَزِيزاً مَنيعاً حَتّى يَكُونُ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً مِنْ قُرَيْش».

و**«لَا يَزَالُ الإِسلامُ عَزِيزاً إِلى اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَة».**

و **«إِنَّ هَذَا الأَمْرَ لَا يَنْقَضِي حَتَّى يَمْضِيَ فِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً».قَالَ: ثُمَّ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ خَفِيَ عَلَيَّ، قَالَ: فَقُلْتُ لِأَبِي: مَا قَالَ؟ قَالَ: قَالَ: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْش»..**

و**«لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ عَزِيزاً مَنيعاً إِلى اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَة».فَقَالَ كَلِمَةً صَمَّنِيهَا النَّاس، فَقُلْتُ لِأَبِي: مَا قَالَ؟ قَالَ: قَالَ: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْش»..**

و**«يَكُونُ بَعْدِي اثْنَا عَشَرَ أَمِيرا».فَقَالَ كَلِمَةً لَمْ أَسْمَعْهَا، فَقَالَ أَبِي: إِنَّهُ قَالَ: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْش»..**

و**«هَلْ حَدَّثَكُمْ نَبِيُّكُمْ كَمْ يَكُونُ بَعْدَهُ مِنَ الخُلَفَاءِ؟ قَالَ: نَعَمْ، اثْنَا عَشَرَ عَدَدَ نُقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ».**

وغيرها من الألفاظ.[1]

والمستفاد من هذا الحديث الذي يعدّ أصلاً دستورياً ثانياً في المقام:

١ - أنّ العترة الذين هم الثقل الثاني للقرآن عددهم اثنا عشر، وذلك أنّه صلى الله عليه وآله ربط

(١) يراجع الملحقات : ملحق رقم (٢٢)

عزة الدين ومناعته وبقاءه بقيام هؤلاء الخلفاء، وقد تقرّر بالبرهان أنّ القرآن والدين والوحي لن يبقى إلا من خلال المعصوم العالم بكل الكتاب.

٢- كما أنّ حديث الثقلين حدّد غاية الاستخلاف إلى يوم القيامة عند الحوض، كذلك هذا الحديث يجعل أمد تواجد الخلفاء إلى يوم القيامة، فكون العدد اثنى عشر إلى يوم القيامة يستلزم أن يطول عمرهم أو عمر واحد منهم، وكذا رجعتهم إلى الدنيا، كي لاتخلو الأرض ساعة من خلفاء الرسول إلى يوم القيامة، وببقائهم يبقى الدين والقرآن عزيزاً.

دلائل تطبيقية

ثمّ إنّ هذه الأوصاف لا تنطبق إلا على الائمّة الاثني عشر عليهم السلام، حيث ربط بقاء الدين وعزّة القرآن بقيامهم وخلافتهم، وكما قلنا هذه الأوصاف لاتنطبق على عموم المسلمين العارفين، إلا من كان حاملاً لجميع علم رسول الله صلى الله عليه وآله ووارثاً للكتاب المبين، دعك عن الجناة الغوغاء الجهلاء الذين سوّدوا صفحات التاريخ بجناياتهم بعد ما سوّدوا صحائف أعمالهم بفواحش يهتزّ منها عرش الرحمن.

و كيف يصحّ أن يقال: إنّ الدين والوحي قائم وعزيز بمعاوية بن أبي سفيان ابن آكلة الأكباد؛ وهو قد ألحق العهر بالنسب علانية، وحارب الحقّ جهرة، وقتل خيار عباد الله تعالى صبراً، كحجر وأصحابه، وابن الحمق وأمثاله؟!

أو يزيد وعبد الملك؛ وقد هدما الكعبة، وهتكا حرمة الله تعالى ورسوله، ولم يتركا لله محرّماً إلّا فعلاه، ولا حرمة إلّا أضاعاها، والناس لهما أعوان، وبهم قام لهما السلطان؟! فأين الإسلام وعزّته؟! وأين الدين وقيامه؟!

ومن جهة ثانية أنّ الحديث يحصِر خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله في هذا العدد المعيّن، كما هو

ظاهر بعضها وصريح بعض الآخر، ولن يقول بالحصر في هذا العدد إلا الشيعة الاثنا عشرية.

كيفية قيام الأئمة عليهم السلام بحفظ الدين

ثمّ إنّ قيام الأئمة الاثني عشر عليهم السلام بحفظ الدين وحياطة الإسلام يكون عبر طرق، بعضها ظاهرة وجليّة للناس، وبعضها مخفية كما مرّ نظيرها في فعاليات الخضر الخفيّة، وقد حفظ البلاد والعباد من القحط والكفر وحفظ لهم ثرواتهم بتصرفات لم يشعر بها أحد سوى موسى بن عمران في ثلاثة منها، ثم لم يتحمّلها فقال: هذا فراق بيني وبينك، ومن يحصر التصرّف والقدرة في السلطة الظاهرة المعلنة فهو لايعرف أبجديات علوم السياسة ومناسبات نظام القدرة.

وقد تجد أناساً يرون عزّة الدين في الغطرسة والطغيان وإشعال الحروب وفرض سلطتهم على ضعفاء الناس،[1] لكنّك تجد الآن إن بقي للإسلام عز وفخر، فإنما هو بمواقف أمير المؤمنين عليه السلام وخطبه الغرّاءة وسلوكه ومنطقه وعدله، لابتصرّفات معاوية العدوانية الجنائية، ولا بتكالب عثمان وقومه على بيت مال المسلمين، ولابتيسير الجيوش لتوسعة حدود السلطة دون مراعاة الشروط والآليات الصحيحة التي ما أثمرت إلا الصد عن نشر الإسلام في جميع الكرة الأرضية كما وعد الله تعالى في القرآن، وكذا يعتزّ بموقف أبي عبد الله الحسين عليه السلام وليس يزيد وابن مرجانة.

فالمهمّ أن نعرف أنّ عزّة الدين ليست دائماً بالسيف والظهور بمظهر الملك الفتّاك، بل الآليات تختلف بحسب اختلاف الظروف والأسباب، وممّا لاينكره المنصف أنّ الوحي والقرآن والدين والشريعة والحق والإنصاف والعدل والحريّة والفضائل والمكارم لم تبق إلا بفضل أهل البيت عليهم السلام، وإلا لاندثرت هذه المفاهيم برمّتها.

(١) منهم ابن تيمية في كتابه منهاج السنة.

الأسئلة

١- ما هو المراد بالنصوص العامة الدستورية في مبحث الإمامة، وكيف يمكن الاستفادة منها؟

٢- ابحث عن آراء العامة في صحة حديث الثقلين واذكر نماذج منها.

٣- لماذا لايمكن أن يكون الإمام من غير عترة النبي صلى الله عليه وآله؟

٤- حديث الثقلين يدل على وجود واحد من عترة النبي صلى الله عليه وآله في كل زمان يكون عالماً بجميع تأويل القرآن ومتشابهه ويكون عنده تبيانٌ لكل شيء، بيّن وجه الدلالة.

٥- كيف يكون الاستبداد بالقرآن دون العترة موجباً للضلال؟ وهل يدل عليه حديث الثقلين؟

٦- لماذا لايمكن تطبيق أحاديث اثني عشر على خلفاء الجور؟

٧- قد يقال إنّ عزة الإسلام تكون بالفتوحات وإرسال الجيوش لبقاع الأرض وهذا ما لم يفعله الأئمة الاثنا عشر فلايمكن تطبيق أحاديث اثني عشر عليهم، ما هو الرد المناسب على هذا الكلام؟

٨- كيف تقوم الأئمة بإقامة الدين وإعزازه وهم بين قتيل وطريد وشريد ومحبوس ومسموم وغائب؟

الدرس السابع والثلاثون: إمامة سائر الأئمة عليهم السلام(٣)

المنهج الثالث: النصوص الخاصة لكل إمام.

و هي على طوائف:

فمنها: ما عن رسول الله ﷺ بالتنصيص باسم كلّ إمام، أو الإشارة بوصف لاينطبق إلا عليهم، أو ذكر اسم بعضهم والإشارة للآخرين، وهي كثيرة رواها الفريقان.(١)

روى الخزاز في كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر:

عَنْ جَابِرِ بْنِ يَزِيدَ الجُعْفِيِّ قَالَ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله الأَنْصَارِيَّ يَقُولُ:

لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾**. قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله قَدْ عَرَفْنَا اللهَ وَرَسُولَهُ فَمَنْ أُولُو الأَمْرِ مِنْكُمْ الَّذِينَ قَرَنَ اللهُ طَاعَتَهُمْ بِطَاعَتِكَ؟

فَقَالَ ﷺ: **خُلَفَائِي وأَئِمَّةُ المُسْلِمِينَ بَعْدِي، أَوَّلُهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ثُمَّ الحَسَنُ ثُمَّ الحُسَيْنُ ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ المَعْرُوفُ بالتوراة [فِي التَّوْرَاةِ] بِالبَاقِرِ، وسَتُدْرِكُهُ يَا جَابِرُ، فَإِذَا لَقِيتَهُ فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ. ثُمَّ الصَّادِقُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، ثُمَّ سَمِيِّي وكَنِيِّي حَجَّةُ الله فِي أَرْضِهِ ونفسه [بَقِيَّتُهُ] فِي عِبَادِهِ، ابْنُ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ذَلِكَ الَّذِي**

(١) راجع كتاب إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، للشيخ الحر العاملي ﵀، وكتاب: منتخب الأثر في النص على الإمام الثاني عشر، للشيخ لطف الله الصافي دام عزه.

يَفْتَحُ اللهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ عَلَى يَدِهِ مَشَارِقَ الأَرْضِ ومَغَارِبَهَا، ذَلِكَ الَّذِي يَغِيبُ عَنْ شِيعَتِهِ وأَوْلِيَائِهِ غَيْبَةً لا يَثْبُتُ فِيهَا عَلَى القَوْلِ بِإِمَامَتِهِ إِلَّا مَنِ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ.

قَالَ جَابِرٌ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ فَهَلْ لِشِيعَتِهِ الانْتِفَاعُ بِهِ؟

فَقَالَ صلى الله عليه وآله: **وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالنُّبُوَّةِ إِنَّهُمْ لَيَسْتَضِيئُونَ بِنُورِهِ ويَنْتَفِعُونَ بِوَلَايَتِهِ فِي غَيْبَتِهِ كَانْتِفَاعِ النَّاسِ بِالشَّمْسِ إِنْ سَتَرَهَا سَحَابٌ يَا جَابِرُ هَذَا مِنْ مَكْنُونِ سِرِّ اللهِ ومَخْزُونِ عِلْمِ اللهِ فَاكْتُمْهُ إِلَّا عَنْ أَهْلِهِ ...**[1]

و عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:

خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله فَقَالَ: **مَعَاشِرَ النَّاسِ إِنِّي رَاحِلٌ عَنْ قَرِيبٍ ومُنْطَلِقٌ إِلَى المَغِيبِ، أُوصِيكُمْ فِي عِتْرَتِي خَيْراً وإِيَّاكُمْ والبِدَعَ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ والضَّلَالَةُ وأَهْلُهَا فِي النَّارِ. مَعَاشِرَ النَّاسِ مَنِ افْتَقَدَ الشَّمْسَ فَلْيَتَمَسَّكْ بِالقَمَرِ ومَنِ افْتَقَدَ القَمَرَ فَلْيَتَمَسَّكْ بِالفَرْقَدَيْنِ فَإِذَا فَقَدْتُمُ الفَرْقَدَيْنِ فَتَمَسَّكُوا بِالنُّجُومِ الزَّاهِرَةِ بَعْدِي،أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي ولَكُمْ.**

قَالَ فَلَمَّا نَزَلَ عَنِ المِنْبَرِ صلى الله عليه وآله تَبِعْتُهُ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ فَدَخَلْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ سَمِعْتُكَ تَقُولُ **إِذَا افْتَقَدْتُمُ الشَّمْسَ فَتَمَسَّكُوا بِالقَمَرِ وإِذَا افْتَقَدْتُمُ القَمَرَ فَتَمَسَّكُوا بِالفَرْقَدَيْنِ وإِذَا افْتَقَدْتُمُ الفَرْقَدَيْنِ فَتَمَسَّكُوا بِالنُّجُومِ الزَّاهِرَةِ** فَمَا الشَّمْسُ وَمَا القَمَرُ وَمَا الفَرْقَدَانِ وَمَا النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ؟

فَقَالَ: **أَنَا الشَّمْسُ وعَلِيٌّ القَمَرُ والحَسَنُ والحُسَيْنُ الفَرْقَدَانِ فَإِذَا افْتَقَدْتُمُونِي فَتَمَسَّكُوا بِعَلِيٍّ بَعْدِي وإِذَا افْتَقَدْتُمُوهُ فَتَمَسَّكُوا بِالحَسَنِ والحُسَيْنِ وأَمَّا النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ فَهُمُ الأَئِمَّةُ التِّسْعَةُ مِنْ صُلْبِ الحُسَيْنِ تَاسِعُهُمْ مَهْدِيُّهُمْ ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وآله إِنَّهُمْ هُمُ الأَوْصِيَاءُ والخُلَفَاءُ بَعْدِي**

---

(١) كفاية الأثر، الخزاز القمي: ص ٥٣

أَئِمَّةٌ أَبْرَارٌ عَدَدَ أَسْبَاطِ يَعْقُوبَ وحَوَارِيِّ عِيسَى قُلْتُ فَسَمِّهِمْ لِي يَا رَسُولَ الله قَالَ أَوَّلُهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وبَعْدَهُ سِبْطَايَ وبَعْدَهُمَا عَلِيٌّ زَيْنُ العَابِدِينَ وبَعْدَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بَاقِرُ عِلْمِ النَّبِيِّينَ والصَّادِقُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ وابْنُهُ الكَاظِمُ سَمِيُّ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ والَّذِي يُقْتَلُ بِأَرْضِ الغُرْبَةِ ابْنُهُ عَلِيٌّ ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ والصَّادِقَانِ عَلِيٌّ والحَسَنُ والحُجَّةُ القَائِمُ المُنْتَظَرُ فِي غَيْبَتِهِ فَإِنَّهُمْ عِتْرَتِي مِنْ دَمِي ولَحْمِي عِلْمُهُمْ عِلْمِي وحُكْمُهُمْ حُكْمِي مَنْ آذَانِي فِيهِمْ فَلَا أَنَالَهُ اللهُ شَفَاعَتِي.(١)

و منها: التنصيص من الإمام السابق على الأئمة اللاحقين بأسمائهم أو صفاتهم، أو خصوص الإمام اللاحق، أو الإشارة إليه بما لا يقبل الشك، لمن يقف على القرائن الحالية والمقالية.

شواهد صدق هذه النصوص

و هذه النصوص محفوفة بالقرائن تجعلها يقينية حتى لو كان سند بعضها ضعيفاً، فإنّ الخبر الواحد قد يوجب اليقين العقلائي حينما يحتفّ بقرائن موضوعية، يُصَعِّد احتمال الصدور إلى درجة القطع واليقين.

فمن القرائن: نفس البرهان العقلي الذي مرّ في المنهج الأول من عدم إمكان انطباق أوصاف الإمام اليقينية إلا على أولئك الاثني عشر، فمثلاً إذا كانت الإمامة أُخذ في تعريفها الجعل الإلهي، فكل من لاتُعزى إمامته للنص الإلهي يكون مرفوضاً رفضاً باتاً، فإنّ جعل أمر الإمامة بيد الأمة هو عزل الله تعالى عن الحكم وإنكار لربوبيته.

ومنها: وجود الارتكاز البديهي من المسلمين بكونهم عليهم السلام ورثة علم الكتاب وحاملين لعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وخلفاءه الشرعيين، كما مرّ في المنهج الثاني.

---

(١) كفاية الأثر، الخزاز القمي: ص ١٤١.

ومنها: النصوص العامة الدستورية التي لاتنطبق إلا عليهم، فإنّ دور النصوص الخاصّة إنّما هو تفسير وتطبيق النصوص العامّة الدستورية، وحينما نرى أنّ النصوص الخاصّة على كلّ إمام توافق بنود الدستور الفوقاني، بل لو تتبّعنا قليلاً وجدنا أنّها لاتنطبق إلا عليهم، فهذا يشكّل قرينة قطعية على صحّة هذه النصوص، فتكون يقينية.

ومنها: علمنا بوجود الظروف الأمنية المشدّدة في بعض الأحيان، ممّا يجعل التصريح بالإمام اللاحق معرّضاً لقتله من قبل السفاكين، ففي مثل هذه الظروف الأمنية الحسّاسة، تكون الإشارة بحكم النص الصريح لمن يعرف مثل تلك الظروف، فإنّ العاقل تكفيه الإشارة، ولايتوقّع في مثل هذا الظرف أن يصرَّح ويباح باسمه فيخاطر بنفس الإمام عليه السلام.

ومن هنا ترى المحدّثين جمعوا النصوص والإشارات على الأئمة كما صنعه ثقة الإسلام الكليني في الكافي، فالإشارة في مثل هذه الظروف تكون بمثابة النص الصريح.

المنهج الرابع: المعجزات

فإنّ كون منصب الإمامة، منصباً رسمياً إلهياً، وخلافة له في الأرض، يسبّب في أن يكون إثباته بالمعجزة تارة كما كان في النبوّة، كما أنّ الله تعالى أعطى لطالوت وهو حاصل على مقام الملك الإلهي دون النبوة آية بيّنة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وآلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ المَلائِكَةُ**﴾.(١)

و هذه المعجزات ظهرت منهم بكثرة، فهي متواترة بالتواتر المعنوي، ورواها الكثير من أعلام الفريقين، وقد جمعها الشيخ حر العاملي في كتابه (إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات) والسيد هاشم البحراني في كتابه (مدينة المعاجز) وغيرهما الكثيرون.

---

(١) البقرة: ٢٤٨.

توضيح وتعقيب في أدلة الإمامة الخاصة

كل واحد من هذه المناهج يولد اليقين، وإذا انضم بعضها إلى بعض فيكون يقيناً من الدرجة العالية، فيصبح ضروريا من ضروريات الدين، ومن الخطأ أن تقصر نظرك على قطعة من الدليل فتظهره بصورة ظنية، وهذا ما وقع فيه البعض، فيبعّض الدليل ويحولّه لقطعات متناثرة وغير مرتبطة بعضها ببعض، بل يقطع العلاقة بين المحكمات التي تشكّل أصلاً دستورياً، ويركّز نظره على جزئي من قطعة من الدليل، فيظهره بصورة الظن.

و هذه غفلة منهجية في نظام المعرفة، فإنّ المعرفة تبدأ من اليقينيات والمحكمات، ومنها تتنزّل للجزئيات والتفاصيل، فالأصل والأساس إنما هي الأصول الدستورية، كأدلة الإمامة العامّة غير الممكن انطباقها على غير الاثني عشر، وحديث الثقلين وآية التطهير وحديث خلفائي إثني عشر وغيرها، ثمّ على ضوء هذه البنود الدستورية العامّة يبحث عن تفاصيل أكثر جزئيّة، وعلى ضوء ذلك؛ تكون النصوص الخاصّة والمعجزات الصادرة بمثابة التفسير لتلك الأصول العامة الفوقانية وتابعة لها، وليس حاكماً وأصيلاً في نظام المعرفة.

طريق أهل الزيغ في نصوص الإمامة الخاصّة

و مشكلة أهل الزيغ الذي كشف عنها القرآن في الآية السابعة من آل عمران؛ هي قطع علاقة المحكمات بالمتشابهات، وإعطاء دور مستقل للمتشابهات في التأصيل المعرفي الديني، والمتشابهات هي الأدلّة المتأخّرة رتبة عن المحكمات في الإحكام والدلالة والحجيّة.

أهل الزيغ دائماً يحاولون التفكيك بين هذه القطعات المترابطة من الدليل، كيما

يحصل الباحث على المحكمات، وهذا نظير من يخاف من تجميع أخبار آحاد مخافة حصول التواتر، فإنّ القطع الحاصل في التواتر إنما حصل من ضمّ أخبار الآحاد سواء كان قوياً أم ضعيفاً، فالحيلولة دون انضمام بعضها لبعض، وإعطاء الاستقلال لكلّ واحد منها، محاولة لعدم حصول التواتر، وهو طريق أهل الزيغ.

فترى أحدهم يُظهر نفسه بمظهر العالم المحقّق - وهو أبعد ما يكون عنه - ويقول: ائتني بحديث واحد صحيح السند، يدلّ على كذا! هذا منهج أهل الزيغ، فإنّ الإمامة لاتثبت بخبر الواحد ولا عشرة أخبار، فإنّ الدين وأصوله لايثبت بالخبر الواحد الصحيح، بل لابد أن تكون له جذور قوية في المحكمات، ثم تصل الدور للفروع فتثبتها بأخبار الخاص والآحاد، لابد أن تكون الابتداء من المحكمات كحديث الثقلين وغيره، ثم يصل النوبة للأحاديث الخاصة، والأحاديث الخاصة ليست هي الأصل، بل هي شارحة ومفسرة للأصل، فالذي يريد أن يجعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً هو من أهل الزيغ، وهو خلاف موازين الاستدلال في نظام المعرفة.

الأسئلة

١ - ابحث عن النصوص الخاصة على إمامة الأئمة الاثني عشر في مصادر الفريقين، واذكر قائمة إجمالية عنها حسب تتبعك.

٢- ما هو المراد بالخبر المحفوف بالقرائن؟

٣- كيف ينشأ اليقين من النصوص الواردة في إمامة الأئمة الاثني عشر؟

٤- ما الدليل على إثبات الإمامة بالمعجزة؟

٥- ما هي الطريقة الصحيحة في الرجوع لأدلة الإمامة الخاصة، وما هو طريق أهل الزيغ فيها؟

٦- ما هي موقعية ومرتبة النصوص الخاصة الواردة في إثبات الإمامة في منظومة الحجج؟

الدرس الثامن والثلاثون: الإمام المهدي عليه السلام

نظام الأدلة في إثبات ولادة الإمام المهدي عليه السلام

حينما نمتلك تعداداً من الأدلة لإثبات أمر ما، فلامحالة يوجد بين تلك الأدلة المتعددة نظم منطقي، وهذا النظم يمكن أن يكون على وجوه عديدة هندسية، ومعرفة هذا النظم الهندسي بين تلك الأدلة أمر بالغ الأهمية والخطورة، حيث يختل النظام المعرفي لدى الإنسان دون الالتفات إليه.

فتارة تكون الأدلة في عرض بعضها البعض، أي إن كل دليل هو مستقل عن دليل آخر بمثابة عدة جزئيات تصبّ على مورد واحد.

وأخرى يكون بعضها في طول بعضها الآخر، أي إن هنالك دليلاً فوقانياً يكون بمثابة الأصل والسند والمرجع لدليل آخر، يكون مثبتاً لتفاصيل ذلك الأصل الفوقاني، فالدليل الأول يتكفل لإثبات أصل ذلك الشيء بغض النظر عن تفاصيله الجزئية، والدليل الثاني لإثبات تفاصيل وجزئيات ذلك الأصل.

و الدليل المتكفل لإثبات ذلك الجزئي أيضاً يثبت الأمر الكلي، لأن ثبوت شيء لشيء فرع ثبوت المثبت له، إلا أنّ همّه الأول هو إثبات الجزئي من ذلك الكلي، وأما إثبات أصل ذلك الكلي من دون خصوصياته المشخصة فهو من وظائف الدليل المثبت للكلي.

وهذه السلسلة قد تترامى إلى أكثر من طبقة واحدة، فيكون الدليل في كل مرتبة

متكفلاً لإثبات جزئي من جزئيات ذلك الكلي الفوقاني، وهذا الجزئي يكون جزئياً إضافياً، ليأتي دليل آخر ويشخّصه أكثر، وهكذا حتى ينتهي إلى فرد واحد.

ثم الدليل في كل مرتبة قد يتعدد عرضاً، فيكوّن ترامي الأدلة عرضاً وطولاً وبالاختلاف، والمهم تشخيص طبقات الدليل وتمييز بعضها عن بعض الآخر.

ففي مسألتنا نحن - وهي مسألة إثبات ولادة الإمام المهدي عجل الله فرجه - هنالك أدلة تدل على وقوع الولادة في الزمان والمكان الخاص الجزئي من الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وهنالك أدلّة دالّة على الأصل والكلي الذي يرجع إليه هذا الجزئي، أي ضرورة وجود الإمام في كل عصر وزمان، وعدم خلو الأرض من الحجة، وأدلّة على أنّ الإمام لابد وأن يكون معصوماً، ومن عترة رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن ولد فاطمة عليها السلام، ومن ولد الحسين عليه السلام، كما أن هناك أدلة على أنه من ولد السجاد، والباقر والصادق والكاظم والرضا والتقي والهادي والعسكري عليهم السلام.

وقد ظن البعض ممن لاخبرة له في مباحث المعرفة ومعرفة طبقات الأدلة، أنّه لو استطاع أن يناقش في الأخبار الواردة في بيان تفاصيل أحداث الولادة الميمونة للإمام المهدي عجل الله فرجه، فقد ناقش في أصل وجود الإمام المهدي عجل الله فرجه وأبطل هذا الأصل الشيعي الاثني عشري، وهذا خطأ كبير وخبط وخلط.

بل إنّ أدلة أصل الإمامة وعدم خلو الأرض من الإمام، أقوى وأكثر وأقدم من أدلة تشرح لنا تفصيل ذلك الكلي، وكذلك ما دلّ على أنه معصوم ومجتبى ومنصوص عليه، وأنّه من أهل بيت الرسول في سلسلة طولية من أولاد الأئمة الماضين عليهم السلام، ثم تأتي أدلّة تتحدث عن تفاصيل الحدث الجزئي في رتبة متأخرة عن أدلة إثبات أصل ذلك الكلي، فإنّه قبل أن يثبت لنا وجود ذلك لايصح الاستدلال على جزئياته وتفاصيله.

إن مسألة الإمامة وكونها إلهيّة ومنصوصة عليها من الله تعالى والرسول ﷺ وعدم خلو الأرض من الإمام، وكونه الهادي بالهداية الإيصالية لكل قرن وزمان، من محكمات الدين، والأدلة عليها كثيرة ومفعمة وقاطعة للعذر، وكذلك حصر الإمامة بالعترة الطاهرة، والنصوص الوحيانية الدالة على مجيء المهدي وأنه الثاني عشر من الأئمة وأنه التاسع من ولد الحسين، والثامن من ولد السجاد والسابع من ولد الخامس، والسادس من بعد الصادق والخامس بعد الكاظم وأنه من ولد علي بن موسى الرضا ومحمد الجواد وعلي الهادي والحسن العسكري عليهم صلوات الله.(١)

طوائف وأنماط الأدلة الوحيانية على ولادة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف

ثمّ إنّه لانزاع بين طوائف المسلمين في أنّ الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف سيظهر ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، بل ظهور المنجي في آخر الزمان مما أجمعت عليه جميع الأديان والملل المختلفة، والذي يميّز المذهب الإمامي الاثني عشري عن سائر المذاهب والأديان في العقيدة المهدوية هو: الاعتقاد بكون المهدي هو ابن الإمام الحسن

---

(١) وفي صياغة قانونية لهذا المطلب يقال: إن التقنين الدستوري هو الأصل والأساس لسائر سلسلة القوانين النازلة، من قوانين نيابية ووزارية وبلدية وإلى أن يصل الدور إلى قوانين وقرارات في دائرة محدودة.

فكلّ قانون في رتبة نازلة له أصل في الرتبة السابقة إلى أن تجد أصل الأصول في دستور البلد، وكل قانون لاتجد له أصلاً في الدستور والقانون الأساسي فلايكون مشروعاً ولا يجوز العمل به، لكن المناقشة في القانون الجزئي التفصيلي لايمكن أن تؤدي لزعزعة الأصل الدستوري المحكم والثابت في مراحل سابقة وبأدلّة مفعمة، نعم إنّه نقاش في تطبيق ذلك الأصل الدستوي في هذا القالب المعين، فيبقى علينا إيجاد قالب قانوني آخر يتكفّل بذلك البند الدستوري المحكم.

و من السذاجة من يزعم أنّه إذا ناقش في القانون النيابي المنحدر من الأصل الدستوري أو الوزاري أو البلدي أو الإداري، فقد ناقش في أصل الدستور وأبطل ذلك البند المحكم الموجود في دستور البلد، إنها قلة الوعي بعلم القانون ومراتب التقنين.

العسكري عليه السلام وهو الثاني عشر من خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد غاب عن أعين الظالمين، وأعطاه الله تعالى العمر الطويل وهو الآن متصدٍ لمنصب الإمامة والهداية الإيصالية وتدبير أمورهم بطرق خفية، إلى أن يخرج فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً.

فنقول: هنالك أصول أساسية تكلّمنا فيها في الفصول السابقة:

أنّ الإمامة من أصول الدين، وأنّ «**مَنْ مَاتَ ولَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّة**».و أنّ الموجب للخروج عن الموت الجاهلي هو معرفة الإمام الحي والعقيدة به والبيعة له، ومن الواضح أنّ الموت الجاهلي يعني موت الكفر، ومعه لاتنفع جميع الأعمال ولاتوجب النجاة الأبدية، وكما مر انّ هذا الحديث لاينطبق إلا على الإمام المعصوم الذي يكون له منصب إلهي ويكون خليفة الله تعالى في أرضه والممثل للدولة الإلهية، ليكون عدم الاعتراف به إنكاراً لسيادة الله تعالى وكفراً بربوبيته.

أنّ الأرض لا تخلو من حجة إلهية إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته، ولزوم تعطيل الدين في صورة انعدام الإمام واضح، فإن الوحي لايبقى الا بحفظ وحياني، ولو كان الحافظ للدين غير الإمام المتصل بالوحي والمؤيد بروح القدس لبطل الدين ولتعطلت حجج الله تعالى وبيناته، كما مر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**اللهُمَّ بَلَى لَا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لله بِحُجَّةٍ إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً وإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ الله وبَيِّنَاتُه**».

كما يلزم التفويض في حالة انعدام الممثل للدولة الإلهية في الأرض، فان سيادة أية دولة لاتتكفل باعطاء قوانين وتشريعات وإيكال الجهة التنفيذية للناس، والجهة التنفيذية لاتقبل التعطيل ساعة واحدة، فإن القانون يمكن أن يتصور بقاؤه بعد موت

المقنن، أو عدم الحاجة لتصرف المقنن والمشرّع بعد التقنين والتشريع، لكن الجهة التنفيذية لامناص عنها في كل آن ولحظة، وعدم فاعليتها تعني انعزال الدولة وتعطيلها، فإنكار وجود الإمام الحي القائم بالأمر يرجع للتفويض وتعطيل ربوبية المولى ومولويته تعالى عن ذلك وتقدّس.

هذه الأصول تحتّم علينا أنّ سلسلة الأئمة عليهم السلام لم تنقطع باستشهاد الإمام الحسن العسكري عليه السلام، فيكون وجود الإمام الحي القائم بأمر الإمامة من بعد استشهاده (سلام الله عليه) إلى يومنا هذا من محكمات العقل والقرآن والتوحيد والإسلام.

كما عندنا أصول موضوعية أخرى أيضاً ثبتت عندنا بالدليل القطعي:

- حديث الثقلين، فإنّه كما مرّ يثبت وجود رجل من العترة هو عدل القرآن، وأنّه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ولايفترق عن الكتاب حتى يرد على رسول الله صلى الله عليه وآله عند حوض الكوثر في المحشر، والتمسك به مع القرآن عاصم عن الضلال، فنعلم أنّ ذلك الأصل المحكم يكون في أهل بيت النبي وعترته (صلى الله عليهم أجمعين)، فتثبت إمامة رجل من العترة إلى يوم القيامة، وتبطل إمامة كل من ليس من العترة.

- حديث (خلفائي اثنا عشر) وأحاديث حصر الأئمة في هذا العدد المعيّن، فإنّه كما مرّ يثبت أنّ هذا الإمام من العترة يكون تكملة الإثني عشر.

ـ الأحاديث الواردة في أنّ المهدي من أهل البيت ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وآله ومن فاطمة عليها السلام، ومن أمير المؤمنين عليه السلام إلى الإمام العسكري عليهم السلام، هذه الروايات مفسرة للأدلة العامة، ومؤيدة بالقرائن المفيدة لليقين.(١)

(١) راجع الملحقات: ملحق رقم (٢٣)

القرائن والشواهد على صدق هذه الأحاديث

رغم أنّ تلك الأدلّة والأحاديث على ولادة الإمام المهدي عجل الله فرجه وإمامته من بعد الإمام الحسن العسكري عليه السلام لامجال للشك فيها، بدْءاً من أصول محكمات الدين إلى المتواترات والضروريات، إلا أنّنا نذكر قرائن وشواهد أخرى لازدياد اليقين ولتطمئن قلوب المؤمنين.

فمن الشواهد:

خوف الطغاة وتحسّسهم من ولادة المهدي عليه السلام

إنّ ما أثبته التاريخ من سعي الطغاة والحكام لقتل أهل البيت عليهم السلام وتشريدهم، دليل على أنّ هذه البشارة كانت واضحة لدى الناس، وهذا نظير ما حدث في ولادة النبي موسى عليه السلام، حيث إنّ فرعون لما أنبئ بولادة مولود يكون قضاء حكمه على يديه أخذ يقتل الأبناء ويستحيي النساء كيلا ينشأ موسى على حدّ زعمه.

و في الإمام المهدي عليه السلام تحقق هذا الخوف بأشد مما حصل لموسى عليه السلام، حيث بشّر النبي صلى الله عليه وآله بمجيء المهدي الذي سوف يزيل عروش الجبارين، فكانت المسألة بديهية عند المسلمين، كما أخبر بأن المهدي من ولد علي وفاطمة عليهما السلام وهو الثاني عشر من الأئمة في روايات عديدة أشرنا إلى بعضها، فكانت همة الظالمين ان يقطعوا هذا النسل كيلا يولد المهدي عجل الله فرجه.

والنظرة العابرة لصفحات التاريخ المسوّدة بالفجائع وجنايات أئمة الجور ضد أهل بيت النبي عليهم السلام، من القتل والسبي والتهجير والتشريد والتنكيل وسائر أساليب القمع والكبت، كافية لمعرفة حجم خوف السلطة من هذا النسل المبارك، كلها من اجل علمهم بمجيء هذا المولود، وكان كلّما اقتربت ولادة الإمام المهدي عجل الله فرجه اشتدّت الرقابة

الأمنية، إلى أن دس بعض خلفاء بني العباس بناتهم في بيوت الأئمة كالإمام الجواد عليه السلام، ليكون كل شيء تحت الرقابة، إلى أن سُجن الإمام الهادي والعسكري في وسط المعسكر (عليه السلام) في أشد السجون حراسة، تحت الرقابة المحدقة.

خفاء الولادة

كل هذه الأمور وغيرها استدعت خفاء الولادة حراسة وحفظاً، وهو دليل على بداهة ووضوح الأمر لدى الناس عموماً الأمر الذي استدعى هذا المقدار من التستر.

و ذلك أن خفاء بعض الأحداث تارة من أجل قلة اهتمام الناس بها فيغيب عن ذاكرة التاريخ ولايعبأ به، وأخرى لشدة اهتمام الناس بها مع تحسسهم منها، وبالذات تحسس الطغاة والسلاطين، وذلك لاشتهار الحدث عندهم فيخاف على صاحب الواقعة من أن يصل إليه المكروه والسوء، فيتستر ويخفى عن اعين الناس.

هذا النمط من الخفاء دليل وشاهد على كون القضية معروفة ومشتهرة بين الناس ولايمكن التغاضي عنها، كما مرّ نظيره في قصة نبي الله موسى عليه السلام، حيث أثيرت حفيظة آل فرعون من ولادة موسى عليه السلام فاستدعى الأمر خفاء ولادته، حيث كان فرعون يذبح الأبناء ويستحيي النساء.

فنخرج بنتيجة: أن الخفاء الذي يكون عائقاً أمام تدوين المسألة في التاريخ إنما هو الخفاء من النمط الأول، أما الثاني فهو لازم كون المسألة محل عناية وتوجه والتفات الناس وأرباب التاريخ بحيث لو لم يُخفَ عليه ويتستر، يُخاف عليه من الأعداء.

إخبار الإمام العسكري بولادة ابنه المهدي عليهما السلام.

فقد أخبر بولادة ابنه الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف لجماعة كثيرة، نذكر واحداً منها:

روى الصدوق والشيخ الطوسي وغيرهما عن معاوية بن حكيم ومحمد بن أيوب بن نوح ومحمد بن عثمان العمري رضي الله عنه قالوا:

عَرَضَ عَلَيْنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عليهما السلام وَنَحْنُ فِي مَنْزِلِهِ وَكُنَّا أَرْبَعِينَ رَجُلًا، فَقَالَ: **«هَذَا إِمَامُكُمْ مِنْ بَعْدِي وخَلِيفَتِي عَلَيْكُمْ، أَطِيعُوهُ ولَا تَتَفَرَّقُوا مِنْ بَعْدِي فِي أَدْيَانِكُمْ فَتَهْلِكُوا، أَمَا إِنَّكُمْ لَا تَرَوْنَهُ بَعْدَ يَوْمِكُمْ هَذَا»**.

قَالُوا فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ فَمَا مَضَتْ إِلَّا أَيَّامٌ قَلَائِلُ حَتَّى مَضَى أَبُو مُحَمَّدٍ عليه السلام.[1]

من شهد برؤية الإمام المهدي عجل الله فرجه من أصحاب الأئمّة عليهم السلام وغيرهم

شهد برؤية الإمام المهدي عليه السلام في حياة أبيه العسكري عليهما السلام وبإذن منه عدد من أصحاب العسكري وأبيه الهادي عليهم السلام، كما شهد آخرون منهم ومن غيرهم برؤية الإمام المهدي بعد وفاة أبيه العسكري عليهما السلام وذلك في غيبته الصغرى التي ابتدأت من سنة (٢٦٠هـ) إلى سنة (٣٢٩هـ).

فمنهم إبراهيم بن إدريس أبو أحمد، وإبراهيم بن عبدة النيسابوري، وإبراهيم بن محمّد التبريزي، وإبراهيم بن مهزيار أبو إسحاق الأهوازي، وأحمد بن إسحاق بن سعد الأشعري وجماعة كثيرة آخرون.

شهادة وكلاء المهدي عجل الله فرجه ومن وقف على معجزاته عليه السلام برؤيته

لقد وقف على معجزات الإمام المهدي عجل الله فرجه جماعة كثيرون، وكان له عليه السلام وكلاء في بلدان شتى، ذكرهم الصدوق وغيره مع تسمية بلدانهم، وقد بلغوا من الكثرة حدّاً

---

(١) الشيخ الصدوق، كمال الدين: ج١ ص ٤٣٥ والأمالي ص ٥٤١، والشيخ الطوسي، الغيبة: ص ٣٥٧.

يمتنع معه اتّفاقهم على الكذب، لاسيّما وهم من بلدان شتّى[١].

شهادة الخدم والجواري والإماء برؤية المهدي عليه السلام

كما شاهد الإمام المهدي عليه السلام من كان يخدم أباه العسكري عليه السلام في داره مع بعض الجواري والإماء، كطريف الخادم أبي نصر، وخادمة إبراهيم بن عبدة النيسابوري التي شاهدت سيّدها الإمام المهدي عليه السلام، وأبي الأديان الخادم، وأبي غانم الخادم وغيرهم.

تصرّف السلطة بعد ولادة الإمام المهدي عليه السلام

ولد الإمام الحسن العسكري عليه السلام في شهر ربيع الآخر سنة (٢٣٢هـ)، وقد عاصر ثلاثة من سلاطين بني العبّاس وهم: المعتز (ت٢٥٥هـ)، والمهتدي (ت ٢٥٦هـ)، والمعتمد (ت ٢٧٩هـ).

ومن مواقف المعتمد الخسيسة أمْرُهُ شرطته بعد وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام مباشرة بتفتيش داره تفتيشاً دقيقاً والبحث عن الإمام المهدي عليه السلام والأمر بحبس جواري أبي محمّد عليه السلام واعتقال حلائله، كلّ هذا والإمام المهدي في الخامسة من عمره الشريف، فأيّ خطر يهدّد كيان المعتمد في مولود يافع لم يتجاوز من العمر خمس سنين؟! لو لم يدرك أنّه هو المهدي المنتظر الذي رسمت الأحاديث المتواترة دوره العظيم بكلّ وضوح، وبيّنت موقفه من الجبابرة عند ظهوره.

اعترافات علماء الأنساب بولادة الإمام المهدي عليه السلام

١ - النسّابة الشهير أبو نصر سهل بن عبد الله بن داود بن سليمان البخاري من أعلام القرن الرابع الهجري، كان حيّاً سنة (٣٤١هـ)، وهو من أشهر علماء الأنساب

---

(١) راجع الملحقات: ملحق رقم(٢٤).

المعاصرين لغيبة الإمام المهدي الصغرى التي انتهت سنة (٣٢٩هـ).

قال في سرّ السلسلة العلوية:

«وولد علي بن محمّد التقي عليه السلام: الحسن بن علي عليه السلام من أُمّ ولد نوبية تدعى: ريحانة، وولد سنة إحدى وثلاثين ومائتين وقبض سنة ستّين ومائتين بسامراء، وهو ابن تسع وعشرين سنة..وولد علي بن محمّد التقي عليه السلام جعفراً وهو الذي تسمّيه الإماميّة جعفر الكذّاب، وإنَّما تسمّيه الإماميّة بذلك؛ لادّعائه ميراث أخيه الحسن عليه السلام دون ابنه القائم الحجة عليه السلام، لا طعناً في نسبه».

٢ - السيّد العمري النسابة المشهور من أعلام القرن الخامس الهجري قال ما نصّه:

«ومات أبو محمّد عليه السلام وولده من نرجس عليها السلام معلوم عند خاصّة أصحابه وثقات أهله وسنذكر حال ولادته والأخبار التي سمعناها بذلك، وامتُحن المؤمنون بل كافّة الناس بغيبته، وشره جعفر بن علي إلى مال أخيه وحاله فدفع أن يكون له ولد، وأعانه بعض الفراعنة على قبض جواري أخيه».

٣ - الفخر الرازي الشافعي (ت ٦٠٦هـ)، قال في كتابه الشجرة المباركة في أنساب الطالبية تحت عنوان: أولاد الإمام العسكري عليه السلام ما هذا نصّه:

«أمَّا الحسن العسكري الإمام عليه السلام فله ابنان وبنتان: أمَّا الابنان، فأحدهما: صاحب الزمان عليه السلام، والثاني موسى درج في حياة أبيه، وأمَّا البنتان: ففاطمة درجت في حياة أبيها، وأُمّ موسى درجت أيضاً».

الأسئلة

١- ما هو النظم المنطقي بين الأدلة الواقعة في طول بعضها البعض، وهل النقاش في الفرع يوجب النقاش في الأصل؟ وما هو الأصل والفرع في طوائف الأدلة على الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف؟

٢- ما هو وجه دلالة حديث «**من مات ولم يعرف...**» على ولادة ووجود الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف؟ ولماذا لايمكن أن نطبق الحديث على غير الإمام الثاني عشر عجل الله فرجه الشريف؟

٣- ما هي علاقة توحيد الله تعالى في الحاكمية بوجود الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف ودوام إمامته؟

٤- كيف يُستدل بحديث الثقلين على وجود الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف؟

٥- اذكر نبذة من الأحاديث الخاصة الناصة على إمامة الإمام الثاني عشر من مصادر الفريقين.

٦- كيف يتم حصول اليقين من الخبر المحفوف بالقرائن؟ واذكر بعض القرائن على صدق أخبار ولادة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف.

الدرس التاسع والثلاثون: غيبة الإمام المهدي عليه السلام

الحراسة الإلهيّة

هنالك أمران يستدعيان الغياب حسب أدبيات علوم الأمن والاستراتيجيات المعقّدة:

١- حينما يكون عندك مشروع عظيم جداً يطال أصحاب القدرة والثروة في العالم، فبطبيعة الحال أنهم لايستطيبون وجودك وبقاءك وحياتك، فإن كان مشروعك - والحال هذا - بحاجة إلى مضي زمان لتهيئة الأرضية أو أي شيء آخر، فلابد أن تعرف لغة الأمن وتستخدمها بجدراة كي لايفشل المشروع في أيام الانتظار لبلوغ زمان القيام به.

فيكون الخفاء في هذه الحالة، من أهمّ أساليب حفظ القوة، فتكون الغيبة هنا حراسة أمنية، والعمل تحت هذه الحراسة المشددة حتى يبلغ الكتاب أجله وتحين غايته.

٢- من يعرف لغة الأمن يعرف بأن مركز القدرة ليس في السطح المعلن والظاهر، وإنما الموجود في السطح والعلن في الغالب له خيارات محدودة وصلاحيات في المسائل ذات الأهمية المتوسطة، وأما أصحاب القرار الرئيسي الذين تكون بيدهم الأمور المفصلية الاستراتيجية ذات الأهمية العالية فهم مجهولو الهوية ولايعرف أحد صفتهم، فيكون بيدهم المسار الأصلي والخطوط العامة.

و من هنا فيمكن أن نفسّر الغيبة بأنّها حراسة إلهية للإمام الموعود بأنه سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، والحاصد فروع الغي والشقاق، والطامس آثار

الزيغ والأهواء، وقاطع حبائل الكذب والافتراء، وصاحب يوم الفتح وناشر راية الهدى، فبطبيعة الحال يكون لهذا المشروع الكبير أعداء ومناوئون من أصحاب القدرة والثروة والسلطان، هذا من جانب.

ومن جانب آخر أنه مع المجموعة الملتفة حوله هم أصحاب القرار الحقيقي في السياسات والاستراتيجيات ذات الأهمية العالية في عصر الغيبة.

كل هذا يستدعي أن تكون الحراسة المحدقة به عالية الجودة، كما ورد في الدعاء:

اللهُمَّ أَعِذْهُ مِنْ شَرِّ كُلِّ بَاغٍ وَطَاغٍ وَمِنْ شَرِّ جَمِيعِ خَلْقِكَ وَاحْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَاحْرُسْهُ وَامْنَعْهُ أَنْ يُوصَلَ إِلَيْهِ بِسُوءٍ وَاحْفَظْ فِيهِ رَسُولَكَ وَآلَ رَسُولِك.[١]

عدم تعطيل أدوار الإمام بالغيبة

على ضوء ما مرّ في تعريف مقام الإمامة من أنّه يمثّل الجهة التنفيذية للحكم الإلهي وأنّ الإمام هو خليفة الله تعالى في أرضه وهادي الناس بالهداية الإيصالية ويطبّق السياسات الإلهية على الأرض، فلايمكن أن تكون غيبة الإمام بمعنى تجميد دوره وتعطيل عمله بوجه من الوجوه، إنّه يرجع للتفويض وانعزال الله تعالى عن ربوبيّته إن لم يكن تطبيق القوانين المشرّعة في القرآن للمجتمع الإنساني والعالم المادي بيد خليفة الله تعالى والمنصوب منه لتنفيذ هذه المهمّة.

و من هنا فغيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف إنما هي غيبة شعور وليست غيبة حضور، بمعنى أنّه غائب عن شعور الناس له وإحساسهم المادي المرئي والمسموع، لكنه حاضر وقائم بأدوار الإمامة في هذه الساعة وفي كلّ ساعة، فإن الغيبة ليست في مقابل الحضور، وإنما

(١) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي ٤٠٥.

في مقابل الظهور والشعور، ومن عرّف الغيبة بانجماد دور الإمامة في الهداية والتدبير فقد أبطل ربوبيّة الربّ تعالى دون أن يشعر بذلك.

و لكي تتّضح فكرة غيبة الإمام الثاني عشر عليه السلام، علّينا أن نتأمّل في نماذج من حجج الله تعالى الذين عاشوا حياتهم أو فترة منها غائبين عن الناس، ومع ذلك كانوا في قمّة نشاطهم وأداء مسؤولياتهم الإلهية، كما في غيبة موسى ويوسف(١) وإبراهيم وصالح وإدريس وغيرهم من الأنبياء (على نبينا وآله وعليهم السلام).(٢)

(١) غيبة يوسف كانت عن أخص خواصه بل عن أبيه يعقوب، فحينما تأكد الخطر المحدق بولي الله تعالى قام الله تعالى بحراسته حراسة خاصة وغطاء ستير، وهذه خطة أمنية في دولة الله، وقد حفظ الله تعالى وليه بأسباب عادية، بل نفس المخطط الذي رسمه الأعداء لتصفية المصلح قلبها الله تعالى لحراسة المصلح ووصوله إلى منصة الظهور والاستخلاف في الأرض، والبشر حينما يجهل مقام حجة الله تعالى لايهتم به، كما قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ فهذا تعامل البشر مع يوسف وهو المصلح والمنقذ لهم من الأزمات حيث لايعرفونه، بل حتى ما كانوا يعرفون أن هناك نبياً ومصلحاً وهو رسول وإمام على مستوى النظرية، فكيف بالتطبيق، فالغيبة غيبة شعور كما قال تعالى ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وليست غياب الدور، ولاغيبة التعاطي والارتباط.
فيوسف عليه السلام قام بدوره الخطير حيث حول النظام الفرعوني الكافر القائم على تهميش الطبقة المحرومة عن الثروات إلى نظام إيماني إلهي مع بسط العدل والقسط، فلو لم يكن قيام يوسف بدوره الخطير في مصر من دون أن يعرف أحد أنه صاحب مشروع عظيم،كان ذلك النظام سيؤدي بالبشرية إلى الهلاك والقحط والمجاعة وأزمة اقتصادية للبشرية، ولم يكن البشر يعرف كيفية المقابلة مع هذه الأزمة على مستوى النظرية فكيف بالتطبيق، كل هذا دون أن يعرفه أحد أو يشعر به، وليس فقط أنجى مصر من الكفر والقحط بل البلاد الأخرى فإن مصر كانت مركز تموين ما حواليها من البلدان.
فلولا هؤلاء الحجج الإلهية لعصب النظام البشري وقصم وفصم نتيجة فساد وظلم وعنجهية الجبابرة التي تفت مخالبهم بالنظام الاجتماعي والسياسي والأسري.
نعم قبل ظهوره العلني يكون الصلاح نسبياً لكنه بعد ظهوره سيوصل الصلاح إلى سقفه الأعلى ثم يزداد علواً يوماً بعد يوم.
(٢) راجع: كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق، من الباب الأول إلى الباب السادس.
قال الشيخ الصدوق رحمه الله في سبب تأليفه لكتاب كمال الدين:

والناظر في ما ذكره القرآن من قصّة رحلة موسى والخضر عليهما السلام يعرف أنّ القيام بدور الهداية الإيصالية وتدبير نظام العالم وتحدي الطغاة وإفشال مخططاتهم الخبيثة، لايتوقف على الظهور والتصرّف العلني، بل هناك رجال سترهم الله تعالى عن سائر عباده وإنّهم ليحفظون نظام الدولة الإلهية ويأخذون بمفاصل القدرة العميقة، بكلّ خفاء وتستّر، وقد بات من أوليات علوم السياسة أنّ الغيبة والتستّر من أهم آليات بسط النفوذ والسيطرة وإعمال القدرة في العالم، وأنّها مصدر قوّة في بعض الظروف.

ظاهرة الخضر والدولة الخفية

ظاهرة الخضر لها صلة وثيقة ببقاء هذا الدين وانتشاره في أرجاء الأرض، إنها ليس الانكفاء في التصدي بل هو القطب الذي تدور حوله الرحى، إلا أنه مخفي ولايعلم من حوله بالأدوار التي يقوم بها، بل حتى النخب لايحسون بهذه الفعاليات وتداعياتها، فموسى عليه السلام رغم كونه نبياً من أولي العزم لكنه لم يكن ليدري بفعاليات الخضر، بل لم يعرف الميعاد لهذا اللقاء إلا عبر شفرات أمنية نصبها الله تعالى.

فَبَيْنَا أَنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ أُفَكِّرُ فِيمَا خَلَّفْتُ وَرَائِي مِنْ أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَإِخْوَانٍ وَنِعْمَةٍ إِذْ غَلَبَنِي النَّوْمُ فَرَأَيْتُ كَأَنِّي بِمَكَّةَ أَطُوفُ حَوْلَ بَيْتِ الله الحَرَام وَأَنَا فِي الشَّوْطِ السَّابِعِ عِنْدَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ أَسْتَلِمُهُ وَأُقَبِّلُهُ وَأَقُولُ أَمَانَتِي أَدَّيْتُهَا وَمِيثَاقِي تَعَاهَدْتُهُ لِتَشْهَدَ لِي بِالْمُوَافَاةِ فَأَرَى مَوْلَانَا القَائِمَ صَاحِبَ الزَّمَانِ صلوات الله عليه وَاقِفاً بِبَابِ الكَعْبَةِ فَأَدْنُو مِنْهُ عَلَى شُغُلِ قَلْبٍ وَتَقَسُّمِ فِكْرٍ فَعَلِمَ عليه السلام مَا فِي نَفْسِي بِتَفَرُّسِهِ فِي وَجْهِي، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ لِي: **لِمَ لَا تُصَنِّفُ كِتَاباً فِي الغَيْبَةِ حَتَّى تُكْفَى مَا قَدْ هَمَّكَ**؟ فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله قَدْ صَنَّفْتُ فِي الغَيْبَةِ أَشْيَاءَ. فَقَالَ عليه السلام: **لَيْسَ عَلَى ذَلِكَ السَّبِيلِ آمُرُكَ أَنْ تُصَنِّفَ، وَلَكِنْ صَنِّفِ الآنَ كِتَاباً فِي الغَيْبَةِ وَاذْكُرْ فِيهِ غَيْبَاتِ الأَنْبِيَاءِ** عليهم السلام. ثُمَّ مَضَى صلوات الله عليه فَانْتَبَهْتُ فَزِعاً إِلَى الدُّعَاءِ وَالبُكَاءِ وَالبَثِّ وَالشَّكْوَى إِلَى وَقْتِ طُلُوعِ الفَجْرِ ..فلما أصبحت ابتدأت في تأليف هذا الكتاب ممتثلا لأمر وليّ الله وحجته مستعيناً بالله تعالى ومتوكلاً عليه ومستغفراً من التقصير وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيب. (كمال الدين وتمام النعمة ؛ ج١ ؛ ص٣).

الأدوار التي قام بها الخضر

الأول: تعييب السفينة، وهي مهمة إنجاء البشرية في وضعها المعاشي والاقتصادي والغذائي عن فساد الإقطاعيين وإفساد الأغنياء المبْطرين، الذين يبطرون في غناهم ويمتصون ثروات الطبقات المحرومة، فهو يقوم بإيجاد حالة من التوازن والعدالة النسبية لئلا يصل الفساد الاقتصادي والتجاري في البشر إلى ذروته فيهلك المؤمنون تحت ظلم المستكبرين.

الثانى: قتل الغلام، وهي مهمة تحرير البشر من غطرسة الطغاة الذين يمنعون من إيصال نور الإيمان إليهم، والذين يصدون الناس عن الإيمان ويستضعفونهم ليختاروا الكفر.

إن مهمّة هؤلاء لاتقتصر على أفق قصير المدى أو على تداعيات مقطعية كما في النظم البشرية ذات السياسات المحدودة، بل إنها سياسات أُرسيت من قبل الله تعالى تتجاوز الحدود والآفاق القصيرة بل يلاحظ تداعياتها إلى يوم القيامة، وفي الحديث أن الله تعالى عوض عن الغلام جارية أولدت سبعين نبياً.[1]

فكان المفترض أن يترعرع طاغياً من الطغاة الذي يبلغ من طغيانه وتفرعنه أن يقهر أبويه على الكفر، فبدل هذا العاتي الطاغي ولد سبعون نبياً من أنبياء الله تعالى قاموا بإصلاح الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فضخُّ سبعين نبياً في المجتمعات البشرية كمٌّ هو مؤثر في صلاحها، وترعرع مثل ذلك الطاغي كم كان مؤثراً في فسادها، وماذا يحدث لو لم يكن الخضر قام بهذا الدور الوقائي للمجتمع.

نعم إن هنالك طغاة وجبارين سمح لهم أن يترعرعوا ويكبروا، لكن توجد خطوط

---

(١) الشيخ الكليني، الكافي ٦\٦\١٨

حمراء في الدولة الإلهية لايسمح بتجاوزها، بل في إطار محدود موافقاً لحكمة الإمهال والإملاء والابتلاء، وأما أن تكون الغلبة بيد الطغاة فهذا ما تقف أمامه الدولة الإلهية.

الثالث: بناء الجدار، وهي مهمة إيصال استحقاقات الناس إليهم وارتباط حلقات الماضي بالمستقبل، حيث كان أبو اليتيمين صالحاً، فاستحقا كنز أبيهما، فإنّ الدولة الإلهية تلاحظ وتراعي حلقات الماضي والوضع الراهن وحلقات المستقبل ضمن نسيج إعجازي باهر، ما لاتستطيع أن تؤمّنه النظم البشرية.

علاقة الإمامة بالعلم اللدني

ظاهرة العلم اللدني الذي وصف به الخضر ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾ هي التي تؤمن للإمام ومن بيده تحقيق حاكمية الله تعالى على أرض الواقع أن تتحقق هذه الحاكمية الإلهية، ومن هنا قال: ﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ**﴾. ﴿**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**﴾، فلابد من نزول أوامر سياسية وقضائية واستراتيجية واجتماعية في المنعطفات الخطيرة في مسيرة النظام البشري بل والنظام العالمي، إلى خليفة الله في أرضه.

وهذا هو مؤدى سورة القدر التي تبين إحدى تلك القنوات التي تربط الإمام بالغيب، وهذه قناة غير قناة النبوة والرسالة، فالتوحيد لايستقيم إلا بسورة القدر.

الدولة المركزية هي بيد خليفة الله تعالى

وهذا هو تفسير «**لو خلت الأرض ساعة بغير حجة لساخت بأهلها**»، فإنّ المنعطفات الخطيرة هي تحت هيمنتهم، فهم السد الحاجز أمام الفساد، وبقية الدول في العالم إنما يكون لها صلاحيات في المسائل ذات الأهمية القليلة أو المتوسطة.

كما أن بعض الدول الغنية في العالم يكون بيدها مصير الشعوب في الدول الصغيرة،

وهي تظن أن الأمور كلها بيدهم تحت راية الديمقراطية أو حرية نسبية، لكن المسار الأصلي بيد تلك الدول العظمى بالترهيب والترغيب وشتى ادوات فرض السلطة على الشعوب الفقيرة.

والمثال مع الفارق الكبير بين تلك الدول العظمى ودولة خليفة الله تعالى، فإنه ليس لجميع تلك الأنظمة والدول، بل ولجميع قوى الشر إلا التدخل في الأمور البسيطة الجزئية، وأما المنعطفات الخطيرة والأمور ذات الاستراتيجية العالية فهي تبقى بيد تلك الدولة الإلهية، ولكنها تزعم ان كل مقدرات العالم تكون تحت هيمنتها وبيدها كما يظن بعض الدول انهم إذا اسسوا مجالس نيابية ودوائر انتخابية فيكون زمام الأمور كلها بيدهم.

وهذا هو التصوير البديع الرائع عن معنى الإمامة الإلهية، فإنه تعالى لن يكتفي بإرسال الرسل وإعطاء الكتب، بل ينصّب خليفة وإماماً ينزل إلى الشارع ويتصدّى لتنفيذ وإجراء سياسات الله تعالى على أرض الواقع، وفي الحقيقة إنّ الفكر السني ابتُلي بنوع من الثنوية وعدم الاعتراف بحاكمية الله تعالى وكونه غالباً على أمره، حيث ليس لله دولة ولا لها سيادة.

وبعد الإلمام بما ذكرنا ترى أنّه لاوقع لما قد يثار من قبل بعض من أنّه ما فائدة الإمام الغائب؟ إنّ هذا التساؤل مبني على خلفية خاطئة في تعريف الإمامة الإلهية، حيث عرفوها بمقام ظاهري يتعطل بالغياب، وهذه - كما مر في مباحث الإمامة العامة - غفلة كبيرة عن حقيقة مقام الإمام وأدواره التي لاتقبل التعطيل كما لاتعطيل لحاكمية الله تعالى وولايته.

الأسئلة:

١- ما هو تفسير الغيبة ومتى تكون ضرورية بحسب العلوم السياسية؟

٢- ما هي حقيقة مقام الإمامة ولماذا لايقبل التعطيل بالغيبة، وكيف يمكن للإمام ممارسة أدواره في الغيبة؟

٣- بَيِّن حقيقة العمل السري من خلال قصة الخضر وموسى عليهما السلام.

٤- هنالك ارتباط وثيق بين تعريفنا لمقام الإمامة وبين فهم ضرورة الإمام في عصر الغيبة، اذكر تداعيات تعريف سائر المدارس الإسلامية لمقام الإمامة (التي مرت في مباحث الإمامة العامة) على مسألة فائدة الإمام الغائب.

٥- ما هي ضرورة اطلاع الإمام على تفاصيل أحداث الدنيا مما ذكر في سورة القدر؟

الدرس الأربعون: الغيبة الصغرى والغيبة الكبرى

ابتدأت إمامة الإمام الثاني عشر عجل الله فرجه بالغيبة الصغرى، وهي بدايات الانقطاع، أو فقل: برزخ فيما بين الغيبة والظهور، فالناس بصورة عامة كانوا منقطعين عن إمامهم وعن الارتباط به، فيما كان هنالك سفراء وأبواب يتوسطون بين الناس وبين الإمام عليه السلام، و كان لهم منصب النيابة الخاصة والسفير والتمثيل الرسمي عن المولى صاحب الزمان، وقد يعبر عنهم بالباب، وجدير بالذكر أنّ الباب لم يكن مختصاً بالإمام الثاني عشر، بل هنالك أبواب للأئمة عليهم السلام، بل العمري الأب كان بابا للإمام الهادي والعسكري عليهما السلام قبل الإمام الحجة عجل الله فرجه.

وامتدت فترة الغيبة الصغرى ٦٩ سنة، من ٨ ربيع الأول سنة ٢٦٠ إلى ١٥ شعبان سنة ٣٢٩، وتقلّد السفارة الخاصة في هذه الفترة كل من: عثمان بن سعيد العمري، وابنه محمد بن عثمان العمري، والحسين بن روح النوبختي، وعلي بن محمد السمري صلوات الله عليهم.

وقد قامت ضرورة المذهب على جلالة شأنهم وأمانتهم وأقرّ بفضلهم المؤالف والمخالف، بل عُدَّ الإقرار بمقامهم من علامات الإيمان، وإنكاره يوجب الخروج عن المذهب عند أعلام وفقهاء الطائفة الإمامية.

أدلة انقطاع السفارة في الغيبة الكبرى

انقطاع السفارة في الغيبة الكبرى وعدم وجود ممثل رسمي وباب فيما بين الإمام

المهدي عليه السلام وبين الناس، من ضروريات مذهب الإمامية، وقد عدّ المخالف لذلك خارجاً عن المذهب، ويدلّ عليه جملة من الأمور:

الأول: الغيبة تعني العمل السري دون وجود مظهر له في السطح الظاهر، كما مرّ نظيره في فعاليات الخضر عليه السلام، فإنّ البرمجة الأمنية المتشددة اقتضت أن ينصّب الله تعالى شفرات خاصة بين موسى والخضر، من دون أن يعلم أحد بها، حتى وصي موسى يوشع بن نون الذي كان يرافقه لم يعرف موعد اللقاء بهذه الشفرات.

فالأجواء أمنية للغاية ومتشددة والستار الأمني ضارب جذوره، فلايكتفى بأن يكون محل الوعد هو مجمع البحرين، بل يجعل انسياب السمك في البحر دليلا آخر على محل اللقاء، فلن يعرفه غير من يريد اطلاعه، قال تعالى:﴿**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۞ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا**﴾.(١)

إنّ تغييب الله تعالى لاوليائه ليس كما عند البشر بحيث تتخلله خروقات أمنية، بل إنّها حراسة إلهية لايمكن أن تخترق.

ومن هنا فإن من يدّعي أنه من رجال الغيب ومرتبط بالإمام الغائب وله صفة رسمية من قبله عجل الله فرجه، فهو كذاب لامحالة، فإن نفس دعواه هذه دليل على كذبه، فإنّ من يعرف لغة السر والمجموعات التي تعمل بخفاء، يدري بأنّ السرية والخفاء من أوليات برامج أولئك المجموعات، وأن من يريد أن يتخطى عن هذا القانون فسوف يُعفى عن منصبه بل يُعاقَب بعقوبة قد تصل إلى التصفية الجسدية كيلا يسبب الخسائر والفشل في مشروعهم.

---

(١) الكهف: ٦٣ و٦٤.

الثاني: ما ورد في متواتر الأخبار من وقوع الغيبتين الصغرى والكبرى، وهذه الروايات رويت باستفاضة عن المعصومين عليهم السلام، وقد عبر عن الثانية بالغيبة التامة حتى عن نفس الإمام صاحب الزمان.

وكل ذلك ينافي وجود الممثل الرسمي له في الغيبة الكبرى، ودلالة تثنية الغيبة على اختلاف الغيبتين القصيرة عن الطويلة بيّنة واضحة، وإلاّ لكانتا معاً غيبة واحدة لا غيبتين، واختلاف الغيبتين ليس إلاّ بوجود السفراء والنوّاب الأربعة في الأُولى دون الثانية.

و هذه الروايات المتواترة رواها الصدوق في كمال الدين، والطوسي في الغيبة، والنعماني في الغيبة، والكليني في الكافي، والتي مفادها وقوع غيبتين للإمام عجل الله فرجه، وهذه الروايات قد رويت عن الرسول صلى الله عليه وآله، وعن أمير المؤمنين عليه السلام، وعن بقيّة الأئمّة عليهم السلام .

فقد روى الشيخ الطوسي بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام - في حديث -: «**أَمَا إِنَّ لِصَاحِبِ هَذَا الأَمْرِ فِيهِ غَيْبَتَيْنِ وَاحِدَةٌ قَصِيرَةٌ والأُخْرَى طَوِيلَة**».(١)

وروى النعماني في الغيبة بسنده عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «**إِنَّ لِصَاحِبِ هَذَا الأَمْرِ غَيْبَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا أَطْوَلُ مِنَ الأُخْرَى حَتَّى يُقَالَ: مَاتَ، وبَعْضٌ يَقُولُ: قُتِلَ فَلَا يَبْقَى عَلَى أَمْرِهِ إِلَّا نَفَرٌ يَسِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَلَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ عَلَى مَوْضِعِهِ وأَمْرِهِ ولا غَيْرِهِ إِلَّا المَوْلَى الَّذِي يَلِي أَمْرَهُ**».(٢)

الثالث: إجماع وتسالم الأصحاب على ذلك، بل على كفر وضلال مدّعي السفارة من بعد السمري، وهذا التسالم والضرورة بلغ إلى حدّ أنّ الطائفة تبرأت من ابن أخ

---

(١) الغيبة للطوسي: ص ١٦٣.

(٢) الغيبة للنعماني: ص ٦١.

عثمان بن سعيد العمري (السفير الثاني) حينما ادعى السفارة ولعنته دون تريّث، مما يدل على وضوح بطلان ادعاء السفارة بعد السفير الرابع.

حكى الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة عن الشيخ المفيد، عن الشيخ أبي القاسم بن محمّد ابن قولويه - صاحب كتاب كامل الزيارات، وهو أُستاذ الشيخ المفيد، وكان زعيم الطائفة في وقته معاصراً للصدوق في أوائل الغيبة الكبرى- قال:

«وَقَدْ كُنَّا وَجَّهْنَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ البَغْدَادِيِّ لَمَّا ادَّعَى لَهُ هَذَا مَا ادَّعَاهُ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ وَحَلَفَ عَلَيْهِ فَقَبِلْنَا ذَلِكَ مِنْهُ. فَلَمَّا دَخَلَ بَغْدَادَ، مَالَ إِلَيْهِ وَعَدَلَ عَنِ الطَّائِفَةِ وَأَوْصَى إِلَيْهِ، لَمْ نَشُكَّ أَنَّهُ عَلَى مَذْهَبِهِ، فَلَعَنَّاهُ وَبَرِئْنَا مِنْهُ، لِأَنَّ عِنْدَنَا أَنَّ كُلَّ مَنِ ادَّعَى الأَمْرَ بَعْدَ السَّمُرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ فَهُوَ كَافِرٌ مُنَمِّسٌ ضَالٌّ مُضِلٌّ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ».(١)

وقد بلغت هذه الضرورة المذهبية عند الشيعة إلى حدّ صارت من معالم المذهب، ومن هنا بات أهل الخلاف يستشكلون على الشيعة بأنّه ما فائدة الإمام الغائب؟ وهذا الاشكال لاوقع له لو كان هنالك أبواباً وسفراء، فيدلّ على أنّ انتفاء الباب والسفير كان من الواضحات عند الشيعة.

الرابع: الروايات التي تبين أحداث الظهور، تشترك جميعها في مفاد واحد، ألا وهو عدم وجود ممثل رسمي للامام قبل ظهوره وقبل الصيحة السماوية.

---

(١) الشيخ الطوسي، الغيبة: ٤١٣ في ذكر أمر أبي بكر البغدادي ابن أخي الشيخ أبي جعفر محمد بن عثمان العمري، وقد نص على ضلال مدّعي السفارة وضرورة المذهب على انقطاعها كل من: سعد بن عبد الله الاشعري (المقالات والفرق) والمفيد (الإرشاد ورسالة في الغيبة) والصدوق (كمال الدين) والطوسي (في الغيبة) والنعماني وهو ابن أبي زينب تلميذ الكليني (الغيبة) وابن فتال النيشابوري (روضة الواعظين) وأمين الإسلام الطبرسي (إعلام الورى) وأبو أحمد الطبرسي (الاحتجاج) والعلامة الحلي (الرجال) ابن داوود (الرجال) والخواجة نصير الدين في (التجريد) والمجلسي (المرآة).

الخامس: الروايات المستفيضة الآمرة بالانتظار وبالصبر والمرابطة، وعدم الانزلاق مع كلّ مناد لشعار إقامة الحقّ والعدل، وكذلك روايات التمحيص والامتحان، ومقتضاها انقطاع السفارة والاتّصال، فإنّ هذه الحيرة والاضطراب ليست إلاّ للانقطاع وفقد الاتّصال، وهو مقتضى الصبر والانتظار والترقّب، وكذلك مفاد روايات التمحيص والامتحان بسبب شدّة المحنة في غيبته بفقد واسطة الارتباط، فتزداد الريبة بوجوده حتّى يرجع أكثر القائلين بإمامته عن هذا الاعتقاد، لا سيّما مع كثرة الفتن والمحن والبلاء.

فقد روى النعماني بسنده عن أبي بصير، قال: قال أبو جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام:

«إِنَّمَا مَثَلُ شِيعَتِنَا مَثَلُ أَنْدَرٍ، يَعْنِي: بَيْدَراً فِيهِ طَعَامٌ، فَأَصَابَهُ آكِلٌ فَنُقِّيَ، ثُمَّ أَصَابَهُ آكِلٌ فَنُقِّيَ، حَتَّى بَقِيَ مِنْهُ مَا لَا يَضُرُّهُ الآكِلُ. وَ كَذَلِكَ شِيعَتُنَا يُمَيَّزُونَ ويُمَحَّصُونَ حَتَّى تَبْقى مِنْهُمْ عِصَابَةٌ لَا تَضُرُّهَا الفِتْنَةُ».(١)

السادس: الروايات الخاصة المصرّحة بانقطاع السفارة الخاصة، نظير التوقيع المروي عن النائب الرابع علي بن محمد السمري، رواه الشيخ في الغيبة، ورواه الصدوق في كمال الدين قال: حدثني أبو محمد الحسن بن أحمد المكتب قال كنت بمدينة السلام في السنة التي توفى فيها الشيخ ابوالحسن علي بن محمد السمري فحضرته قبل وفاته فأخرج إلى الناس توقيعاً نسخته:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، يَا عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ السَّمُرِيَّ! أَعْظَمَ اللهُ أَجْرَ إِخْوَانِكَ فِيكَ، فَإِنَّكَ مَيِّتٌ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ سِتَّةِ أَيَّامٍ، فَاجْمَعْ أَمْرَكَ وَلَا تُوصِ إِلَى أَحَدٍ فَيَقُومَ مَقَامَكَ بَعْدَ وَفَاتِكَ، فَقَدْ وَقَعَتِ الغَيْبَةُ التَّامَّةُ، فَلَا ظُهُورَ إِلَّا بَعْدَ إِذْنِ اللهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ، وَذَلِكَ بَعْدَ طُولِ

---

(١) الغيبة للنعماني: ص ٢١١.

الأَمَدِ وَقَسْوَةِ القُلُوبِ وَامْتِلَاءِ الأَرْضِ جَوْراً، وَ سَيَأْتِي شِيعَتِي مَنْ يَدَّعِي الْمُشَاهَدَةَ، أَلَا فَمَنِ ادَّعَى الْمُشَاهَدَةَ قَبْلَ خُرُوجِ السُّفْيَانِيِّ وَالصَّيْحَةِ فَهُوَ كَذَّابٌ مُفْتَرٍ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ».

قَالَ فَنَسَخْنَا هَذَا التَّوْقِيعَ وَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ، فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ السَّادِسُ عُدْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَقِيلَ لَهُ مَنْ وَصِيُّكَ مِنْ بَعْدِكَ؟ فَقَالَ: للهِ أَمْرٌ هُوَ بَالِغُهُ، وَقَضَى، فَهَذَا آخِرُ كَلَامٍ سُمِعَ مِنْهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاه.(١)

هذا وقد ذكر الشيخ الطوسي في الغيبة عند تعرّضه لترجمة وبيان حال النوّاب والنائب الرابع السمري، خمسَ روايات لانقطاع السفارة بخمسة طرق.

الفرق بين مقام الباب ومقام الفقاهة

مقام الباب والسفير مقام خطير عند الإمامية، حيث إنّ الباب له صفة رسمية عن المولى صاحب الزمان، ويكون قوله فيما يؤدي عنه عليه السلام هو القول الفصل والمهيمن على أقوال جميع الفقهاء والمحدثين، ولخطورة هذا المقام كانت الطائفة تقوم بالتأكّد التام واختبار من يدّعي أنّه نَصّ على نيابته الخاصة، وكانوا يلعنون ويتبرؤون ممن يدّعي هذا

(١) سند التوقيع قطعي حيث رواه الصدوق عن شيخه الحسن بن أحمد المكتب القمي وهو من كبار مشايخ قم وترضى عليه الصدوق مع التشدد الذي كان يبذلها الأصحاب حول التوقيعات الصادرة لخطورتها وحساسية الوضع الأمني بخلاف آبائه عليهم السلام.و قد كان السمري معاصراً لأصحاب الكتب الحديثية فلم يتوسط بينهم وبين السمري كثير من الرواة، وقد تلقته الطائفة بالقبول من المفيد والطوسي والصدوق وابن قولويه وكلهم معاصرون للسمري أو بفاصل زمني قصير وهم أعمدة المذهب وأعلامها، وهذا ما لايقبل التزوير.

بل ان ذكر التوقيع مقرون بقرائن قطعية حيث دلت على إظهار التوقيع للناس واعلانهم بذلك ولم يكن أمراً خفياً لايطلع عليه سوى المكتب، فلو كان كذبا لم يخف على أوتاد المذهب المعاصرين للحدث لاسيما مع التشددات الأمنية في مثل هذه التوقيعات.

المقام كذباً، فتراهم عقدوا باباً في كتبهم في ذكر السفراء المذمومين، نظير ما صنعه الشيخ الطوسي والنعماني وغيرهما في كتاب الغيبة.

و الوجه في التبري ولعن مدّعي البابية والسفارة أنه:

١- دعوى التغلّب على الدولة الإلهية، كمن يدّعي لنفسه زوراً أنه الممثل الرسمي من قبل دولة معيّنة، فهذه الدعوى بعينها إعلان للحرب والمعأرضة مع تلك الدولة، إنّ المناصب الإلهية ليست باختيار الناس، وهذا هو الوجه في كفر عبدة الاصنام حيث نصبوا من عندهم وسائط فيما بينهم وبين الله تعالى من دون أن ينزل الله تعالى بها سلطانا. «**أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ ولا فِي الأَرْضِ**».(١)

٢- الباب له الهيمنة على ظواهر الكتاب والسنة، فهو بادعائه هذا المقام الخطير يجعل قوله حاكماً على الحجج الوحيانية ولو بالتاويل، لأنه يدّعي أن عنده قناة ارتباط مباشر غيبي مع صاحب الشريعة، فقوله يكون هو القول الفصل، فهو يقفز ويتمرد على ضروريات وسنن النبي صلى الله عليه وآله أو على ضروريات وأحكام مذهب أهل البيت عليهم السلام، ففي الأول كفر الإسلام وفي الثاني كفر الإيمان.

و من هنا تراهم غالبا لا يقفون عند دعوى السفارة والبابية بل يرتقون إلى دعوى الإمامة والنبوة بل الإلوهية كما في الحلاج وعلي محمد الباب وحسنعلي البهاء.

أما الفقهاء فلم يشخصوا بأسمائهم، بل بتوفر صفات كمالية علمية وعملية حتى يؤهلوا للتصدي، كما قال عليه السلام: «**فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ صَائِناً لِنَفْسِهِ حَافِظاً لِدِينِهِ مُخَالِفاً عَلَى هَوَاهُ مُطِيعاً لِأَمْرِ مَوْلَاهُ فَلِلْعَوَامِّ أَنْ يُقَلِّدُوهُ وذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْضَ فُقَهَاءِ الشِّيعَةِ لَا كُلَّهُمْ فَإِنَّ مَنْ رَكِبَ مِنَ القَبَائِحِ والفَوَاحِشِ مَرَاكِبَ عُلَمَاءِ العَامَّةِ- فَلَا تَقْبَلُوا مِنْهُمْ عَنَّا**

---

(١) يونس: ١٨.

شَيْئاً ولَا كَرَامَةً».(١)

أو قوله عليه السلام: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ كَانَ مِنْكُمْ قَدْ رَوَى حَدِيثَنَا، ونَظَرَ فِي حَلَالِنَا وحَرَامِنَا، وعَرَفَ أَحْكَامَنَا، فَارْضَوْا بِهِ حَكَماً، فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ عَلَيْكُمْ حَاكِماً**».(٢)

وهذه المنظومة الإعجازية من أئمة أهل البيت عليهم السلام تجعل الهيمنة والريادة للكتاب والسنة، وأن موقف الفقهاء لابد وأن يحكم بمحكمات الكتاب والسنة، ومن هنا فإن فقهاء الشيعة دائماً يكونون تحت رقابة شديدة في سلوكهم العلمي والعملي، فما أن يتجاوزوا الخطوط الحمراء إلا وتُسقطهم الطائفة كما حصل في الشلمغاني ونظرائه.

انقطاع السفارة لايعنى انقطاع التشرفات

مر في توقيع النائب الرابع قوله عليه السلام: «**وَ سَيَأْتِي شِيعَتِي مَنْ يَدَّعِي الْمُشَاهَدَةَ، أَلَا فَمَنِ ادَّعَى الْمُشَاهَدَةَ قَبْلَ خُرُوجِ السُّفْيَانِيِّ والصَّيْحَةِ فَهُوَ كَذَّابٌ مُفْتَرٍ**».و هذا الكلام عطف على انقطاع السفارة الخاصة، والمراد بالمشاهدة المنفية إنما هي المشاهدة على النحو الذي كان للسمري وغيره من الأبواب، فإنّ قوله: «**فَمَنِ ادَّعَى الْمُشَاهَدَةَ**».عطف على انقطاع السفارة وعدم الوصية لأحد بعده، والكلام مركّز على ادّعاء السفارة والارتباط الدائم مع الإمام عليه السلام.

أما التشرفات واللقاءات دون تمثيلٍ وصفة رسمية، فهذا موجود في كل عصر وزمان، وقد جرت سنّة المحدثين أنّهم أفردوا باباً في كتبهم لذكر قصص من التقى بالإمام المهدي عليه السلام في الغيبة.

والفرق بينها وبين السفارة هو الفرق بين الممثل الرسمي للدولة والذي يكون على

(١) وسائل الشيعة: ج٢٧ ص١٣١، أبواب صفات القاضي، باب ١٠ ح ٢٠.
(٢) الكافي: ج٧ ص٤١٢.

ارتباط دائم ودائب مع الدولة، وبين مواطن عادي اتفق له أن التقى بالملك وليست له أية صفة رسمية.

إنّ التشرفات في الغيبة الكبرى ليست باختيارْ الإنسان بل ولا الرؤية باختيار الإنسان ولا الكلام باختياره، فبقدر يؤذن له يراه ويتكلم ويعرفه ويتحرك نحوه، وهذا كيلا ييأس المؤمنون ولاينسوا إمامهم، فينشّطهم ويذكّرهم بين حين وآخر بلقاء ومشاهدة، كما حصل ذلك للعشرات من المؤمنين.

الأسئلة

١ - ما هو مقام الباب والسفير، وبماذا يميز عن مقام الفقاهة؟

٢- ما هي مدة الغيبة الصغرى ومن هم السفراء الأربعة؟ اذكر نبذة من أخبارهم.

٣- لماذا تكون دعوى النيابة الخاصة دليل على كذب المدعي في الغيبة الكبرى؟

٤- ما هي دلالة تقسيم الغيبة إلى الصغرى والكبرى على انقطاع السفارة؟

٥- اذكر بعض الشواهد على كون انقطاع السفارة في الغيبة الكبرى من ضروريات مذهب الإمامية.

٦- ما وجه حكم الطائفة بكفر وضلال والخروج عن المذهب لمن يدّعي النيابة الخاصة في الغيبة الكبرى؟

٧- ما حكم التشرفات واللقاءات في الغيبة الكبرى وما هي فائدتها؟

٨- ما هو الفرق بين التشرفات وبين السفارة؟

الدرس الواحد والأربعون: الانتظار

إجماع جميع الأديان على الانتظار

وعد الله تعالى المؤمنين - سواء من هذه الأمة أم الأمم السابقة - أن تكون لهم عاقبة الأرض، وأن يجعلهم خلفاء في الأرض والوارثين لها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.(١)

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾.(٢)

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾.(٣)

و قد اتفقت كلمة جميع الأديان السماوية على أنّه سوف يأتي يوم يذهب الشر ويمحق الباطل ويغلب الحق وتكون الغلبة للمؤمنين، وكلهم ينتظرون ذلك اليوم، بل انتظار المنتقذ للبشرية من الظلم والجور، وبسط العدل والقسط في كافة الأرض

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) النور: ٥٥.

(٣) القصص: ٥.

من المعتقدات المتجذرة لدى جميع الثقافات في المجتمعات الإنسانية المتنوعة والأديان المختلفة، من اليهودية والنصرانية والزرادشتية والبوذية وغيرها، فكلّهم يتنظرون مجيء المنقذ بعبارات مختلفة ترجع لفكرة واحدة، وكل واحد منهم يسميه باسم معين.

وأما المسلمون - بجميع فرقهم ومذاهبهم - فهم يعتقدون طراً، بأنّ المنقذ الذي يأتي في آخر الزمان هو رجل من عترة النبي صلى الله عليه وآله اسمه المهدي، وقد رووا روايات عديدة عن النبي صلى الله عليه وآله في ذلك.

قال الحافظ في فتح الباري: تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمة وأن عيسى بن مريم سينزل ويصلي خلفه.[١]

وقال ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة: والأحاديث التي جاء فيها ذكر ظهور المهدي كثيرة متواترة.[٢]

ضرورة كون عاقبة الأرض للمتقين

إن الله تعالى لم يخلق هذه الدنيا لتكون مرتعاً للشيطان، تجول فيها الطواغيت يفسدون فيها ويهلكون الحرث والنسل، لتتحوّل الدنيا إلى مملكة أعداء الله تعالى وأعداء الإنسانية والحقيقة، فلاتصل للغاية التي من أجلها خلق الأرض وخلق فيها البشر.

إنّه تعالى قد أودع في هذه الدنيا طاقات عظيمة ومهولة لتساعد الإنسان في سبيل الرقي والكمال الذي خلق من أجله، لكنها لاتتفجر تلك الطاقات ولن تستثمر إلا إذا وقعت تحت قيادة خليفة الله تعالى ووليه، فتستثمر في سبيل الغاية التي من أجلها خلق الدنيا وخلق الإنسان.

---

(١) فتح الباري: ج ٥ ص ٣٦٢.

(٢) الصواعق المحرقة: ج ٢ ص ٢١١.

فلو انتهت الدنيا تحت وطأة ظلم الجبارين وظلمات الظالمين، ولم تظهر كنوزها وطاقاتها ولم تشرق الأرض بنور ربها، يكون خلقها وإيداعها تلك الأسرار والقابليات لغواً، ولكان الله تعالى مغلوباً على أمره تعالى عن ذلك علواً كبيرا، فلابد من أن يأتي يوم يقوم أهل البيت عليهم السلام بإدارتهم المثالية للأرض، ليعلم الكل ان الله تعالى ما خلق السماوات والأرض باطلاً، بل الفساد الظاهر في البر والبحر لم يكن إلا من صنع الإنسان، وأنه لايصلح غير أهل البيت عليهم السلام لإدارة الأرض.

و لايكفي كون الآخرة للمتقين، بل لابد من أن تصل الدنيا إلى كمالها الذي قدّر الله تعالى لها من خلقها، ليعلم الجميع أنّه ليس هناك خلل ولا فساد في صنع الله تعالى، وإنما القادة الذين قاموا بإدارة الأرض لم يكونوا كفوئين، فأوصلوا البشرية إلى وضعهم المأساوي، كما قال تعالى: ﴿**ظَهَرَ الفَسادُ فِي البَرِّ والبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس**﴾.(١)

فلابد من أن يقوم خليفة الله تعالى بإدارته المثالية للأرض لكي يعلم الكل أن الفساد والشر ليس من الله تعالى بل من فعل الظلمة الطغاة وليس في خلقه تعالى إلا الخير والكمال.

الانتظار حالة توحيدية

انطلاقاً من مبدأ أن الله تعالى لايخاف الفوت، وأنه تعالى لايعجل بالانتقام ويُعطي الفرصة للكل ليمتحنهم ويبتليهم، فقد قدر في قضائه المحكم أن يُملي الكافرين والظالمين ويُمهلهم ولايستأصلهم بأول ما هموا بالفساد والإفساد، كما قال تعالى: ﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتين**﴾.(٢)

---

(١) الروم: ٤١.
(٢) الأعراف: ١٨٣.

﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِين إِلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُوم﴾.(١)

فهو تعالى قد أنظر إبليس وجنده وأملاهم وأمهلهم، وهذا سبب في ابتلائهم، كما أن سائر الناس يفُتتنون بهم أيضاً كما قال تعالى: ﴿لِيَميزَ اللهُ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.(٢)

و هذا الإمهال والإملاء رغم كل ما فيه من الحكم الحكيمة الإلهية، لها مضاعفات تؤثر في حدوث حالة تقهقر وانهزام لدى الفئة المؤمنة، مما قد يؤدي بهم إلى مخاطر موبقة لإيمانهم، فإنّهم لو فقدوا الأمل بنجاح المشروع الإلهي، حينما يرون أنّ الدور البارز والقوة الغالبة الظاهرة هي بيد ابليس وأتباعه من الطغاة والكافرين، فيظنون _ لعدم حيطتهم بتقدير الله تعالى في نظام الدنيا وعاقبة الأرض وقصر مكوث الظالمين فيها _ أن الله تعالى قد غُلب على أمره، وفشل في مشروعه، وهذا هو ما يريده إبليس منهم، ففي الحالات الخطيرة تؤدي بالإنسان إلى الإلحاد المعلن، أو إيجاد الرؤية الخاطئة بأن الدين من معوقات التقدم والنهوض حيث يرى المؤمنين مستضعفين، وبعض حالاتها المخففة تؤدي إلى مهالك أقل خطورة من قلّة الالتزام واللامبالاة والذوبان في المدّ الإبليسي الغاشم.

فحينما يعلم الله تعالى أنّ الفئة المؤمنة والمسلمة ستمر عليهم حقبة من الزمن يتحملون فيها الأذى والألم والمرارة من الفئة الكافرة والظالمة، وأنّ معالم الخط الإلهي ستقهر في مقابل المد الشيطاني الإبليسي، ويكون له الدور البارز والدولة المعلنة، فلكي لايفقد المؤمنون الامل ولاييأسوا من النصر الإلهي، ينبئهم الله تعالى بمستقبل أمرهم من النجاح والنصر.

---

(١) الحجر: ٣٧ و٣٨.

(٢) الأنفال: ٣٧.

إنّ الله تعالى لم يخلق العالم كي يباد ويظهر الفساد في برّه وبحره بظلم الطواغيت وفساد المفسدين، فلو كان كذلك لكان التدبير الإلهي فاشلاً، وهذا هو الذي يريد الشيطان أن ننسبه إلى الله تعالى، إنّه يريد أن ننسب الفشل إلى التدبير الإلهي المتقن.

و السدّ الحاجز المانع أمام هذا التفكير الخاطيء والخطير هي عقيدة الانتظار، حيث يرى أنّ دولة الظالمين ليست إلا زبداً طغى على الماء بضعة أيام لكنّه يذهب جفاء ولايمكث في الأرض إلا الماء الذي أنزله الله تعالى لحياة البشر، فالانتظار واليقين بأنّ الله تعالى غالب على أمره، وأنّ عاقبة الأمر في هذه الدنيا تكون للمتقين يحافظ من الوقوع في الكفر.

قال تعالى: ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ**﴾.(١)

فجميع أنظمة الجور والباطل ليس إلا كالزبد الذي طغى على الماء أو الذهب المذاب، وقصير النظر يُقصر نظره دائماً على هذه الطبقة الزبدية الرابية، فيستضعف الماء والذهب الذي تحته، ولكن الذي يمكث في الأرض ليس إلا الحق وهو الله تعالى وخليفته، أما الباطل والطاغوت فيذهب جفاء، وعدم الالتفات لهذه الحقيقة الناصعة يعرض إيمان المؤمنين إلى خطر الزوال.

فوائد الانتظار والاطمئنان بتحقق النصر الإلهي

و في هذا الانتظار جملة من الإيجابيات:

---

(١) الرعد: ١٧.

أولاً: يحافظ على إيمان الفئة المؤمنة ويثبت عزائمهم في الاعتقاد بالله تبارك وتعالى ونجاح المشروع الإلهي، حيث إن فقدان الأمل بالمستقبل يجعل الإنسان يخيل إليه أن المشروع الإلهي قد أصابه الفشل في تخطيطه، وأن المشروع الناجح هو المشروع الآخر الذي يرى فيه الغلبة الظاهريه فيكفر بالله تعالى ويؤمن بالطاغوت!

بينما الاطمئنان بالوعد الإلهي من قوة الإيمان بالله، فإن الأمل والإنتظار حالة توحيدية، ففي كبد الحدث والتصدي موقن بأن الله تعالى سيظهره على أمره وانه لم تفلت من يده الأمور.

و ثانياً: يمنع المجتمعات المؤمنة من الذوبان في الهجوم الغاشم والمد الغالب من الخط المعادي، وذلك أن الناس بطبعهم يريدون النصر والنجاح، فحينما يئسوا من نجاح مشروعهم لغلبة الطرف الآخر، وكونهم مقهورين مضطهدين، فينسلخون من هويتهم الإيمانية، ويصيرون على شاكلة الخط الغالب الذي يرونه غالباً وناجحاً.

فعدم الأمل بزوال الطاغوت يوجب الذوبان في الباطل والطاغوت والظلم.

وثالثاً: أنه يرسم أمامهم صفحة بيضاء عن المستقبل فيتحركون نحوه، وذلك أن وقود حركة المجتمع هو الأمل بالمستقبل، والأمة التي فقدت الأمل بنجاحها في المستقبل تكون ميتة لاتتحرك قيد شبر، لأنها ترى نفسها تضمحل وتنتهي.

إنّ الأمل بالنصر الإلهي يوجب الصلابة في الإيمان وعدم التخلي عن المسؤولية، فالمنتظر يرى نفسه ناجحاً حتى في أسوء التقادير فإن العاقبة للمتقين، وأنّ ما اختاره من نهج الأنبياء قد كتب له الغلبة، فلا يتخلى عن القيام بالمسؤولية قيد شبر، حتى ولو بلغ الظلم إلى الثرى والسيل إلى الزبى.

و رابعاً: يسهّل على المؤمنين تحمّل كل هذا الأذى والجور والمصائب التي تصل

إليهم من الفئة الظالمة الطاغية، فيما يرون أنّ مستقبل الأمر يكون بيدهم، ومهما مد الطاغي في الجور باعه إلا أنه لن يفوته المستقبل فإن العاقبة للمتقين.

و غيرها من الفوائد المهمة التي تشكل العمود الفْقري للحفاظ على كيان المؤمنين وهويتهم الإيمانية وإيمانهم بالله تعالى وبرسله وبكتبه، وبخلاف ذلك لايبقى لهم كون ولاكيان.

عَنْ أَبِي خَالِدٍ الكَابُلِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى سَيِّدِي عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ زَيْنِ العَابِدِينَ عليه السلام: «...**ثُمَّ تَمْتَدُّ الغَيْبَةُ بِوَلِيِّ الله عَزَّ وجَلَّ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ أَوْصِيَاءِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وَالأَئِمَّةِ بَعْدَهُ. يَا أَبَا خَالِدٍ إِنَّ أَهْلَ زَمَانِ غَيْبَتِهِ، القَائِلِينَ بِإِمَامَتِهِ، والمُنْتَظِرِينَ لِظُهُورِهِ، أَفْضَلُ مِنْ أَهْلِ كُلِّ زَمَانٍ. لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى أَعْطَاهُمْ مِنَ العُقُولِ والأَفْهَامِ والمَعْرِفَةِ، مَا صَارَتْ بِهِ الغَيْبَةُ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ المُشَاهَدَةِ، وجَعَلَهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ بِمَنْزِلَةِ المُجَاهِدِينَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله بِالسَّيْفِ. أُولَئِكَ المُخْلَصُونَ حَقّاً وشِيعَتُنَا صِدْقاً والدُّعَاةُ إِلَى دِينِ الله عَزَّ وجَلَّ سِرّاً وجَهْراً، وَ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ عليه السلام: انْتِظَارُ الفَرَجِ مِنْ أَعْظَمِ الفَرَجِ**».[١]

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ج١ ص ٣١٩.

الأسئلة

١- هل الانتظار عقيدة مختصة بالشيعة الإمامية؟ وما هي نقطة الاشتراك والافتراق في عقيدة الانتظار لدى الأديان المختلفة؟

٢- ما هي ضرورة كون عاقبة الأرض بيد المتقين من منظور عقلي وقرآني؟ وما هي المشكلة لو انتهت الدنيا دون وصول الصالحين لوراثة الأرض؟

٣- لماذا أمهل الله تعالى الظالمين والأشرار في الدنيا؟ وما معنى الإملاء والإمهال والاستدراج؟

٤- ما هي علاقة عقيدة الانتظار بالتوحيد؟

٥- ما هي علاقة عقيدة الانتظار بالحركة والنشاط وعدم اليأس في أمرّ الظروف وأصعب الحالات؟

٦- كيف يحفظ الانتظار إيمان المؤمنين وكيف يصبّرهم في دولة الظالمين؟

الدرس الثاني والأربعون: الرجعة ودولة أهل البيت (عليهم السلام)

مما تميّزت به الشيعة الإمامية هي العقيدة بالرجعة، وهو رجوع النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت والأنبياء عليهم السلام والصالحين والمؤمنين إلى هذه الدنيا بعد موتتهم الأولى، فتكون لهم الغلبة والحكم الظاهر على الأرض فتبلغ الدنيا إلى ذروة كمالها، كما يرجع الكفار والطغاة لينتقم منهم ولينالوا الخزي والذل في هذه الدنيا قبل يوم القيامة.

وقد عدت العقيدة بالرجعة من ضروريات مذهب الإمامية كما دلت على ذلك الأخبار ونص عليها الأصحاب.

ففي مختصر البصائر بإسناده عن جابر بن يزيد، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**لَيْسَ مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا ولَهُ قَتْلَةٌ ومَوْتَةٌ، إِنَّهُ مَنْ قُتِلَ نُشِرَ حَتَّى يَمُوتَ، ومَنْ مَاتَ نُشِر حَتَّى يُقْتَلَ**»....

ثُمَّ قَالَ: «**مَا فِي هَذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ بَرٌّ ولَا فَاجِرٌ إِلَّا ويُنْشَرُ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيُنْشَرُونَ إِلَى قُرَّةِ أَعْيُنِهِمْ، وأَمَّا الفُجَّارُ فَيُنْشَرُونَ إِلَى خِزْيِ الله إِيَّاهُمْ، أَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَدْنى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ﴾**».(١)

وفي مختصر البصائر بإسناده عن عبد الكريم بن عمرو الخثعمي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام: «...**مَا مِنْ إِمَامٍ فِي قَرْنٍ إِلَّا ويَكُرُّ مَعَهُ البَرُّ والفَاجِرُ فِي دَهْرِهِ حَتَّى يُدِيلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الْمُؤْمِنَ مِنَ الكَافِرِ. فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الوَقْتِ المَعْلُومِ كَرَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَصْحَابِهِ، وجَاءَ إِبْلِيسُ فِي أَصْحَابِهِ، ويَكُونُ مِيقَاتُهُمْ فِي أَرْضٍ مِنْ أَرَاضِي الفُرَاتِ، يُقَالُ لَهَا:**

---

(١) حسن بن سليمان الحلي، مختصر البصائر: ص ٨٨.

الرَّوْحَاءُ قَرِيبٌ مِنْ كُوفَتِكُمْ، فَيَقْتَتِلُونَ قِتَالًا لَمْ يُقْتَتَلْ مِثْلُهُ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ العَالَمِين ...وَ يَمْلِكُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَرْبَعاً وأَرْبَعِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يَلِدَ الرَّجُلُ مِنْ شِيعَةِ عَلِيٍّ عليه السلام أَلْفَ وَلَدٍ مِنْ صُلْبِهِ ذَكَرا. الحديث».(١)

ضرورة الرجعة

سُئل الشيخ المفيد قدس سره عمّا يروى عن مولانا جعفر بن مُحمَّد الصادق في الرجعة، وما معنى قوله: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَقُلْ بِمُتْعَتِنَا ويُؤْمِنْ بِرَجْعَتِنَا**».

أهي حشر في الدنيا مخصوص للمؤمن، أو لغيره من الظلمة الجبّارين قبل يوم القيامة؟

فكتب الشيخ بعد الجواب عن المتعة وأمّا قوله:

«**مَنْ لَمْ يَقُلْ بِرَجْعَتِنَا فَلَيْسَ مِنَّا**».

فإنّما أراد بذلك ما يختصّه من القول به في أنَّ الله تعالى يحيي قوماً من أمّة مُحمَّد بعد موتهم قبل يوم القيامة، وهذا مذهب يختصُّ به آل مُحمَّد، والقرآن شاهد به...».(٢)

قال الشيخ الصدوق رحمه الله:

اعتقادنا في الرجعة أنّها حق.

قال الشيخ الحر العاملي في ضمن الأدلة على الرجعة:

«الخامس: الضرورة، فإنَّ ثبوت الرجعة من ضروريات مذهب الإمامية عند

---

(١) حسن بن سليمان الحلي، مختصر البصائر: ص ١١٥.

(٢) المسائل السروية: ص ٣٣.

جميع العلماء المعروفين والمصنفين المشهورين، بلْ يعلم العامة أنَّ ذلك من مذهب الشيعة، فلا ترى أحداً يُعرف اسمه ويعلم له تصنيف من الإمامية يصرح بإنكار الرجعة، ولا تأويلها، ومعلومٌ أنَّ الضروري والنظري يختلف عند الناظرين، فقد يكون الحكم ضرورياً عند قوم نظرياً عند آخرين، والذي يُعلم بالتتبع أنَّ صحة الرجعة أمرٌ محقق معلوم مفروغ منه مقطوع به ضروري عند أكثر علماء الإمامية أو الجميع، حتّى لقد صنّفت الإمامية كتباً كثيرة في إثبات الرجعة كما صنفوا في ...إثبات الإمامة وغير ذلك.

ثم قال:

ومما يدلُّ على أنَّ صحة الرجعة قدْ صارت ضرورية عند كل من تتبع الأحاديث: أنك لا تجد في الضروريات- كوجوب الصلاة وتحريم الزنا- أكثر من الأحاديث الدالة على صحة الرجعة، ومما يدلُّ على ذلك أنَّ العامة قدْ نقلوا في كتبهم عن الإمامية أنَّهم قائلون بالرجعة وأنكروا عليهم ذلك، فمنهم الرازي والنيشابوري والزمخشري والشهرستاني وابن أبي الحديد وغيرهم، فقد ذكروا أنَّ الشيعة تعتقد صحة الرجعة، وأنكروا عليهم ذلك وهو دالّ على صحتها، وأنها من خواص الشيعة وضروريات مذهبهم».[1]

مما يستدل به على عقيدة الرجعة من القرآن

أثبت القرآن الكريم رجوع طوائف من الناس إلى الدنيا بعد ما ماتوا سنينا، فأحياهم الله تعالى بعد ما أماتهم فعاشوا أعواماً أخرى في الدنيا، وهي بمثابة أدلّة على إمكان وقوع الرجعة، مضافاً إلى ما دلّ على أنّ ما وقع في الأمم السالفة يقع في هذه الأمة

(١) الإيقاظ من الهجعة/ الباب ٢ ص ٩٥.

كما ورد في الروايات المتفق عليها بين الفريقين.

فمما دلّ على وقوعها في الأمم الماضية، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ﴾.(١)

و هم كانوا سبعين ألفاً فأماتهم الله تعالى مدة طويلة، ثم أحياهم فرجعوا إلى الدنيا وعاشوا أيضاً مدة طويلة.

كذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.(٢)

و كان نبيّا من أنبياء الله تعالى، ففي بعض الروايات أنه أرميا النبي، وفي بعضها أنه عزير النبي عليه السلام، وقد روى ذلك العامة والخاصة.

و مما يدل على وقوع الرجعة بصورة عامة قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا والَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَياةِ الدُّنْيا ويَوْمَ يَقُومُ الأَشْهاد﴾.(٣)

الآية الكريمة مشتملة على الوعد الإلهي بنصر الرسل والمؤمنين في الحياة الدنيا كما ينصرهم يوم القيامة، ونحن نعلم أنّ كثيراً من الأنبياء والمؤمنين لم يُنصَروا فماتوا بلا ناصر ولامعين، ولم تحصل لهم الغلبة الظاهرية، فهذا أبو عبد الله الحسين عليه السلام استشهد

---

(١) البقرة: ٢٤٣.

(٢) البقرة: ٢٥٩.

(٣) غافر: ٥٤.

يوم عاشوراء وهو ينادي: هل من ناصر ينصرني، فلابد من أن يرجعوا إلى الدنيا لينصرهم الله تعالى فيها كما وعد في كتابه، إنّه لايخلف الميعاد.

عَنْ جَمِيلٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ قُلْتُ: «قَوْلُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾.

قَالَ: ذَلِكَ وَالله فِي الرَّجْعَةِ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ أَنْبِيَاءَ كَثِيرَةً لَمْ يُنْصَرُوا فِي الدُّنْيَا وقُتِلُوا والأَئِمَّةَ بَعْدَهُمْ قُتِلُوا، ولَمْ يُنْصَرُوا! ذَلِكَ فِي الرَّجْعَةِ».(١)

و قوله تعالى: **﴿وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنا فَهُمْ يُوزَعُون﴾**.(٢)

والآية تتحدث عن حشر الناس في الرجعة وليس في القيامة الكبرى، وذلك لأنّ الحشر في القيامة الكبرى لا يختص بفئة دون أخرى بل كما قال تعالى: **﴿وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَدا﴾**.(٣)

عن أبي بصير، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «يُنْكِرُ أَهْلُ العِرَاقِ الرَّجْعَةَ».؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «أَمَا يَقْرَءُونَ القُرْآنَ ﴿وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً﴾ .الآيَةَ.(٤)

عَنْ حَمَّادٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً﴾ .قُلْتُ: يَقُولُونَ إِنَّهَا فِي القِيَامَةِ. قَالَ: لَيْسَ كَمَا يَقُولُونَ، إِنَّ ذَلِكَ فِي الرَّجْعَةِ، أَيَحْشُرُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ويَدَعُ البَاقِينَ؟ إِنَّمَا آيَةُ القِيَامَةِ قَوْلُهُ: ﴿وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ .(٥)

---

(١) تفسير القمي: ص ٢٥٨.

(٢) النحل: ٨٣.

(٣) الكهف: ٤٧.

(٤) مختصر البصائر: ص ١١٠.

(٥) تفسير القمي، بحارالأنوار ج ٥٣ ص ٦١.

سر أهمية الاعتقاد بالرجعة

وجه أهمية الاعتقاد بالرجعة والإجهار به، وكذلك تحسس الحكومات من هذا الاعتقاد، بحيث كان الاعتقاد بالرجعة من معالم الانتماء الشيعي يمكن أن يرجع إلى عدة أمور:

الأول: الرجعة صيغة للشهادة الثالثة

إن الاعتقاد بتحقق نظام يرأسه أئمة آل البيت عليهم السلام والإخبار به والانتظار لتحقق هذا النظام بما فيه من بسط العدل والقسط في جميع الشؤون، يعني الاعلان بكفاءة أهل البيت عليهم السلام لإدارة نظام العباد، وأن غيرهم لايمتلك تلك الكفاءة اللازمة، لا سيما وأن الأئمة عليهم السلام كانوا مضطهدين تحت ظلم الطغاة، فيقال: هذا الذي شددت عليه وحبسته في سجنك أو قتلته، سوف يملك الأرض شرقها وغربها ويديرها بأحسن الوجه، فإن هذا الاعتقاد في نفسه صيغة للشهادة الثالثة أي شهادة بأحقية أهل البيت عليهم السلام في نظام الإدارة الإلهية.

الثاني: الرجعة وحقيقة الإمامة

إن التعريف الأساسي البنيوي للإمامة إنما يكون بلحاظ مقامات ومناصب وشؤون الأئمة عليهم السلام في الرجعة، فإنّ مقاماتهم وأدوارهم ومناصبهم تظهر حين رجوعهم إلى الدنيا، وهي أعظم وأكبر بكثير مما ظهر منهم قبل ذلك، فمعرفة الإمام بلحاظ ما عنده من المقامات في هذه الدنيا إنما تكون معرفة ابتدائية للإمام، والمعرفة الكاملة تكون بلحاظ مقاماتهم في الرجعة.

عن أبي جعفر عليه السلام: «**يَا أَبَا حَمْزَةَ لَا تَضَعُوا عَلِيّاً عليه السلام دُونَ مَا وَضَعَهُ اللهُ، وَلَا تَرْفَعُوهُ**

فَوْقَ مَا رَفَعَهُ اللهُ، كَفَى لِعَلِيٍّ أَنْ يُقَاتِلَ أَهْلَ الكَرَّةِ، وأَنْ يُزَوِّجَ أَهْلَ الجَنَّةِ»(١)

روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿**إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً**﴾.فَقَالَ: «**الأَنْبِيَاءُ: رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وَإِبْرَاهِيمُ وإِسْمَاعِيلُ وذُرِّيَّتُهُ، والمُلُوكُ: الأَئِمَّةُ عليهم السلام**».قَالَ: فَقُلْتُ: وَأَيَّ مُلْكٍ أُعْطِيتُمْ؟ قَالَ: «**مُلْكَ الجَنَّةِ ومُلْكَ الكَرَّةِ**».(٢)

فبحسب هذه الروايات تكون معرفة الإمام بأنه مفترض الطاعة وأن له إدارة الحكم السياسي في دار الدنيا معرفة بدائية، والجزء الأكبر من تعريف الإمامة إنما يكون بلحاظ ملك ولاية الأمور في الرجعة وعالم القيامة وعالم الجنة الأبدية، وأن دولة الرجعة والآخرة الأبدية لاينتظم كيانها وعيشها إلا بنظام إمامتهم عليهم السلام، فإمامتهم ليس فقط نظاماً للدنيا بل للعوالم العظيمة الأبدية.

و هذا بعينه هو سر التحسس من عقيدة الرجعة من اتباع مدرسة الخلافة لأنها دعوة إلى الإمامة في أحسن تعاريفها.

الثالث: الرجعة والتبري من دولة الظالمين

إن الاعتقاد بالرجعة إنما يعني إدانة حكومات الجور واعتراف ببطلانهم وزوالهم وانهم سوف يبادون، ونظير ذلك في النظام السياسي مثل أن يأمل الإنسان إقامة نظام سياسي بديل عن النظام الموجود، ويجاهر بعقيدته هذه؛ فإنه يعد مواجهة علنية مع نظام الحكم في السلطة، فالرجعة هي إخبار بإبادة النظام القائم، ويمثل اعلاناً للبراءة من هذا النظام وعدم التولي له؛ دع عنك الإجهار به ودعوة الناس إليه.

---

(١) امالي الصدوق المجلس ٣٨ وامالي المفيد المجلس الأول.

(٢) الايقاظ من الهجعة: ب ١٠ ح ١١٥

الرابع: الرجعة وملاحقة الظالمين

إن الرجعة كما في روايات أهل البيت عليهم السلام دولة المحاكمة والمداينة والمحاسبة، ففي الرجعة سوف يحاكم جميع الطغاة والظلمة، وسوف يذوقون الذل والهوان، فالاعتقاد بتحقق هذا الأمر معناه إعلان يوم المحاسبة والمداينة والمعاقبة والملاحقة القانونية للظالمين.

الاعتقاد بالرجعة من أمارات كمال الإيمان

قد ورد في الروايات أن الاعتقاد بالرجعة من أمارات كمال الإيمان، وأن لصاحبه مقاماً خاصاً عند الأئمة المعصومين عليهم السلام. كما ورد في عدة روايات في مدح جابر بن عبد الله الأنصاري أنه بلغ من إيمانه أنه كان يعرف تأويل الآية النازلة في الرجعة.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَزُرَارَةَ، قَالا: سَأَلْنَا أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ أَحَادِيثَ نُرَوَّاهَا عَنْ جَابِرٍ، فَقُلْنَا: مَا لَنَا وَلِجَابِرٍ؟ فَقَالَ: **بَلَغَ مِنْ إِيمَانِ جَابِرٍ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾**.(١)

آثار الاعتقاد بالرجعة

الأول: قد تكرر في الروايات أن الاعتقاد بالرجعة يوجب تخفيف المصائب والابتلائات في أنظمة الجور، وكثيراً ما كان الأئمة (صلوات الله عليهم) يهونون على الشيعة مصائبهم باستذكارهم أحداث الرجعة.(٢)

---

(١) الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة: ص ٣٢٠ - ٣٢٣

(٢) عَنِ الحَسَنِ بْنِ شَاذَانَ الوَاسِطِيِّ قَالَ كَتَبْتُ إِلَى أَبِي الحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام أَشْكُو جَفَاءَ أَهْلِ وَاسِطٍ وَحَمْلَهُمْ عَلَيَّ، وَكَانَتْ عِصَابَةٌ مِنَ العُثْمَانِيَّةِ تُؤْذِينِي، فَوَقَّعَ بِخَطِّهِ: **إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى أَخَذَ مِيثَاقَ أَوْلِيَائِنَا عَلَى الصَّبْرِ فِي دَوْلَةِ البَاطِلِ، فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَلَوْ قَدْ قَامَ سَيِّدُ الخَلْقِ لَقَالُوا: ﴿يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُونَ﴾**.(روضة الكافي ح ٣٤٦)

الثاني: إنّ ترويج عقيدة الرجعة بين الناس كما بينه الأئمةعليهم السلام يولّد الأمل بالمستقبل، ومن ثمار هذا الأمل أنهم لا يتكالبون على الدنيا، لانهم يعلمون أنهم سوف يحصلون عليها خالصاً وبأجمل مظاهرها، بل الدرجات هناك على قدر الأعمال والمقامات هنا.

الثالث: من بركات الاعتقاد بالرجعة والوجه في حث الأئمة على الاعتقاد به، هي التوصية بالمسؤولية، حيث يعرف المؤمنون أنّ الصلاحية والدرجة التي سوف ينالونها في الرجعة تناط بسعيهم وموقعيتهم الإيماني ههنا، فيسعون نحو تحقيقها كما ورد في زيارة الجامعة: «**و يملك في دولتكم**».

الرابع: إنّ الاعتقاد بيوم تزال فيه أنظمة الجور يمنع من أن يذوب الإنسان في تلك الأنظمة، وبخلاف ذلك يفقد الإنسان هويته الإيمانية.

عن أبي جعفرعليه السلام: **فِي قَوْلِهِ: ﴿فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾.يَعْنِي: أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالرَّجْعَةِ أَنَّهَا حَقٌّ ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾.يَعْنِي: أَنَّهَا كَافِرَة.**[1]

(١) تفسير القمي: ج١ ص٣٨٣.

الأسئلة

١- ما هي الرجعة، وما معنى كونها من الضروريات عند الإمامية؟

٢- كيف يستدل بأدلة وقوع الرجعة في الأمم السالفة على وقوعها في هذه الأمة؟

٣- ما الدليل على أنّه لايكتفى بنصر الله تعالى رسله وللمؤمنين يوم القيامة، ولابد من نصرهم في هذه الدنيا أيضاً؟

٤- ما الفرق بين حشر الرجعة وحشر القيامة الكبرى؟

٥- كيف تكون الرجعة رمزاً للتولي والتبري؟

٦- كيف تكون العقيدة بالرجعة مؤثراً في فهم حقيقة الإمامة؟

٧- ما السبب في أنّ عدم الاعتقاد بالرجعة يجعل قلب الإنسان منكراً ؟

الفصل الخامس

المعاد

الدرس الثالث والأربعون: المعاد

قال الله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ﴾.(١)

﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ القِيامَةِ لا رَيْبَ فيهِ ومَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَديثا﴾.(٢)

﴿قُلِ اللهُ يُحْييكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ القِيامَةِ لا رَيْبَ فيهِ ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.(٣)

معنى المعاد

المعاد في اللغة مصدر ميمي واسم الزمان والمكان من مادّة عاد يعود عوداً، بمعنى الرجوع والإياب.

وهو يتحقق فيما لو حصل التغيير في شيء في حاله أو مكانه، ثم يعود لحالته الأولى، ويستعمل أيضاً فيما لو أعدم الموجود ثم وجد بعد العدم.

و في اصطلاح المليين عبارة عن عود الأرواح إلى أبدانها المادية العنصرية يوم القيامة

(١) آل عمران: ١٨٥.

(٢) النساء: ٨٧.

(٣) الجاثية: ٢٦.

الكبرى، للحساب والجزاء.

و من هنا فالقول بخروج الروح عن البدن، وترك البدن العنصري واستمرار الروح في سيره الكمالي أو النزولي، لايعد معاداً، حيث لم يفرض فيه عود ولا رجوع، حتى لو فرض تعلق الروح ببدن مثالي من سنخ عالم الروح، فإن ذلك كلّه سير وحركة مستمرة، لم يفرض فيه عود إلى شيء.

أهميّة المعاد

من الأصول المشتركة بين جميع الديانات السماوية هو الاعتقاد بالمعاد والحشر بعد الموت، لينال المحسن والمسيء جزاء عملهما، وقد ركّز القرآن المجيد على مسألة المعاد في أكثر من ألف آية، وهي أكثر من الآيات التي وردت في التوحيد، بل جعل الإيمان بالمعاد مقارناً مع الإيمان بالله من أصول جميع الأديان، قال تعالى: ﴿**قاتِلُوا الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ولا بِاليَوْمِ الآخِرِ**﴾.(١)

آثار الاعتقاد بالمعاد

قامت دعوة الأنبياء والرسل على التبشير بالجنة ونعيمها، والإنذار من النار وجحيمها، قال تعالى: ﴿**وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلينَ إلاَّ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرين**﴾.(٢)

و لهذا التبشر والإنذار آثار مهمة في سلوك الإنسان المؤمن، بل حتى في عقيدته وولاءاته وانتماءاته.

منها: الاتعاظ بمواعظ الله تعالى، قال تعالى: ﴿**ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ**

(١) التوبة: ٢٩.

(٢) الانعام: ٤٨، الكهف: ٥٦.

بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ﴾.(١)

منها: الصبر وتحمل الشدائد وعدم التواني عن أداء المسؤولية، قال تعالى:﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا اليَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.(٢)

منها: الخلوص في العبادة، قال تعالى:﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ﴾.(٣)

منها: التسليم لله تعالى وللرسول ﷺ، قال تعالى:﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ﴾.(٤)

منها: التأسي بالرسول ﷺ، قال تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ﴾.(٥)

منها: السعي في عمران مساجد الله تعالى، قال تعالى:﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ﴾.(٦)

منها: الجد والاجتهاد في الطاعة رغم صعوبة الظروف، قال تعالى:﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ... ۞ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ

---

(١) البقرة: ٢٣٢.

(٢) البقرة: ٢٤٩.

(٣) البقرة: ٢٦٤.

(٤) النساء: ٥٠.

(٥) الأحزاب: ٢١.

(٦) التوبة: ١٨.

لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾.(١)

منها: عدم تولّي أعداء الله تعالى وأعداء الرسولﷺ، قال تعالى: **﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَه﴾**.(٢)

منها: التوبة والرجوع إلى الله تعالى، قال تعالى: **﴿ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً﴾**.(٣)

ضرورة المعاد

إنّ عدم انقطاع الحياة بهذه الدنيا ووجود الجزاء والحساب في حياة بعد هذه الدنيا، مما يستقل به العقل بعد النظر إلى حكمة الله وعدله تعالى، وأمّا تفاصيل أحداث الموت وما بعده من البرزخ والبعث والقيامة والصراط والميزان والجنة والنار وغير ذلك، فليس للعقل سبيل إليها باستقلاله، بل العقل هنا يحكم بلزوم تصديق أنباء الرسل والأنبياء، بعد ما ثبتت رسالتهم ونبوتهم وحجيتهم.

برهان العدل

التقريب الأول:

مما يستقلّ به العقل أنّ الحسن والقبيح ليسا متساويين، كما لاتستوي الحسنة والسيئة، والمطيع لله تعالى والعاصي له، فلو حكم الله تعالى في العبد المحسن مثل ما يحكم في المسيء، فقد وضع الأشياء في غير مواضعها وهو الظلم.

و نحن نشاهد أن من الناس قوماً آمنوا بالله تعالى ورسولهﷺ وعملوا الحسنات

(١) التوبة: ٤٤ و٤٥.

(٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) النبأ: ٣٩.

والصالحات، ومنهم قوم كفروا وعصوا وأظهروا الفساد في العباد والبلاد، بل سوّدوا صحائف التاريخ بظلمهم وطغيانهم، والجميع يموتون على ما كانوا عليه من الحالتين، بلا فرق بينهما، بل كثيراً ما يكون الكافر والعاصي والظالم في سعة من المال وصحّة البدن وأمن من الخوف، والمؤمن المطيع مقهوراً مظلوماً مبتلى في أيد الظالمين، أو في ضيق من العيش وعلل في الجسم، فلو لم تكن بعد هذه الحياة دار يجزون فيها بأعمالهم ويقتصّ فيها من الجاني، ويجبر كسر المظلوم كان ذلك منافياً لعدل الخالق، وقد وصف نفسه بالعدل وأنه لا يظلم الناس فتيلاً.

و توهم عدم الحاجة إلى المعاد فيما إذا كان المؤمن المطيع في السعة والكافر أو العاصي في الضييق في هذه الدنيا، مدفوع بأنّ المشهود أنّ الجزاء كثيراً ما لا يُعطى، وأن أُعطي فإنّه لا يستوفى.

و للتنبيه على هذا البرهان العقلي قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾.[١]

﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾.[٢]

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّارِ﴾.[٣]

التقريب الثاني:

إن الله تعالى وعد عباده الثواب العظيم والجنّة الأبدية فيما لو اتقوا وجاهدوا

---

(١) الجاثية: ٢١.

(٢) السجدة: ١٨.

(٣) ص: ٢٦.

واجتهدوا في العبادة وعملوا الخير وأتعبوا أنفسهم في سبيل إغاثة الملهوفين وإعانة المحتاجين، بل اشترى أنفسهم بأن يبذلوها لله تعالى فيكون ثمنها الجنة، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله تعالى.

كما أوعد بالعذاب والنار لمن عصاه واتبع شهواته ولم يصبر على طاعة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۞ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولا﴾.(١)

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.(٢)

﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾.(٣)

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ۞ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ۞ لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.(٤)

فاعتمد أناس على هذا الوعد والوعيد، فتحمّلوا عناء التكاليف وحرموا أنفسهم عن كثير من الملذات، وبعضهم بذلوا الغالي والنفيس في سبيل تجنّب ذلك الوعيد والوصول لهذا الوعد الألهي، ومنهم من بذل نفسه في مرضات الله تعالى، وتحمّل الضيم في سبيل طاعة الله تعالى.

---

(١) الفرقان: ١٥ و١٦.

(٢) التوبة: ١١١.

(٣) السجدة: ٢٢.

(٤) إبراهيم: ٤٩ – ٥١.

هنا يحكم العقل البديهي بأنّ عدم تحقيق هذا الوعد قبيح ومن مصاديق الظلم، وهو تعالى منزّه عن ذلك، بل عدم تحقّق ذلك الوعيد أيضاً في بعض موارده يكون ظلماً بالنسبة للمظلومين والمضطهدين، الذين تحمّلوا ما تحمّلوا جرّاء الفساد والظلم الذي ملأ الكون بأفعالهم الإجرامية.

قال تعالى تنبيها على هذا البرهان العقلي: ﴿**وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾.(١)

برهان الحكمة

لاشكّ أنّ الله تعالى حكيم ومنزّه عن اللغو والعبث، فحينما يخلق هذه الدنيا بما فيها من الغرائب والسماوات والأرض، فلابد أن تكون هنالك غاية حكيمة من خلقها، فما هو الداعي والغاية من هذا الخلق العظيم المبهر للعقول؟

أياً ما كانت الغاية فهي غاية حكيمة، وكلّما كان الفعل أكثر إتقاناً وإحكاماً، تكون الغاية أعظم وأهم، ولايمكن أن تكون الغاية مجرد العيش في هذه الدنيا بضعة أيام.

فهل يصدّقك عقلك لو قلت: لاغاية من الحياة إلا هذا العيش المليء بالآلام والمصائب والآفات والأمراض؟ فمنذ أن يولد الإنسان يواجه العناء تلو العناء حتى يكبر، فكل ما يستيقظ من النوم يتحمّل المشاقّ في سبيل الحصول على لقمة العيش فيرتاح حينما يجدها، ثم يخلد إلى النوم من شدّة التعب والإرهاق لينهض مجدداً للعمل الدؤوب في سبيل دفع الجوع والعطش والفقر والعرى عن نفسه، إلى أن يكبر فيرد إلى أرذل العمر فينتكس انتكاسة، ثم يموت وينتهي كل شيء؟

فهذه الحياة - لولا ما وراءها من عالم آخر تظهر فيها نتائج الكمالات الإنسانية -

(١) البقرة: ٢٨١.

ليس إلا الحرب وتحمل العناء من أجل دفع الجوع والعرى والفقر والتصحّر والتوحّد، ثمّ سمّي دفع هذه الآلام لذة ومتعة! هل هذه هي الغاية من الحياة؟

ثم حينما يكمل ويحصل على بعض المكاسب والقدرات والإمكانيات، وحينما ينضج بالكدّ والعناء وتحمّل الخوف والضيق والمصائب، يضربه المشيب فيدخله في حفرة القبر ليندثر وينعدم؟

هنا يحكم العقل البديهي بأنّه لايمكن أن تنتهي هذه الحياة بالموت والعدم، لاسيما بعد ما بعث الله تعالى الأنبياء فبشروا وأنذروا ووعدوا بالحياة الأبدية والجنة والنار، فلو لم يكن هنالك معاد وحياة أبدية لكانت هذه البشائر والإنذارات لغواً وخلافاً للحكمة، وهو تعالى منزّه عن ذلك.

قال العلامة المجسي في تقريب هذا البرهان:

«إن منافع هذه النشأة الفانية مخلوطة بأضعافها من الكدورات والآلام الجسمانية والروحانية، والمصائب والأمراض والمحن والفتن وتلف الأموال وغصبها والأمراض وموت الأحبة والأولاد وغيرها من الكدورات، فلايمكن أن يكون الله تعالى قد خلق الناس من أجل هذا العيش!

و ذلك نظير ما إذا استضاف الكريم ضيفاً إلى بيت مملوء بأقسام السباع الموذية من الأسد والنمر والفهد والأفاعي والعقارب والحشرات وغيرها، ثمّ حينما يدخل في ذلك البيت يحضر له طعاماً، ففي كل لقمة منه تلدغه العديد من الحشرات والعقارب، مع قيام اللصوص أمامه بسيوف شاهرة، فيتوقّع أنّهم يقطعون رأسه في كلّ لحظة، فلن تجد عاقلاً يقبل بمثل هذه الضيافة، ولا يمدح المضيّف باستضافته.

بينما لو كانت الضيافة الحقيقية في مكان آخر، لكن كان الدخول في تلك الضيافة

والإكرام متوقفاً على تحمّل بعض الرياضات والمشقات ليستعدّ بذلك لنيل المناصب العالية والنعم الجزيلة التي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهنا يمدحه كل العقلاء، حيث جعل هذا العناء القصير سبباً لوصوله إلى النعم الأبدية».(١)

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾.(٢)

﴿الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّار﴾.(٣)

﴿وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾.(٤)

﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدى﴾.(٥)

تكملة في حكمة المجيء إلى الدنيا

إنّ الله تعالى العزيز الحميد الذي لانهاية لعظمته ومجده وكمالاته ولا لجوده وكرمه، خلق الخلق لينال من رحمته وجوده، فخلق لهم أولاً النعم التي لم تخطر على قلب بشر ولايتمكّن من إدراكها مادام محبوساً في هذه الدنيا، من ممالك لاتناهي لها في العقول، وجعل فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين، بلا هرم ولامرض ولاسقم ولاتعب ولاهم ولاحزن ولانوم ولاموت، بل جعلها دار الابتهاج واللذة والسرور والراحة والانبساط، ومن النعم التي أعدّها لهم ولايعلم عظمتها إلا واهبها، زيارة هؤلاء الملوك ربّهم عند العرش، وما يشاهدون بقلوبهم من عظمة ربهم وما يتنعمون

(١) ترجمة ما ذكره العلامة المجلسي في حق اليقين: ص ٤٥٧ بتوضيح منا.
(٢) المؤمنون: ١١٥.
(٣) آل عمران: ١٩١.
(٤) الحجر: ٥٧.
(٥) القيامة: ٧٥.

به في تلك الضيافة مما يوجب الحيرة والوله والدهشة، فينبّه بأنّه لانهاية لقدرة الرب جلّت عظمته ولا لبرّه ورأفته وجوده وكرمه وفضله وإحسانه، فلا تزال تزداد النعم والزيارات والزيادات في كلّ جمعة إلى ما لانهاية له.

ثمّ إذ لم يكن في تلك الممالك تعب ولاحزن ولانصب، فإنّ تلك النعماء تنافي أدنى شيء يكون سنخه غير اللذة والابتهاج، كان خلق الإنسان ووضعه ابتداءً في تلك الممالك موجباً للخلف ونقض الغرض، فإنّ حالهم وأفعالهم في هذه الدنيا برهان وحجّة على حالهم وفعلهم لو وضعهم ابتداءً في تلك الممالك، فإنّ من ينازع ويخاصم في هذه الأرض على ما فيها، لو شاهد تلك الممالك وتلك السلطنة أيّ شيء يفعل فيها؟ فإنّه يجعل الجنّة لنفسه ناراً ولغيره عذاباً!

فيجب وضع البشر في دار رياضة وحبسه في محلّ تصفية حتى يطّهر ويزّكى من الخبائث، وبعد الطهارة يدخله في تلك الأمكنة.

و البرهان الأبهر على ذلك ما صدر من آدم عليه السلام صفيّ الله تعالى ومسجود الملائكة وزوجته من ترك الأولى، فمع صفوته ونبوّته وعصمته - لعدم شهود فقره وذاته واحتياجه - نظر على ما يظهر من بعض الروايات إلى مقام سيد الأنبياء نظرة فلذلك سلب منه التوفيق ونال من الشجرة فهبط إلى الأرض، وظاهر أنّه إذا لم يبتهج بعلوّ مقام سيد الأنبياء وأهل بيته كابتهاجه بمقام نفسه، يلزم الخلف وأن يصير دار السرور دار الحزن، وتنقلب مسرّة النبي صلى الله عليه وآله والائمة عليهم السلام والمؤمنين حزناً لحزن أبيهم، ولهذا هبط إلى الأرض وسجن فيها، ليستعد بذلك الى الخلود في ممالك الجنان.

فإن كان هذا حال آدم عليه السلام وهو صفي الله تعالى فما ظنك بالآخرين لو كان قد وضعهم الله تعالى في الجنة ابتداءً؟

فظهر أنّ الدخول في تلك الممالك متقوّم بالنزول إلى الأرض، ليرتاض فيها ويعرف عجزه وفقره وذلّه واحتياجه ومسكنته، فيعرف الرب الغني ويعرف خلفاءه ونوابه والمؤمنين، فيحبهم ويعشقهم فيلتذ بنعمائهم وعلوّ مقامهم، ولا يستعلي على غيره.(١)

روى الصدوق بإسناده عن عَبْدِ اللهِ بْنِ الفَضْلِ الهَاشِمِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام: «لِأَيِّ عِلَّةٍ جَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الأَرْوَاحَ فِي الأَبْدَانِ بَعْدَ كَوْنِهَا فِي مَلَكُوتِهِ الأَعْلَى فِي أَرْفَعِ مَحَلٍّ؟

فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلِمَ أَنَّ الأَرْوَاحَ فِي شَرَفِهَا وَعُلُوِّهَا مَتَى تُرِكَتْ عَلَى حَالِهَا نَزَعَ أَكْثَرُهَا إِلَى دَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ دُونَهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَجَعَلَهَا بِقُدْرَتِهِ فِي الأَبْدَانِ الَّتِي قَدَّرَهَا لَهَا فِي ابْتِدَاءِ التَّقْدِيرِ نَظَراً لَهَا وَرَحْمَةً بِهَا، وَأَحْوَجَ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ وَعَلَّقَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَرَفَعَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، وَكَفَى بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ وَاتَّخَذَ عَلَيْهِمْ حُجَجَهُ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ يَأْمُرُونَهُمْ بِتَعَاطِي العُبُودِيَّةِ وَالتَّوَاضُعِ لِمَعْبُودِهِمْ بِالأَنْوَاعِ الَّتِي تَعَبَّدَهُمْ بِهَا، وَنَصَبَ لَهُمْ عُقُوبَاتٍ فِي العَاجِلِ وَعُقُوبَاتٍ فِي الآجِلِ، وَمَثُوبَاتٍ فِي العَاجِلِ وَمَثُوبَاتٍ فِي الآجِلِ، لِيُرَغِّبَهُمْ بِذَلِكَ فِي الخَيْرِ وَيُزَهِّدَهُمْ فِي الشَّرِّ، وَلِيُذِلَّهُمْ بِطَلَبِ المَعَاشِ وَالمَكَاسِبِ، فَيَعْلَمُوا بِذَلِكَ أَنَّهُمْ مَرْبُوبُونَ وَعِبَادٌ مَخْلُوقُونَ، وَيُقْبِلُوا عَلَى عِبَادَتِهِ، فَيَسْتَحِقُّوا بِذَلِكَ نَعِيمَ الأَبَدِ وَجَنَّةَ الخُلْدِ، وَيَأْمَنُوا مِنَ النُّزُوعِ إِلَى مَا لَيْسَ لَهُمْ بِحَقٍّ.

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: يَا ابْنَ الفَضْلِ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَحْسَنُ نَظَراً لِعِبَادِهِ مِنْهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تَرَى فِيهِمْ إِلَّا مُحِبّاً لِلْعُلُوِّ عَلَى غَيْرِهِ، حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ لَمَنْ قَدْ نَزَعَ إِلَى دَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ نَزَعَ إِلَى دَعْوَى النُّبُوَّةِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ نَزَعَ إِلَى دَعْوَى

---

(١) مستفاد من معارف القرآن: ج١ ص ١٤١ – ١٥٠.

الإِمَامَةِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، مَعَ مَا يَرَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ النَّقْصِ وَالعَجْزِ وَالضَّعْفِ وَالمَهَانَةِ وَالحَاجَةِ وَالفَقْرِ وَالآلَامِ المُتَنَاوِبَةِ عَلَيْهِمْ وَالمَوْتِ الغَالِبِ لَهُمْ وَالقَاهِرِ لِجَمِيعِهِمْ. يَا ابْنَ الفَضْلِ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَفْعَلُ لِعِبَادِهِ إِلَّا الأَصْلَحَ لَهُمْ وَلا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.(١)

---

(١) توحيد الصدوق: ص ٤٠٢.

الأسئلة

١- ما معنى المعاد، وما الفرق بينه وبين السير المستمر في مراتب الكمال أو النزول في الدركات؟

٢- ما هي موقعية الاعتقاد بالمعاد في الدين وما هو السر في التأكيد عليه؟ اذكر ثلاثة أسباب.

٣- ما هو حد فهم العقل في مسألة المعاد، وما هي المساحة التي لايفهمها إلا من خلال الوحي؟

٤- ما معنى الظلم ولماذا تكون التسوية بين المؤمن والكافر ظلماً؟

٥- ما هي العلاقة بين عدم كون خلق السماوات والأرض عبثاً وبين الخوف من عذاب النار كما نشاهد في الآية ١٢١ من سورة آل عمران؟

٦- إن كان قد خلقنا الله تعالى للجنة فما هي حكمة المجيء بنا إلى هذه الدنيا مع ما فيها من العاهات والآفات والمصائب؟

٧- بين مراد الإمام الصادق عليه السلام في رواية عبد الله بن فضل الهاشمي من قوله: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى عَلِمَ أَنَّ الأَرْوَاحَ فِي شَرَفِهَا وعُلُوِّهَا مَتَى تُرِكَتْ عَلَى حَالِهَا نَزَعَ أَكْثَرُهَا إِلَى دَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ دُونَهُ عَزَّ وجَلَّ**»، وما هو البرهان عليه، ولماذا يكون حبس الناس في الدنيا وابتلاؤهم بالمتاعب والحوائج خيراً وأصلح لهم؟

الدرس الرابع والأربعون: المعاد الجسماني (١)

لاريب أنّ كيفيّة المعاد - وهو فعل الباري تعالى الذي سيفعله بعد موتنا - أمر خارج عن حدود عقول البشر، بمعنى أنّه لايمكن أن يقف الإنسان بعقله - من دون إخبار الله تعالى نفسه - على أنه كيف سيكون المعاد والرجوع إلى الله تعالى والحساب والعقاب والحشر والنشر وغير ذلك، والحكم في ذلك كلّه تخرّص ورجم بالغيب، سيما في مثل هذه الغيوب التي ضرب الله تعالى عليها الحجاب العمدي وأبى الله تعالى أن يُطلع عليها أحداً إلا بمقدار ما أنبأ من ذلك أنبياؤه ورسله.

إنّ العقل البشري قاصر عن فهم حقيقة روح الإنسان وبدنه وعلاقة أحدهما بالآخر، ولايعرف مبدأ خلقه وكيفية تكوّنه والعوالم التي مرّ بها قبل هذه الدنيا وغير ذلك، فكيف يتحكّم إليه لمعرفة كيفية المعاد ونهاية الخلق وتفاصيل ما يؤول إليه أمر الإنسان؟

لاسبيل لمعرفة كيفية المعاد وحقيقته إلا الإيمان بالغيب والتصديق لنبأ الصادق المصدّق.

ومن الغريب - ولاينقضي العجب - أنّ بعض الفلاسفة راموا أن يقفوا على كيفية المعاد بعقولهم القاصرة، فأنكروا ما عليه ضرورة جميع الأديان السماوية.

والذي دلت عليه نصوص الوحي اليقينية، من محكمات القرآن وروايات النبي والعترة عليهم السلام، أنّ الروح بعد مفارقتها البدن ودفن الأبدان في القبور وتناثر أجزائها،

تعود في البدن كما كان، بعد أن يؤلّف بين أجزاء البدن المتناثرة، فتتعلّق بها الأرواح مرّة أخرى كما في هذه الدنيا، فالمُعاد في المَعاد هو نفس البدن العنصري الترابي المدفون الذي صار تراباً ورماداً، قال الخواجة نصير الدين الطوسي:

«الضرورة قاضية بثبوت الجسماني من دين النبي صلى الله عليه وآله». (١)

وعن العلامة الحلي:

«اتّفق المسلون على إعادة الأجساد، خلافاً للفلاسفة». (٢)

وعن المحقق الدواني:

«والمعاد – أي الجسماني، فإنّه المتبادر من إطلاق الشرع، إذ هو الذي يجب الاعتقاد به ويكفر من أنكره– حقّ بإجماع أهل الملل الثلاث وشهادة نصوص القرآن في المواضع المتعدّدة بحيث لايقبل التأويل». (٣)

وقال العلامة المجلسي:

«اعلم أنّ القول بالمعاد الجسماني مما اتفق عليه جميع المليين وهو من ضروريات الدين ومنكره خارج من عداد المسلمين، والآيات الكريمة في ذلك ناصّة لايعقل تأويلها والأخبار فيه متواترة، لايمكن ردّها ولا الطعن فيها،وقد نفاه أكثر ملاحدة الفلاسفة». (٤)

---

(١) كشف المراد: ٣٢٠.
(٢) انوار الملكوت في شرح الياقوت:١٩١.
(٣) عنه: بحار الآنوار:ج٧ ص٤٨.
(٤) بحار الأنوار:ج٧ ص ٤٨.

منهج القرآن الكريم في إثبات المعاد الجسماني

إنّ عمدة ما دعى مكذبي الرسل لإنكار المعاد هو حشر الأجساد البالية في القبور، فكانوا يستغربون ذلك ويستبعدونه، فحكى الله تعالى كلامهم في القرآن فقال:

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۞ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.(١)

﴿وَ قالَ الَّذينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفي خَلْقٍ جَديد أَفْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعيد﴾.(٢)

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُون﴾.(٣)

﴿قالُوا أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُون﴾.(٤)

﴿وَ قالَ الَّذينَ كَفَرُوا أَ إِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُون﴾.(٥)

﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُون﴾.(٦)

﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَ إِنَّا لَمَدينُون﴾.(٧)

---

(١) ق: ٢و ٣.

(٢) سبأ: ٧و ٨.

(٣) المؤمنون: ٣٥.

(٤) المؤمنون: ٨٢.

(٥) النمل: ٦٧.

(٦) الصافات: ١٦.

(٧) الصافات: ٥٣.

﴿وَ كانُوا يَقُولُونَ أَ إِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُون﴾.[1]

ترى أنّ الذي أثار استغرابهم ليس بقاء الأرواح بعد ترك الأبدان، وإنما حشر الأجساد البالية بعد صيرورتها رفاتاً وتراباً! وهذا التأكيد والتركيز من الله العلي الحكيم، يشهد لخطورة هذا الاستغراب من جهة، ولبداهة كلام الأنبياء في المعاد الجسماني بالبدن العنصري من جهة أخرى، وأنّ منطقة النزاع بين الطرفين إنما هو المعاد الجسماني.

العنصري من جهة أخرى، وأنّ منطقة النزاع بين الطرفين إنما هو المعاد الجسماني.

من هنا نعرف أنّ من رام إثبات المعاد الروحاني، سواء أكان مجرداً عن الجسم، أم مع وجود جسم آخر غير البدن الترابي المدفون تحت التراب الذي صار تراباً ورفاتاً، هو يمشي خارج السرب، ولم يثُبت شيئاً، حتى لو سمّي ذلك معاداً.

إنّ محل النزاع فيما بين الأنبياء والمكذّبين إنما هو المعاد الجسماني بالبدن العنصري الترابي، وليس بقاء الروح، أو إنشاء الروح لبدن من جنس آخر.

ثمّ إنّه تعالى لدفع هذه الاستبعادات والتمحّلات غير العقلية، من خلال عدة أساليب:

الأول: إيجاد نماذج عينية من حشر الأجساد

كما يقال: إنّ أدلّ دليل على إمكان الشيء وقوعه، وقد حكى الله تعالى وقوع هذا العود الجسماني في عدة من آيات الذكر الحكيم، بأنماط مختلفة.

منها: قصّة إرميا بعد أن أماته الله تعالى مائة عام، وهو نموذج لحشر الأجساد بعد تفسّخها وصيرورتها تراباً ورماداً بمرور سنين عديدة لايبقى الجسد في هذه السنين

---

(١) الواقعة:٤٧.

عادة، فحينما استفسر عن كيفية حشر الأجساد البالية، أماته الله تعالى مائة عام ثم أحياه وأحيى حماره أيضاً، وكان قد أبقى طعامه وشرابه سالماً لم يغيرهما مرور مائة سنة، في إشارة واضحة إلى أنّ قوانين الطبيعة محكومة لإرادة الله تعالى وليس العكس.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.(١)

في تفسير القمي عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فِي خَبَرٍ طَوِيلٍ يَذْكُرُ فِيهِ قِصَّةَ بُخْتَنَصَّرَ:

«أَنَّهُ لَمَّا قُتِلَ مَا قُتِلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَرَجَ أَرْمِيَا عَلَى حِمَارٍ وَمَعَهُ تِينٌ قَدْ تَزَوَّدَهُ وَشَيْءٌ مِنْ عَصِيرٍ. فَنَظَرَ إِلَى سِبَاعِ البَرِّ وَسِبَاعِ البَحْرِ وَسِبَاعِ الجَوِّ تَأْكُلُ تِلْكَ الجِيَفَ، فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: أَنَّى يُحْيِي اللهُ هَؤُلَاءِ وَقَدْ أَكَلَتْهُمُ السِّبَاعُ؟ فَأَمَاتَهُ اللهُ مَكَانَهُ، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِها قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾. أَيْ أَحْيَاهُ فَلَمَّا رَحِمَ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَهْلَكَ بُخْتَنَصَّرَ رَدَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الدُّنْيَا، وَكَانَ عُزَيْرٌ لَمَّا سَلَّطَ اللهُ بُخْتَنَصَّرَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ هَرَبَ وَدَخَلَ فِي عَيْنٍ وَغَابَ فِيهَا وَبَقِيَ إِرْمِيَا مَيِّتاً مِائَةَ سَنَةٍ ثُمَّ أَحْيَاهُ اللهُ فَأَوَّلُ مَا أَحْيَا مِنْهُ عَيْنَيْهِ فِي مِثْلِ غِرْقِئِ البَيْضِ. فَنَظَرَ فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ﴿كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً﴾. ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الشَّمْسِ قَدِ ارْتَفَعَتْ فَقَالَ: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾. أَيْ لَمْ يَتَغَيَّرْ ﴿وَ انْظُرْ إِلى حِمارِكَ

(١) البقرة: ٢٥٩.

وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً﴾. فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى العِظَامِ البَالِيَةِ المُنْفَطِرَةِ تَجْتَمِعُ إِلَيْهِ وَإِلَى اللَّحْمِ الَّذِي قَدْ أَكَلَتْهُ السِّبَاعُ يَتَأَلَّفُ إِلَى العِظَامِ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا وَيَلْتَزِقُ بِهَا حَتَّى قَامَ وَقَامَ حِمَارُهُ فَقَالَ ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾». [١]

منها: قصّة إبراهيم الخليل عليه السلام والطيور الأربعة، وهو نموذج لحشر الأجساد بعد اختلاط أجزائها ودخول بعضها في البعض وأكل بعضها بعضاً.

﴿وَ إِذْ قالَ إِبْراهيمُ رَبِّ أَرِني كَيْفَ تُحْيِ المَوْتى قالَ أَ وَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكيمٌ﴾. [٢]

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: لَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمُ عليه السلام مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ...التَفَتَ فَرَأَى جِيفَةً عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ نِصْفُهَا فِي المَاءِ وَنِصْفُهَا فِي البَرِّ، تَجِيءُ سِبَاعُ البَحْرِ فَتَأْكُلُ مَا فِي المَاءِ، ثُمَّ تَرْجِعُ فَيَشُدُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَيَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضاً وَتَجِيءُ سِبَاعُ البَرِّ فَتَأْكُلُ مِنْهَا فَيَشُدُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَيَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضاً، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَعَجَّبَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام مِمَّا رَأَى وَقَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ المَوْتى﴾. قَالَ: كَيْفَ تُخْرِجُ مَا تَنَاسَلَ الَّتِي أَكَلَ بَعْضُهَا بَعْضاً ﴿قالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. يَعْنِي حَتَّى أَرَى هَذَا كَمَا رَأَيْتُ الأَشْيَاءَ كُلَّهَا ﴿قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً﴾. فَقَطِّعْهُنَّ وَاخلِطْهُنَّ كَمَا اخْتَلَطَتْ هَذِهِ الجِيفَةُ فِي هَذِهِ السِّبَاعِ الَّتِي أَكَلَ بَعْضُهَا بَعْضاً فَخَلَّطَ ثُمَّ جَعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَ يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾. فَلَمَّا دَعَاهُنَّ

---

(١) بحار الأنوار: ج٧ ص ٣٤.

(٢) البقرة: ٢٦٠.

أَجَبْنَهُ وَكَانَتِ الجِبَالُ عَشَرَةً،[١]

وقد بيّن الله تعالى لإبراهيم عليه السلام أنّ اختلاط الأبدان واختلاط بعضها ببعض، لايوجب اختلاط الأمر لدى الله تعالى، فأجزاء كلّ بدنٍ محفوظ من أن تصير جزءاً لبدن الأخر، وسيجمعها الله تعالى فيحييها.

منها: قصّة المقتول الذي أحياه الله تعالى من بني إسرائيل، وهو نموذج لإحياء الميت قبل تفسّخ الجسد، وإنما حصل اختلال في جسده سبّب خروج الروح منه، فأصلح الله تعالى الجسد وأرجع الروح فيه، فحكى لهم عن قصة قتله، وهذا هو ما يحصل يوم القيامة.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللهُ المَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.[٢]

(١) الكافي: ج٨ ص٣٠٥ ح٤٧٣

(٢) البقرة: ٧٢ و٧٣.

الأسئلة

١- ما هو المقدار الذي يدركه العقل في أمر المعاد وما هي المنطقة التي يتوقف فهمها على الإنباء الغيبي من الله تعالى؟

٢- ما الفرق بين المعاد الجسماني الذي أتى به القرآن وإيجاد أجساد مثالية تتعلق بها الأرواح بعد الموت؟

٣- ما هي منطقة النزاع في المعاد بين الأنبياء والمكذبين؟

٤- ما هي ميزة قصة النبي الذي أماته الله تعالى مائة عام في دفع استغراب المنكرين، وماذا عن قصة إحياء الطيور الأربعة بيد النبي إبراهيم عليه السلام؟

٥- كيف يكون ذكر النماذج العينية من المعاد الجسماني رداً لاستبعادات وتمحلات المنكرين؟

الدرس الخامس والأربعون: المعاد الجسماني (٢)

الثاني: دفع شبهات واستغراب المنكرين

في الخطوة الثانية عمد الله تعالى في القرآن الكريم لدفع مناشيء الاستنكار والاستغراب التي دعت المنكرين لإنكار المعاد الجسماني.

منها: الغفلة عن ابتداء خلق الإنسان

من مناشيء الاستنكار الحاصل لدى البعض، هو عدم الالتفات إلى ابتداء خلق الإنسان وتكوّنه من تراب، وكذلك عدم فهم حقيقة بدن الإنسان وروحه، وبدء الخلق وكيفية تعلّق الروح بالبدن، فإن كان ابتداء خلق الإنسان من طين كما قال تعالى: ﴿بَدَأَ خَلْقَ الإِنْسانِ مِنْ طين﴾[١]، فلا استبعاد لإعادة خلقه بعد ما تحول إلى الطين مرة أخرى، فالذي خلقهم أول مرة سيعيدهم مرة أخرى بعد ما صاروا تراباً ورماداً ورفاتاً، بل حتى لو صاروا حجراً أو حديداً أو شيئاً أكبر منهما في صدورهم، كل ذلك لايحول دون إعادة الحياة في أبدانهم كما خلقهم أول مرة من عناصر مختلفة، ونفخ فيهم روح الحياة.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا۞ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾.[٢]

---

(١) السجدة: ٧.

(٢) الإسراء: ٤٩ – ٥١.

روى الشيخ في أماليه أن نفراً من قريش اعترضوا على رسول الله ﷺ، منهم: عتبة بن ربيعة، وأبي بن خلف، والوليد بن المغيرة، والعاص بن سعيد، فمشى إليه أبي بن خلف بعظم رميم، ففته في يده، ثم نفخه، وقال: أتزعم أن ربك يحيي هذا بعد ما ترى؟!

فأنزل الله تعالى هذه الايات:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.(١)

منها: الغفلة عن قدرة الله تعالى

حينما يجعل الإنسان قدراته ومقدار علمه معياراً لإمكان الأشياء واستحالتها، تحدث مثل هذه الطامات، فحينما يرى من الصعب بل الممتنع عليه أن يحصي الأجزاء المتفتّتة من الأبدان مع تداخل بعضها في بعض، وإعادتها مثل ما كان مرة أخرى، فيدّعي استحالته، استكباراً واغتراراً بنفسه، قال تعالى: **﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ۝ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾**.(٢)

فقد تحدى بقدرته على إعادة البنان في الأصابع، وهو من أدق الأشياء في تفاصيل تركيب بدن الإنسان، فلايعزب عنه علمه ولاتقصر عنه قدرته.

وَ مِنْ سُؤَالِ الزِّنْدِيقِ الَّذِي سَأَلَ أَبَا عَبْدِ الله ؑ عَنْ مَسَائِلَ كَثِيرَةٍ أَنَّهُ قَالَ: ...قَالَ: وَأَنَّى لَهُ بِالبَعْثِ وَالبَدَنُ قَدْ بَلِيَ وَالأَعْضَاءُ قَدْ تَفَرَّقَتْ؟ فَعُضْوٌ بِبَلْدَةٍ يَأْكُلُهَا سِباعُهَا، وَعُضْوٌ بِأُخْرَى تُمَزِّقُهُ هَوَامُّهَا، وَعُضْوٌ صَارَ تُرَاباً بُنِيَ بِهِ مَعَ الطِّينِ حَائِطٌ-؟

---

(١) يس: ٧٧ - ٧٩.

(٢) القيامة: ٣ و٤.

قَالَ عليه السلام: «إِنَّ الَّذِي أَنْشَأَهُ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ وَصَوَّرَهُ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ كَانَ سَبَقَ إِلَيْهِ، قَادِرٌ أَنْ يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ».

قَالَ أَوْضِحْ لِي ذَلِكَ: قَالَ «إِنَّ الرُّوحَ مُقِيمَةٌ فِي مَكَانِهَا رُوحُ الْمُحْسِنِ فِي ضِيَاءٍ وَفُسْحَةٍ وَرُوحُ الْمُسِيءِ فِي ضِيقٍ وَظُلْمَةٍ، وَالْبَدَنُ يَصِيرُ تُرَاباً كَمَا مِنْهُ خُلِقَ وَمَا تَقْذِفُ بِهِ السِّبَاعُ وَالْهَوَامُّ مِنْ أَجْوَافِهَا مِمَّا أَكَلَتْهُ وَمَزَّقَتْهُ، كُلُّ ذَلِكَ فِي التُّرَابِ مَحْفُوظٌ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ، وَيَعْلَمُ عَدَدَ الأَشْيَاءِ وَوَزْنَهَا. وَ إِنَّ تُرَابَ الرُّوحَانِيِّينَ بِمَنْزِلَةِ الذَّهَبِ فِي التُّرَابِ. فَإِذَا كَانَ حِينُ الْبَعْثِ مُطِرَتِ الأَرْضُ مَطَرَ النُّشُورِ فَتَرْبُو الأَرْضُ ثُمَّ تمخضوا [تُمْخَضُ] مَخْضَ السِّقَاءِ، فَيَصِيرُ تُرَابُ الْبَشَرِ كَمَصِيرِ الذَّهَبِ مِنَ التُّرَابِ إِذَا غُسِلَ بِالْمَاءِ- وَالزُّبْدِ مِنَ اللَّبَنِ إِذَا مُخِضَ، فَيَجْتَمِعُ تُرَابُ كُلِّ قَالَبٍ إِلَى قَالَبِهِ فَيَنْتَقِلُ بِإِذْنِ اللهِ الْقَادِرِ إِلَى حَيْثُ الرُّوحِ فَتَعُودُ الصُّوَرُ بِإِذْنِ الْمُصَوِّرِ، كَهَيْئَتِهَا وَتَلِجُ الرُّوحُ فِيهَا فَإِذَا قَدِ اسْتَوَى لَا يُنْكِرُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا»...[1]

الثالث: التذكير بحالات مشابهة للمعاد تحصل للإنسان

منها: النوم واليقظة

من مناشيء إنكار حشر الأجساد هو عدم العلم بحقيقة العلاقة بين الروح والبدن، حيث يرى استحالة رجوع الروح إلى البدن بعد انفصاله، حيث يزعم أنّ هذا الانفصال مرتبة كمال فعلي حاصل للإنسان، فيكون رجوعه إلى البدن تقهقر في السير التكاملي.

و ردّ الله تعالى عليهم بتنبيههم لحقيقة هذه العلاقة وأنّها شبيهة بما يحصل لهم في المنام، حيث يتوفي الأنفس في المنام ثم يرجعها إن لم يقضي عليها الموت، فهذا الانفصال والوصال مما يحصل دائماً وليس أحدهما كمالاً للآخر.

---

(١) الطبرسي، الاحتجاج: ج٢ ص٣٥١.

﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حينَ مَوْتِها وَالَّتي لَمْ تَمُتْ في مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتي قَضى عَلَيْها المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون﴾.[1]

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ إِنَّ الرَّائِدَ لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ وَلَتَبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُون.[2]

منها: إحياء الأرض بعدموتها

قد شاهد الإنسان في حياته مرات عديدة حياة الأرض بعد موتها، فحينما تفقد الأشجار الحياة النباتية وتفتقد معها كثيراً من أجزائها وأغصانها وأوراقها وما في جوفها من المياه والصمغ، فتتحول إلى خشبة يابسة لاتجد فيها أثراً من الحياة، ثم بحلول الربيع تجد الحياة من جديد، وترجع إلى ما كانت عليه من طراوة ونضارة.

هذه العملية هي بعينها ما يحصل للإنسان بالنسبة للحياة الإنسانية، وإذا وجد إشكال فهو وارد على كليهما بلا فرق بينهما، قال تعالى:﴿فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِي المَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدير﴾.[3]

﴿وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذي أَحْياها لَمُحْيِي المَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدير﴾.[4]

﴿وَ اللهُ الَّذي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُور﴾.[5]

(١) الزمر:٤٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٧ ص٤٧.

(٣) الروم: ٥٠.

(٤) فصلت: ٣٩.

(٥) فاطر: ٩.

البدن الأصلي والزوائد

الإنسان كائن حي مركب من البدن والروح، ولكلّ منهما مدخلية في تكوّنه، كما أنّ لكل منهما أعراضاً وحالات خاصّة، فمن أعراض وخواصّ البدن أنّه يتغذى من أجزاء نباتية أو حيوانية ويرتوي من الماء ويستنشق الهواء ويستضيء بضوء الشمس، فينمو ويزداد حجمه ووزنه، كما أنّه يبتلي بالعلل والأمراض والهرم، فينتكس ويضعف ويقل حجمه ووزنه، وكل هذه التغييرات هي عوارض تعرض على البدن الأصلي، لكن البدن هو شيء واحد وثابت لايتغيّر مع كلّ هذه التغيّرات، لا أنّه حينما كان وزنه نصف هذا الوزن الذي عليه الآن، له نصف البدن، أو أنه الآن له بدنان، بل هو البدن الفارد من حين كان وزنه مثقالاً إلى أن كبر وصار عشرات الكيلوات وإلى أن انتكس وضعف مرة أخرى، فالبدن واحد، وانما اختلفت عوارضه، كما أنّ هنالك أعضاءً وعناصر تنفصل عن البدن وتحلّ مكانها أجزاء أخرى دائماً، من دون أن يحصل نقص في بدنه، أو يتعدد البدن في جميع هذه الحالات.

فالبدن من حين أن كان نطفة أو جنيناً أو طفلاً إلى أن يصير شاباً أو شيخاً وكهلاً، بدن واحد وشيء فارد، رغم تغيّر حالاته وعوارضه بل وتبدّل كثير من أجزائه.

من هنا يمكن تقسيم البدن إلى قسمين: البدن الأصلي والزوائد، فالأصلي هو حقيقة البدن الواحد المتوحّد في جميع حالاته المختلفة، والزيادات هي التي تحصل في البدن الأصلي بالنمو، فمثلاً إنّ هناك مساحة كبيرة من البدن يشغلها الماء، فلو خرج هذا الماء من البدن ثم أبدل بماء آخر مكانه، فهذا لايضرّ بوحدة البدن، إذاً فهذا الماء لايمكن أن يكون من الإجزاء الأصلية للبدن.

وهكذا الشعر والظفر، بل وكثيرٌ من الشحوم الزائدة وأمثال ذلك، كما أنّ زوال أوراق وأغصان ومياه جوفية للشجرة وتبديلها بغيرها لايضرّ بوحدتها، وأنّها بنفسها

تحيى بعد موتها.

من هنا يمكن القول: بأنّ تغيير الأجزاء الزائدة من البدن، وتبدّدها واندثارها، بل وحلولها في بدن إنسان آخر وصيرورتها جزءاً من بدنه، كلّ ذلك لايضرّ بوحدة البدن المحفوظ بأجزائه الأصلية في علم الله تعالى.

وأما البدن الأصلي والأجزاء الأصلية فلن تتحد مع بدن آخر بل تبقى محفوظة في علم الله تعالى، فيحييها الله تعالى فتنمو مرة أخرى، ولا ضرورة لإعادة الأجزاء الزائدة لتكوّن البدن مرة أخرى بعد موته.

وهذا البدن الأصلي كان مخلوقاً قبل هذه الدنيا في عالم الذرّ على ما ورد في روايات العترة الطاهرة عليهم السلام.

في الكافي بسنده عن عَنْ عَمَّارِ بْنِ مُوسَى عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «**سُئِلَ عَنِ الْمَيِّتِ يَبْلَى جَسَدُهُ قَالَ نَعَمْ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ لَحْمٌ وَلَا عَظْمٌ إِلَّا طِينَتُهُ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا فَإِنَّهَا لَا تَبْلَى تَبْقَى فِي الْقَبْرِ مُسْتَدِيرَةً حَتَّى يُخْلَقَ مِنْهَا كَمَا خُلِقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ**».[1]

وبالتأمل فيما ذكرنا تندفع كثير من الشبهات، نظير ما هو مطروح من قديم الزمان المسمّى بشبهة الآكل والمأكول، من أنّه لو فرضنا أن بدن إنسان صار جزءاً لبدن إنسان آخر، بأن أكله أو تحولت أجزاء بدنه إلى التراب فنمى منه النبات فأكل منه أخر فصار جزءاً من بدنه، فلمن يكون هذا البدن، ومع أي روح يكون حين المعاد؟

و الجواب: أنّ ما يمكن أن يتبدّد ويصير جزءاً لبدن إنسان آخر إنما هي الزيادات التي دائماً تكون في حال التغيير والتحوّل، ولاتضر بوحدة البدن، أما البدن الأصلي الذي هو البدن الذري فهو لن يتّحد ببدن أي إنسان آخر، بل يحفظه الله تعالى أينما حلّ وارتحل.

---

(١) الكافي: ج٣ ص٢٥١.

الأسئلة

١- كيف يُدفع استغراب المعاد الجسماني بالإلتفات إلى بدء خلق الإنسان؟

٢- ما هو وجه الشبه بين النوم والموت وكيف يستدل بأحدهما على الآخر؟

٣- ما هو المقصود بالبدن الأصلي وكيف يمكن تمييزه عن الزوائد؟

٤- ما هو المعيار لوحدة البدن مع ما نشاهد من تغيير كثير من مواده وأجزائه وكبره بعد صغره وصغره بعد كبره؟

٥- كيف يجاب عن شبهة الآكل والمأكول على ضوء التمييز بين البدن الأصلي والزوائد؟

٦- ما هو منشأ خلق البدن الأصلي؟

الدرس السادس والأربعون: من منازل الآخرة ومواقف القيامة (١)

الاحتضار

و هو اسم للحالة التي يشرف الإنسان فيها على الموت ونزع الروح، فتحضر عنده الملائكة لقبض روحه، كما قد تحضر عنده الشياطين لأخذ إيمانه منه.

وهنالك أحكام خاصّة ينبغي مراعاتها للمحتضر.

سكرات الموت

فمن جهة يشاهد أنّه عازم على فراق الأحبة والأقارب والأموال والأولاد، ومن جهة أخرى تعرض عليه حالة من الفزع والرعب حينما يقفل على أعضائه ويساق إلى الموت وهو لايدري ما يصنع به، قال تعالى: ﴿وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيد﴾.(١)

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «كيفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ، فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ، اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ الفَوْت».(٢)

وفي بعض الأخبار أنّه تتمثّل لديه جميع أعماله التي عملها في الدنيا، فيراها رأي العين كما يرى آثارها ونتائجها، كما يتمثل له ماله وولده، فيتكلّم معها.

(١) ق: ١٩.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٠٩.

في الكافي بسنده قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «إِنَّ ابْنَ آدَمَ إِذَا كَانَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَأَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الآخِرَةِ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ وَعَمَلُهُ. فَيَلْتَفِتُ إِلَى مَالِهِ فَيَقُولُ: وَاللهِ إِنِّي كُنْتُ عَلَيْكَ حَرِيصاً شَحِيحاً، فَمَا لِي عِنْدَكَ؟ فَيَقُولُ: خُذْ مِنِّي كَفَنَكَ. قَالَ: فَيَلْتَفِتُ إِلَى وَلَدِهِ فَيَقُولُ: وَاللهِ إِنِّي كُنْتُ لَكُمْ مُحِبّاً وَإِنِّي كُنْتُ عَلَيْكُمْ مُحَامِياً، فَمَاذَا لِي عِنْدَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نُؤَدِّيكَ إِلَى حُفْرَتِكَ نُوَارِيكَ فِيهَا، قَالَ: فَيَلْتَفِتُ إِلَى عَمَلِهِ فَيَقُولُ: وَاللهِ إِنِّي كُنْتُ فِيكَ لَزَاهِداً، وَإِنْ كُنْتَ عَلَيَّ لَثَقِيلًا، فَمَا ذَا عِنْدَكَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا قَرِينُكَ فِي قَبْرِكَ وَيَوْمِ نَشْرِكَ حَتَّى أُعْرَضَ أَنَا وَأَنْتَ عَلَى رَبِّكَ ..».(١)

حضور النبي والأئمة عليهم السلام عند المحتضر

مما يشاهده المحتضر - كما هو مدلول كثير من الروايات - حضور رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام أو بعضهم عنده، سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن، فيكون بشارة للمؤمن وسبباً لنزول السكينة عليه، فيسرّ بذلك ويزال عنه الهم والحزن ويزداد شوقه للقائهم فيسهل عليه قبض الروح، أما المنافق والكافر فيسوؤه هذا الحضور، حيث كان يجحدهم ويبغضهم ولم يراع حقوقهم، فيكون ذلك سبباً للمزيد من الخوف والفزع، فيصعب عليه النزع.

عَنِ ابْنِ سِنَانٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: **مَا يَمُوتُ مُوَالٍ لَنَا مُبْغِضٌ لِأَعْدَائِنَا- إِلَّا وَيَحْضُرُهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عليهم السلام فيسروه [فَيَسُرُّونَهُ] وَيبشروه [يُبَشِّرُونَهُ]، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُوَالٍ لَنَا يَرَاهُمْ بِحَيْثُ يَسُوؤُهُ**، والدليل على ذلك قَوْلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام لِحَارِثٍ الْهَمْدَانِيِّ:

يَا حَارِ هَمْدَانَ مَنْ يَمُتْ يَرَنِي

(١) الكافي: ج٣ ص٢٣١.

مِنْ مُؤْمِنٍ أَوْ مُنَافِقٍ قُبُلا[١]

قبض الروح

وكّل الله تعالى لقبض أرواح الناس عزرائيل عليه السلام وهو من أعظم ملائكة الله تعالى المقرّبين، وقد أعطاه الله تعالى من العلم والقدرة ما صارت الدنيا كلّها كدرهم في كفّ أحدنا، مع وجود عدّة من الملائكة العاملين بأمره يقبضون أرواح العباد عند بلوغ آجالهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.[٢]

ثمّ إنّه يقبض روح المؤمن بيسر ورفق، وروح الكافر بشدّة وغلظة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ إِذَا نَزَلَ لِقَبْضِ رُوحِ الكَافِرِ، نَزَلَ مَعَهُ سَفُّودٌ مِنْ نَارٍ، فَيَنْزِعُ رُوحَهُ بِهِ، فَتَصِيحُ جَهَنَّمُ».[٣]

عن أمير المؤمنين عليه السلام: ...«قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله فَمَا لِشِيعَتِنَا فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: الأَمْنُ وَالعَافِيَةُ. قُلْتُ: فَمَا لَهُمْ عِنْدَ المَوْتِ؟ قَالَ: يَحْكُمُ الرَّجُلُ فِي نَفْسِهِ، وَيُؤْمَرُ مَلَكُ المَوْتِ بِطَاعَتِهِ. قُلْتُ: فَمَا لِذَلِكَ حَدٌّ يُعْرَفُ؟ قَالَ بَلَى إِنَّ أَشَدَّ شِيعَتِنَا لَنَا حُبّاً يَكُونُ خُرُوجُ نَفْسِهِ كَشُرْبِ أَحَدِكُمْ فِي يَوْمِ الصَّيْفِ المَاءَ البَارِدَ الَّذِي يَنْتَقِعُ بِهِ القُلُوبُ، وَإِنَّ سَائِرَهُمْ لَيَمُوتُ كَمَا يُغْبَطُ أَحَدُكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ كَأَقَرِّ مَا كَانَتْ عَيْنُهُ بِمَوْتِهِ».[٤]

وقد يتحمّل المؤمن بعض الشدائد والأهوال حين قبض الروح، فتكون كفارة لمعاصيه وتطهيراً له، كما قد يسهّل على الكافر وفاء لبعض حسناته في الدينا.

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص ٢٦٥.

(٢) السجدة: ١١.

(٣) الكافي: ج٣ ص ٢٥٣.

(٤) بحار الأنوار: ج٦ ص١٦٢.

روى الصدوق بسنده عَنْ الامام الرِّضَا عَنْ أَبِيهِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليهم السلام قَالَ: «قِيلَ له عليه السلام صِفْ لَنَا المَوْتَ. قَالَ: لِلْمُؤْمِنِ كَأَطْيَبِ رِيحٍ يَشَمُّهُ فَيَنْعُسُ لِطِيبِهِ وَيَنْقَطِعُ التَّعَبُ وَالأَلَمُ كُلُّهُ عَنْهُ. وَ لِلْكَافِرِ كَلَسْعِ الأَفَاعِيِّ وَلَدْغِ العَقَارِبِ وَأَشَدَّ.

قِيلَ: فَإِنَّ قَوْماً يَقُولُونَ إِنَّهُ أَشَدُّ مِنْ نَشْرٍ بِالمَنَاشِيرِ وَقَرْضٍ بِالمَقَارِيضِ وَرَضْخٍ بِالأَحْجَارِ وَتَدْوِيرِ قُطْبِ الأَرْحِيَةِ عَلَى الأَحْدَاقِ؟

قَالَ: كَذَلِكَ هُوَ عَلَى بَعْضِ الكَافِرِينَ وَالفَاجِرِينَ، أَلَا تَرَوْنَ مِنْهُمْ مَنْ يُعَايِنُ تِلْكَ الشَّدَائِدَ فَذَلِكُمُ الَّذِي هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَذَا الأَمْرِ عَذَابُ الآخِرَةِ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا.

قِيلَ: فَمَا بَالُنَا نَرَى كَافِراً يَسْهُلُ عَلَيْهِ النَّزْعُ فَيَنْطَفِي وَهُوَ يُحَدِّثُ وَيَضْحَكُ وَيَتَكَلَّمُ، وَفِي المُؤْمِنِينَ أَيْضاً مَنْ يَكُونُ كَذَلِكَ، وَفِي المُؤْمِنِينَ وَالكَافِرِينَ مَنْ يُقَاسِي عِنْدَ سَكَرَاتِ المَوْتِ هَذِهِ الشَّدَائِدَ؟

فَقَالَ: مَا كَانَ مِنْ رَاحَةٍ لِلْمُؤْمِنِ هُنَاكَ فَهُوَ تَعْجِيلُ ثَوَابٍ، وَمَا كَانَ مِنْ شَدِيدٍ فَتَمْحِيصُهُ مِنْ ذُنُوبِهِ لِيَرِدَ الآخِرَةَ نَقِيّاً نَظِيفاً مُسْتَحِقّاً لِلثَّوَابِ الأَبَدِ لَا مَانِعَ لَهُ دُونَهُ. وَمَا كَانَ مِنْ سُهُولَةٍ هُنَاكَ عَلَى الكَافِرِ فَلِيُوَفَّى أَجْرَ حَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا لِيَرِدَ الآخِرَةَ وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا مَا يُوجِبُ عَلَيْهِ العَذَابَ، وَمَا كَانَ مِنْ شِدَّةٍ عَلَى الكَافِرِ هُنَاكَ فَهُوَ ابْتِدَاءُ عَذَابِ الله لَهُ ذَلِكُمْ بِأَنَّ اللهَ عَدْلٌ لَا يَجُورُ».(1)

البرزخ

البرزخ اسم للعالم الذي يعيش فيه الإنسان من زمان الموت إلى زمان حشر الأجساد في الرجعة أو في القيامة الكبرى، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۞ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ

(1) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١ ص٢٧٤.

إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.(١)

في الكافي بسنده عَنْ عَمْرِو بْنِ يَزِيدَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «...مَا الْبَرْزَخُ؟ قَالَ: **الْقَبْرُ مُنْذُ حِينِ مَوْتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**».(٢)

و عالم البرزخ يكون في هذه الدنيا وعلى الأرض، وكما أن جنة البرزخ وجحيمها أيضاً تكونان في ناحية من نواحي هذه الأرض، وفيهما الليل والنهار وشروق الشمس وغروبها، بينما الجنّة والنار الأخروية تكونان بعد فناء الدنيا وبطلان الشمس والقمر، قال تعالى: **﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۞ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾**.(٣)

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «**ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّ نَارَ الْقِيَامَةِ لَا تَكُونُ غُدُوّاً وَعَشِيّاً، ثُمَّ قَالَ: إِنْ كَانُوا إِنَّمَا يُعَذَّبُونَ غُدُوّاً وَعَشِيّاً فَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ هُمْ مِنَ السُّعَدَاءِ، وَلَكِنْ هَذَا فِي نَارِ الْبَرْزَخِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَ: ﴿وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾**».(٤)

و الروح وإن استقلّت عن البدن في عالم البرزخ، إلا أنّها تبقى الروح وهي خارجة عن البدن متعلقة بالبدن، وما يمر بالبدن من أحوال وحالات يؤثّرفي الروح، ومن هنا أمر بتحريك البدن عند التلقين، واحترام البدن بتجهيزه وزيارة القبور وغير ذلك.

ثمّ إن جملة من أحداث عالم البرزخ، بعضها تقع في القبر حيث تواجد الجسد، وبعضها تقع خارج القبر حيث تتواجد فيها الروح، فمن الأول مساءلة القبر، وضغطة

(١) المؤمنون: ٩٩ و١٠٠.
(٢) الكافي: ج٣ ص٢٤٢
(٣) غافر: ٤٥ و٤٦.
(٤) بحار الأنوار: ج٦ ص٢٨٤.

القبر، ومن الثاني اجتماع أرواح المؤمنين في وادي السلام وأرواح الكفار في وادي برهوت، ومع ذلك لاتنقطع العلاقة والزيارات بين الروح والبدن طول عالم البرزخ.

القبر

و هو مكان تواجد البدن بعد الموت، حتى وإن لم يدفن في الأرض، وهو أول منازل الآخرة.

قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: «**إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ فَإِنْ نَجا مِنْهُ فَما بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَما بَعْدَهُ لَيسَ أَقَلَّ مِنْه**».[1]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ عليه السلام: «**إِنَّ القَبْرَ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النِّيرَانِ**»[2]

مساءلة القبر

من أهمّ ما يحدث في القبر هي المساءلة في القبر، وهذه المساءلة تحدد مصير الإنسان في المنازل المتأخرة عنه.

قال الصادق عليه السلام: «**مَنْ أَنْكَرَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ فَلَيْسَ مِنْ شِيعَتِنَا: المِعْرَاجَ وَالمُسَاءَلَةَ فِي القَبْرِ وَالشَّفَاعَة**».[3]

و السؤال في القبر نوع من المحاسبة على أساس الإيمان والكفر، ومن هنا يسأل عن أصول العقائد الحقّة والخطوط العامّة في سلوك الإنسان.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦ ص٢٤٢.

(٢) تفسير القمي: ج٢ ص٩٤.

(٣) أمالي الصدوق: ٢٩٤، بحار الانوار: ج٦ ص ٢٢٣.

و في بعض الأخبار كما قال الشيخ المفيد: إن اسمي الملكين اللذين ينزلان على الكافر ناكر ونكير واسمي الملكين اللذين ينزلان على المؤمن مبشر وبشير.(١)

قال علي بن الحسين عليه السلام: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّ أَجَلَكَ أَسْرَعُ شَيْءٍ إِلَيْكَ، قَدْ أَقْبَلَ نَحْوَكَ حَثِيثاً يَطْلُبُكَ وَيُوشِكُ أَنْ يُدْرِكَكَ وَكَأَنْ قَدْ أَوْفَيْتَ أَجَلَكَ وَقَبَضَ الْمَلَكُ رُوحَكَ وَصِرْتَ إِلَى قَبْرِكَ وَحِيداً، فَرَدَّ إِلَيْكَ فِيهِ رُوحَكَ وَاقْتَحَمَ عَلَيْكَ فِيهِ مَلَكَانِ- نَاكِرٌ وَنَكِيرٌ - لِمُسَاءَلَتِكَ وَشَدِيدِ امْتِحَانِكَ.أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَسْأَلَانِكَ عَنْ رَبِّكَ الَّذِي كُنْتَ تَعْبُدُهُ، وَعَنْ نَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكَ، وعَنْ دِينِكَ الَّذِي كُنْتَ تَدِينُ بِهِ، وَعَنْ كِتَابِكَ الَّذِي كُنْتَ تَتْلُوهُ، وَعَنْ إِمَامِكَ الَّذِي كُنْتَ تَتَوَلَّاهُ.ثُمَّ عَنْ عُمُرِكَ فِيمَا كُنْتَ أَفْنَيْتَهُ، وَمَالِكَ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبْتَهُ وَفِيمَا أَنْتَ أَنْفَقْتَهُ.فَخُذْ حِذْرَكَ وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ وَأَعِدَّ الْجَوَابَ قَبْلَ الِامْتِحَانِ وَالْمُسَاءَلَةِ وَالِاخْتِبَارِ، فَإِنْ تَكُ مُؤْمِناً عَارِفاً بِدِينِكَ مُتَّبِعاً لِلصَّادِقِينَ مُوَالِياً لِأَوْلِيَاءِ اللهِ لَقَّاكَ اللهُ حُجَّتَكَ وَأَنْطَقَ لِسَانَكَ بِالصَّوَابِ وَأَحْسَنْتَ الْجَوَابَ وَبُشِّرْتَ بِالرِّضْوَانِ وَالْجَنَّةِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَقْبَلَتْكَ الْمَلَائِكَةُ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ تَلَجْلَجَ لِسَانُكَ وَدَحَضَتْ حُجَّتُكَ وَعَيِيتَ عَنِ الْجَوَابِ وَبُشِّرْتَ بِالنَّارِ وَاسْتَقْبَلَتْكَ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِنُزُلٍ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةِ جَحِيمٍ».(٢)

ويظهر من هذا الخبر - وأخبار أخرى - أنّ الروح تعاد إلى البدن في القبر عند المساءلة، وفي بعض الأخبار أن هذا العود ليس إلى تمام البدن ليستعيد حياة كحياته في الدنيا، بل إنّ تعلّق الروح بالبدن بمقدار فهم الأسئلة الملقاة والرد اليهم، وإن لم يشعر بذلك سائر الناس الأحياء.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «...وَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ مَلَكَا الْقَبْرِ وَهُمَا قَعِيدَا الْقَبْرِ

(١) تصحيح إعتقادات الإمامية: ص ١٠٢

(٢) الكافي: ج٨ ص٧٣.

مُنْكَرٌ وَنكِيرٌ فَيُلْقِيَانِ فِيهِ الرُّوحَ إِلَى حَقْوَيْهِ فَيُقْعِدَانِهِ وَيَسْأَلَانِه ...».(١)

وتتمثل الأعمال في القبر

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: **«إِذَا وُضِعَ المَيِّتُ فِي قَبْرِهِ مُثِّلَ لَهُ شَخْصٌ فَقَالَ لَهُ: يَا هَذَا كُنَّا ثَلَاثَةً كَانَ رِزْقَكَ فَانْقَطَعَ بِانْقِطَاعِ أَجَلِكَ، وَكَانَ أَهْلَكَ فَخَلَّفُوكَ وَانْصَرَفُوا عَنْكَ، وَكُنْتُ عَمَلَكَ فَبَقِيتُ مَعَكَ أَمَا إِنِّي كُنْتُ أَهْوَنَ الثَّلَاثَةِ عَلَيْكَ».**(٢)

ثم إنّ مساءلة القبر ليست عامّة، بل تختص بمن مات مؤمناً أو مات كافراً، وأما المستضعف- أي الذي لم تتم عليه الحجة في الدنيا فلا آمن ولا كفر، أو الأطفال والمجانين ونظراءهم - فلا يسألون في القبر.

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: **«لَا يُسْأَلُ فِي القَبْرِ إِلَّا مَنْ مَحَضَ الإِيمَانَ مَحْضاً أَوْ مَحَضَ الكُفْرَ مَحْضاً وَالآخَرُونَ يُلْهَوْنَ عَنْهُم».**(٣)

عَنْ أَبِي بَكْرٍ الحَضْرَمِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: **«أَصْلَحَكَ اللهُ مَنِ المَسْئُولُونَ فِي قُبُورِهِمْ قَالَ مَنْ مَحَضَ الإِيمَانَ وَمَنْ مَحَضَ الكُفْرَ. قَالَ: قُلْتُ: فَبَقِيَّةُ هَذَا الخَلْقِ؟ قَالَ: يُلْهَى وَالله عَنْهُمْ، مَا يُعْبَأُ بِهِمْ. قَالَ: قُلْتُ: وَعَمَّ يُسْأَلُونَ؟ قَالَ: عَنِ الحُجَّةِ القَائِمَةِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ. فَيُقَالُ لِلْمُؤْمِنِ: مَا تَقُولُ فِي فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ؟ فَيَقُولُ: ذَاكَ إِمَامِي. فَيُقَالُ: نَمْ أَنَامَ اللهُ عَيْنَكَ. وَ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الجَنَّةِ، فَمَا يَزَالُ يُتْحِفُهُ مِنْ رَوْحِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ. وَ يُقَالُ لِلْكَافِرِ: مَا تَقُولُ فِي فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ سَمِعْتُ بِهِ وَمَا أَدْرِي مَا هُوَ. فَيُقَالُ لَهُ: لَا دَرَيْتَ. قَالَ: وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ، فَلَا يَزَالُ يُتْحِفُهُ مِنْ حَرِّهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ».**(٤)

---

(١) الكافي: ج٣ ص٢٣٩.

(٢) الكافي: ج٣ ص٢٤٠.

(٣) الكافي: ج٣ص٢٣٥.

(٤) الكافي: ج٣ ص٢٣٧.

ضغطة القبر

هذه الضغطة - التي قل من ينجو منها - تكون بداية عذاب الكافر، وتطهيراً للمؤمن وكفّارة لما ضيّع من النعم، أو سوء الخلق أو بعض المعاصي الأخرى[١].

عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام: **«أَيُفْلِتُ مِنْ ضَغْطَةِ القَبْرِ أَحَدٌ؟ قَالَ: فَقَالَ: نَعُوذُ بِالله مِنْهَا، مَا أَقَلَّ مَنْ يُفْلِتُ مِنْ ضَغْطَةِ القَبْرِ»**.[٢]

سُئِلَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام **«عَنِ المَصْلُوبِ يُصِيبُهُ عَذَابُ القَبْرِ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَبَّ الأَرْضِ هُوَ رَبُّ الهَوَاءِ، فَيُوحِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى الهَوَاءِ فَيَضْغَطُهُ ضَغْطَةً أَشَدَّ مِنْ ضَغْطَةِ القَبْرِ»**.[٣]

---

(١) راجع: علل الشرايع: ج١ ص٣٠٩، وبحار الأنوار: ج٦ ص٢٢٠ - ٢٢٢، ووسائل الشيعة: ج١ ص٣٣٩.
(٢) الكافي: ج٣ ص٢٣٦.
(٣) الكافي: ج٣ ص٢٤١.

الأسئلة:

١- ما معنى الاحتضار ولم سُمي الإنسان في ذلك الحال محتضرا؟

٢- ما معنى البرزخ وأين يقع عالم البرزخ؟

٣- من الذي يسأل عنه في القبر ومن الذي يلهى عنه؟

٤- ما الفرق بين جنة برزخ ونارها وجنة ونار الآخرة؟

٥- الروح حينما تكون خارجة عن البدن، فلماذا أمرنا بزيارة القبور وتلقين الميت بتحريك بدنه وغير ذلك مما يرتبط بالبدن؟

٦- كيف يمكن تفسير شدة سكرات الموت وصعوبة نزع الروح للمؤمن؟

٧- ما هي الذنوب والأمور التي توجب ضغطة القبر؟

٨- كيف تتم ضغطة القبر لمن لم يدفن في الأرض أو دفن في قبر واسع؟

الدرس السابع والأربعون: من منازل الآخرة ومواقف القيامة (٢)

حالات الأرواح في البرزخ

خلق الله تعالى الأرواح قبل الأبدان، وهي مستقلّة في حياتها عن البدن، لكنّه تعالى جعلها في الأبدان التي قدّر لها في ابتداء الخلق، فتُصاحِبُ البدن إلى حين الموت، ومن بعد الموت يبقى البدن في القبر، وتكون الروح في روضة من رياض الجنان أو حفرة من حفر النيران.

و يظهر من بعض الأخبار أنّ الله تعالى يجعل الأرواح في هيئة أبدانها الدنيوية.

عَنْ يُونُسَ بْنِ ظَبْيَانَ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فَقَالَ: «**مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي أَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ؟** فَقُلْتُ: يَقُولُونَ تَكُونُ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضْرٍ فِي قَنَادِيلَ تَحْتَ الْعَرْشِ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: **سُبْحَانَ الله الْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى الله مِنْ أَنْ يَجْعَلَ رُوحَهُ فِي حَوْصَلَةِ طَيْرٍ، يَا يُونُسُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ أَتَاهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عليهم السلام وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، فَإِذَا قَبَضَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ صَيَّرَ تِلْكَ الرُّوحَ فِي قَالَبٍ كَقَالَبِهِ فِي الدُّنْيَا فَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمُ الْقَادِمُ عَرَفُوهُ بِتِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا**».[1]

ثم إنّ الله تعالى يجمع أرواح المؤمنين في وادي السلام بالنجف الأشرف، ففيها تكون جنّتهم البرزخية، ويتنعمون ويتزاورون ويجلسون ويتحدّثون هناك.

في الكافي بسنده عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «**قُلْتُ لَهُ إِنَّ أَخِي بِبَغْدَادَ وَأَخَافُ أَنْ**

(١) الكافي: ج٣ ص٢٤٥.

يَمُوتَ بِهَا، فَقَالَ: مَا تُبَالِي حَيْثُمَا مَاتَ، أَمَا إِنَّهُ لَا يَبْقَى مُؤْمِنٌ فِي شَرْقِ الأَرْضِ وَغَرْبِهَا إِلَّا حَشَرَ اللهُ رُوحَهُ إِلَى وَادِي السَّلَامِ. قُلْتُ لَهُ: وَأَيْنَ وَادِي السَّلَامِ؟ قَالَ ظَهْرُ الكُوفَةِ، أَمَا إِنِّي كَأَنِّي بِهِمْ حَلَقٌ حَلَقٌ قُعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ».(١)

وفي المحاسن بسنده عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْحَاقَ الجَازِيِّ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: أَيْنَ أَرْوَاحُ المُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ أَرْوَاحُ المُؤْمِنِينَ فِي حُجُرَاتٍ فِي الجَنَّةِ، يَأْكُلُونَ مِنْ طَعَامِهَا وَيَشْرَبُونَ مِنْ شَرَابِهَا وَيَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَيَقُولُونَ رَبَّنَا أَقِمْ لَنَا السَّاعَةَ لِتُنْجِزَ لَنَا مَا وَعَدْتَنَا. قَالَ: قُلْتُ: فَأَيْنَ أَرْوَاحُ الكُفَّارِ؟ فَقَالَ فِي حُجُرَاتِ النَّارِ يَأْكُلُونَ مِنْ طَعَامِهَا وَيَشْرَبُونَ مِنْ شَرَابِهَا وَيَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَيَقُولُونَ رَبَّنَا لَا تُقِمْ لَنَا السَّاعَةَ لِتُنْجِزَ لَنَا مَا وَعَدْتَنَا».(٢)

و قد يُسمح لبعض الأرواح بزيارة أهلهم والاطلاع على حالهم، وذلك قد يكون للمؤمن على قدر ايمانه، وقد يكون للكافر فيزيد في غمّه وحسرته.

ففي الكافي بسنده عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ المُؤْمِنَ لَيَزُورُ أَهْلَهُ فَيَرَى مَا يُحِبُّ وَيُسْتَرُ عَنْهُ مَا يَكْرَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ لَيَزُورُ أَهْلَهُ فَيَرَى مَا يَكْرَهُ وَيُسْتَرُ عَنْهُ مَا يُحِبُّ. قَالَ: وَمِنْهُمْ مَنْ يَزُورُ كُلَّ جُمْعَةٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَزُورُ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ».(٣)

وفي الكافي بسنده عَنْ أَبِي الحَسَنِ الأَوَّلِ عليه السلام قَالَ: «سَأَلْتُهُ عَنِ المَيِّتِ يَزُورُ أَهْلَهُ قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: فِي كَمْ يَزُورُ؟ قَالَ: فِي الجُمْعَةِ وَفِي الشَّهْرِ وَفِي السَّنَةِ عَلَى قَدْرِ مَنْزِلَتِهِ. فَقُلْتُ: فِي أَيِّ صُورَةٍ يَأْتِيهِمْ؟ قَالَ: فِي صُورَةِ طَائِرٍ لَطِيفٍ يَسْقُطُ عَلَى جُدُرِهِمْ وَيُشْرِفُ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ رَآهُمْ بِخَيْرٍ فَرِحَ، وَإِنْ رَآهُمْ بِشَرٍّ وَحَاجَةٍ حَزِنَ وَاغْتَمَّ».(٤)

---

(١) الكافي: ج٣ ص٢٤٣.

(٢) بحارالأنوار: ج٦ ص ٢٣٤.

(٣) الكافي: ج٣ ص٢٣٠.

(٤) الكافي: ج٣ ص٢٣٠.

كما أنّ الأرواح تعرف زوار قبورها وتفرح بذلك.

في الكافي بسنده عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: **«زُورُوا مَوْتَاكُمْ فَإِنَّهُمْ يَفْرَحُونَ بِزِيَارَتِكُمْ، وَلْيَطْلُبْ أَحَدُكُمْ حَاجَتَهُ عِنْدَ قَبْرِ أَبِيهِ وَعِنْدَ قَبْرِ أُمِّهِ بِمَا يَدْعُو لَهُمَا»**.[1]

القيامة الصغرى (الرجعة)

مرّ أنّ من ضروريات مذهب الإمامية رجوع بعض الأموات إلى هذه الدنيا في ظل حكومة النبي وأهل بيته المعصومين عليهم السلام، وهي القيامة الصغرى[2].

و يختلف هذا الرجوع عن القيامة الكبرى في:

١- أنّ الرجعة تكون في هذه الدنيا ويكون بعده الموت مرة أخرى، بينما القيامة الكبرى تكون بعد فناء الدنيا وانشقاق السماء والكواكب وركود الشمس والقمر، ولايكون هناك موت.

٢- الحشر في القيامة الكبرى عام لجميع الناس سواء على صعيد واحد ولايغادر منهم أحدا، بينما الرجعة ليست عامة في دفعة واحدة، بل يكون الحشر دفعات وأفواج، ففي كل زمان يحشر فوج من الناس.

و قد ورد في الأخبار أنّ لكلّ إنسان قتل وموت، فمن قتل منهم يرجع حتى يموت

---

(١) الكافي: ج٣ ص٢٣٠.

(٢) قد أطلق على الرجعة في كلام بعض المتقدمين اسم القيامة الصغرى، وهومستفاد من الأخبار كما ذكره الحر العاملي في: الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة: ص٢٥١ وص٤٠٠، والمجلسي في مرآة العقول: ج٥ ص١٢٨.

ومن مات يرجع حتى يقتل[١]، وفي بعضها يرجع مع كل إمام جميع من كان معه في عصره برهم وفاجرهم[٢].

وهنالك روايات أخرى دلّت على أنّه لايرجع من الناس إلا من محّض الإيمان محضاً أو محّض الكفر محضاً، وفي بعضها الآخر لايسأل في الرجعة إلا هاتان الفئتان من الناس[٣]. و هذا نظير ما ورد في تخصيص سؤال القبر بمن محّض الإيمان أو محّض الكفر، إنما يكون لإخراج المستضعفين وغيرهم ممن لم يؤمنوا ولم يكفروا، ويكون المراد بمحض الإيمان ومحض الكفر الذي مات مؤمناً أو مات كافراً، كما دلّ بعض الأخبار على أن محض الإيمان هو الشهادة بالإيمان.[٤]

نعم إنّ الأقوام الذين أُهلكوا بالعذاب لايرجعون كما دلّت عليه الروايات الواردة في ذيل قوله تعالى: ﴿وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾.[٥]

و بحسب الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام فإنّ كثيراً من آيات القرآن الواردة في الحساب والجزاء والثواب والعقاب إنما تتحقّ في القيامة الصغرى، كما عبّر عن العقاب في الرجعة بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر[٦]، وعبرّ عن نعيم الجنة

---

(١) الحر العاملي، الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة: ص ٢٥٧ و٢٦٠ و٢٦١ و٢٦٢ و٣١٦.

(٢) الحر العاملي، الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة: ص ٣٣٣.

(٣) الحر العاملي، الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة: ٢٦١.

(٤) في فقه الرضا ص ٣٥٨: وأروي:إذا خطر ببالك في عظمته وجبروته أو بعض صفاته شيء من الأشياء، فقل: لا إله إلا الله، محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، علي أمير المؤمنين، **إذا قلت ذلك عدت إلى محض الإيمان.**

و راجع: الكافي: ج ٢ ص ٤٢٤.

(٥) الأنبياء: ٩٥.

(٦) السجدة: ٢١.

بقوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ* مُدْهَامَّتَانِ﴾.[١] كما في بعض الأخبار.

في مختصر البصائر بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «...وَ يَمْلِكُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَرْبَعاً وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يَلِدَ الرَّجُلُ مِنْ شِيعَةِ عَلِيٍّ عليه السلام أَلْفَ وَلَدٍ مِنْ صُلْبِهِ ذَكَراً، فِي كُلِّ سَنَةٍ ذَكَراً، وَعِنْدَ ذَلِكَ تَظْهَرُ الجَنَّتَانِ الْمُدْهَامَّتَانِ عِنْدَ مَسْجِدِ الكُوفَةِ وَمَا حَوْلَهُ بِمَا شَاءَ اللهُ».[٢]

و من أهم أحداث الرجعة خروج دابة الأرض، كما قال تعالى:﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ* وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.[٣]

و هي دابة ناطقة تكلّم الناس، فهو شاعر وعاقل ومتكلم، فلايمكن أن تكون من البهائم، ثمّ إنّها تتكلم معهم عن لسان الله جل جلاله فيقول: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُون﴾، فتجعل نفسها في موضع المحاسب، فتخاطب الناس أجمع عن لسان الله تعالى، وتعاتبهم على ترك اليقين بآيات الله تعالى، وهذه الصفات لاتنطبق إلا على خليفة الله تعالى والممثّل للدولة الإلهية، وقد استفاضت الأخبار من الفريقين على أنّ المراد بدابة الأرض هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، والتعبير بالخروج من الأرض يكون بمعنى البعث والنشور في الرجعة، كما ورد مثله في إخراج الناس من الأرض يوم القيامة.

عن الأصبغ بن نباتة قال: «قال لي معاوية: يَا مَعْشَرَ الشِّيعَةِ تَزْعُمُونَ أَنَّ عَلِيّاً دَابَّةُ

(١) الرحمن: ٦٢ – ٦٤.

(٢) حسن بن سليمان الحلي، مختصر البصائر: ص ١١٥ ح ٩١.

(٣) النمل: ٨٢ و٨٣.

الأَرْضِ؟ قُلْتُ: نَحْنُ نَقُولُ، وَاليَهُودُ يَقُولُونَ.قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَى رَأْسِ الجَالُوتِ فَقَالَ: وَيْحَكَ، تَجِدُونَ دَابَّةَ الأَرْضَ عِنْدَكُمْ مَكْتُوبَةً؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟ أَتَدْرِي مَا اسْمُهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، اسْمُهَا إِيلِيَا، قَالَ: فَالتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ: وَيْحَكَ، يَا أَصْبَغُ مَا أَقْرَبَ إِيلِيَا مِنْ عَلِيّاً».(١)

كما أنّ حشر فوج من كلّ أمّة دليل آخر على أنّ الآية تتكلّم عن أحداث الرجعة، إذ يوم القيامة الكبرى يكون حشر جميع الناس ولا يغادر منهم أحدا.

و تحصل أحداث عظيمة مهولة بعد ذلك، فيبدأ أصحاب اليمين بالتميز عن أصحاب الشمال تدريجاً، بظهور الملكات الرذيلة والحسنة على ظاهر أبدانهم، فتسودّ وجوه وتبيضّ وجوه، وذلك بعد ما تسم دابة الأرض على جبهة المومن والمنافق بالميسم، وتحصل بعد ذلك طفرة عظيمة في الكمال المادي والتمدّن الحضاري للبشر.(٢)

النفخة في الصور

من الأحداث المهولة التي تحدّث عنها القرآن في آيات عديدة هو النفخ في الصور، فقد عبّر عنه بلفظ النفخ في الصور والصيحة والصاخّة، والموكّل بالنفخ إسرافيل وهو من ملائكة الله تعالى المقرّبين، وهو ينفخ فيه مرتين، فالأولى للموت وفناء الدنيا، والثانية للحشر، قال الله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**﴾.(٣)

وبعد النفخة الأولى يموت جميع من في السماوات والأرض من الإنس والجن

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٣ ص ١١٢.

(٢) الحر العاملي، الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة: ص ٣٢٦.

(٣) الزمر: ٦٨.

والملك إلا من استثنى، وقيل إنّ جبرئيل وإسرافيل وعزرائيل وميكائيل لايموتون بالنفخة الأولى، بل يتأخر موتهم إلى قبل النفخة الثانية.[١]

ومن خواص النفخة الأولى، أنّها تأتي بغتة وتتسبب في إيجاد حوادث كونية وتغييرات في السماء والأرض، قال سبحانه:

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۞ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.[٢]

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۞ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۞ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾.[٣]

قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«وَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ، وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ، فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً [رَقْرَاقاً] رَقْرَقاً، وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقا»**.[٤]

بطلان نظام الدنيا وفناؤها

من مسلّمات القرآن حدوث التغيير في نظام الدنيا، فالسماوات تنفطر وتنشق وتكون كالمُهل وتُطوى كطيّ السجلّ للكتب وترجع كأول ما خلقها الله تعالى[٥]، وتكّور الشمس وتخسف القمر وتنكدر النجوم، وتنتثر الكواكب وتُطمس[٦]، وترجف

(١) العلامة المجلسي، حق اليقين: ٤١٦.
(٢) يس: ٤٩ و٥٠.
(٣) الحاقة: ١٣ – ١٦.
(٤) نهج البلاغة: خطبة ١٩٥.
(٥) الانفطار: ١، الانشقاق: ١، المعارج: ٨، المرسلات: ٩، الأنبياء: ١٠٤، الطور: ٩، التكوير: ١١.
(٦) التكوير: ١و٢، الانفطار: ٢، المرسلات: ٨، القيامة: ٧-٩.

الأرض والجبال وتكون الجبال كثيباً مهيلاً، وتصيبها قارعة تكون الجبال الراسيات منها كالعهن المنفوش، وتسيّر الجبال وتنسف فتكون كالسراب[١]، وتنفجر البحار وتُسجّر[٢]، وغيرها من الحوادث العظيمة التي تحدّث عنها القرآن في آيات عديدة.

وهنالك رأيان في فناء الدنيا: فمن قائل إنّ الله تعالى يُعدم الموجودات فلايبقى إلا الله تعالى، ثم يعيد الله تعالى خلقها من جديد، فيكون المعاد من باب إعادة المعدوم.

والرأي الآخر يقول: إنّ الفناء ليس مطلقاً، بل إنما تنعدم صورها وتركيبها وتسلب الحياة والشعور منها، فتبقى المادّة البسيطة التي ابتدأ الله تعالى بها الخلق، فخلق منها خلقاً بأعراض وحدود مختلفة، والمعاد على هذا الرأي إعادة صور الأشياء وجمع الأجزاء المتفرقّة منها، وأحياؤها مرة أخرى كما كانت.

وقد ذهب مؤلف كتاب الياقوت - وهو متكلّم من بني نوبخت - إلى صحّة كلتي النظريتين، وأنّ الثانية منهما تستلزم قبول الأولى،[٣] والعلامة الحلي بعدما ذكر أنّ جميع المسلمين عدا الفلاسفة اتفقوا على إعادة الأجساد، اختار الرأي الثاني، ونفى الرأي الأول، وأشار لقصّة إبراهيم والطيور الأربعة من أنّها جمع الأجزاء المتفرقة.[٤] والرأي الثاني هو الغالب بين المتكلمين.[٥]

مِنْ سُؤَالِ الزِّنْدِيقِ الَّذِي سَأَلَ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَنْ مَسَائِلَ كَثِيرَةٍ أَنَّهُ قَال: «...**قَالَ**

---

(١) المزمّل: ١٤، الطور: ١٠، الواقعة: ٥ و٦، القارعة: ٥، النبأ: ٢٠، طه: ١٠٥ - ١٠٧، الواقعة: ٤، الحج: ١و٢.
(٢) الانفطار: ٣، التكوير: ٦.
(٣) أنوار الملكوت في شرح الياقوت: ١٩١.
(٤) العلامة الحلي: أنوار الملكوت في شرح الياقوت: ص ١٩١ و١٩٢، كشف المراد: ص٤٠٢.
(٥) العلامة المجلسي، حق اليقين: ص ٤١٩.

أَفَتَتَلَاشَى الرُّوحُ بَعْدَ خُرُوجِهِ عَنْ قَالَبِهِ أَمْ هُوَ بَاقٍ؟ قَالَ بَلْ هُوَ بَاقٍ إِلَى وَقْتٍ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَبْطُلُ الأَشْيَاءُ وَتَفْنَى فَلَا حِسَّ وَلَا مَحْسُوسَ. ثُمَّ أُعِيدَتِ الأَشْيَاءُ كَمَا بَدَأَهَا مُدَبِّرُهَا. وَ ذَلِكَ أَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ يَسْبُتُ فِيهَا الخَلْقُ، وَذَلِكَ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ». [1]

النفخة الثانية

و هي نفخة الإحياء وحشر الناس لموقف الحساب.

﴿وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾. [2]

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجا﴾. [3]

---

(١) الطبرسي، الاحتجاج: ج٢ ص٣٥١.

(٢) يس: ٥١.

(٣) النبأ: ١٨.

الأسئلة:

١- هل الروح في حياتها وبقائها تحتاج إلى البدن؟

٢- ما المراد بالبدن البرزخي، وهل هو غير البدن الأصلي المدفون في القبر؟

٣- ما هي جهات الفرق بين الحشر في الرجعة والحشر في القيامة الكبرى؟

٤- ما معنى محض الإيمان ومحض الكفر، وهل تكون الرجعة عامة أم مختصة ببعض الطوائف؟

٥- من هو دابة الأرض وما الذي يحدث عند خروجه في الرجعة؟

٦- ما المراد بالنفخة الأولى وما هي آثارها؟

٧- كيف يفسّر بطلان نظام الدنيا بعد النفخة الأولى وما هو الرأي المشهور بين المتكلمين؟

الدرس الثامن والأربعون: من منازل الآخرة ومواقف القيامة (٣)

يوم القيامة وأسماؤها

استخدم القرآن الكريم العديد من الأسماء والأوصاف ليوم القيامة، كلّ واحد منها يشير لموقف من مواقفها وجهة من جهاتها، فقد عبّر عنه بيوم البعث والحشر والساعة والنشر والجمع والحساب والفصل واليوم العظيم ويوم الحسرة ويوم التغابن ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم الدين ويوم عسير ويوم مشهود ويوم مجموع له الناس واليوم المعلوم وغيرها.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.(١)

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.(٢)

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾.(٣)

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾.(٤)

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.(٥)

---

(١) الزمر: ٦٠.

(٢) الحج: ٧.

(٣) التغابن: ٩.

(٤) ق: ٤٢.

(٥) الدخان: ٤٠.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.[١]

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.[٢]

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ﴾.[٣]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.[٤]

عن سعيد بن المسيب قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يعظ الناس ويزهدهم في الدنيا ويرغبهم في أعمال الآخرة بهذا الكلام في كل جمعة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله:

«...و اعلم يا ابن آدم! أن من وراء هذا أعظم وأفظع وأوجع للقلوب يوم القيامة- ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾.يجمع الله عز وجل فيه الأولين والآخرين ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾.[٥] وتبعثر فيه القبور وذلك يوم الآزفة ﴿إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾.[٦] وذلك يوم لا تقال فيه عثرة، ولا يؤخذ من أحد فدية، ولا تقبل من أحد معذرة، ولا لأحد فيه مستقبل توبة، ليس إلا الجزاء بالحسنات والجزاء بالسيئات ..».[٧]

(١) الحمد: ٤.

(٢) مريم: ٣٩.

(٣) ق: ٣٤.

(٤) هود: ١٠٣.

(٥) الأنعام: ٧٣.

(٦) غافر: ١٨.

(٧) الكافي: ج٨ ص ٧٣.

مواقف القيامة والحساب

في الكافي بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام: ...«فَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا عَلَيْهَا، فَإِنَّ لِلْقِيَامَةِ خَمْسِينَ مَوْقِفاً كُلُّ مَوْقِفٍ مِقْدَارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ ثُمَّ تَلَا: ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾».(١)

والناس مختلفون في محاسبة أعمالهم يوم القيامة، فالبعض يدخلون الجنّة بغير حساب، فيكرّمون عن الحساب يوم القيامة، ومنهم من يحاسب حساب يسيراً، ومنهم من يبتلى بسوء الحساب أي المداقّة والاستقصاء في الحساب، وأما أئمة الكفر والضلال فلايعبأ بهم بل يؤمر بهم إلى النار خالدين فيها.

في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في جواب الزنديق: «وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ عَلَى طَبَقَاتٍ وَمَنَازِلَ فَمِنْهُمْ مَنْ يُحَاسَبُ حِساباً يَسِيراً وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسابٍ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَلَبَّسُوا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا الحِسَابُ هُنَاكَ عَلَى مَنْ تَلَبَّسَ بِهَا هَاهُنَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحَاسَبُ عَلَى النَّقِيرِ وَالقِطْمِيرِ وَيَصِيرُ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ، وَمِنْهُمْ أَئِمَّةُ الكُفْرِ وَقَادَةُ الضَّلَالَةِ فَأُولَئِكَ لَا يُقِيمُ لَهُمْ وَزْناً وَلَا يُعْبَأُ بِهِمْ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ وَتَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيها كالِحُون».(٢)

وفي كامل الزيارات عن ابي عبد الله عليه السلام: «...وَ مَا مِنْ عَبْدٍ يُحْشَرُ إِلَّا وَعَيْنَاهُ بَاكِيَةٌ إِلَّا البَاكِينَ عَلَى جَدِّيَ الحُسَيْنِ عليه السلام، فَإِنَّهُ يُحْشَرُ وَعَيْنُهُ قَرِيرَةٌ وَالبِشَارَةُ تِلْقَاهُ وَالسُّرُورُ بَيِّنٌ عَلَى وَجْهِهِ، وَالخَلْقُ فِي الفَزَعِ وَهُمْ آمِنُونَ، وَالخَلْقُ يُعْرَضُونَ وَهُمْ حُدَّاثُ الحُسَيْنِ عليه السلام تَحْتَ العَرْشِ وَفِي ظِلِّ العَرْشِ، لَايَخَافُونَ سُوءَ يَوْمِ الحِسَاب ..».(٣)

---

(١) الكافي: ج٨ ص١٤٣. والاية في سورة السجدة: ٧.

(٢) الطبرسي، الاحتجاج: ج١ ص٢٤٤.

(٣) كامل الزيارات: ص ٨١.

قيام الشهداء

من المواقف المهمّة ليوم القيامة هو قيام الشهداء الذين جعلهم الله تعالى شهداء على أعمال العباد في الدنيا ورقباء عليهم، ويكون الحكم بين العباد يوم القيامة بعد حضورهم، قال تعالى: ﴿وَ أَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الكِتابُ وَجيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.(١)

والشهداء هم الأئمة وخلفاء الله تعالى في كلّ أمّة، فهم يشهدون لمن كان في قرنهم، ولرسول الله ﷺ مقام الشهادة على الشهود، فهو شاهد على الشهداء.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.(٢)

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.(٣)

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾.(٤)

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.(٥)

في الكافي عن أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فِي قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ- ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً﴾.(٦) قَالَ: «نَزَلَتْ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاصَّةً، فِي كُلِّ

---

(١) الزمر: ٦٩.

(٢) النساء: ٤١.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) النحل: ٨٩.

(٥) الحج: ٧٨.

(٦) النساء: ٤١.

قَرْنٍ مِنْهُمْ إِمَامٌ مِنَّا شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ وَمُحَمَّدٌ ص شَاهِدٌ عَلَيْنَا».[١]

وعن عَنْ بُرَيْدٍ العِجْلِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّوَجَلَّ: **﴿وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ﴾**.[٢] قَالَ: **نَحْنُ الْأُمَّةُ الوُسْطَى، وَنَحْنُ شُهَدَاءُ الله عَلَى خَلْقِهِ وَحُجَجُهُ فِي أَرْضِهِ. قُلْتُ: قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾..** قَالَ: **إِيَّانَا عَنَى خَاصَّةً ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾. فِي الكُتُبِ الَّتِي مَضَتْ ﴿وَ فِي هَذَا﴾. القُرْآنِ ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾.**[٣] **فَرَسُولُ الله صلى الله عليه وآله الشَّهِيدُ عَلَيْنَا بِمَا بَلَّغَنَا عَنِ الله عَزَّ وَجَلَّ وَنَحْنُ الشُّهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ، فَمَنْ صَدَّقَ صَدَّقْنَاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ كَذَّبَ كَذَّبْنَاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ.**[٤]

والشهادة على الأعمال مقام عظيم يستلزم الشهود والحضور والاطلاع الدقيق على تفاصيل أعمال المشهود عليهم في الدنيا، وحيث إنّ يوم القيامة يوم الفصل، ولا يحكم الله تعالى على أحد بشهادة من يمكن في حقه السهو والخطأ، أو عدم الاطلاع على كل ما يكون مؤثراً في حسن الفعل وقبحه، من النوايا والخطورات الذهنية وما يتعقبها من موجبات حبط العمل أو تكفيره، فالشاهد هو عين الله تعالى وبمثابة الجهة الرقابية، وهو من ملزومات مقام الإمامة التي هي الرعاية والهداية الإيصالية كما مرّ. فالأئمة هم الحكام في يوم القيامة ويكون إليهم حساب الخلق، كما هو صريح الآيات والروايات.

الميزان

والمراد به ما توزن به أعمال العباد، والاعتقاد به في الجملة من مسلّمات العقيدة

---

(١) الكافي: ج١ ص١٩٠.

(٢) البقرة: ١٤٣.

(٣) الحجّ: ٧٨- ٧٩ وفي المصحف: **﴿شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾**.

(٤) الكافي: ج١ ص١٩٠.

الإسلامية، وقد دلّت عليه الكثير من الايات والأخبار، قال تعالى:﴿وَ الوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُون وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُون﴾.(١)

﴿وَنَضَعُ المَوازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبين﴾.(٢)

في معاني الآخبار: عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَ: ﴿وَ نَضَعُ المَوازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾.قَالَ: «هُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالأَوْصِيَاءُ عليهم السلام».(٣)

وهناك كلام وخلاف بين المتكلّمين والمحدثين في حقيقة الميزان، وفي بعض الأخبار أن الميزان هو العدل،(٤) وفي بعضها أن الموازين هم الأنبياء والأوصياء.

قال الشيخ المفيد قدس سره:

الموازين هي التعديل بين الأعمال والجزاء عليها ووضع كل جزاء في موضعه، وإيصال كل ذي حق إلى حقه، فليس الأمر في معنى ذلك على ما ذهب إليه أهل الحشو من أن في القيامة موازين كموازين الدنيا لكل ميزان كفتان توضع الأعمال فيها، إذ الأعمال أعراض والأعراض لا يصح وزنها وإنما توصف بالثقل والخفة على وجه المجاز.

والمراد بذلك أن ما ثقل منها هو ما كثر واستحق عليه عظيم الثواب، وما خف منها

---

(١) الأعراف: ٨ و٩.

(٢) الأنبياء: ٤٧.

(٣) بحارالأنوار: ج٧ ص٢٤٩.

(٤) بحارالأنوار: ج٧ ص ٢٤٩.

ما قل قدره ولم يستحق عليه جزيل الثواب، والخبر الوارد أن أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام هم الموازين فالمراد أنهم المعدّلون بين الأعمال فيما يستحق عليها والحاكمون فيها بالواجب والعدل، ويقال فلان عندي في ميزان فلان ويراد به نظيره، ويقال كلام فلان عندي أوزن من كلام فلان، والمراد به أن كلامه أعظم وأفضل قدراً... والقرآن إنما أنزل بلغة العرب وحقيقة كلامها ومجازه ولم ينزل على ألفاظ العامة وما سبق إلى قلوبها من الأباطيل.[1]

قال العلامة المجلسي قدس سره:

قد سبق بعض الأخبار الدالة على أن ليس المراد الميزان الحقيقي فبتلك العلة يمكن القول بذلك وإن أمكن تأويل بعض الأخبار بأن الأنبياء والأوصياء عليهم السلام هم الحاضرون عند الميزان الحاكمون عليها لكن بعض الأخبار لا يمكن تأويلها إلا بتكلف تام، فنحن نؤمن بالميزان ونرد علمه إلى حملة القرآن ولا نتكلف علم ما لم يوضح لنا بصريح البيان، والله تعالى الموفق وعليه التكلان.[2]

الصراط

والاعتقاد به في الجملة من المسلّمات، وهو جسر على جهنّم ويفرض على الناس أن يعبروا عليه للوصول إلى الجنّة، وعليه عقبات وتختلف الناس في عبورهم على الصراط، فبعضهم يمر كالبرق الخاطف وبعضهم أقل والبعض ينزلق فيهوي في النار.

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ الصَّادِقِ عليه السلام قَالَ: «**النَّاسُ يَمُرُّونَ عَلَى الصِّرَاطِ طَبَقَاتٍ، وَالصِّرَاطُ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ وَمِنْ حَدِّ السَّيْفِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ الْبَرْقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ عَدْوِ**

(١) تصحيح إعتقادات الإمامية: ١١٥.

(٢) بحار الأنوار: ج٧ ص ٢٥٣.

الفَرَسِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ حَبْواً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ مَشْياً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ مُتَعَلِّقاً قَدْ تَأْخُذُ النَّارُ مِنْهُ شَيْئاً وَتَتْرُكُ شَيْئاً».(١)

وهنالك صراط بمعنى آخر، وهو الإيمان وولاية أمير المؤمنين وأولاده المعصومين عليهم السلام، و أنّ الصراط الأخروي تمثّل لاستقامة الإنسان على الصراط المستقيم في الدنيا.

عَنِ الْمُفَضَّلِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنِ الصِّرَاطِ؟ فَقَالَ: **«هُوَ الطَّرِيقُ إِلَى مَعْرِفَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ. وَ هُمَا صِرَاطَانِ، صِرَاطٌ فِي الدُّنْيَا وَصِرَاطٌ فِي الآخِرَةِ، فَأَمَّا الصِّرَاطُ الَّذِي فِي الدُّنْيَا فَهُوَ الإِمَامُ الْمَفْرُوضُ الطَّاعَةِ، مَنْ عَرَفَهُ فِي الدُّنْيَا وَاقْتَدَى بِهُدَاهُ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ الَّذِي هُوَ جِسْرُ جَهَنَّمَ فِي الآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فِي الدُّنْيَا زَلَّتْ قَدَمُهُ عَنِ الصِّرَاطِ فِي الآخِرَةِ فَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ»**.(٢)

وقد روت العامة والخاصّة أنّ جواز العبور من الصراط ولاية أمير المؤمنين عليه السلام .

قال الشيخ الصدوق:

اعتقادنا في الصراط أنّه حق، وأنّه جسر جهنّم، وأنّ عليه ممرّ جميع الخلق، قال تعالى: ﴿**وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا**﴾. و الصراط في وجه آخر اسم حجج الله تعالى، فمن عرفهم في الدنيا وأطاعهم أعطاه الله تعالى جوازا على الصراط الذي هو جسر جهنّم يوم القيامة، وَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله لِعَلِيٍّ: **«يَا عَلِيُّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَقْعُدُ أَنَا وأَنْتَ وجَبْرَئِيلُ عَلَى الصِّرَاطِ، فَلَا يَجُوزُ عَلَى الصِّرَاطِ إِلَّا مَنْ كَانَتْ مَعَهُ بَرَاءَةٌ بِوَلَايَتِكَ»**.(٣)

---

(١) بحارالأنوار: ج٨ ص ٦٤ عن أمالي الصدوق.

(٢) بحارالأنوار: ج٨ ص٦٦ عن معاني الأخبار.

(٣) الشيخ الصدوق، الاعتقادات: ص٧٠.

الأسئلة:

١- ما معنى يوم التغابن ويوم الفصل ويوم الخلود، ولماذا سمي يوم القيامة بهذه الأسماء؟

٢- هل الحساب يوم القيامة عام أم خاص ببعض الناس؟ اذكر التفصيل.

٣- من هم الشهداء يوم القيامة، وما هي مداليل مقام الشهادة؟

٤- كيف يمكن فهم حقيقة الميزان على ضوء كلام الشيخ المفيد ؟

٥- كيف يمكن التوفيق بين ما ورد في معنى الصراط أنهم حجج الله تعالى وبين ما ورد أنه جسر على جهنم؟

٦- ما هو جواز العبور على الصراط في روايات الفريقين؟

الدرس التاسع والأربعون: من منازل الآخرة ومواقف القيامة (٤)

الحوض

والمراد به حوض الكوثر، وقد أعطاه الله تعالى لنبيه يوم القيامة، والناس كلّهم عطاشى ظمئانين إلا من شرب من الكوثر، ومن مناصب أمير المؤمنين عليه السلام أنّه ساقي أوليائه من حوض الكوثر وذائد الأعداء عنه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله فيما اتفق عليه الفريقان: «**علي صاحب حوضي**».(١)

قال الشيخ الصدوق:

> اعتقادنا في الحوض أنّه حق، وأنّ عرضه ما بين أيلة وصنعاء، وهو حوض النبيّ صلى الله عليه وآله وأنّ فيه من الأباريق عدد نجوم السماء وأنّ الوالي عليه يوم القيامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، يسقي منه أولياءه، ويذود عنه أعداءه، ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً.

وَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: «**لَيَخْتَلِجَنَّ قَوْمٌ مِنْ أَصْحَابِي دُونِي وأَنَا عَلَى الحَوْضِ، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأُنَادِي: يَا رَبِّ، أَصْحَابِي، أَصْحَابِي. فَيُقَالُ لِي: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**».(٢)

و هذا الحديث معروف بحديث الحوض وهو مما اتفق عليه الفريقان.

---

(١) راجع: إحقاق الحق: ج ٤ ص ١٠١ وص ١٧٠ وص ٢٧١ وج ١٥ ص ٣٠٩، وج٢٠ ص٣٠٨.

(٢) الشيخ الصدوق، الاعتقادات: ص٦٥.

روى البخاري في صحيحه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، وَلَيُرْفَعَنَّ مَعِي رِجَالٌ مِنْكُمْ ثُمَّ لَيُخْتَلَجُنَّ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**».(١)

كما أنّ في حديث الثقلين أيضاً إشارة إلى أن القرآن والعترة يردان على رسول الله ﷺ عند حوض الكوثر، وكل هذه الأدلة تشير إلى أن موقف الحوض من المواقف المهمة والحساسة في يوم القيامة، حيث يتميّز المؤمنون المتمسكون بالثقلين عن غيرهم، ويظهر في هذا الموقف مقام الثقلين وموقعية الإمام من عترة النبي ﷺ وولايتهم وحاكميتهم في النشأتين.

الشفاعة والمقام المحمود

معنى الشفاعة وضرورتها

الشفاعة لغة هو ضم شيء إلى شيء آخر، فالشفيع يضمّ نفسه وأعماله ووجاهته عند الله تعالى بالمشفوع له للصفح عن ذنوبه أو رفع درجاته، وهي من ضروريات العقيدة الإسلامية وأكّد عليها في غير واحدة من آيات القرآن الكريم.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِشَفَاعَتِي فَلَا أَنَالَهُ اللهُ شَفَاعَتِي**».(٢)

(١) صحيح البخاري: ج ٨ ص ١١٩ باب الحوض ح ٦٥٧٦، وهذا الحديث رواه أغلب محدثي العامة راجع: مسند أحمد: ج٤ ص١٦٨ ح٢٣٢٧: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَ أَفْلَحَ، وَيُؤْتَى بِأَقْوَامٍ، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: أَيْ رَبِّ، فَيُقَالُ: مَا زَالُوا بَعْدَكَ يَرْتَدُّونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ**». المعجم اكبير للطبراني: ج ٦ ص ٢٠٠ ح٥٩٩٦ وص ١٧١ ح ٥٨٩٤، وج٦ ص ١٥٦ ح ٥٨٣٤، وج١١ ص٣٣، مسند الشاميين للطبراني: ج٢ ص٣١١، مسند البزاز ج١٥ ص ٧٠، السنة لابن أبي عاصم: ج٢ ص٣٥٤، سنن ابن ماجة: ج٢ ص١٤٣٩، صحيح مسلم ج٤ ص١٧٩٦ ح ٢٢٩٧ وو ص ١٧٩٣ ح٢٢٩٠ ٢٢٩٦ وغيرها الكثير من المصادر العامية.

(٢) الاعتقادات للصدوق: ص٦٦.

وذكر الخواجة نصير الدين الطوسي والعلامة الحلي اتفاق العلماء واجماعهم على ثبوت الشفاعة لسيد الأنبياء[١]، كما ذكر القوشجي وهو من متكلمي العامّة باتفاق جميع المسلمين على ثبوت الشفاعة[٢]، وقال العلامة المجلسي: انه لاخلاف بين المسلمين في ثبوت الشفاعة وأنها من ضروريات الإسلام.[٣]

المقام المحمود

والمقام المحمود هو المقام الذي يُعطى لسيد الرسل صلى الله عليه وآله يوم القيامة، فيكون صاحب الشفاعة، فلايبقى في المحشر أحد إلا وهو محتاج لشفاعة النبي صلى الله عليه وآله والوصي عليه السلام، وقد ورد في الروايات والأدعية والزيارات أنّه مقام يغبطه به الأولون والآخرون[٤].

في أمالي الطوسي بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَوْماً مُقْبِلًا عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الآيَةَ **﴿وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾**.[٥] فَقَالَ: **يا عَلِيُّ، إِنَّ رَبِّي (عَزَّ وَجَلَّ) مَلَّكَنِي الشَّفَاعَةَ فِي أَهْلِ التَّوْحِيدِ مِنْ أُمَّتِي وَحَظَرَ ذَلِكَ عَمَّنْ نَاصَبَكَ وَنَاصَبَ وُلْدَكَ مِنْ بَعْدِكَ.**[٦]

الشفاعة والتوسل ضرورة قرآنية وأديانية

والشفاعة هي جعل الواسطة بين العبد والرب المتعال، فيتوسّل العبد إلى الشفيع

---

(١) كشف المراد: ٤١٦.

(٢) شرح التجريد: ٣٨٧.

(٣) حق اليقين: ٤٥٦.

(٤) الكافي: ج٤ ص٥٥١، كامل الزيارات: ص١٦، من لايحضره الفقيه: ج٢ ص٥٦٧، تهذيب الأحكام: ج٦ ص ٦، إقبال الأعمال: ج١ ص ٢١٣ وج٢ ص١٢٥.

(٥) الإسراء: ٧٩.

(٦) أمالي الطوسي: ص٤٥٥.

ليقترب إلى الرب، وهي من السنن القطعية الإلهية حيث اختار لنفسه أولياء وجعلهم الوسائط بينه وبين خلقه، ثم أمر خلقه بالتوجه إليهم ليحصل لهم بذلك القرب إلى الله تعالى.

كما أمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، فقرّبهم الله تعالى إلى نفسه، وأبى إبليس فزجره ولعنه إلى يوم الدين.

وقد علّق الله تعالى قبول توبة العباد بالمجيء عند رسول الله ﷺ ليشفع لهم فيستغفر لهم وعندئذ يجدون الله تعالى تواباً رحيماً، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾.(١)

وكما أمر عباده بالتوجه نحو الكعبة المقدسة في صلواتهم وأدعيتهم وهي بقعة رضي بها رسول الله ﷺ، فاختارها الله تعالى قبلة بقوله جل وعز: ﴿**فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**﴾.(٢)

وكما اشترط على جميع أنبيائه المرسلين، أنّ وصولهم لمقام النبوّة وإعطاء الكتاب والحكمة، مشروط بشرط مهم، وهو الإيمان بسيّد الرسل ونصرته، فمن دون التشفّع والتوسل بالخاتم سوف لن يحصلوا على مقام النبوة والرسالة والحكمة، وهذه أعظم شفاعة لأعظم عطية إلهية وهي النبوة، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾.(٣)

وفي هذه التأكيدات العظيمة في هذا التعاقد الحاصل بين الله تعالى وبين الأنبياء،

---

(١) النساء: ٦٤.

(٢) البقرة: ١٤٤.

(٣) آل عمران: ٨١.

دليل على استحالة نيل المقامات والحظوة عند رب العالمين دون التوسل والتشفع بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام الذين هم بمنزلة نفسه الشريفة.

وقد قال الإمام الباقر عليه السلام فيما رواه القمي في تفسيره: «**مَا أَحَدٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله يَوْمَ القِيَامَةِ**».[١]

حكمة الإستشفاع والتوسل بأولياء الله تعالى

وقد علّق الله تعالى رضاه وقربه ومغفرته بشفاعة أولئك المقرّبين عنده، لأنّهم خلفاء الله تعالى وأولياؤه، ولايهتدي أحد إلا بالارتباط بهم والاستنارة من أنوارهم، فألجأ الناس في سابق حكمته أن يتوسلوا بهم ليكونوا هم الشفعاء لهم في حصولهم على أية حظوة عند الله تعالى، فصاروا كالقطب الذي يدور عليهم رحى الإيمان.

ومن هذا يظهر أنّ نيل شفاعتهم عليهم السلام مشروط بشرائط من أهمها اللواذ والتوسل بهم، وأما من دون ذلك فلايشفع لهم الشفعاء ولو شفعوا فلاتنفعهم شفاعة الشافعين، قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۞ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾.[٢]

فهم لإبائهم المجيء عند رسول الله صلى الله عليه وآله والتشفع لديه، واستكبارهم وصدّهم عن النبي، لن يكونوا مؤهّلين لنيل شفاعة النبي صلى الله عليه وآله، فلن يغفر الله تعالى لهم أبداً.

فالشفعاء لايشفعون إلا لمن ارتضاه الله تعالى رب العالمين ورضي من قوله، وهذا بعد أن يأذن الله تعالى للشفيع ويعطيه حق الشفاعة كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ**

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٢٠٢.

(٢) المنافقون: ٥ و٦.

الشَّفاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلا﴾.(١)

حق الشفاعة منصب إلهي وكفر من يتقمّص هذا المقام كذباً

الشفاعة كلها لله تعالى، وليس لأحد أن يشفع عنده إلا من بعد إذنه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ للهِ الشَّفاعَةُ جَميعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْض﴾.(٢)

﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْدا﴾.(٣)

فالشفاعة ليست للتحايل ولا للتجاوز والطفرة على القانون الإلهي، بل هو الطريق والباب الذي فتحه الله تعالى لعباده ليكون سلوكهم واقترابهم منه تعالى عبر هذا الباب، وذلك لأنّ صلاحهم وكمالهم ورشدهم يكون باقترابهم لهذه الأبواب، ومن هنا أنّ من يطلب الشفاعة من غير الباب الذي جعله الله تعالى والوسيلة التي أمر الله تعالى بابتغائها، يكون قد كفر بالله تعالى، فإنّ الشفاعة كلّها لله تعالى، وليس لأحد أن يمنح لأي أحد حق الشفاعة من دون إذن الله تعالى.

و هذه هي نقطة اعتراض القرآن على عبدة الأصنام حيث كانوا يتشفعون بها عند الله تعالى.

فإنّهم قد نصبوا لأنفسهم وسائل وأسماء ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، أي لم يكن الله تعالى قد أعطاهم السلطة على الشفاعة، وأنّها ليست أبواباً تؤدي إلى الله تعالى، بل مهاوي يسبب الاقتراب منها السقوط في أسفل السافلين.

﴿وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ

---

(١) طه: ١٠٩.

(٢) الزمر: ٤٤.

(٣) مريم: ٨٧.

﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُون﴾.[1]

فالاعتراض ليس لاتخاذهم شفعاء، بل لأنهم اتخذوا شفعاء لايعلم الله تعالى في السماوات والأرض أن يكون قد أعطاهم هذه الصلاحية، وهو كفر بالله العظيم.

ومن هنا تعرف وهن الإعتراض على منصب شفاعة سيد المرسلين وأهل بيته المعصومين عليهم السلام، بتشبيهه بتشفّع الكفار بأصنامهم، فإنّ الفارق هوما أكّد عليه القرآن من وجود الأمر والإذن في الاستشفاع بخلفاء الله تعالى وعدمه في الأصنام، فأنت ترى القرآن الكريم لايزال يصرّ على تأنبيهم والتقريع بهم لأنّهم اتخذوا شفعاء من دون الله تعالى، وما لم ينزل الله تعالى به من سلطان، ولم يجعل ولم يأذن في التشفع بهم، بينما قد ندب العباد إلى التوسّل والاستشفاع بالنبي وأهل بيته عليهم السلام، وجعلهم أبواباً لرحمته ومقاليد لمغفرته.

(١) يونس: ١٨.

الأسئلة:

١- ابحث عن الروايات التي تذكر أن أميرالمؤمنين عليه السلام هو ساقي الناس من الحوض الكوثر واذكر بعض النماذج منها من الفريقين.

٢- ما هو مدلول روايات الحوض عند العامة، وكيف يمكن الاستدلال بها على انحراف الأصحاب بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟

٣- ما معنى الشفاعة، وما الحكمة في ضرورة الاستشفاع بالشفعاء؟

٤- هل الاسشفاع والتوسل بالشفعاء أمر مستحب يمكن لأحد أن يستغني عنها، أم ضرورة لامناص منها؟ شفّع الجواب بذكر آية من القرآن تثبت المدعى.

٥- ما وجه كفر من يبتغي الشفاعة من دون الله تعالى، وما الفرق بينهم وبين الشفاعة التي أمر الله تعالى بها؟

الدرس الخمسون: من منازل الآخرة ومواقف القيامة (٥)

الجنة

من ضروريات القرآن والسنة وجود الجنّة والنار الأبديين، وأنهما مخلوقان واقعيان ومشتملان على النعيم والعذاب المادي مضافاً للمعنوي، وقد عُدّ إنكار واقعية الجنة والنار وجسمانيتهما موجباً للخروج عن الدين.[١]

بل هنالك جملة من الأدلة تدل على خلق الجنّة والنار ووجودهما الآن، وقد شاهدهما رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة المعراج.[٢]

الجنّة منزل المؤمنين المتقين الأبدي، وقد وعد الله تعالى عباده بالغيب، إنّ وعده كان مأتياً، وقد أخبر الله تعالى وأولياؤه بأنّ عقول الناس لا تستوعب فهم حقيقة نعيمها ماداموا في هذه الدنيا، قال تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُون﴾.[٣]

في عدة الداعي: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: «لَوْ أَنَّ ثَوْباً مِنْ ثِيَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ أُلْقِيَ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا لَمْ يَحْتَمِلْهُ أَبْصَارُهُمْ، وَلَمَاتُوا مِنْ شَهْوَةِ النَّظَرِ إِلَيْهِ».

وَ قَدْ وَرَدَ عَنْهُمْ عليهم السلام: «كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ

---

(١) راجع: نهج المسترشدين: ص٧٨، وكشف الغطاء: باب الطهارة

(٢) الاعتقادات للصدوق: ص٧٩.

(٣) السجدة: ١٧.

الآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ».

وَ فِي الوَحْيِ القَدِيمِ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ بِقَلْبِ بَشَرٍ».(١)

وقد أبعد الله تعالى عن الجنّة كل تعب ونصب وحزن، فنعماؤها خالصة لايشوبها ما ينافي اللذة والبهجة والسرور، بخلاف نعيم الدنيا المختلط بما يضادها ويفسدها، قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُون﴾.(٢)

﴿وَ نَزَعْنا ما في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلين لا يَمَسُّهُمْ فيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجين﴾.(٣)

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۞ وَقَالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۞ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.(٤)

وقد أعدّ الله تعالى أنواع النعم فيها للمؤمنين، وهي في طور الزيادة الدائمة، فلا زال تزداد النعم أبداً بقدرة القادر المتعال.

قَالَ الإمام الرضا عليه السلام في مناظرته مع سليمان المروزي: «فَكَذَلِكَ كُلُّ مَا يَكُونُ فِيهِمَا إِذَا أَخْلَفَ مَكَانَهُ فَلَيْسَ بِمَقْطُوعٍ عَنْهُمْ».قَالَ سُلَيْمَانُ: بَلْ يَقْطَعُهُ عَنْهُمْ وَلَا يَزِيدُهُمْ، قَالَ الرِّضَا عليه السلام: «إِذاً يَبِيدُ مَا فِيهَا، وَهَذَا يَا سُلَيْمَانُ إِبْطَالُ الْخُلُودِ، وَخِلَافُ مَا فِي الكِتَابِ،

(١) بحارالأنوار: ج٨ ص١٩١.
(٢) الأعراف: ٤٩.
(٣) الحجر: ٤٧ و٤٨.
(٤) فاطر: ٣٣ – ٣٥.

لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾.[١] وَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَ: ﴿عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.[٢] وَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَ: ﴿ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ﴾.[٣] وَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَ: ﴿خالِدِينَ فِيها أَبَداً﴾.[٤] وَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَ: ﴿وَ فاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ[٥]﴾. فَلَمْ يُحِرْ جَواباً.[٦]

تَفْسِيرُ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي نَجْرَانَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ حُمَيْدٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ للهِ كَرَامَةً فِي عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ بَعَثَ اللهُ إِلَى الْمُؤْمِنِ مَلَكاً مَعَهُ حُلَّةٌ فَيَنْتَهِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: اسْتَأْذِنُوا لِي عَلَى فُلَانٍ، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا رَسُولُ رَبِّكَ عَلَى الْبَابِ. فَيَقُولُ لِأَزْوَاجِهِ: أَيَّ شَيْءٍ تَرَيْنَ عَلَيَّ أَحْسَنَ؟ فَيَقُلْنَ: يَا سَيِّدَنَا وَالَّذِي أَبَاحَكَ الْجَنَّةَ مَا رَأَيْنَا عَلَيْكَ شَيْئاً أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، بَعَثَ إِلَيْكَ رَبُّكَ. فَيَتَّزِرُ بِوَاحِدَةٍ وَيَتَعَطَّفُ بِالأُخْرَى فَلَا يَمُرُّ بِشَيْءٍ إِلَّا أَضَاءَ لَهُ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَوْعِدِ. فَإِذَا اجْتَمَعُوا تَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَإِذَا نَظَرُوا إِلَيْهِ خَرُّوا سُجَّداً، فَيَقُولُ: عِبَادِي ارْفَعُوا رُءُوسَكُمْ، لَيْسَ هَذَا يَوْمَ سُجُودٍ وَلَا يَوْمَ عِبَادَةٍ، قَدْ رَفَعْتُ عَنْكُمُ الْمُؤْنَةَ. فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِمَّا أَعْطَيْتَنَا، أَعْطَيْتَنَا الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: لَكُمْ مِثْلُ مَا فِي أَيْدِيكُمْ سَبْعِينَ ضِعْفاً، فَيَرْجِعُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ بِسَبْعِينَ ضِعْفَ مِثْلِ مَا فِي يَدَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ وَلَدَيْنا مَزِيدٌ-[٧] وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ. إِنَّهَا لَيْلَةٌ غَرَّاءُ وَيَوْمٌ أَزْهَرُ فَأَكْثِرُوا فِيهَا مِنَ

---

(١) ق ٥٠: ٣٥.

(٢) هود ١١: ١٠٨.

(٣) الحجر ١٥: ٤٨.

(٤) وردت في موارد كثيرة كسورة النّساء آية ٥٧ و١٦٩ وغيرها.

(٥) الواقعة ٥٦: ٣٢- ٣٣.

(٦) مختصر البصائر: ص٣٧٣.

(٧) ق: ٣٥.

التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالثَّنَاءِ عَلَى اللهِ وَالصَّلاَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ. قَالَ: فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُ فَلا يَمُرُّ بِشَيْءٍ إِلَّا أَضَاءَ لَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى أَزْوَاجِهِ، فَيَقُلْنَ: وَالَّذِي أَبَاحَنَا الجَنَّةَ يَا سَيِّدَنَا مَا رَأَيْنَاكَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْكَ السَّاعَةَ فَيَقُولُ إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ بِنُورِ رَبِّي». [١]

جهنم

قد عبّر الله تعالى عن جهنم بعدة أسماء وعناوين كل واحدة منها تشير لطائفة من العذاب والخزي والنار التي أعدها الله تعالى للأشقياء فيها، فقد عبّر عنها بجهنم في قرابة سبعين آية، كما عبر عنها بالنار، والسعير، والجحيم، وسقر، والحطمة، ولظى، والهاوية.

وتحتوي جهنم على دركات بحسب أعمال العباد، فكلما كان أسفل كان العذاب أشد، وقد أخبر الله تعالى بأنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار. [٢]

وقد وكّل الله تعالى لتعذيب أهل جهنم طوائف من الملائكة، تسمّى بخزان النار، وعبّر عنهم بقوله تعالى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْليكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُون﴾. [٣]

وقد وصف الله تعالى العذاب في جهنم بأوصاف شديدة ومهولة، من:

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٦ ص٢٨٦.

(٢) النساء: ١٧٥.

(٣) التحريم: ٦.

أنّه لايخفّف عنهم العذاب[١]، أنه العذاب الأليم[٢] والعظيم[٣] وسوء العذاب[٤] والشديد[٥] وأشدّ العذاب[٦] والأكبر[٧] والخلد[٨] والمقيم[٩] والمهين[١٠] والخزي[١١] والحريق[١٢] والغليظ[١٣] والحميم[١٤] والسموم[١٥] والغرامة[١٦] وأنّه بئس المصير[١٧]

(١) البقرة: ١٢٦ ٨٦، آل عمران: ٨٨، النحل: ٨٥، غافر: ٤٩.

(٢) البقرة: ١٧٨ ١٧٤ ١٠٤ ١٠، آل عمران: ١٨٨ ١٧٧ ٩١ ٧٧، المائدة: ٩٤ ٧٣ ٣٦، الأعراف: ٧٣، التوبة: ٩٠ ٧٩ ٦١، يونس: ٩٧ ٨٨، هود: ٤٨، يوسف: ٢٥، إبراهيم: ٢٢، الحجر: ٥٠، النحل: ١١٧ ١٠٤ ٦٣، الحجّ: ٢٥، النور: ٦٣ ١٩، الشعراء: ٢٠١، العنكبوت: ٢٣، سبأ: ٥، الصافات: ٣٨، الشورى: ٤٢ ٢١، الدخان: ١١، الجاثية: ١١، الأحقاف: ٣١ ٢٤، الذاريات: ٣٧، المجادلة: ٤، الحشر: ١٥، الصفّ: ١٠، التغابن: ٥، الملك: ٢٨، نوح: ١.

(٣) البقرة: ١١٤ ٧، آل عمران: ١٧٦ ١٠٥، المائدة: ٤١ ٣٣، الأنفال: ٨٦، التوبة: ١٠١، النحل: ١٠٦ ٩٤، النور: ٢٣ ١٤ ١١، الجاثية: ١٠.

(٤) الأعراف: ١٧٦، النمل: ٥، الزمر: ٤٧ ٢٤، غافر: ٤٥.

(٥) البقرة: ١٦٥، آل عمران: ٤، يونس: ٧٠، إبراهيم: ٢، الحجّ: ٢، المؤمنون، ٧٧، سبأ: ٤٦، فاطر: ١٠ ٧، ص: ٢٦، الشورى: ٢٦ ١٦، ق: ٢٦، الحديد: ٢٠.

(٦) البقرة: ٨٥، غافر: ٤٦.

(٧) الغاشية: ٢٤.

(٨) المائدة: ٨٠، يونس: ٥٢، الفرقان: ٦٩، السجدة: ١٤، الزخرف، ٧٤.

(٩) المائدة: ٣٧، التوبة ٦٨، هود: ٣٩، الزمر: ٤٠، الشورى: ٤٥.

(١٠) البقرة: ٩٠، آل عمران: ١٧٨، النساء: ١٤، الأنعام: ٩٣، الحجّ: ٥٧، الفرقان: ٦٩، لقمان: ٦، سبأ: ١٤، فصّلت: ١٧، الجاثية: ٩، الأحقاف: ٢٠، المجادلة: ١٦ ٥.

(١١) يونس: ٩٨، هود: ٩٣ ٣٩، الزمر: ٤٠، فصّلت: ١٦.

(١٢) آل عمران: ١٨١، الأنفال: ٥٠، الحجّ: ٢٢ ٩، البروج: ١٠.

(١٣) هود: ٥٨، إبراهيم: ١٧، لقمان: ٢٤، فصّلت: ٥٠.

(١٤) الدخان: ٤٨.

(١٥) الطور: ٢٧.

(١٦) الفرقان: ٦٥.

(١٧) البقرة: ١٢٦، الملك: ٨.

وأنّه قريب[١] وغير مردود[٢] وأنّه يزيدهم عذاباً فوق العذاب[٣].

و قد هدّد الله تعالى الظالمين بقوله:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ نارا احَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾.[٤]

فتارة يصف وقوعهم فيها واختصامهم فيها وتأسفّهم على إنكارهم لها، فقال عزّ ذكره:

﴿وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۞ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ مِنْ دُونِ الله هَلْ يَنْصُرُونكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ۞ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالغَاوُونَ ۞ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۞ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾[٥].

و تارة يصف طعامهم وشرابهم فيقول:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ الأَثِيمِ ۞ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي البُطُونِ ۞ كَغَلْيِ الحَمِيمِ ۞ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الجَحِيمِ ۞ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحَمِيمِ ۞ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ۞ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾[٦].

وتارة يصف شدّة اشتعالها:

---

(١) هود: ٦٤.

(٢) هود: ٧٦.

(٣) النحل: ٨٨ .

(٤) كهف: ٢٩.

(٥) الشعراء: ٩١-٩٦.

(٦) الدخان: ٤٣-٥٠ .

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾(١).

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ۞ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾(٢).

و تارة يذكر بُعْد المكذّبين لعذاب الجحيم عن ربّهم واحتجابهم عنه:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۞ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۞ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۞ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾(٣).

و تارة يذكر نسيان الله تعالى إيّاهم - بمعنى انّه تعالى يعاملهم معاملة النّاسي فيبعدهم عن رحمته - ومحو ذكرهم عن قلوب العباد كما نسوا لقاء يومهم هذا:

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾(٤).

ومن خلال هذه الإشارة الطفيفة إلى بعض آيات العذاب، تبيّن أنّ شدّة العذاب وظهور الغضب والانتقام الإلهي في جهنم، من محكمات القرآن، وأنّ من يتأولها بما لايرجع للألم والعذاب والشدة والنكال تمسكاً ببعض المتشابهات، يكون من جملة أهل الزيغ الذين يتركون المحكم ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.(٥)

---

(١) التكوير: ١٢.

(٢) المعارج: ١٦.

(٣) المطففين: ١٠-١٧.

(٤) الجاثية: ٣٤.

(٥) هنالك ممن يسمون بالعرفاء قد أوّلوا عذاب جهنم بأنها عذب ولذة وأنس لأهل الجحيم، وأنهم لا يتألمون بنار جهنم بل يلتذون بها، كما أنكر بعضهم الآخر الخلود في نار جهنم وأولو خلود العذاب

الأسئلة:

١- ما هو المقدار الضروري من الإيمان بالجنة النار الموجب إنكاره للخروج عن الدين؟

٢- ما الفرق بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة؟

٣- ما هو معنى توصيف عذاب جهنم بـ(لظى والسموم، والمهل، والحميم)؟

٤- ما معنى نسيان الله تعالى لأهل جهنم؟

٥- ما هو المحكم في عذاب جهنم، وما هو طريقة أهل الزيغ في التعامل معها؟

٦- ما هو نوع تعامل أهل النار بعضهم مع بعض في جهنم؟ اذكر آية من القرآن تشير إلى ذلك.

فيها، وكل هذه التأويلات مخالفة لصريح الآيات المحكمة والأحاديث الناصعة المتواترة، ولازم قولهم هذا نسبة الخداع والكذب والتلبيس إلى جميع أنبياء الله تعالى والقرآن المجيد، حيث إنّ تأويلاتهم تعطي صورة معاكسة تماماً عما يفهمه أهل اللغة من كلام الأنبياء، فلو كان الحق ما ذكره الموسومون بالعرفاء، لكان بيان تلك الحقيقة بهذه الألفاظ الظاهرة في ضدها تلبيساً وخدعة وتمويهاً جلت ساحة قدسهم عن ذلك، مع أنّه لو كان كما يقولون فتكون آيات العذاب من أعظم البشائر للكفار والملحدين والظالمين والمفسدين، ليستقيموا على طريقتهم، فلا ينتظرهم إلا العذب والسرور! وهذا كما ترى تكذيب لأساس رسالة الأنبياء والمرسلين، راجع: جدلية الدين والفلسفة: ج١ ص٣٥٤ - ٣٧٢.

الدرس الواحد والخمسون: من منازل الآخرة ومواقف القيامة (٦)

حكمة العذاب

اختلفت كلمات المتكلّمين في وجه العذاب وطول مدته، فهنالك جملة من التفسيرات والتقريبات مذكورة في الكتب المفصّلة، والذي يمكن أن يقال هنا:

إنّ الله تعالى خلق الجنّة قبل أن يخلق البشر وقبل أن يخلق النار، وجعل فيها النعماء التي لم تخطر على قلب بشر، ولايتمكن من إدراكها مادام محبوسا في دار الدنيا، ثم خلق الخلق للجنة، ليكرّمهم وينعمهم بهذه النعم التي لاتناهي لها في العقول، فكانت الغاية من الخلق أن يرحمهم بالرحمة التي لا نهاية لها، كما قال تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾.[1]

وكان الدخول في الجنة التي لاحزن فيها ولانصب ولاتعب، والتنعم بتلك النعم، متوقف على المجيء إلى الدنيا ليكمل ويستعدّ بذلك الدخول في الجنة، فإنه لو جعلهم في الجنة في ابتداء الخلق كان يلزم منه الخلف ونقض الغرض كما مر ذكره في حكمة المجيء إلى الدنيا، في الدرس ٤٣.

فلإكمال نعمته ولطفه خلق هذه الدنيا وأودع عباده فيها، ليروّضوا أنفسهم ويحصلوا على الكمالات الاختيارية، وحيث إن قوام ذلك بالحياة والشعور والعقل والقدرة والاختيار، أرسل الرسل الهداة المبشرين والمنذرين والمعلّمين لمحاسن الأخلاق، وبالغ

---

(١) هود: ١١٩.

تعالى في بشارتهم وإنذارهم بالأنبياء والرسل والخلفاء، مع كل الأذى الذي مسهم في سبيل هذه الدعوة، كلّ ذلك لطف وإحسان منه تعالى ليتطهّر الإنسان فيناسب تلك المنازل التي وعد عباده بالغيب.

لكن قام ثلّة من الناس وقابلوا كلّ هذه النعم بالكفر والعصيان والعتو، فشتموا ربّهم وعاندوه وبالغوا في معاندة المبشرين والمنذرين والهداة المهديين، فظلموهم وقتلوهم وهتكوا حرماتهم على قدر وسعهم وتمكّنهم، وغيّروا نعم الله تعالى وأفسدوا في بلاده وأضلّوا عباده، وظلموا مخلوقاته وصدّوا عن سبيل رب العالمين، ومع ذلك فقد بالغ الأنبياء والأوصياء في إرشادهم وهدايتهم وتحمّل أذاهم، وحلُم العزيز الجبّار عنهم وصبّ عليهم آلاءه ونعماءه، فأغرقهم في بحار رحمته وحلمه وإحسانه، فعفى عنهم وستر عيوبهم وأمر أنبياءه بالصبر وتحمّل الأذى عنهم، فما زادهم إلا الكفر والطغيان والإهانة والاستخفاف بربهم وبأنبيائه ورسله وخلفائه من جميع الجهات.

فعلى هذا لاينبغي في العدل الإلهي إدخال هؤلاء في دار الكرامة والسرور، لأنّه إبطال لنعم أوليائه، فإنّ هؤلاء العصاة في هذه الدنيا مع ما يرون في أنفسهم من الذلّ والصّغار كانوا يفعلون بالأنبياء والرسل ما يفعلون، فإن أدخلوا بهذه الصفات في دار الكرامة، فإنهم يبدّلونها إلى دار النزاع والجدال والشرّ والفساد، وهو خلف ونقض للغرض من الحكيم المنان.

بل مقتضى العدل الإلهي وجوب تعذيبهم، لأنهم ظالمون بجميع المخلوقات بأنواع الظلم، فإنّهم بعصيانهم لله تعالى وظلمهم لأنبياء الله تعالى وخلفائه، أظهروا الفساد في البر والبحر وضيّعوا حقّ كلّ ذي حق وأدخلوا الآلام الشديدة على كل مخلوق يتولى الله تعالى وأنبياءه ورسله، وهذه المظالم تتصاعد يوماً بعد يوم، حيث إنّ كل واحدة منها

بدورها تسبّب في إيجاد مظلمة بل مظالم أخرى، وهكذا كل واحدة من تلك المظالم تتولد منها مظالم لاتعدّ ولاتحصى، وكلها تداعيات طبيعية لأعمالهم، نسوها وأحصاها الله تعالى.

فكلّ مخلوق وقع عليه الظلم منهم يكون له عليهم حقّ القصاص العادل، وحيث إنّ المخلوقين العارفين بربهم المحبّين له تعالى، بمقدار معرفتهم وحبّهم له تعالى يبغضون أعداءه والهاتكين لحرماته والمعاندين له ولأوليائه والظالمين لهم، فلهذا لايتجاوزون عن حقوقهم ولايرضون بالمسامحة معهم.

و من هنا يجب في العدل الإلهي بعد خلقه الجنّة، أن يخلق النار ودار العذاب بالعَرَض، فإنّ قصاص الظالمين وأخذ حقوق المظلومين واجب، وكلّ ذلك داخل في الإنتقام وهذا وعد الله تعالى للمؤمنين والله تعالى لايخلف الميعاد، وعد الحق الذي يوعدون.(١)

أقسام الداخلين في النار

ويمكن تقسيم الداخلين في النار إلى ثلاثة أقسام:

الأول: من يدخل فيه مؤقتاً، ليتخلّص من الرذائل والجراثيم التي تمنعه عن مرافقة الأخيار في الجنة، فإنّ من مات من المؤمنين الذين لم يطهّروا أنفسهم في الدنيا فتجذّرت فيهم بعض الملكات الرذيلة، ولم تطهّرهم سكرات الموت وما بعدها من العقبات، فيدخلون في النار لنزع ما في صدورهم من غلّ وتطهيرهم من أوساخ المعاصي ودرن الذنوب، فإنّ الجنّة طاهرة لايدخل فيها إلا طاهر.

الثاني: الظالمون الذين ينتقم الله تعالى منهم ويقتصّ للمظلومين منهم، فيكون

(١) مقتبس من معارف القرآن: ج١ ص١٥٠ - ١٥٢.

عقابهم قصاصاً عادلاً وعد الله تعالى عباده المظلومين، وهو لايخلف الميعاد.

في خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام خطبها بالكوفة: «...إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا بَرَزَ لِخَلْقِهِ أَقْسَمَ قَسَماً عَلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي! لَا يَجُوزُنِي ظُلْمُ ظَالِمٍ، وَلَوْ كَفٌّ بِكَفٍّ، وَلَوْ مَسْحَةٌ بِكَفٍّ، وَلَوْ نَطْحَةٌ مَا بَيْنَ القَرْنَاءِ إِلَى الجَمَّاءِ. فَيَقْتَصُّ لِلْعِبَادِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّى لَا تَبْقَى لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ مَظْلِمَةٌ...».(1)

ثم إنّه لابد من ملاحظة تبعات وتداعيات الظلم التي قد تبقى وتستمر وتتصاعد بمرور الأزمان، وتتسع دائرتها وتتصاعد إلى ما لايخطر في عقل البشر، كلّها محفوظة في كتاب لايضلّ ولاينسى، وقد أحصاها الله تعالى ونسوها.

في الكافي: بسنده عن محمد بن مسلم قال: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: «يُحْشَرُ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَمَا نَدِيَ دَماً فَيُدْفَعُ إِلَيْهِ شِبْهُ المِحْجَمَةِ أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا سَهْمُكَ مِنْ دَمِ فُلَانٍ! فَيَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّكَ قَبَضْتَنِي وَمَا سَفَكْتُ دَماً! فَيَقُولُ: بَلَى! سَمِعْتَ مِنْ فُلَانٍ رِوَايَةَ كَذَا وَكَذَا، فَرَوَيْتَهَا عَلَيْهِ، فَنُقِلَتْ حَتَّى صَارَتْ إِلَى فُلَانٍ الجَبَّارِ، فَقَتَلَهُ عَلَيْهَا وَهَذَا سَهْمُكَ مِنْ دَمِهِ».(2)

الثالث: الخالدون في النار، وسنشرح حالهم في العنوان التالي.

غلق باب التوبة والخلود في النار

إنّ المعاندين من الكفار، حيث اختاروا طريق الغيّ بإصرار واستكبار، فهذا الاستكبار والإصرار يسبّب في ترسيخ ملكات الشر في نفوسهم، فكلّما يرسل الله تعالى اليهم آية أو يفتح لهم باباً لجوا في طغيانهم يعمهون، وهذا اللجاج يجذّر فيهم ملكات

---

(١) الكافي: ج٢ ص٤٤٣.

(٢) الكافي: ج٢ ص٣٧٠.

الشر أكثر فأكثر، ولذلك يصعب عليهم الرجوع والإقلاع عنها.

وهذه الحالة قد تؤدّي بهم إلى الصمم والبكم والعمى فهم لايرجعون، أي إنّ تلك الملكات تضرب بجذورها في ذواتهم لحد لايمكنهم إقتلاعها، فهؤلاء كلما أخرجوا من النار يعودون لما هم عليه من الكفر والطغيان والغي والشر، وذلك نظير المدمن على تعاطي المخدّرات، فكلّما يتعاطاها تتجذر السموم في بدنه أكثر من ذي قبل، فيكون الإقلاع عنها أصعب عليه، إلى أن يصل إلى حال لايقدر أن يقتلع عنها إلا بالموت.

وقد حذّر الله تعالى عباده عن بروز هذه الحالة فيهم في آيات عديدة، فتارة عبّر عنها بحصول الطبع على قلوبهم(١)، وأخرى بالختم عليها(٢)، وثالثة بأنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.(٣) و قال عزوجل:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾.(٤)

هذه الآية الشريفة إنذار وتحذير، بأنّه إذا لم يعالج الإنسان نفسه ولم يرجع عن غيّه، فحينما يأتي بعض آيات الرب جل جلاله، سوف لاينفعه الإيمان، وذلك لأنّ نزول الآيات الإلهية كما يزيد إيمان المؤمنين، كذلك لايزيد الظالمين إلا خساراً، فهم بعنادهم وعتوهم، لما يشاهدون الآيات العظيمة الإلهية من نزول العذاب وسطوة الجبار، سوف

---

(١) النساء: ٥٥، الأعراف: ١٠٠ و١٠١، التوبة: ٨٧ و٩٣، يونس: ٧٤، النحل: ١٠٨، الروم: ٥٩، غافر: ٣٥، محمد: ١٦، المنافقون: ٣.

(٢) البقرة: ٧، الأنعام: ٤٦، الجاثية: ٢٣.

(٣) البقرة: ١٨.

(٤) الأنعام: ١٥٨.

يزدادون عتواً وعناداً، فلو آمنوا بلسانهم حينما رأوا العذاب، لن ينفعهم ذلك، حيث لايستقرون عليه، فلو كشف عنهم العذاب لرجعوا إلى طغيانهم.

وقد يتوهم البعض أنّهم بعد ما ذاقوا بعض نتائج أعمالهم، سيندمون ويرجعون عن غيّهم، لكنّه وهم باطل أخبر الله تعالى عنه بقوله:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.(١)

كما أخبر الله تعالى بذلك في آيات أخرى، فقال تعالى فيمن تزلّ أقدامه على الصراط فيهوي في النار:

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.(٢)

ولكيلا يكون للناس حجة على الله تعالى، كشف عنهم العذاب لفترة موقتة في الدنيا، فرجعوا في كفرهم وعنادهم، فأخبر عن بني إسرائيل بقوله:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾.(٣)

وقال في المشركين:

---

(١) الأنعام: ٢٧ و٢٨.

(٢) المؤمنون: ٧٤ و٧٥.

(٣) الأعراف: ١٣٤ و١٣٥.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾.[١]

فظهر أنّ المراد من عدم نفعهم بالإيمان، هو أنّ إيمانهم ليس إيمانا حقيقيا، بل إنما يؤمنون مادام يرفع على رؤوسهم سوط العذاب!

في تفسير العياشي: قال: أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن الناس يوشكون أن ينقطع بهم العمل، ويسد عليهم باب التوبة، فـ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾**».

وعن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام **في قوله: «﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا﴾.قال: طلوع الشمس من المغرب، وخروج الدابة والدجال، والرجل يكون مصرا ولم يعمل على الإيمان- ثم تجيء الآيات فلا ينفعه إيمان»**.[٢]

يظهر من بعض الأخبار - نظير الخبر الأخير- أنّ غلق باب التوبة يكون تدريجياً، فبظهور كلّ آية سماوية، من آيات اقتدار الله تعالى وجبروته، يشتدّ عناد المعاندين، فهم بأيديهم يضعون قفلاً جديداً على باب التوبة مضافاً للأقفال السابقة التي وضعوها جراء عنادهم ولجاجهم.

فهؤلاء حين لاينفعهم جميع السبل لكفّهم عن طريق الغي والشقاق في دار لايوجد فيها موت، إلا بأن يغلّوا في الأغلال ويسحبوا في النار، فمن الحكمة واللطف لهم ولغيرهم أن يغلوا يوم القيامة ويسحبوا في نار جهنم، أولئك أصحاب شعار: النار ولا

(١) الإسراء: ٦٧.

(٢) تفسير العياشي: ج١ ص٣٨٤.

العار! فلايرجعون عن غيّهم إلا إذا غلّت أيديهم بالنار.

فهؤلاء لايخفّف عنهم العذاب، إنّهم أصحاب النار هم فيها خالدون.

نعوذ بالله تعالى من سخطه وانتقامه ونستجير به من عذابه ونسأله أن يجعلنا من عتقائه من النار ويرزقنا مرافقة أوليائه في دار القرار، بجاه محمد وآله الأطهار.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

واللعن على أعدائهم أجمعين.

الأسئلة:

١- ما هو المراد من أنّ جهنم خلقت بالعرض؟

٢- ما الدليل على أنّه لو جعلنا الله تعالى في الجنة من ابتداء الخلق للزم منه نقض الغرض ولدخل الحزن والنصب في الجنة؟

٣- ما وجه وجود حق القصاص العادل لكل مخلوق في عالم الكون من الظالمين لأنبياء الله وخلفائه؟

٤- لماذا لايضعف بغض المؤمنين لأعداء الله تعالى والهاتكين لحرماته؟

٥- كيف يكون الدخول في جهنم مقدمة للدخول في الجنة لبعض الناس؟

٦- ما معنى غلق باب التوبة بظهور آيات الله تعالى، وهل أنه دفعي أم تدريجي؟

٧- اذكر الدليل القرآني على أنّ الخالدين في نار جهنم لو رفع عنهم العذاب لرجعوا إلى ظلمهم وعنادهم.

٨- ما هو السبب في عدم قبول توبة بعض الكفار حينما يشاهدون العذاب، كفرعون فإنه عندما آمن حينما أيقن بالغرق جاءه الخطاب ﴿**آلْآنَ وقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدينَ**﴾.؟

٩- كيف يكون الخلود في النار للمعاندين لطف من الله تعالى بهم وبغيرهم؟

الملحقات

ملحق رقم(١) صفحة ٢٤٤.

يوجد مضمون الحديث في (صحيح مسلم ٣: ١٤٧٨/ كتاب الامارة) ينقل قول رسول الله ﷺ: «**من مات وليس في عنقه بيعة مات ميته جاهلية**».

وأيضاً يروي أحمد في (مسنده ٤: ٩٦) وابن حبان في (صحيحه ٧: ٤٩) والأصفهاني في (حلية الأولياء ٣: ٢٢٤) قول النبي ﷺ: «**من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية**».

وكذلك يروي ابن أبي عاصم في كتاب (السنة ص٤٨٩)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٥: ٢٢٤)، وقال الألباني عنه: إسناده حسن ورجاله ثقات، قول النبي ﷺ: «**من مات وليس عليه إمام مات ميتة جاهلية**».

وأيضاً جاء في كتاب (مسند أحمد ٣: ٤٤٦) وكتاب (السنة لابن أبي عاصم ص٤٩٠)، و(المطالب العالية) للعسقلاني قوله ﷺ: «**من مات وليس عليه طاعة مات ميتة جاهلية**»، وهكذا غيرها.

ملحق رقم (٢) من صفحة ٢٧٣.

بصائر الدرجات: ٤٣٣، وغيرها الكثير من مصادر الخاصّة، وفي مصادر العامة راجع: الجامع الصحيح للترمذي: ج ٥ ص ٣٢٩، والدر المنثور للسيوطي: ج ٦ ص ٧ وص ٣٠٦، والصواعق المحرقة: ص ١٤٧، والمعجم الصغير للطبراني: ج ١ ص

١٣٥، واسد الغابة في مع في الصحابة لابن اثير الشافعي: ج ٢ ص ١٢، وكنز العمال: ج ١ ص ١٥٤، وصحيح مسلم: كتاب اللفصائل باب فضائل علي بن ابي طالب ج٢ ص ٣٦٢.و للاطلاع على تواتر الحديث ورواته من العامة يمكنك الرجوع إلى كتاب المراجعات للسيد شرف الدين العاملي المراجعة الثامنة بتعليقات الشيخ حسين الراضي: تعليقة ٢٩ - ٣٤، وكتاب حديث الثقلين للشيخ نجم الدين العسكري.

ملحق رقم (٣) من صفحة ٢٧٣.

قالها عمر بن الخطاب في وجه رسول الله ﷺ في رزيّة يوم الخميس حينما أمرهم بان يأتوا بقلم ودواة ليكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده ابداً، راجع: صحيح البخاري: كتاب المرضى، باب قول المريض قوموا عني، ٧/ ٩، وكتاب الجهاد والسير باب جوائز الوفد ج ق ص ٣١، وكتاب العلم ج ١ ص ٣٧، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب كراهية الخلاف ج ٨ ص ١٦١، وصحيح مسلم في آخر كتاب الوصية ج ٥ ص ٧٥، وكتاب الوصية باب ترك الوصية لمن ليس عنده شيء ج ٢ ص ١٦، ومسند أحمد بن حَنبَل: ج ٤ ص ٣٥٦ ح ٢٩٩٢، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١ ص ١٣٣، الملل والنحل الشهرستاني: ج ١ ص ٢٢، الطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٢ ص ٢٤٢ - ٢٤٤، وتذكرة الخواص للسبب بن الجوزي الحنفي: ص ٦٢، وسر العالمين للغزالي: ص ٢١.

ملحق رقم (٤) من صفحة ٣٠٨.

اليك بعض مصادر العامة في ذلك: مسند أحمد بن حَنبَل: ج ١ ص ٢٩٢، الحميدي في الجمع بين الصحيحين، ابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة: صد٢٦، ابن حجر في الصواعق المحرقة: ص ٥٨، ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ج ١ ص ١٨٥، ابن

عبد البر في الاستيعاب: ج ١١ ص ٤٧٣، الترمذي في جامعه: سنن الترمذي: ج ٥ ص ٦٩٩، والنسائي في خصائصه: ص ٦ و٧، السيوطي في الدر المنثور: ج ٥ ص ١٩٨، الشبلنجي في نور الابصار: ص ١١٢، إسعاف الراغبين: ص ١٠٦، تفسير الثعلبي، وغير ذلك.

للاطاع على المصادر راجع: دلائل الصدق للمظفر: ج٤ ص٣٥١ - ٣٨٠، وفي هامش الكتاب من تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث: تفسير الطبري ١٠/ ٢٩٦-٢٩٨ ح ٢٨٤٨٥- ٢٨٥٠٢، تفسير الحبري: ٢٩٧- ٣١١ح ٥٠- ٥٩، أحكام القرآن- للجصّاص- ٣/ ٥٢٩، تفسير الثعلبي ٨/ ٤٢- ٤٣، تفسير الماوردي ٤/ ٤٠١، أسباب النزول- للواحدي-: ١٩٨، شواهد التنزيل ٢/ ١٠- ٩٢ ح ٦٣٧- ٧٧٤.

ملحق رقم (٥) من صفحة ٣١٨.

ولمعرفة مصادر حديث «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**» وأقوال العامة وردود علمائنا راجع: دلائل الصدق ج ٦ ص ١٧١ - ١٨١.و جاء في تحقيق الكتاب نقل الحديث عن عدة من مصادر العامة، انظر: جامع الأصول: ج ٨ ص ٦٥٧ ح ٦٥٠١، مطالب السؤول: ص ٦٩ و٩٨، منهاج السنة: ج ٧ ص ٥١٥، تاريخ الخلفاء: ص ٢٠٢، جواهر العقدين: ص ٥٧، الصواعق المحرقة: ص ١٨٩، شرح المواهب اللدنية للزرقاني: ج ٤ ص ٢١٥، مرقاة المفاتيح: ج ١٠ ص ٤٧٠، كلّهم عن الترمذي، وأيضاً في: معرفة الرجال- لابن معين- ١/ ٧٩ رقم ٢٣١ وج ٢/ ٢٤٢ رقم ٨٣١ و٨٣٢، سنن الترمذي ٥/ ٥٩٦ ح ٣٧٢٣، فضائل الصحابة- لأحمد بن حنبل- ٢/ ٧٨٩ ح ١٠٨١، المعجم الكبير ١١/ ٥٥ ح ١١٠٦١، تهذيب الآثار ٤/ ١٠٤- ١٠٥ ح

١٧٣ و١٧٤، المستدرك على الصحيحين ٣/ ١٣٧- ١٣٨ ح ٤٦٣٧- ٤٦٣٩، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ١٢٧، معرفة الصحابة- لأبي نعيم- ١/ ٨٨ ح ٣٤٧، حلية الأولياء ١/ ٦٤، تاريخ جرجان: ٦٥ ح ٧، الاستيعاب ٣/ ١١٠٢، تاريخ بغداد ٢/ ٣٧٧ رقم ٨٨٧ وج ٤/ ٣٤٨ رقم ٢١٨٦ وج ٧/ ١٧٣ رقم ٣٦١٣ وج ١١/ ٤٨- ٥٠ رقم ٥٧٢٨، تلخيص المتشابه ١/ ١٦٢ رقم ٢٥١، مناقب الإمام عليّ عليه السلام- لابن المغازلي-: ١١٥- ١٢٠ ح ١٢٠- ١٢٩، زين الفتى ١/ ١٦٢- ١٦٣ ح ٦١ و٦٢ وج ٢/ ٤٠٠- ٤٠٣ ح ٥٢١- ٥٢٦، شواهد التنزيل ١/ ٨١- ٨٢ ح ١١٨- ١٢١، فردوس الأخبار ١/ ٤٢ ح ١٠٩، مصابيح السنّة ٤/ ١٧٤ ح ٤٧٧٢، مفردات القرآن: ٦٣، مناقب الإمام عليّ عليه السلام- للخوارزمي-: ٨٢- ٨٣ ح ٦٩، تاريخ دمشق ٤٢/ ٣٧٨- ٣٨٢، جامع الأصول ٨/ ٦٥٧ ح ٦٥٠١، مطالب السؤول: ٦٩ و٩٨، منهاج السنّة ٥١٥٧/ ، مجمع الزوائد ٩/ ١١٤، تاريخ الخلفاء- للسيوطي-: ٢٠٢، جواهر العقدين: ٥٧، الصواعق المحرقة: ١٨٩، شرح المواهب اللدنّيّة- للزرقاني- ٤/ ٢١٥، كنز العمّال ١١/ ٦١٤ ح ٣٢٩٧٨ و٣٢٩٧٩ وج ١٣/ ١٤٧- ١٤٩ ح ٣٦٤٦٢- ٣٦٤٦٤، مرقاة المفاتيح ١٠/ ٤٧٠.

ملحق رقم (٦) من صفحة ٣٢١.

وقال ابن أبي الحديد: أجمع العلماء كلهم على أنه لم يقل أحد من الصحابة ولا أحد من العلماء سلوني غير علي بن أبي طالب عليه السلام، ذكر ذلك ابن عبد البر المحدث في كتاب الاستيعاب، قال: والمراد بقوله (فلأنا بطرق السماء أعرف مني بطرق الأرض) ما اختص به من العلم بمستقبل الأمور، ولا سيما في الملاحم والدول، ولقد صدّق هذا القول ما تواتر عنه من الإخبار بالغيوب المتكرر، لا مرة ولا مائة مرة حتى أزال الشك والريب بأنه إخبار عن علم، وأنه ليس على طريق الاتفاق.(شرح نهج البلاغة: ج ١٣

ص ١٠٦).

و ممن نص على اختصاص هذا التحدي بأمير المؤمنين عليه السلام على ما في إحقاق الحق ج ٧ ص ٦١٠ - ٦١٤:

ابن أبي الحديد في «شرح النهج».(ج ٢ ص ١٧٥ ط مصر) روى كلام ابن عبد البرّ ثمّ قال: وروى شيخنا أبو جعفر الاسكافي في كتاب نقض العثمانيّة عن عليّ بن الجعد عن ابن شبرمة قال: ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر إلّا عليّ بن أبي طالب عليه السلام.و في (ج ٣ ص ٢١٧، الطبع المذكور) نقل كلام ابن عبد البرّ بعين ما تقدّم عنه.

و منهم العلامة جمال الدين الزرندي الحنفي في «نظم درر السمطين».(ص ٩٦ ط القضاء) روى قوله عليه السلام وزاد: وفي رواية لا يقولها بعدي إلّا كذّاب أو مجنون [١] ومنهم الحافظ ابن عبد البر الأندلسي في «جامع بيان العلم وفضله».(ص ٥٨ ط الموسوعات بمصر) قال: عن سعيد بن المسيّب قال: ما كان أحد من النّاس يقول: سلوني غير عليّ ابن أبي طالب.

و منهم الحافظ محمد بن سعد المشهور بابن سعد في «الطبقات الكبرى».(ج ٢ ص ٣٣٨ ط القاهرة) قال:وقال سعيد بن المسيّب: لم يكن أحد من الصحابة يقول: «سلوني».إلّا عليّ عليه السلام.

و منهم العلامة أخطب خوارزم في «المناقب».(ص ٥٤ ط تبريز) قال: وبهذا الإسناد (أي الإسناد المتقدّم في كتابه) عن أحمد بن الحسين هذا أخبرني أبو عبد الله الحافظ حدّثني أبو العبّاس محمّد بن يعقوب حدّثني العبّاس بن محمّد الدوري حدّثني يحيى بن معين حدّثني سفيان بن عينية عن يحيى بن سعيد (خ بن) عن سعيد بن المسيّب قال ما كان في أصحاب النّبى صلى الله عليه وآله أحد يقول: «**سلوني**»، غير عليّ ابن أبي طالب عليه السلام.

و منهم العلامة ابن الأثير الجزري في «أسد الغابة».(ج ٤ ص ٢٢ ط مصر سنة ١٢٨٥) نقل كلام سعيد بن المسيّب بعين ما تقدّم عن «الجامع».

ومنهم العلامة محب الدين الطبري في «الرياض النضرة».(ج ٢ ص ١٩٨ ط محمّد أمين الخانجي بمصر) روى من طريق أحمد في المناقب والبغويّ في المعجم عن سعيد بن المسيّب انّه قال: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يقول سلوني إلّا عليّا.

و روى من طريق أبي عمرو بعين ما تقدّم عن «الجامع».

و منهم العلامة سبط ابن الجوزي في «التذكرة»، نقل كلام سعيد بن المسيّب بعين ما تقدّم عن «الطبقات الكبرى».

و منهم العلامة المذكور في «ذخائر العقبى».(ص ٨٣ ط مكتبة القدسي بمصر) روى فيه أيضاً نحوي الحديث بعين ما تقدّم عنه في «الرّياض النضرة».

و منهم العلامة ابن حجر الهيتمى في «الصواعق المحرقة».(ص ٧٦ ط الميمنية بمصر) روى الحديث بعين ما تقدّم عن «الرّياض النّضرة».

و منهم العلامة محمد خواجه البخاري في «فصل الخطاب».(على ما في ينابيع المودة ص ٣٧٢ ط إسلامبول) روى الحديث عن سعيد بعين ما تقدّم عن «الجامع».

و منهم العلامة السيوطي في «تاريخ الخلفاء».(ص ٦٦ ط الميمنية بمصر) روى الحديث عن سعيد بعين ما تقدّم أوّلاً عن «الرّياض النّضرة».

و منهم العلامة المناوي في «شرح الجامع الصغير».(ص ٢٤٧ مخطوط) قال: ولم يكن أحد من الصحب يقول اسألوني إلّا عليّ.

و منهم العلامة البدخشي في «مفتاح النجا»، (ص ٥٦ مخطوط) روى الحديث بعين

ما تقدّم عن «الرّياض النّضرة».

و منهم العلامة محمد بن طولون في «الشذرات الذهبية».(ص ٥٠ ط بيروت) روى الحديث عن سعيد بعين ما تقدم عن «الجامع»، و منهم العلامة القندوزى في «ينابيع المودة»، (ص ٢٨٦ ط إسلامبول) روى الحديث من طريق ابن سعد عن سعيد بعين ما تقدّم عن «الرّياض النضرة».

و في (ص ٧٤، الطبع المذكور) روى الحديث من طريق أحمد في «المسند»، و الخوارزمي في «المناقب».عن سعيد، بعين ما تقدّم عن «الرّياض النّضرة».

و في (ص ٢١١، الطبع المذكور) روى الحديث من طريق البغوي في «المعجم».و أبي عمرو أحمد في «المناقب».بعين ما تقدّم عن «الجامع».

و منهم العلامة الأمر تسرى في «أرجح المطالب».(ص ١٠٧ ط لاهور) روى الحديث من طريق أحمد عن سعيد بعين ما تقدّم عن «الرّياض النضرة».

و عن أبي عمر قال: ما كان أحد من النّاس يقول: سلوني غير عليّ بن أبي طالب أخرجه البغويّ.

و منهم العلامة المغربي في «فتح العلى».(ص ٤٠ ط مصر) قال: قال ابن أبي خيثمة أخبرنا إبراهيم بن بشّار حدّثنا سفيان بن عيينة ثنا يحيى ابن سعيد عن سعيد بن المسيّب قال: ما كان أحد من النّاس يقول سلوني غير عليّ ابن أبي طالب».انتهى كلام صاحب الإحقاق.

و من الغرائب أن كلّ من تحدى الناس بهذا التحدي غيره وغير أولاده المعصومين عليهم السلام، ظهر فشله وجهله أمام الناس، كما حدث ذلك لابن عباس فيما رواه

ابن الجوزي في كتابه بحر الدموع.

وقال جمال الدين الزرندي الحنفي في «نظم درر السمطين».(ص ٩٦ ط القضاء) قالها «أي سلوني قبل أن تفقدوني» رجل فجن وقال رجل آخر مثلها فسلط الله عليه الشيطان فخنقه فكان يضرب برأسه الجدار حتى مات قال بعد فرأيت دماغه في الجدار.

و يروى أن رجلاً آخر لما سمع علياً يقول ذلك فقام، فقال: أنا أقول كما قال هذا، قال زيد بن وهب فضرب به الأرض فجاء قومه فغشوه ثوباً فقيل لهم: هل كان هذا فيه قبل اليوم؟ قالوا: لا.

وقال العلامة عبد الرؤوف المناوي الشافعي المتوفى سنة ١٠٣١ وقيل: ١٠٣٥ في «شرح الجامع الصغير».(ص ٤٤٢ مخطوط) قال: قال الزمخشريّ دخل قتادة الكوفة فالتف عليه الناس فقال: سلوني عما شئتم وكان أبو حنيفة حاضراً وهو غلام حدث فقال: سلوه عن نملة سليمان كان ذكراً أو أنثى فسألوه فأفحم فقال أبو حنيفة: كانت أنثى فقيل له: من أين عرفت؟ قال: من قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ ولو كان ذكراً لقال: قال.

ملحق رقم (٧) من صفحة ٣٣١.

منهم: الشيخ المفيد في الفصول المختارة: ص١٤١، والإفصاح: ص١٣٤.

والسيد المرتضى في الشافي: ج ٣ ص ٧.

والشيخ الطوسي في تلخيص الشافي: ج٢ ص١٠.

والعلامة الحلي في عدة كتب؛ كشف الصدق: ص ١٧٢، منهاج اليقين: ص ٢٠٤، كشف المراد: ص ٢٦٨، منهاج الكرامة في معرفة الإمامة: ص ٦٥.

والفاضل السيوري في اللوامع الإلهية: ص ٣٣٧.

والعلامة محمد باقر المجلسي في مرآة العقول: ج٢ ص٣٢٧ - ٣٣١.

والشيخ الحر العاملي في إثبات الهداة: ج١ ص ٦٢٠.

والسيد هاشم البحراني في غاية المرام: ج٢ ص٥ - ٢٢.

والقاضي نور الله التستري في إحقاق الحق: ج٢ ص٣٩٩.

والشيخ محمد حسن المظفر في دلائل الصدق: ج٤ ص٢٩٧ - ٣١٣.

والسيد شرف الدين العاملي: ص ٣٠٩.

والعلامة الاميني في الغدير: ج٢ ص٩١ وج٣ ص ٢٢١.

ملحق رقم (٨) من صفحة ٣٤٠.

إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، للحر العاملي: ج٢ ص٩٦ و١٣٧ و٢٠١ و٢٤٥ وج٣ ص٤٢ و٥٠ و٨٦ و٨٩ و٩٢ و٩٤ و١٢٩ و١٣٤ و١٤٧ و١٤٨ و١٥٠ و١٦٥ و١٧٩ و١٨٠ و١٨٣ و١٩٣ و٢٢٠ و٣١١.

ملحق رقم (٩)من صفحة ٣٤٠.

راجع دلائل الصدق للمظفر بتعليقات مؤسسة آل البيت: ج٦ ص٨٠، فقد أخرج الحديث عن عدة مصادر:

مسند أحمد ١/ ١٧٠ و١٧٣ و١٧٥ و١٧٧ و١٧٩ و١٨٢ و١٨٤ و١٨٥ وج ٣/ ٣٢ و٣٣٨ وج ٦/ ٣٦٩ و٤٣٨، صحيح البخاري ٥/ ٨٩ ح ٢٠٢ وج ٦/ ١٨ ح ٤٠٨، صحيح مسلم ٧/ ١٢٠ كتاب الفضائل- باب فضائل أمير المؤمنين.

و انظر: سنن الترمذي ٥/ ٥٩٦ ح ٣٧٢٤ وص ٥٩٩ ح ٣٧٣٠ و٣٧٣١، سنن ابن ماجة ١/ ٤٢- ٤٣ ح ١١٥ وص ٤٥ ح ١٢١، السنن الكبرى- للنسائي- ٥/ ٤٤ ح ٨١٣٨- ٨١٤٣ وص ١١٩- ١٢٥ ح ٨٤٢٩- ٨٤٤٩ من طرق كثيرة وص ٢٤٠ ح ٨٧٨٠، مسند الطيالسي: ٢٨ و٢٩ ح ٢٠٥ و٢٠٩، مصنّف عبد الرزّاق ٥/ ٤٠٦ ح ٩٧٤٥ وج ١١/ ٢٢٦ ح ٢٠٣٩٠، مسند الحميدي ١/ ٣٨ ح ٧١، الطبقات الكبرى- لابن سعد- ٣/ ١٦- ١٧، مصنّف ابن أبي شيبة ٧/ ٤٩٦ ح ١١- ١٥ وج ٨/ ٥٦٢ ح ٤، فضائل الصحابة- لأحمد بن حنبل- ٢/ ٧٠٠- ٧٠١ ح ٩٥٤ و٩٥٦ و٩٥٧ وص ٧٠٣- ٧٠٤ ح ٩٦٠ وص ٧٣٢- ٧٣٣ ح ١٠٠٥- ١٠٠٦ وص ٧٤٠- ٧٤١ ح ١٠٢٠ وص ٧٥٥ ح ١٠٤١ وص ٧٥٧ ح ١٠٤٥ وص ٧٨٥ ح ١٠٧٩، مسند سعد ابن أبي وقّاص- للدورقي-: ٥١ ح ١٩ وص ١٠٣ ح ٤٩ وص ١٣٦ ح ٧٥ و٧٦ وص ١٣٩ ح ٨٠ وص ١٧٤- ١٧٧ ح ١٠٠- ١٠٢، التاريخ الكبير ١/ ١١٥ رقم ٣٣٣، السنّة- لابن أبي عاصم-: ٥٥١ ح ١١٨٨ وص ٥٨٦- ٥٨٩ ح ١٣٣١- ١٣٥١ وص ٥٩٥- ٥٩٦ ح ١٣٨١- ١٣٨٧، مسند البزّار ٣/ ٢٧٦- ٢٧٩ ح ١٠٦٥ و١٠٦٦ و١٠٦٨ وص ٢٨٣- ٢٨٥ ح ١٠٧٤- ١٠٧٦ وص ٣٢٤ ح ١١٢٠ وص ٣٦٨ ح ١١٧٠، مسند أبي يعلى ١/ ٢٨٥- ٢٨٦ ح ٣٤٤ وج ٢/ ٥٧ ح ٦٩٨ وص ٦٦ ح ٧٠٩ وص ٧٣ ح ٧١٨ وص ٨٦ ح ٧٣٨ و٧٣٩ وص ٩٩ ح ٧٥٥ وص ١٣٢ ح ٨٠٩ وج ١٢/ ٣١٠ ح ٦٨٨٣، المعجم الكبير ١/ ١٤٦ ح ٣٢٨ وص ١٤٨ ح ٣٣٣ و٣٣٤ وج ٢/ ٢٤٧ ح ٢٠٣٥ وج ٤/ ١٧ ح ٣٥١٥ وص ١٨٤ ح ٤٠٨٧ وج ٥/ ٢٠٣ ح ٥٠٩٤ و٥٠٩٥ وج ١١/ ٦١ ح ١١٠٨٧ وص ٦٣ ح ١١٠٩٢ وج ١٢/ ٧٨ ح ١٢٥٩٣ وج ١٩/ ٢٩١ ح ٦٤٧ وج ٢٣/ ٣٧٧ ح ٨٩٢ وج ٢٤/ ١٤٦- ١٤٧ ح ٣٨٤- ٣٨٩، المعجم الأوسط ٣/ ٢١١ ح ٢٧٤٩ وج ٤/

٤٨٤ ح ٤٢٤٨ وج ٥/ ٤٣٩ ح ٥٣٣٥ وج ٦/ ٣٢ ح ٥٥٦٩ وص ١٣٨ ح ٥٨٤٥ وص ١٤٦ ح ٥٨٦٦ وج ٧/ ٣٦١ ح ٧٥٩٢ وج ٨/ ٧٤ ح ٧٨٩٤، المعجم الصغير ٢/ ٢٢ و٥٤، الكنى والأسماء- للدولابي- ١/ ١٩٢، الجعديات ٢/ ٧٧ ح ٢٠٥٨، مسند الشاشي ١/ ١٦١ ح ٩٩ وص ١٦٥- ١٦٦ ح ١٠٥ و١٠٦ وص ١٨٦ ح ١٣٤ وص ١٨٨- ١٨٩ ح ١٣٧ وص ١٩٥ ح ١٤٧ و١٤٨، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان ٨/ ٢٢١ ح ٦٦٠٩ وج ٩/ ٤٠- ٤١ ح ٦٨٨٧ و٦٨٨٨، الغيلانيات ١/ ٩٧ ح ٥٠ وص ١٧٠ ح ١٢٨، طبقات المحدّثين بأصفهان- لأبي الشيخ- ٤/ ٢٦٤ ح ١٠٢٠ رقم ٦٥٥، العلل الواردة في الأحاديث- للدارقطني- ٤/ ٣٧٣- ٣٧٦ رقم ٦٣٨، المستدرك على الصحيحين ٢/ ٣٦٧ ح ٣٢٩٤ وج ٣/ ١١٧ ح ٤٥٧٥، حلية الأولياء ٧/ ١٩٥- ١٩٦، السنن الكبرى- للبيهقي- ٩/ ٤٠، الاستيعاب ٣/ ١٠٩٧ وقال: «و هو من أثبت الآثار وأصحّها».، تاريخ بغداد ١/ ٣٢٥ وج ٣/ ٤٠٦ وج ٤/ ٢٠٤ و٣٨٣ وج ٨/ ٥٣ و٢٦٨ وج ٩/ ٣٦٥ وج ١٠/ ٤٣ وج ١١/ ٤٣٢ وج ١٢/ ٣٢٣، مناقب الإمام عليّ عليه السلام- لابن المغازلي-: ٧٩- ٨٧ ح ٤٠- ٥٦ من عدّة طرق، تاريخ دمشق ٤٢/ ١٤٢- ١٨٦ من طرق كثيرة جدّا.

ملحق رقم (١٠) من صفحة ٣٤١.

سنن الترمذي ٥/ ٥٩٠ ح ٣٧١٢؛ وانظر: السنن الكبرى- للنسائي- ٥/ ١٣٢- ١٣٣ ح ٨٤٧٤، مسند أحمد ٤/ ٤٣٧، مسند أبي يعلى ١/ ٢٩٣ ح ٣٥٥، المعجم الكبير ١٨/ ١٢٨ ح ٢٦٥، مسند الطيالسي: ١١١ ح ٨٢٩، مصنّف ابن أبي شيبة ٧/ ٥٠٤ ح ٥٨، مسند الروياني ١/ ٦٢ ح ١١٩، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان ٩/ ٤١- ٤٢ ح ٦٨٩٠، حلية الأولياء ٦/ ٢٩٤، كنز العمّال ١٣/ ١٤٢ ح ٣٦٤٤٤.

انظر: دلائل الصدق: ج٤ ص ٣٠٧.

ملحق رقم(١١) من صفحة ٣٤١.

مسند أحمد ٤/ ١٦٤ و١٦٥ و٤٣٨، فضائل الصحابة- لأحمد- ٢/ ٧٣٥ ح ١٠١٠ وص ٧٤٢ ح ١٠٢٣، سنن الترمذي ٥/ ٥٩٤ ح ٣٧١٩، سنن ابن ماجة ١/ ٤٤ ح ١١٩، السنن الكبرى- للنسائي- ٥/ ٤٥ ح ٨١٤٦- ٨١٤٧ وص ١٢٦ ح ٨٤٥٣ وص ١٢٨ ح ٨٤٥٩ وص ١٣٣ ح ٨٤٧٤، مسند الطيالسي: ١١١ ح ٨٢٩، مصنّف ابن أبي شيبة ٧/ ٤٩٥ ح ٨ وص ٥٠٤ ح ٥٨، السنّة- لابن أبي عاصم-: ٥٥٠ ح ١١٨٧ وص ٥٥١ ح ١١٨٩، مسند أبي يعلى ١/ ٢٩٣ ح ٣٥٥، مسند الروياني ١/ ٦٢ ح ١١٩، المعجم الكبير ١٨/ ١٢٩ ح ٢٦٥، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان ٩/ ٤٢ ح ٦٨٩٠، حلية الأولياء ٦/ ٢٩٤ رقم ٢٨٧، مناقب الإمام عليّ عليه السلام- لابن المغازلي-: ٢٠٥- ٢١١ ح ٢٦٧- ٢٧٦، مصابيح السنّة ٤/ ١٧٢ ح ٤٧٦٦ و٤٧٦٨.

انظر: دلائل الصدق: ج٦ ص١٣٣.

ملحق رقم (١٢) من صفحة ٣٤٥.

رواية الامام الباقر للخطبة رواها الفتال النيشابوري (المتوفى سنة ٥٠٨) في روضة الواعظين: ج١ ص٨٩/ والطبرسي (المتوفى بحدود سنة ٥٢٠) في الاحتجاج: ج١ ص ٥٦، والسيد رضي الدين بن طاووس (المتوفى سنة ٦٦٤) في اليقين بإختصاص مولانا علي عليه السلام بإمرة المؤمنين: ص٣٤٣، ومحمد بن حسين الرازي (القرن السابع) في نزهة الكرام: ج١ ص١٨٦.و تجدها أيضاً في بحار الأنوار: ج٣٧ ص٢٠٤.و رواية حذيفة رواها السيد رضي الدين ابن طاووس في إقبال الأعمال: ص٤٥٤ و٤٥٦، وتجدها أيضاً في بحار الأنوار: ج٣٧ ص١٠٣.و رواية زيد بن أرقم رواها السيد رضي

الدين بن طاووس في التحصين لأسرار ما زاد من أخبار كتاب اليقين: ص٥٧٨ باب ٢٩ في القسم الثاني، والعدد القوية: ص١٦٩، وعلي بن يونس العاملي البياضي (المتوفى سنة ٨٧٧) في الصراط المستقيم إلى مستحقّ التقديم: ج١ ص٣٠١، وزين الدين علي بن يوسف بن جبر (القرن السابع) في نهج الإيمان: ص٩٢.و الأخيران نقلا الخطبة عن كتاب الولاية لمحمد بن جرير الطبري.

ملحق رقم (١٣) من صفحة ٣٤٧.

يكاد أن لا يخلو مصدر من مصادر الجمهور- في الحديث والتفسير والتاريخ والفضائل وغيرها- من ذكر واقعة الغدير، ولو بإيراد جانب منها واقتطاع جوانب أخرى، وعلى سبيل المثال نذكر ما في هامش دلائل الصدق بتحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث: ج١ ص١٩: فقد روي الحديث- بألفاظ متقاربة- في: مصنّف ابن أبي شيبة ٧/ ٥٠٣ ح ٥٥، مسند أحمد ١/ ١٥٢ وج ٤/ ٣٦٨ و٣٧٠ و٣٧٢ و٣٧٣ وج ٥/ ٤١٩، وورد مؤدّاه في الأخبار الموفّقيات: ٢٦٠ ح ١٧١، سنن ابن ماجة ١/ ٤٣ ح ١١٦ وص ٤٥ ح ١٢١، سنن الترمذي ٥/ ٥٩١ ح ٣٧١٣ وقال: «هذا حديث حسن صحيح»،. العقد الفريد ٣/ ٣١٢، مسند الشاشي ١/ ١٢٧ و١٦٥- ١٦٦ ح ١٠٦، المعجم الكبير ٣/ ١٧٩ ح ٣٠٤٩ وص ١٨٠ ح ٣٠٥٢ وج ٤/ ١٧٣ ح ٤٠٥٢ وج ٥/ ١٦٥ و١٦٦ ح ٤٩٦٨ و٤٩٦٩ وص ١٧٠ ح ٤٩٨٣ وص ١٧١ ح ٤٩٨٥ و٤٩٨٦ وص ١٩٣ ح ٥٠٦٥ وص ١٩٤ ح ٥٠٦٦ وص ١٩٥ ح ٥٠٦٨- ٥٠٧١ وص ٢١٢ ح ٥١٢٨ وج ١٢/ ٧٧ ذ ح ١٢٥٩٣ وج ١٣/ ٢٩١ ح ٦٤٦، تاريخ أصبهان ١/ ١٦٢ ذيل رقم ١٤٢، المستدرك على الصحيحين ٣/ ١١٨ ح ٤٥٧٦ و٤٥٧٧ وقال الحاكم عن كلّ منهما: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرّجاه».و لم يتعقّب الذهبيّ الحديث الأوّل في التلخيص، وص ١١٩ ح ٤٥٧٨ وقال:

«هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرّجاه».و لم يتعقّبه الذهبي في التلخيص أيضاً، وص ١٢٦ ح ٤٦٠١، تاريخ بغداد ٧/ ٣٧٧ وج ١٢/ ٣٤٤، مصابيح السنّة ٤/ ١٧٢ ح ٤٧٦٧، تاريخ دمشق ٤٢/ ١٨٧- ١٨٨ ح ٨٦٣٤- ٨٦٤١ وص ١٩١- ١٩٤ ح ٨٦٤٨- ٨٦٥٦ وص ٢١٣- ٢١٤ ح ٨٦٩٣- ٨٦٩٦ و٨٦٩٨ وص ٢١٥- ٢٢٠ ح ٨٦٩٩- ٨٧١٤ وص ٢٢٣- ٢٣٢ ح ٨٧١٩- ٨٧٣٨ وص ٢٣٤- ٢٣٨ ح ٨٧٤٠- ٨٧٤٥، الشفا- للقاضي عياض- ٢/ ٤٨، نزهة الحفّاظ: ٦٠ و١٠٢، صفة الصفوة ١/ ١٣١، كفاية الطالب: ٥٠- ٥٥ وص ٦٤- ٦٦، ذخائر العقبى: ١٥٨، مشكاة المصابيح ٣/ ٣٥٦ ح ٦٠٩١، فرائد السمطين ١/ ٦٢- ٦٣ ح ٢٩ وص ٦٦- ٧٠ ح ٣٢- ٣٧، البداية والنهاية ٥/ ١٥٩ و١٦٢، جامع المسانيد والسنن ٢٠/ ٣١٥ ح ١٠٤٠، مجمع الزوائد ٧/ ١٧ وج ٩/ ١٠٤- ١٠٨، موارد الظمآن: ٥٤٣- ٥٤٤ ح ٢٢٠٤ و٢٢٠٥، المواعظ والاعتبار- للمقريزي- ١/ ٣٨٨، الجامع الصغير: ٥٤٢ ح ٩٠٠٠ و٩٠٠١، الدرّ المنثور ٣/ ١٩ في تفسير الآية ٣ من سورة المائدة، الصواعق المحرقة: ٦٤ و٦٦ و١٨٧ ح ٤.

* وروي التسليم على الإمام عليّ عليه السلام بإمرة المؤمنين وتهنئته بها في: مسند أحمد ٤/ ٢٨١، تاريخ بغداد ٨/ ٢٩٠، مناقب الإمام عليّ عليه السلام- لابن المغازلي-: ٦٩ ح ٢٤، مناقب الإمام عليّ عليه السلام- للخوارزمي-: ١٥٥ ح ١٨٤ و١٨٥، تاريخ دمشق ٤٢/ ٢٢٠- ٢٢٢ ح ٨٧١٥- ٨٧١٩ وص ٢٣٣- ٢٣٤ ح ٨٧٣٩، الرياض النضرة ٣/ ١٢٦- ١٢٧، ذخائر العقبى: ١٢٥، مختصر تاريخ دمشق ١٧/ ٣٥٢، مشكاة المصابيح ٣/ ٣٦٠ ح ٦١٠٣، فرائد السمطين ١/ ٦٤- ٦٥ ح ٣٠ و٣١ وص ٧١ ح ٣٨، البداية والنهاية ٧/ ٢٧٨- ٢٧٩، الصواعق المحرقة: ٦٧.

* كما رويت المناشدة في: مسند أحمد ١/ ٨٤ و٨٨ و١١٨- ١١٩ وج ٥/ ٣٦٦،

مصنّف ابن أبي شيبة ٧/ ٤٩٩ ح ٢٨، أنساب الأشراف ٢/ ٣٥٥ و٣٨٦، السنّة- لابن أبي عاصم-: ٥٩٣ ح ١٣٧٢- ١٣٧٤، مسند البزّار ٣/ ١٧١ ح ٩٥٨، خصائص الإمام عليّ عليه السلام- للنسائي-: ٧٨ ح ٨٨ وص ٨١ و٨٢ ح ٩٣ و٩٤، المعجم الكبير ٥/ ١٧١ ح ٤٩٨٥ وص ١٧٥ ح ٤٩٩٦ وص ١٩١ ح ٥٠٥٨، المعجم الصغير ١/ ٦٤، حلية الأولياء ٥/ ٢٦- ٢٧، تاريخ أصبهان ١/ ١٤٢ رقم ٩٢، تاريخ بغداد ١٤/ ٢٣٦، تاريخ دمشق ٤٢/ ٢٠٤- ٢١٢ ح ٨٦٧٨- ٨٦٩١ وص ٢١٤ ح ٨٦٩٧، أسد الغابة ٣/ ٦٠٥، شرح نهج البلاغة- لابن أبي الحديد- ٦/ ١٦٧- ١٦٨، كفاية الطالب: ٥٦ و٦٣، الرياض النضرة ٣/ ١٢٧ وورد مؤدّاه في ص ١٥٦ أيضاً، ذخائر العقبى: ١٢٥- ١٢٦ وورد مؤدّاه في ص ١٢٢ أيضاً، مختصر تاريخ دمشق ١٧/ ٣٥٤ وص ٣٥٨- ٣٥٩، البداية والنهاية ٥/ ١٦٠- ١٦١ وج ٧/ ٢٧٦- ٢٧٧، جامع المسانيد والسنن ١٩/ ٢٩- ٣٠ وج ٢٠/ ١٠٥ ح ٦٠١ وص ١١٦ ح ٦٢٨، مجمع الزوائد ٩/ ١٠٤- ١٠٨، الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٣٥٩ رقم ٥٢٠١، درّ السحابة: ٢٠٨- ٢١٢.

و في هامش دلائل الصدق بتحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث: ج٤ ص ٣٢٠ مصادر أخرى لحديث الغدير غير ما مر، وهي:

السنن الكبرى- للنسائي- ٥/ ١٣٠ ح ٨٤٦٤ وص ١٣١- ١٣٢ ح ٨٤٦٨- ٨٤٧٣ وص ١٣٤- ١٣٥ ح ٨٤٧٨- ٨٤٨١ وص ١٣٦ ح ٨٤٨٣ و٨٤٨٤، فضائل الصحابة- لأحمد- ٢/ ٨٤٩ ح ١١٦٧ وص ٨٧٨ ح ١٢٠٦، التاريخ الكبير- للبخاري- ١/ ٣٧٥ رقم ١١٩١، مصنّف عبد الرزّاق ١١/ ٢٢٥ ح ٢٠٣٨٨، مسند أبي يعلى ١/ ٤٢٨- ٤٢٩ ح ٥٦٧ وج ١١/ ٣٠٧ ح ٦٤٢٣، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان ٩/ ٤٢ ح ٦٨٩٢، مسند الإمام زيد: ٤٥٧، الإمامة والسياسة ١/ ١٢٩،-

تأويل مختلف الحديث: ١٧ و٤٩، السنّة- لابن أبي عاصم-: ٥٩٠- ٥٩٣ ح ١٣٥٤- ١٣٧٦، زوائد عبد الله بن أحمد بن حنبل: ٤١٣- ٤١٩ ح ١٩٧- ٢٠١، فضائل الصحابة- للنسائي-: ١٥ ح ٤٥، مسند الروياني ١/ ٣٦ ح ٦٢، الكنى والأسماء- للدولابي- ٢/ ٦١ و٨٨، الذرّية الطاهرة: ١٦٨ ح ٢٢٨، نوادر الأصول- للحكيم الترمذي- ٢/ ١٥٥- ١٥٦، مشكل الآثار ٢/ ٢١١- ٢١٢ ح ١٩٠٠- ١٩٠٢، العقد الفريد ٣/ ٣١٢، الغيلانيات ١/ ١٥٧- ١٥٨ ح ١١٨ وص ١٦٨ ح ١٢٦، الكامل- لابن عديّ- ٣/ ٨٠ رقم ٦٢٣ وص ٢٥٦ رقم ٧٣٥ وج ٤/ ١٢ رقم ٨٨٨ وج ٥/ ٣٣ رقم ١٢٠٤ وص ١٢٢ رقم ١٢٨٦ وج ٦/ ٨٢ رقم ١٦١٥ وص ٢١٦ رقم ١٦٨٦ وص ٣٨١ رقم ١٨٦٥ وص ٤١٣ رقم ١٨٩٥، العلل- للدارقطني- ٣/ ٢٢٤ رقم ٣٧٥ وج ٤/ ٩١ رقم ٤٤٦، تمهيد الأوائل: ٥٤٥، المغني- للقاضي عبد الجبّار- ٢٠ ق ١/ ١٤٤- ١٤٥، شرح الأصول الخمسة: ٧٦٦، معرفة الصحابة- لأبي نعيم- ٣/ ١١٧٠ ح ٢٩٦٦ وج ٥/ ٢٨٨٥ ح ٦٧٧٩ وج ٦/ ٣١٥٥ ح ٧٢٦٣، تثبيت الإمامة: ٥٤ ح ٥، حلية الأولياء ٤/ ٢٣ و٥/ ٣٦٤، الاستيعاب ٣/ ١٠٩٩، المتّفق والمفترق- للخطيب البغدادي- ٣/ ١٧٣٩ ح ١٢٧٧، موضح أوهام الجمع والتفريق ١/ ١٨٥، الفصل للوصل ١/ ٥٥٥- ٥٥٦ ح ٥٨، أسباب النزول- للواحدي-: ١١٢، شواهد التنزيل ١/ ١٨٧- ١٩٣ ح ٢٤٣- ٢٥٠، زين الفتى ١/ ٤٩٣- ٤٩٥ ح ٢٩٣- ٢٩٥، سرّ العالمين: ٤٥٣، ربيع الأبرار ١/ ٨٤- ٨٥، نهاية الإقدام في علم الكلام: ٤٩٣- ٤٩٤، الملل والنحل- للشهرستاني- ١/ ١٦١- ١٦٢، كنز العمّال ١١/ ٦٠٨- ٦١٠ ح ٣٢٩٤٥- ٣٢٩٥١ وج ١٣/ ١٣١ ح ٣٦٤١٧ و٣٦٤١٨.

ملحق رقم (١٤) من صفحة ٣٥٤

في قصيدته المعروفة بالجلجلية كتبها إلى معاوية في جواب كتاب إليه يطلب خراج

مصر ويعاتبه على امتناعه عنه، قائلا:

معاوية الحال لاتجهل ... و عن سبل الحقّ لا تعدل

إلى أن قال:

و كم قد سمعنا من المصطفى ... وصايا مخصّصة في علي
و في يوم خم رقى منبرا ... يبلّغ والركب لم يرحل
وفى كفّه كفّه معلنا ... ينادي بأمر العزيز العلي
ألست بكم منكم في النفوس ... بأولى فقالوا بلى فافعل
فَأنحَلَه إمرة المؤمنين ... من الله مستخلف المُنحل
وقال فمن كنت مولى له ... فهذا له اليوم نعمَ الولي
فوال مُواليه يا ذا الجلا ... ل وعاد معادي أخي المرسل
و لاتنقضوا العهد من عترتي ... فقاطعهم بي لم يوصل
فبخبخ شيخك لما رأى ... عرى عقد حيدر لم تُحلَل
فقال وليّكم فاحفظوا ... فمدخله فيكم مدخلي
و إنّا وما كان من فعلنا ... لفي النار في الدرك الأسفل
و ما كان دم عثمان منج لنا ... من الله في الموقف المخجل
و إنّ عليّا غدا خصمنا ... و يعتزّ بالله والمرسل
يحاسبنا عن أمور جرت ... و نحن عن الحقّ في معزل
فما عذرنا يوم كشف الغطا ... لك الويل منه غدا ثم لي

إلى آخر أبياته، وقد ذكرها الأميني في الغدير: ج٢ ص١٧٣ عن مصادر متعدّدة، فراجع.

ملحق رقم (١٥) من صفحة ٣٦٢

مصنف ابن شيبة: ج ٦ ص٣٧٨ وح ٣٢١٧٧، وأيضا: ح٣٢١٧٦، وح٣٢١٧٩، وفضائل الصحابة لاحمد بن حنبل: ج٢ ص٧٧١ ح١٣٦٠، وص٧٧٤ ح١٣٦٨، وص٧٧٩ ح١٣٨٤، وص٧٨٨ ح١٤٠٦، ومسند أحمد: ج١٧ ص٣١ ح١٠٩٩٩ وفي تعليقة مسند أحمد طبع الرسالة بعد ذكر الحديث: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير يزيد بن مردانبة، فقد أخرج له النسائي، وهو ثقة، محمد بن عبد الله الزبيري: هو أبو أحمد، وابن أبي نُعْم: هو عبد الرحمن البجلي، وأخرجه النسائي في «الكبرى» (٨٥٢٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٦١١)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» ٢/ ٣٤٣، والخطيب في «تاريخه» ١١/ ٩٠ من طريق الفضل بن دكين، عن يزيد بن مردانبة، بهذا الإسناد، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٦١٤) من طريق عطاء بن يسار، والطبراني أيضاً (٢٦١٥)، والخطيب في «تاريخه» ٩/ ٢٣١ من طريق عطية العوفي، كلاهما عن أبي سعيد، به، وأخرجه النسائي في «الكبرى» (٨١٦٩) و(٨٥٢٨)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» ٢/ ٦٤٤، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٩٦٧)، وابن حبان (٦٩٥٩)، والطبراني في «الكبير» (٢٦١٠)، والحاكم في «المستدرك» ٣/ ١٦٦-١٦٧، وأبو نعيم في «الحلية» ٥/ ٧١، والخطيب في «تاريخه» ٤/ ٢٠٧ من طريق الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نُعْم، عن أبيه، به، وفيه زيادة: «إلا ابني الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا».قال الحاكم: هذا حديث قد صح من أوجه كثيرة، وأنا أتعجب أنهما لم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: الحكم فيه لين.

قلنا: الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نُعْم، وثقه الفسوي، وقال أبو حاتم: صالح الحديث، وذكره ابن حبان في «الثقات»، وضعفه ابن معين، فهو حسن الحديث، وسيرد بالأرقام (١١٥٩٤) و(١١٦١٨) و(١١٧٧٧) .وفي الباب عن حذيفة بن اليمان، سيرد

٥/ ٣٩١-٣٩٢ وإسناده صحيح، وعن عبد الله بن مسعود عند الحاكم ٣/ ١٦٧ وصححه، ووافقه الذهبي، وعن قرة بن إياس، عند الطبراني في «الكبير» (٢٦١٧)، وإسناده صحيح، وعن البراء بن عازب، أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩/ ١٨٤، وقال: رواه الطبراني، وإسناده حسن، وموارد أخرى كثيرة.

ملحق رقم (١٦) من صفحة ٣٦٣

وإليك نبذة مختصرة من كلمات اعيان علماء العامة في فضل الأئمة الاثني عشر:

الإمام الثاني والثالث: سبطا الرسول الحسن والحسين عليهما السلام.

قال الزرندي: «ويروى أن عمرو بن العاص لما أقبل الحسن بن علي، قال: هذا أحب أهل الأرض إلى أهل السماء» (نظم درر السمطين ص ٢٠٢).

وقال ابن الكثير: وقد كان ابن عباس يأخذ الركاب للحسن والحسين إذا ركبا، ويرى هذا من النعم عليه وكانا إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما مما يزدحمون عليهما - رضي الله عنهما وأرضاهما - وكان ابن الزبير يقول: والله ما قامت النساء عن مثل الحسن بن علي. (البداية والنهاية: ج٨ ص٣٦).

قال ابن شهرآشوب: «قال واصل بن عطاء: كان الحسن بن علي عليه السلام عليه سيماء الأنبياء وبهاء الملوك». (المناقب: ج٤ ص٩).

روى الخوارزمي بإسناده عن سلمان المحمّدي، قال: «دخلت على النبي صلى الله عليه وآله، وإذا الحسين على فخذه وهو يقبّل عينيه ويلثم فاه ويقول: **إنّك سيد ابن سيد أبو سادة. إنّك إمام، ابن إمام، أبو أئمة، إنّك حجة ابن حجة أبو حجج تسعة، من صلبك تاسعهم قائمهم**». (مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي: ج١ ص١٤٦).

الإمام الرابع: علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام.

قال مالك بن أنس إمام المالكية: «سمي زين العابدين لكثرة عبادته».(نور الابصار للشبلنجي: ص ١٦٢.)

وقال الزهري «ما رأيت قرشياً أفضل منه».(حياة الحيوان للدميري ج ١ ص ١٣٩)

وقال: «ما رأيت أفقه منه».(نور الأبصار ص ١٦٢)

قال ابن المسيب: «ما رأيت أورع منه» (إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار ص ٢١٨)

وقال ابن حجر: «زين العابدين هذا هو الذي خلف أباه علماً وزهداً وعبادةً وكان إذا توضأ للصلاة اصفرّ لونه، فقيل له في ذلك، فقال: **ألا تدرون بين يدي من أقف؟** وحكي أنه كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة».(الصواعق المحرقة ص ١١٩.)

قال محمّد بن طلحة الشافعي: «علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام هذا زين العابدين، وقدوة الزاهدين، وسيد المتقين، وإمام المؤمنين شيمتُهُ تشهد له أنه من سلالة رسول الله صلى الله عليه وآله، وسمته يثبت مقام قربه من الله زلفاً، وثفناته تسجل بكثرة صلاته وتهجده واعراضه عن متاع الدنيا ينطق بزهده فيها، درت له أخلاف التقوى فتفوقها، وأشرقت لديه أنوار التأييد فاهتدى بها، وألفته أبراد العبادة فآنس بصحبتها، وحالفته وظايف الطاعة فتحلى بحليتها، طالما اتخذ الليل مطيّة ركبها لقطع مفازة الساهرة، وظمأ الهواجر دليلا استرشد به في مغارة المسافر، وله من الخوارق والكرامات ما شوهد بالأعين الباصرة وثبت بالآثار المتواترة، وشهد له أنه من ملوك الآخرة» (مطالب السؤول ص ٢٠٢ مخطوط).

ومن آثاره المدونة: الصحائف السجادية تتفجر منها العلوم والمعارف، ولو لم

يخلف إلاّ الصحيفة الكاملة لكفى، فإنّ فيها البرهان الأبهر على أنّ وارث علم الكتاب وقد شرح الله تعالى صدره ليكون مستودعاً لعلم الأنبياء والمرسلين.

الإمام الخامس: علي بن محمد الباقر عليه السلام.

قال محمّد بن طلحة الشافعي: «وهو باقر العلم وجامعه، وشاهر علمه ورافعه، ومنفق دره وراضعه، ومنمق دره وواضعه، صفا قلبه وزكا عمله، وطهرت نفسه، وشرفت أخلاقه، وعمرت بالطاعة أوقاته، ورسخت في مقام التقوى قدمه وظهرت عليه سمات الإزدلاف وطهارة الاجتباء، فالمناقب تسبق إليه والصفات تشرق به ...وأما اسمه فمحمّد وكنيته أبو جعفر وله ألقاب ثلاثة: باقر العلم والشاكر والهادي، وأشهرها الباقر سمي بذلك لتبقره في العلم وهو توسعه فيه، وأما مناقبه الحميدة وصفاته الجميلة فكثيرة» (مطالب السؤول في مناقب آل الرسول ص ٢١٢)

وقال ابن حجر: «وارث علي بن الحسين من ولده، عبادة وعلماً وزهادةً: أبو جعفر محمّد الباقر، سمي بذلك من بقر الأرض أي شقها وأثار مخبآتها ومكامنها، فلذلك هو أظهر من مخبآت كنوز المعارف وحقائق الأحكام والحكم واللطايف ما لا يخفى إلاّ على منطمس البصيرة أو فاسد الطوية والسريرة، ومن ثم قيل هو باقر العلم وجامعه، وشاهر علمه ورافعه، صفا قلبه، وزكا علمه وعمله، وطهرت نفسه، وشرف خلقه، وعمرت أوقاته بطاعة الله، وله من الرسوم في مقامات العارفين ما تكل عنه ألسنة الواصفين؛ وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف لا تحتملها هذه العجالة». (الصواعق المحرقة ص ١٢٠)

وقال صلاح الدين الصفدي: «الباقر محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: أبو جعفر الباقر سيد بني هاشم في وقته .روى عن جديه الحسن

والحسين ...وكان أحد من جمع العلم والفقه والديانة والثقة والسؤدد، وكان يصلح للخلافة وهو أحد الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد الرافضة عصمتهم، وسمي الباقر لأنه بقر العلم أي شقه».(الوافي بالوفيات ج ٤ ص ١٠٢)

قال أبو يوسف: «قلت لأبي حنيفة: لقيت محمّد بن علي الباقر ؟ فقال: نعم، وسألته يوماً فقلت له: أأراد الله المعاصي ؟ فقال: أفيعصى قهراً ؟ قال أبو حنيفة: فما رأيت جواباً أفحم منه .وقال عطاء: فما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر، لقد رأيت الحكم عنده كأنه مغلوب، ويعني بالحكم الحكم بن عيينة، وكان عالماً نبيلا جليلا في زمانه».(تذكرة الخواص ص ٣٣٦)

قال ابن أبي الحديد: «كان محمّد بن علي بن الحسين ...سيد فقهاء الحجاز، ومنه ومن ابنه جعفر تعلم الناس الفقه، وهو الملقب بالباقر باقر العلم، لقبه به رسول الله صلى الله عليه وآله» (شرح نهج البلاغة ج ١٥ ص ٢٢٧ بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم).

الإمام السادس: جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

قال مالك بن أنس: «ما رأت عين ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر، أفضل من جعفر بن محمّد الصادق فضلا وعلماً وعبادةً وورعاً».(المناقب لابن شهرآشوب ج ٤ ص ٢٤٨) وكان كثير الحديث، طيب المجالسة، كثير الفوائد.(دائرة المعارف الاسلامية الشيعية ج ٢ ص ٧١)

وقال أبو حنيفة: «ما رأيت أفقه من جعفر بن محمّد».(تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٦٦) وقال: «لولا السنتان لهلك النعمان» (من أمالي الإمام الصادق عليه السلام لمحمّد الخليلي ج ٤ ص ١٥٧) يقصد لولا السنتان التين تتلمذ فيهما عند الإمام الصادق لهلك النعمان وهو اسم أبي جنيفة إمام الأحناف.

وقال شمس الدين محمّد الجزري: «وثبت عندنا أن كلا من الإمام مالك وأبي حنيفة صحب الإمام أبا عبد الله جعفر بن محمّد الصادق، حتى قال أبو حنيفة: ما رأيت أفقه منه وقد دخلني منه من الهيبة ما لم يدخلني للمنصور» (أسنى المطالب ص ٥٥)

وقال ابن أبي الحديد: «أما الشافعي فقرأ على محمّد بن الحسن فيرجع فقهه ..إلى أبي حنيفة، وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعي فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة، وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمّد».(شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٨ بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم)

قال الحسن بن علي بن زياد الوشاء: «أدركت في هذا المسجد (مسجد الكوفة) تسعمائة شيخ كل يقول: حدثني جعفر بن محمّد».(تنقيح المقال ج ١ ص ٢٩٤)

قال الجاحظ: «جعفر بن محمّد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه ويقال إن أبا حنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثوري وحسبك بهما في هذا الباب» (من أمالي الإمام الصادق عليه السلام لمحمّد الخليلي ج ٤ ص ١٥٧ رقم ٥)

وقال ابن حجر: «وخلف محمّد بن علي ستة أولاد أفضلهم وأكملهم جعفر الصادق، ومن ثم كان خليفته ووصيه، ونقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان .وروى عنه الأئمة الأكابر» (الصواعق المحرقة ص ١٢٠)

قال أبو نعيم: «الإمام الناطق ذو الزمام السابق أبو عبد الله جعفر بن محمّد الصادق، أقبل على العبادة والخضوع وآثر العزلة والخشوع ونهى عن الرئاسة والجموع».(حلية الأولياء ج ٣ ص ١٩٢).

قال ابن عنبة: «ويقال له عمود الشرف ومناقبه متواترةٌ بين الأنام مشهورة بين الخاص والعام، وقصده المنصور الدوانيقي بالقتل مراراً فعصمه الله منه».(عمدة

الطالب في أنساب آل أبي طالب ص ١٩٥)

قال ابن الصباغ المالكي: «كان جعفر الصادق من بين إخوانه خليفة أبيه ووصيه، والقائم بالإمامة من بعده برز على جماعة بالفضل وكانَ أنبههم ذكراً وأجلّهم قدراً نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته وذكره في سائر البلدان ولم ينقل العلماء عن أحد من أهل بيته ما نقل عنه من الحديث» (الفصول المهمّة ص ٢٢٢)

وقال محمد أبوزهره: «ما أجمع علماء الإسلام على اختلاف طوائفهم في أمر، أجمعوا على فضل الإمام الصادق وعلمه، فأئمة السنة الذين عاصروه تلقوا عنه وأخذوا عنه ...ولذلك نطقت ألسنة العلماء جميعاً بفضله، وبذلك استحق الإمامة العلمية في عصره، كما استحقها أبوه وجده من قبله وكما استحقها عمه زيد رضي الله عنهم أجمعين، فقد كانوا جميعاً أئمة الهدى يقتدى بهم يقتبس من أقوالهم، وقد عكفوا على علم الاسلام عكوف العابد على عبادته فخلفوا علماً، وخلفوا رجالا وتناقل الناس علمهم وتحدثوا به» (الإمام الصادق ص ٦٥ و٦٨).

قال الشبلنجي: «مناقبه كثيرة تكاد تفوت عدّ الحاسب ويحار في أنواعها فهم اليقظ الكاتب».(نور الأبصار ص ١٧٠).

قال محمّد بن طلحة: «مناقبه وصفاته تكاد تفوت عدّ الحاصر ويحار في أنواعها فهم اليقظ الباصر، حتى أن من كثرة علومه المفاضة على قلبه من سجال التقوى صارت الأحكام التي لا تدرك عللها والعلوم التي تقصر الأفهام عن الإحاطة بحكمها، تضاف إليه وتروى عنه».(مطالب السؤول ص ٢١٩)

قال ابن الصباغ: «مناقب جعفر الصادق عليه السلام فاضلة، وصفاته في الشرف كاملة، وشرفه على جبهات الأيام سائلة، وأندية المجد والعز بمفاخرة ومآثره آهلة» (الفصول

المهمة ص ٢٣٠).

الإمام السابع: موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام

قال ابن حجر الهيتمي: «موسى الكاظم وهو وارثه (جعفر بن محمّد الصادق) علماً ومعرفةً وكمالا وفضلا، سمي بالكاظم لكثرة تجاوزه وحلمه، وكان معروفاً عند أهل العراق بباب قضاء الحوائج عند الله وكان أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم» (الصواعق المحرقة ص ١٢١ وذكره القندوزي في ينابيع المودة ص ٣٦٢).

قال محمّد بن طلحة الشافعي: «هو الإمام الكبير القدر، العظيم الشأن، الكثير التهجد، الجادّ في الاجتهاد المشهود له بالكرامات، المشهور بالعبادة، المواظب على الطاعات، يبيت الليل ساجداً وقائماً ويقطع النهار متصدقاً وصائماً، ولفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين عليه دعي كاظماً، كان يجازي المسيء إليه بإحسانه، ويقابل الجاني عليه بعفوه عنه، ولكثرة عبادته كان يسمى العبد الصالح، ويعرف في العراق بباب الحوائج إلى الله لنجح مطالب المتوسلين إلى الله به، كراماته تحار منها العقول وتقضي بأنّ له عند الله تعالى قدم صدق لا يزول». (مطالب السؤول ص ٢٢٥ مخطوط)

قال ابن الصباغ المالكي: «قال بعض أهل العلم: الكاظم هو الإمام الكبير القدر، والأوحد الحجة الحبر، الساهر ليله قائماً، القاطع نهاره صائماً، المسمى لفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين كاظماً، وهو المعروف عند أهل العراق بباب الحوائج إلى الله وذلك لنجح قضاء حوائج المسلمين» (الفصول المهمة ص ١٣١، وذكره الشبلنجي في نور الأبصار ص ١٧٣).

قال خير الدين الزركلي: «موسى بن جعفر الصادق بن محمّد الباقر: أبو الحسن سابع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، كان من سادات بني هاشم ومن أعبد أهل زمانه

وأحد كبار العلماء الأجواد» (الاعلام ج ٨ ص ٢٧٠).

قال الذهبي: «وكان موسى من أجواد الحكماء، ومن العباد الأتقياء، وله مشهد معروف ببغداد» (ميزان الاعتدال ج ٤ ص ٢٠٢ رقم ٨٨٥٥)

الإمام الثامن: علي بن موسى الرضا عليه السلام

قال الحمويني: «الإمام الثامن مظهر خفيات الأسرار، ومبرز خبيّات الأمور الكوامن، منبع المكارم والميامن، ومتبع الأعالي الحضارم والأيامن، منيع الجناب، رفيع القباب، وسيع الرحاب، هموم السحاب عزيز الألطاف، غزير الأكناف أمير الأشراف، قرة عين آل ياسين وآل عبد مناف، السيد الطاهر المعصوم، والعارف بحقائق العلوم، والواقف على غوامض السر المكتوم، والمخبر بما هو آت، وعما غبر ومضى، المرضي عند الله سبحانه برضاه عنه في جميع الأحوال ولذا لقب بالرضا، علي ابن موسى صلوات الله على محمّد وآله خصوصاً عليه ما سحّ سحاب وهما، وطلع نبات ونما» (فرائد السمطين ج ٢ ص ١٨٧)

وقال الحافظ السمهودي: «علي الرضا بن موسى الكاظم كان أوحد زمانه جليل القدر، أسلم على يده أبو محفوظ معروف الكرخي... وقال له المأمون: بأي وجه جدك علي بن أبي طالب قسيم الجنة والنار؟ فقال: **يا أمير المؤمنين ألم ترو عن أبيك عن آبائه عن عبد الله بن عباس**، قال: **سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: حب علي ايمان وبغضه كفر؟** قال: بلى، قال الرضا عليه السلام: **فقسم الجنة والنار إذاً كان على حبه وبغضه**، فقال المأمون: لا أبقاني الله بعدك يا أبا الحسن .أشهد أنك وارث علم رسول الله صلى الله عليه وآله» (جواهر العقدين ص ٣٥٣ مخطوط)

وقال الشبلنجي الشافعي: «قال إبراهيم بن العبّاس: ما رأيت الرضا سئل عن شئ

إلاّ علمه ولا رأيت أعلم منه بما كان في الزمان إلى وقت عصره، وكان المأمون يمتحنه بالسؤال من كل شئ فيجيبه الجواب الشافي».(نور الأبصار ص ١٨٠)

قال الأربلي: «وأما ما روي عنه عليه السلام من فنون العلم وأنواع الحكم والأخبار المجموعة والمنثورة والمجالس مع أهل الملل والمناظرات المشهورة فأكثر من أن تحصى». (كشف الغمة ج ٢ ص ٣٣٠)

قال ابن الصباغ المالكي: «قال إبراهيم بن العباس: سمعت العباس يقول ما سئل الرضا عن شئ إلاّ علمه، ولا رأيت اعلم منه بما كان في الزمان إلى وقت عصره، وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شئ فيجيبه الجواب الشافي».(الفصول المهمة ص ٢٥١)

قال ابن شهرآشوب: «كان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شئ فيجيب فيه، وكان كلامه كله وجوابه وتمثيله بآيات من القرآن .وقال إبراهيم بن العبّاس ما رأيته سئل عن شئ قط إلاّ علمه ...قال محمّد ابن عيسى اليقطيني: لما اختلف الناس في أمر أبي الحسن الرضا عليه السلام جمعت من مسائله مما سئل عنه وأجاب فيه ثمانية عشر ألف مسألة .وقد روى عنه جماعة من المصنفين منهم: أبو بكر الخطيب في تاريخه والثعلبي في تفسيره والسمعاني في رسالته، وابن المعتز في كتابه، وغيرهم».(مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٣٥٠)

قال أبو الصلت عبد السلام بن صالح الهروي: «ما رأيت أعلم من علي بن موسى الرضا عليه السلام ولا رآه عالم إلاّ شهد له بمثل شهادتي، لقد جمع المأمون في مجالس له عدداً من علماء الأديان وفقهاء الشريعة والمتكلمين فغلبهم عن آخرهم حتى ما بقي منهم أحد إلاّ أقرّ له بالفضل وأقرّ على نفسه بالقصور، ولقد سمعته يقول: كنت اجلس في الروضة، والعلماء بالمدينة متوافرون، فإذا عيي الواحد منهم عن مسألة أشاروا إليّ بجمعهم

وبعثوا إليّ المسائل فأجيب عنها» (كشف الغمة ج ٢ ص ٣١٦)

الإمام التاسع: محمد بن علي الجواد عليه السلام.

قال ابن طلحة: «وإن كان صغير السنّ فهو كبير القدر، رفيع الذكر».(مطالب السؤول ص ٢٣٩)

وقال سبط ابن الجوزي: «وكان على منهاج أبيه في العلم والتقى والزهد والجود». (تذكرة الخواص ص ٣٥٨)

وقال ابن الصبّاغ المالكي: «وإن كان صغير السن فهو كبير القدر، رفيع الذكر، القائم بالإمامة بعد علي بن موسى الرضا ولده أبو جعفر محمّد الجواد للنص عليه والإشارة له بها من أبيه كما أخبر بذلك جماعةٌ من الثقات العدول» .(الفصول المهمة ص ٢٦٥)

وقال الشيخ محمود الشيخاني القادري: «وكان محمّد الجواد رضي الله عنه جليل القدر، عظيم المنزلة ...قالوا: إن كراماته ومكاشفاته كثيرة لا تحمله الدفاتر ومن كمال علمه انه غلب في طفوليته قاضي المأمون وهو يحيى بن أكثم».(الصراط السوي ص ٤٠٢)

وقال ابن حجر: « أجلّهم - يعني أولاد الرضا - محمّد الجواد».(الصواعق المحرقة ص ١٢٣)

وقال محمّد بن طلحة الشافعي: «وأما مناقبه فما اتّسعت حلبات مجالها، ولا امتدت أوقات آجالها، بل قضت الأقدار الإلهية بقلّة بقائه في الدنيا بحكمها وأسجالها، فقلّ في الدنيا مقامه، وعجّل القدوم عليه لزيارة حمامه، فلم تطل بها مدته ولا امتدت فيها

أيّامه، غير أنّ الله تعالى خصّه بمنقبة متألّقة في مطالع التعظيم، بارقة أنوارها، مرتفعة في معارج التفضيل قيمة أقدارها، بادية لأبصار ذوي البصائر، بينة منارها، هادية لعقول أهل المعرفة آية آثارها وهي وإن كانت صورتها واحدة فمعانيها كثيرة، وصيغتها وإن كانت صغيرة فدلالتها كبيرة». (مطالب السؤول ص ٢٤٠ .مخطوط)

الإمام العاشر: علي بن محمد الهادي عليه السلام.

قال ابن الصبّاغ المالكي: «قال بعض أهل العلم: فضل أبي الحسن علي بن محمّد الهادي قد ضرب على الحرّة قبابه، ومدّ على نجوم السماء أطنابه، فما تعدّ منقبة إلا وإليه تحليتها، ولا تذكر كريمة إلاّ وله فضيلتها، ولا تورد محمدة إلاّ وله تفصيلها وجملتها، ولا تستعظم حالة سنيّة إلاّ وتظهر عليه أدلّتها، استحق ذلك بما في جوهر نفسه من كرم تفرد بخصائصه ومجد حكم فيه على طبعه الكريم بحفظه من الشوب حفظ الراعي لقلايصه، فكانت نفسه مهذبة، وأخلاقه مستعذبة، وسيرته عادلة وخلاله فاضلة، ومبازه إلى العفاة واصلة وزموع المعروف بوجود وجوده عامرة آهلة، جرى من الوقار والسكون والطمأنينة والعفّة والنزاهة والخمول في النباهة، على وتيرة نبوية وشنشنة علوية ونفس زكية وهمّة عليّة لا يقاربها أحدٌ من الأنام ولا يدانيها وطريقة حسنة لا يشاركه فيها خلق ولا يطمع فيها». (الفصول المهمة ص ٢٨٢)

قال ابن حجر: «وكان وارث أبيه علماً وسخاءً» (الصواعق المحرقة ص ١٢٣)

روى ابن شهرآشوب بإسناده عن أبي محمّد الفحّام بالإسناد عن سلمة الكاتب قال: «قال خطيب – يلقّب بالهريسة – للمتوكل: ما يعمل أحد بك ما تعمله بنفسك في علي بن محمّد، فلا في الدار إلاّ من يخدمه، ولا يتعبونه يشيل الستر لنفسه، فأمر المتوكل بذلك، فرفع صاحب الخبر أن علي بن محمّد دخل الدار فلم يخدم ولم يشل أحد بين يديه

الستر، فهبّ هواء فرفع الستر حتى دخل وخرج، فقال: شيلوا له الستر بعد ذلك، فلا نريد أن يشيل له الهواء».(المناقب لابن شهرآشوب ج ٤ ص ٤٠٦ و٤٠٧)

وروى بإسناده عن محمّد بن الحسن الأشتر العلوي: «كنت مع أبي على باب المتوكل في جمع من الناس ما بين طالبيّ إلى عباسي وجعفري، فتحالفوا: لا نترجّل لهذا الغلام، فما هو بأشرفنا ولا بأكبرنا، يعنون أبا الحسن عليه السلام، فما هو إلاّ أن أقبل وبصروا حتى ترجّل له الناس كلهم، فقال لهم أبو هاشم: أليس زعمتم أنكم لا تترجّلون له ؟ فقالوا: والله ما ملكنا أنفسنا حتى ترجلنا» (المناقب لابن شهرآشوب: ج ٤ ص ٤١١)

الإمام الحادي عشر: الحسن بن علي العسكري عليه السلام

قال محمّد بن طلحة الشافعي: «فاعلم أن المنقبة العليا والمزية الكبرى التي خصه الله جل وعلا بها فقلّده فريدها، ومنحه تقليدها، وجعلها صفة دائمة لا يبلي الدهر جديدها، ولا تنسى الألسن تلاوتها وترديدها: أن المهدي محمّداً عليه السلام نسله المخلوق منه، وولده المنتسب إليه والبضعة المنفصلة عنه ...وكفى أبا محمّد الحسن تشريفه من ربه أن جعل محمّداً المهدي ممن أخرجه من صلبه معدوداً من حزبه، ولم يكن لأبي محمّد ولد ذكر سواه وحسبه ذلك منقبةً كفاه».(مطالب السؤول ص ٢٤٤)

قال ابن خلكان: «وهو والد المنتظر صاحب السرداب ويعرف بالعسكري وأبوه علي يعرف أيضاً بهذه النسبة» (وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٢)

وقال الحضرمي الشافعي: «أبو محمّد الحسن الخالص ابن علي العسكري، كان عظيم الشأن جليل المقدار، وقد زعمت الشيعة الرافضة انه والد المهدي المنتظر، ووقع له مع المعتمد لما حبسه كرامة ظاهرة مشهورة».(وسيلة المآل ص ٤٢٦)

قال ابن الصباغ المالكي: «مناقب سيدنا أبي محمّد الحسن العسكري دالّة على أنه

السرّي ابن السري، فلا يشك في إمامته أحدٌ ولا يمتري، واعلم أنه لو بيعت مكرمة فسواه بايعها وهو المشتري، واحد زمانه من غير مدافع ونسيج وحده من غير منازع، وسيد أهل عصره وأمام أهل دهره، أقواله سديدة وأفعاله حميدة، وإذا كانت أفاضل زمانه قصيدة فهو في بيت القصيدة، وإن انتظموا عقداً كان مكان الواسطة الفريدة، فارس العلوم الذي لا يجارى، ومبيّن غوامضها فلا يحاول ولا يمارى، كاشف الحقائق بنظره الصائب، مظهر الدقائق بفكره الثاقب، المحدث في سرّه بالأمور الخفيات، الكريم الأصل والنفس والذات». (الفصول المهمة ص ٢٩٠)

الإمام الثاني عشر: الحجة بن الحسن المهدي عجل الله فرجه الشريف.

و تكلمنا حول إمامة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف مشروحاً في الدروس الثامن والعشرين إلى الواحد والأربعين.

ملحق رقم (١٧) من صفحة ٣٧٢

انظر المراجعات للسيد شرف الدين العاملي، بتحقيق المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام: المراجعة الثامنة ص٦٦. فقد ذكر هذا اللفظ من الحديث من عدّة مصادر سنيّة: أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم وهو الحديث ٨٧٤ من أحاديث كنز العمال في ص ٤٤ من جزئه الأول، ويوجد أيضاً في صحيح الترمذي ج ٥ ص ٣٢٩ ص ٣٨٧٦ دار الفكر وج ٢ ص ٣٠٨. ط بولاق بمصر وج ١٣ ص ٢٠٠ ط الصاوي، نظم درر السمطين للزرندي الحنفي ص ٢٣١، الدر المنثور للسيوطي ج ٦ ص ٧، ذخائر العقبى ص ١٦، الصواعق المحرقة ص ١٤٧ و٢٢٦. ط المحمدية وص ٨٩ ط الميمنية بمصر، ينابيع المودّة للقندوزي الحنفي ص ٣٣ و٤٠ و٢٢٦ و٣٥٥ ط الحيدرية وص ٣٠ و٣٦ و١٩١ و٢٩٦ ط إسلامبول، المعجم الصغير للطبراني ج ١ ص ١٣٥، اسد الغابة في

معرفة الصحابة لابن الأثير الشافعي ج ٢ ص ١٣، تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١١٣، عبقات الأنوار ج ١ من حديث الثقلين ص ٢٥ ط اصفهان وج ١ ص ٣٦، ٩٣، ١١٣، ١٣٥، ١٧٣، ١٩٣، ٢١٥، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٥٣، ٢٧١ ظ قم، كنز العمال ج ١ ص ١٥٤ ط ٢، الفتح الكبير للنبهاني ج ١ ص ٤٥١، تفسير الخازن ج ١ ص ٤، مصابيح السنة للبغوي ص ٢٠٦ ط الخيرية بمصر، وج ٢ ص ٢٧٩ ط محمد علي صبيح بمصر، الجمع بين الصحاح للعبدري مخطوط، جامع الاصول لابن الاثير ج ١ ص ١٨٧ ح ٦٦، المنتقى في سيرة المصطفى للشيخ سعيد الشافعي مخطوط، علم الكتاب للسيد خواجه الحنفي ص ٢٦٤ ط دهلي، منتخب تاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٤٣٦ ط دمشق، مشكاة المصابيح للعمري ج ٣ ص ٢٥٨ ونقله في إحقاق الحق ج ٩ ص ٣٣١- ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٦، ٣٣٧ عن: تيسير الوصول لابن الديبع ج ١ ص ١٦ ط نول كشور، التاج الجامع للأصول ج ٣ ص ٣٠٨ ط القاهرة، رفع اللبس والشبهات ص ٥٢ ط مصر، أرجح المطالب للشيخ عبيد الله الحنفي ص ٣٣٦ ط لاهور، السيف اليماني المسلول ص ١٠ ط الترقي بالشام.

ملحق رقم (١٨) من صفحة ٣٧٣

انظر المصدر المتقدم، ذكره عن عدّة مصادر: أخرجه الإمام أحمد من حديث زيد بن ثابت بطريقين صحيحين أحدهما في أول صفحة ١٨٢، والثاني في آخر صفحة ١٨٩ من الجزء الخامس من مسنده، وأخرجه الطبراني في الكبير عن زيد بن ثابت أيضاً وهو الحديث ٨٧٣ من أحاديث الكنز ص ٤٤ من جزئه الأول، ويوجد هذا الحديث أيضاً في: الدر المنثور للسيوطي الشافعي ج ٢ ص ٦٠، إحياء الميت للسيوطي بهامش الإتحاف بحب الأشراف ص ١١٦، ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص ٣٨ و١٨٣ ط إسلامبول وص ٤٢ و٢١٧ ط الحيدرية، مجمع الزوائد للهيثمي ج ٩ ص ١٦٢ .عبقات الأنوار

ج ١ من حديث الثقلين ص ١٦ ط ١ أصفهان وفي طبعة مهر بقم ١٣٩٨ هـ، رواه عن زيد ابن ثابت ج ١ ص ٢٨ و٤٠ و٦٧ و٩٥ و١١٥ و١١٨ و١٣٦ و١٤٥ و٣٠٤، كنز العمال للمتقي الهندي ج ١ ص ١٥٤ ح ٨٧٣ و٩٤٨ ط ٢، الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٣٥٣ ط مصر، مفتاح النجا للبدخشي ص ٩ مخطوط، الفتح الكبير للنبهاني ج ١ ص ٤٥١ .أرجح المطالب للآمر التسري الحنفي ص ٣٣٥ ط لاهور، عبر النبي ٦عن الكتاب والعترة ب «الخليفتين».في عدة روايات راجع مصادر ذلك في «عبقات الأنوار». «حديث الثقلين».ج ٢ ص ٦٢.

ملحق رقم (١٩) من صفحة ٣٧٣

المصدر المتقدّم عن: صحيح مسلم كتاب الفضائل باب فضائل علي بن أبي طالب ج ٢ ص ٣٦٢ ط عيسى الحلبي وج ٧ ص ١٢٢ ط محمد علي صبيح وج ١٥ ص ١٧٩ - ١٨٠ ط مصر بشرح النووي، مصابيح السنّة للبغوي الشافعي ج ٢ ص ٢٧٨ ط محمد علي صبيح وج ٢ ص ٢٠٥ ط الخيرية بمصر، نظم درر السمطين للزرندي الحنفي ص ٢٣١، تفسير الخازن ج ١ ص ٤ ط مصطفى محمد، تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١١٣ ط ٢، مشكاة المصابيح للعمري ج ٣ ص ٢٥٥ ط دمشق وص ٥٦٨ ط دهلي، إسعاف الراغبين للصبان الشافعي بهامش نور الأبصار ص ١٠٠ ط العثمانية وص ١٠٨ ط السعيدية وص ١٢١ ط آخر، ينابيع المودة للقندوزي ص ٢٩، ص ١٩١، ص ٢٩٦ ط إسلامبول مفتي مكة المطبوع بهامش السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٣٠.الفتح الكبير للنبهاني ج ١ ص ٢٥٢، مناقب علي بن أبي طالب لابن المغازلي الشافعي ص ٢٣٦ ح ٢٨٤، الإتحاف بحب الأشراف للشبراوي الشافعي ص ٦، ذخائر العقبى للطبري الشافعي ص ١٦، كفاية الطالب للكنجي الشافعي ص ٥٣ ط الحيدرية وص ١٢ ط الغري، فرائد السمطين ج ٢ ص ٢٦٨ ح ٥٣٥، عبقات الأنوار حديث الثقلين ج ١ ص ٧٨

و٩٢ و١٠٤ و١٢٦ و١٤٧ و١٦٥ و١٨٦ و١٨٨ و١٩٢ و١٩٣ و١٩٨ و٢٠٢ و٢٠٤ و٢١٦ و٢٣٣ و٢٤٢ و٢٥٥ و٢٦٠ و٢٦٤ و٢٧٢ و٢٧٥ و٢٩٧ و٣٠١.

ملحق رقم (٢٠) من صفحة ٣٧٣

المصدر المتقدّم عن: صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب فضائل علي بن ابي طالب ج ٢ ص ٣٦٢ ط عيسى الحلبي وج ٧ ص ١٢٣ ط محمد علي صبيح وج ١٥ ص ١٨١ ط مصر بشرح النووي، الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٤٨ ط المحمدية وص ٨٩ ط الميمنية بمصر، فرائد السمطين ج ٢ ص ٢٥٠ ح ٥٢٠، عبقات الأنوار حديث الثقلين ج ١ ص ٢٦ و١٠٤ و٢٤٢ و٢٦١ و٢٦٧.

حديث الثقلين بألفاظ اخرى غير ما تقدم فراجع: مسند أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٧ و٢٦ و٥٩ و١٤ وج ٤ ص ٣٦٦ و٣٧١ وج ٥ ص ١٨١ ط الميمنية بمصر، ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص ٢٠ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٤ و٣٦ و٣٧ و٣٨ و٣٩ و٤٠ و٤١ و١١٦ و١٨٣ و١٩١ و٢٤٥ و٢٨٥ و٢٩٦ و٣٧٠ ط إسلامبول وص ٢٢ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٥ و٣٦ و٣٨ و٣٩ و٤٠ و٤١ و٤٢ و٤٣ و٤٤ و٤٥ و٤٨ و١٣٧ و٢٦١ و٢٨٦ و٢٩٢ و٢٩٣ و٣٤٢ و٣٥٥ و٤٤٥ ط الحيدرية وج ١ ص ٢٠ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٣ و٣٤ و٣٥ و٣٦ و٣٧ و٣٨ و٣٩ و٤١ ط العرفان بصيدا، الدر المنثور للسيوطي الشافعي ج ٢ ص ٦٠، مناقب علي بن أبي طالب لابن المغازلي الشافعي ص ٢٣٤ ح ٢٨١، مجمع الزوائد ج ٥ ص ١٩٥ وج ٩ ص ١٦٢ و١٦٤، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ١٣٠ ط مصر ح ٦ ص ٣٧٥ ط مصر بتحقيق محمد أبو الفضل، أضواء على السنّة المحمدية للشيخ محمود أبو ريّة، ص ٤٠٤ ط ٣ دار المعارف بمصر وص ٣٤٨ ط آخر، المناقب للخوارزمي الحنفي ص ٢٢٣،

ترجمة الإمام علي بن ابي طالب من تاريخ دمشق لابن عساكر الشافعي ج ٢ ص ٣٦ ح ٥٣٤ و٥٤٥ ط ١ بيروت، أنساب الاشراف للبلاذري ج ٢ ص ١١٠ ح ٤٨ ط الغري، تفسير الخازن ج ٦ ص ١٠٢ وج ٧ ص ٦، الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٥٥ ط الميمنية وج ١ ص ٣٥٣ ط مصطفى محمد، الفتح الكبير للنبهاني ج ١ ص ٢٥٢ و٥٠٣ وج ٣ ص ٣٨٥، النهاية لابن الاثير ج ١ ص ١٥٥ ط الخيرية بمصر وج ١ ص ٢١٦ ط بيروت، معالم التنزيل للبغوي بهامش تفسير الخازن ج ٧ ص ٦، لسان العرب لابن منظور ج ١٣ ص ٩٣ ط بولاق، نهاية الأرب للنويري ج ١٨ ص ٣٧٧ ط وزارة الثقافة بمصر، تاج العروس ج ٧ ص ٢٤٥ ط الخيرية بمصر، حلية الأولياء لأبي نعيم ج ١ ص ٣٥٥ ط السعادة، الإتحاف بحب الأشراف للشبراوي الشافعي ص ٦، إحياء الميت للسيوطي بهامش الإتحاف ص ١١٠ و١١٢ و١١٣ و١١٦، القاموس للفيروزآبادي الشافعي ج ٣ ص ٣٤٢ ط المطبعة الحسينية بمصر (مادة ثقل)، كنز العمال للمتقي الهندي ج ١ ص ١٥٨ ح ٨٩٩ و٩٤٣ و٩٤٤ و٩٤٥ و٩٤٦ و٩٤٧ و٩٥٠ و٩٥١ و٩٥٢ و٩٥٣ و٩٥٨ و١٦٥١ و١٦٥٨ و١٦٦٨ وج ١٥ ص ٩١ ح ٢٥٥ و٣٥٦ ط ٢.ذخائر العقبى للطبري ص ١٦، فرائد السمطين ج ١ ص ٣١٧ وج ٢ ص ١٤٢ و١٤٦ و٢٣٤ و٢٧٤.

ملحق رقم (٢١) من صفحة ٣٧٣

انظر المراجعات لشرف الدين المتقدم ذكره؛ وقد اعترف بذلك جماعة من أعلام الجمهور، حتى قال ابن حجر - إذ أورد حديث الثقلين -: «ثم اعلم أن لحديث التمسّك بهما طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابيا».قال: «و مرّ له طرق مبسوطة في حادي عشر الشبه».، وفي بعض تلك الطرق أنه قال ذلك بحجّة الوداع بعرفة، وفي أخرى أنه قال بالمدينة في مرضه، وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وفي اخرى أنه قال

ذلك بغدير خم، وفي أخرى أنه قال ذلك لمّا قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف كما مرّ، قال: ولا تنافي، إذ لا مانع من أنه كرر عليهم ذلك في تلك المواطن وغيرها اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة ...إلى آخر كلامه (الصواعق المحرقة ص ١٤٨ ط المحمدية وص ٨٩ ط الميمنية بمصر، ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص ٢٩٦ ط إسلامبول وص ٣٥٥ ط الحيدرية).

رواة حديث الثقلين من الصحابة:

١- أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. ٢- الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

٣- سيدنا سلمان. ٤- أبو ذر الغفاري. ٥- ابن عبّاس. ٦- أبو سعيد الخدري. ٧- جابر بن عبد الله الأنصاري. ٨- أبو الهيثم بن التيهان. ٩- أبو رافع. ١٠- حذيفة بن اليمان. ١١- حذيفة بن أسيد الغفاري. ١٢- خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين. ١٣- زيد بن ثابت. ١٤- زيد بن أرقم. ١٥- أبو هريرة. ١٦- عبد الله بن حنطب. ١٧- جبير بن مطعم. ١٨- البراء بن عازب. ١٩- أنس بن مالك. ٢٠- طلحة بن عبد الله التيمي. ٢١- عبد الرحمن بن عوف. ٢٢- سعد بن أبي وقاص. ٢٣- عمرو بن العاص. ٢٤- سهل بن سعد الأنصاري. ٢٥- عدي بن حاتم. ٢٦- أبو أيوب الأنصاري. ٢٧- أبو شريح الخزاعي. ٢٨- عقبة بن عامر. ٢٩- أبو قدامة الأنصاري. ٣٠- أبو ليلى الأنصاري. ٣١- ضميرة الأسلمي. ٣٢- عامر بن ليلى بن ضمرة. ٣٣- فاطمة الزهراء عليها السلام. ٣٤- أم سلمة زوج الرسول. ٣٥- أم هاني أخت أمير المؤمنين، راجع رواياتهم في عبقات الأنوار، حديث الثقلين ج ١ وج ٢.

الملحق رقم (٢٢) من صفحة ٣٧٦

راجع: غاية المرام للسيد هاشم البحراني: ج٢ ص٢٤٧، فقد روى من طريق

العامة ثمانية وخمسين حديثا، وفي ص٢٧٠ روى من طريق الخاصة خمسين حديثاً، وراجع أيضاً: إحقاق الحق للسيد المرعشي: ج١٣ ص١ - ٤٨.

و راجع أيضاً: دلائل الصدق بتحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام: ج٦ ص٢٦٤، ولنشر لبعض المصادر المذكورة في الهامش: جامع الأصول ٤/ ٤٥ ح ٢٠٢٢ عن «صحيح البخاري»،. وانظر: التاريخ الكبير- للبخاري- ١/ ٤٤٦ رقم ١٤٢٦ وج ٣/ ١٨٥ رقم ٦٢٧ وج ٨/ ٤١٠- ٤١١ رقم ٣٥٢٠، صحيح البخاري ٩/ ١٤٧ ح ٧٩، صحيح مسلم ٦/ ٣.سنن أبي داود ٤/ ١٠٣ ح ٤٢٧٩- ٤٢٨١، سنن الترمذي ٤/ ٤٣٤ ح ٢٢٢٣، مسند أحمد ٥/ ٨٦ و٨٧ و٨٨ و٨٩ و٩٠ و٩٢ و٩٣ و٩٨ و٩٩ و١٠٠ و١٠١ و١٠٦ و١٠٧ و١٠٨، مسند أبي يعلى ٨/ ٤٤٤ ح ٥٠٣١ وج ٩/ ٢٢٢- ٢٢٣ ح ٥٣٢٢ و٥٣٢٣ وج ١٣/ ٤٥٦- ٤٥٧ ح ٧٤٦٣، المعجم الكبير ٢/ ١٩٥- ١٩٧ ح ١٧٩١- ١٨٠١ وص ١٩٩ ح ١٨٠٨ و١٨٠٩ وص ٢٠٦ ح ١٨٤١ وص ٢٠٨ ح ١٨٤٩- ١٨٥٢ وص ٢١٤ ح ١٨٧٥ و١٨٧٦ وص ٢١٥ ح ١٨٨٣ وص ٢١٨ ح ١٨٩٦ وص ٢٢٣ ح ١٩٢٣ وص ٢٢٦ ح ١٩٣٦ وص ٢٣٢ ح ١٩٦٤ وص ٢٤٠- ٢٤١- ٢٠٠٧ وص ٢٤٨- ٢٤٩ ح ٢٠٤٤ وص ٢٥٣- ٢٥٤ ح ٢٠٥٩- ٢٠٦٣ وص ٢٥٥ ح ٢٠٦٧- ٢٠٧١ وص ٢٥٦ ح ٢٠٧٣، المعجم الأوسط ٢/ ١٢٢ ح ١٤٥٢ وج ٣/ ٢٧٩ ح ٢٩٤٣ وج ٤/ ٣٦٦ ح ٣٩٣٨ وج ٦/ ٢٨٥ ح ٦٢١١، مسند الطيالسي: ١٠٥ ح ٧٦٧ وص ١٨٠ ح ١٢٧٨، الفتن- لنعيم بن حمّاد-: ٥٢، السنّة- لابن أبي عاصم-: ٥١٨ ح ١١٢٣، مسند أبي عوانة ٤/ ٣٦٩- ٣٧٣ ح ٦٩٧٦- ٦٩٩٨، أخبار القضاة ٣/ ١٧، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان ٨/ ٢٣٠ ح ٦٦٢٦- ٦٦٢٨، المستدرك على الصحيحين ٣/ ٧١٥- ٧١٦ ح ٦٥٨٦ و٦٥٨٩، تاريخ أصبهان ٢/ ١٤٧ رقم ١٣٢٧، حلية الأولياء ٤/ ٣٣٣، دلائل النبوّة- لأبي

نعيم- ٢/ ٥٥٠ ح ٤٨٥ و٤٨٦، دلائل النبوّة- للبيهقي- ٦/ ٣٢٤ وص ٥١٩- ٥٢٠، تاريخ بغداد ١٤/ ٣٥٣ رقم ٧٦٧٣، الكفاية في علم الرواية: ٧٣، فردوس الأخبار ٢/ ٤٢٧ ح ٧٧٠٥، مصابيح السنّة ٤/ ١٣٧ ح ٤٦٨٠، البداية والنهاية ٦/ ١٨٥- ١٨٦، مجمع الزوائد ٥/ ١٩٠ .سنن أبي داود ٤/ ١٠٣ ح ٤٢٧٩- ٤٢٨١.

الملحق رقم (٢٣) من صفحة ٣٩١

راجع كتاب منتخب الأثر في النص على الإمام الثاني عشر، لسماحة الشيخ لطف الله الصافي، فقد جمع الأحاديث في هذا الباب بمختلف ألسنتها من ٣٩٠ مصدراً شيعياً وسنياً أكثر من ١٢٨٧ حديثاً، ومن ألسنة بعضها مع لحاظ الألسنة المشتركة في الأحاديث في الجزء الأول من الكتاب:

فيما يدّل على أنّ الأئمة اثنا عشر وفيه ٣٢٣ حديثاً.

وأنّ عدّتهم عدّة نقباء بني إسرائيل والأسباط وحواري عيسى وفيه ٤٢ حديثاً.

وانهم اثنا عشر وأولهم عليّ عليه السلام وفيه ١٧٩ حديثاً.

وأنهم اثنا عشر آخرهم المهدي عليه السلام وفيه ١٣٠ حديثاً.

وأنّهم اثنا عشر أولهم علي عليه السلام وآخرهم المهدي بهذا اللقب أو بغيره من ألقابه، وفيه ١٠٩ أحاديث.

وأنّهم اثنا عشر وتسعة منهم من صلب الحسين عليه السلام وفيه ١٦٠ حديثاً.

وأنّهم اثنا عشر تسعة من صلب الحسين عليه السلام والمهدي منهم وفيه ١٢١ حديثاً.

وأنّهم اثنا عشر تاسعهم قائمهم وفيه ١١٥ حديثاً.

وأنهم اثنا عشر بأسمائهم وأوصافهم وألقابهم واحداً بعد واحد إلى المهدي عليهم السلام وفيه ٧١ حديثاً.

و في الجزء الثاني من الكتاب:

ما دلّ على أنّ المهدي من عترة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن أهل بيته وذريته وفيه ٤٠٧ حديثاً.

أنّه من ولد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وفيه ٢٢٥ حديثاً.

أنّه من ولد سيّدة نساء العالمين فاطمة عليها السلام وفيه ٢٠٢ حديثاً.

أنّه من اولاد السبطين الحسن والحسين عليهما السلام وفيه ١٢٥ حديثاً.

أنّه من ولد الحسين عليه السلام وفيه ٢٠٨ حديثاً.

أنّه من الأئمّة التسعة من ولد الحسين عليهم السلام وفيه ١٦٥ حديثاً.

أنّه التاسع من ولد الحسين عليه السلام وفيه ١٦٠ حديثاً.

أنّه من ولد عليّ بن الحسين زين العابدين عليهم السلام وفيه ١٩٧ حديثاً.

أنّه السابع من ولد الباقر محمّد بن عليّ عليهما السلام وفيه ١٢١ حديثاً.

أنّه من ولد الصادق جعفر بن محمّد عليهم السلام وفيه ١٢٠ حديثاً.

أنّه السادس من ولد الصادق جعفر بن محمّد عليهم السلام وفيه ١١٢ حديثاً.

أنّه من صلب الامام أبي إبراهيم موسى بن جعفر عليهما السلام وفيه ١٢١ حديثاً.

أنّه الخامس من ولد الامام السابع موسى بن جعفر عليهم السلام وفيه ١١٥ حديثاً.

أنّه الرابع من ولد أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عليهم السلام وفيه ١١١ حديثاً.

أنَّه الثالث من ولد الإمام محمّد بن عليٍّ الرضا عليه السلام وفيه ١٠٩ أحاديث.

أنَّه من ولد أبي الحسن عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام وفيه ١٠٧ أحاديث.

الملحق رقم (٢٤) من صفحة ٣٩٥

الشيخ الصدوق، كمال الدين: ج١ ص ٤٣٥ والأمالي ص ٥٤١، والشيخ الطوسي، الغيبة: ص ٣٥٧.

إليك بعضهم:

فمن الوكلاء: من بغداد: العمري، وابنه، وحاجز، والبلالي، والعطّار، ومن الكوفة: العاصمي، ومن أهل الأهواز: محمّد بن إبراهيم بن مهزيار، ومن أهل قم: أحمد بن إسحاق، ومن أهل همدان: محمّد بن صالح، ومن أهل الري: البسّامي، والأسدي (محمّد بن أبي عبد الله الكوفي). ومن أهل آذربيجان: القاسم بن العلاء، ومن أهل نيسابور: محمّد بن شاذان.

ومن غير الوكلاء:

من أهل بغداد: أبو القاسم بن أبي حليس، وأبو عبد الله الكندي، وأبو عبد الله الجنيدي، وهارون القزّاز، والنيلي، وأبو القاسم بن دبيس، وأبو عبد الله بن فروخ، ومسرور الطبّاخ مولى أبي الحسن عليه السلام، وأحمد ومحمّد ابنا الحسن، وإسحاق الكاتب من بني نوبخت وغيرهم، ومن همدان: محمّد بن كشمرد، وجعفر بن حمدان، ومحمّد بن هارون بن عمران، ومن الدينور: حسن بن هارون، وأحمد بن أُخَيَّة، وأبو الحسن، ومن أصفهان: ابن باشاذالة، ومن الصميرة: زيدان، ومن قم: الحسن بن النضر،

ومحمّد بن محمّد، وعلي بن محمّد بن إسحاق، وأبوه، والحسن بن يعقوب، ومن أهل الري: القاسم بن موسى، وابنه، وأبو محمّد بن هارون، وعلي بن محمّد، ومحمّد بن محمّد الكليني، وأبو جعفر الرفّاء، ومن قزوين: مرداس، وعلي بن أحمد، ومن نيسابور: محمّد بن شعيب بن صالح، ومن اليمن: الفضل بن يزيد، والحسن بن الفضل بن يزيد، والجعفري، وابن الأعجمي، وعلي بن محمّد الشمشاطي، ومن مصر: أبو رجاء وغيره، ومن نصيبين: أبو محمّد الحسن بن الوجناء النصيبي، كما ذكر أيضاً من رآه عليه السلام من أهل شهرزور، والصيمرة، وفارس وقابس، ومرو.

المحتويات